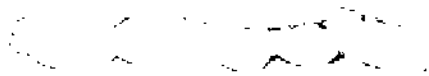


١٢٢  
١٢٢٠  
١٢٢٠

” بسم الله الرحمن الرحيم ”

الجامعة الأردنية

كلية الدراسات العليا



رسالة دكتوراه

الشعري في بلاد الشام والجزيرة من قيام الدولة العباسية

حتى نهاية القرن الثالث الهجري

إعداد

ياسين يوسف عايش خليل

إشراف

الأستاذ الدكتور محمود السمرة

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات نيل درجة الدكتوراه

في اللغة العربية بكلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية

١٩٩٠ م / ١٩٩١ م

” نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ٢٠/٤/١٩٩١ وأجيزت ”

التوقيع

محمد

عبدالله

عبدالله

الأستاذ الدكتور محمود السمرة رئيساً

الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد عضواً

الأستاذ الدكتور احسان عباس عضواً

الأستاذ الدكتور نصرت عبد الرحمن عضواً

إهداء

إلى من حملوا معي مشاق حروف هذه الدراسة.....

صابرين أو مكرهين على الصبر.....

إلى زوجتي وأبنائي.....

أهدي إليهم جهدنا المشترك.....

فرحة لعلها تحو التعب.....

شكر وتقدير

صاحب هذه الدراسة مدين للأستاذ العلامة الدكتور

إحسان عباس، ينسأ بطوى به عنقه على مدى الإهتمام على

ما أسهغه عليه من أيادي فضله ورعايته وتوجيهاته

السديدة حتى استوت على هذا النحو

فلمنك يا شخي الشكر كله والتقدير.

فهرس المحتسوى

<u>الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
١ - ١	مقدمة
١٠ - ٦٦	<u>الباب الأول</u> : الحياة السياسية والإدارة والعمران والثقافة في الشام والجزيرة
١١ - ٣١	الفصل الأول: الحياة السياسية في بلاد الشام والجزيرة:
١١ - ٢٢	أ- الفتن والثورات الداخلية
٢٣ - ٣١	ب- الحروب الخارجية
٣١ - ٢٩	الفصل الثاني: النواحي الإدارية والمالية
٤٠ - ٤٥	الفصل الثالث: في النواحي العمرانية
٤٦ - ٦٧	الفصل الرابع: الحياة الثقافية
٦٧ - ٣٣٤	<u>الباب الثاني</u> : ميادين الشعر في الشام والجزيرة
٦٧ - ٧٦	تمهيد
٧٧ - ١٣٧	الفصل الأول: الشعر والصراع الداخلي:
٧٧ - ٨٩	١- الشعر والصراع بين الأمويين والعباسيين
٩٠ - ١٣٧	٢- الشعر والفتن والثورات الداخلية:
٩٠ - ١٠٢	أ- ثورة أبي العميطر
١٠٢ - ١٠٣	ب- حركة الغديني
١٠٣ - ١٠٥	ج- ثورة العبرق اليمني
١٠٥ - ١٠٨	د- الفتن في حمص
١٠٨ - ١٢٠	هـ- فتنة أبي الهيثم
١٢١ - ١٣٧	و- ثورات الجزريين
١٣٨ - ١٤٨	٣- الشعر في الصراع بين العباسيين والطورونيين

١٧٨ - ١٤٩	المقتل الثاني : الشعر والصراع الخارجي :
١٥١ - ١٥٠	أ - بين المسلمين والروم في القرن الثاني الهجري
١٧٨ - ١٥٢	ب - بين المسلمين والروم في القرن الثالث الهجري :
١٥٤ - ١٥٢	١ - المظهر الديني للصراع
١٥٩ - ١٥٤	٢ - مشكلات كانت تعرقل حركة الجيش الفعازي
١٦١ - ١٥٩	٣ - حماية الثغور
١٧٢ - ١٦١	٤ - الاعلاء من شأن القيادات الإسلامية وتصوير المعارك
١٧٥ - ١٧٣	٥ - مفاداة الأسرى وتبادل الرسائل
١٧٨ - ١٧٥	٦ - السبايا
٢٤٩ - ١٧٩	الفصل الثالث : ميادين الشعر الوجداني :
١٩٨ - ١٧٩	١ - الوصف والحنين
٢١٨ - ١٩٩	٢ - الرثاء
٢٣٢ - ٢١٩	٣ - الغزل
٢٤١ - ٢٣٣	٤ - الفخر
٢٤٩ - ٢٤٢	٥ - النقد الاجتماعي والهجاء
٢٦٥ - ٢٥٠	الفصل الرابع : الشعر في نظرة المذاهب :
٢٦٢ - ٢٥٠	١ - التشيع في الشعر الشامي
٢٦٥ - ٢٦٣	٢ - الزهد والتصوف في الشعر الشامي
٣٢١ - ٢٦٦	الفصل الخامس : دراسة لبعض شعراء الشام :
٢٨٣ - ٢٦٦	أ - ديك الجن الحمصي
٢٩٠ - ٢٨٤	ب - عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي

الصفحة

الموضوع

٢٩١ - ٣٠٤

ج - محمد بن يزيد الحصني

٣٠٥ - ٣١٠

د - الحسين بن علي التميمي الأنطاكي

٣١١ - ٣١٥

هـ - محمد بن أبي زرعة الدمشقي

٣١٦ - ٣٢١

و - الحلبي

٣٢١ - ٣٢٤

خاتمة : هل يمكن بناء مذهب شامي في الشعـر ؟

٣٣٥ - ٣٥٨

المصادر والمراجع :

الشعرني بلاد الشام والجزيرة  
من قيام الدولة العباسية حتى نهاية  
القرن الثالث الهجري



## المقدمة

لطالما استوقفتني في أثناء إعدادي لبحوثٍ كتُّ أكلف بها في دراساتي الجامعية عبارة تتحدث عن طريقة الشاميين في الشعر، فأتساءل بيني وبين نفسي: هل تميز الشعراء الشاميون بطريقة خاصة بهم؟ وإذا كان الأمر كذلك فما تلك الطريقة؟ ولعل هذه العبارة المبهمة كانت من أكثر الحوافز في توجيهي لدراسة الشعر الشامي في الحقة الممتدة من سنة ١٣٢٢هـ / ١٩٤٩م - ١٣٩٢هـ / ١٩٠٤م. وثمة عامل آخر أغرائني بدراسة هذا الشعر وهو أن الدارسين المحدثين لم يولوا الأدب في الشام والجزيرة في هذه الحقة عناية تذكر، وظل مدار اهتمامهم منصباً على دراسة بعض الأعلام كدراستي خليل مردم بك التعريفيتين "شعراء الشام في القرن الثالث الهجري" (١) و"الشعراء الشاميون" (٢)، إذ عرف في الأولى بأربعة من شعراء الشام هم العتابي وديك الجسن الحمصي وأبو تمام والبحتري، في حين عرف في الثانية بعدد آخر من شعراء الشام عاشوا في أزمان متباعدة، ولم يكن بينهم من شعراء الحقة الأولى بعد تولي العباسيين للحكم سوى عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي، ومثل هذا يقال أيضاً عن دراسة عمر موسى باشا التعريفية في كتابه "الأدب في بلاد الشام من العصر الإسلامي وحتى نهاية العصر العباسي" (٣). فقد أتى فيه على التعريف ببيضة وأربعين شاعراً وكاتباً شامياً، ناقلاً كثيراً من مادة كتابه في حديثه عن شعراء الشام فسي القرنين الثاني والثالث الهجريين عن دراستي خليل مردم بك السابقتي الذكر، ولم يضاف إلى مساجاء به خليل مردم بك شيئاً يذكر. وقد انصرف فريق آخر من دارسي الشعر الشامي إلى إقتراد دراسات مستقلة قائمة في ذاتها تتناول كل دراسة علماً واحداً من أعلام الشعر الشامي، ومنهم يوسف بكار في دراسته عن ربيعة الرقي (٤)، وناصر حلاوي في دراسته للعتابي (٥)، والطيب العشاش في دراسته لمنصور النميري (٦).

- (١) خليل مردم بك: شعراء الشام في القرن الثالث الهجري، مجلة المجمع العربي بدمشق، المجلد الخامس، ١٩٢٥.
- (٢) خليل مردم بك: الشعراء الشاميون، تحقيق عدنان مردم بك، دار صادر، بيروت.
- (٣) عمر موسى باشا: الأدب في بلاد الشام والجزيرة من العصر الإسلامي وحتى نهاية العصر العباسي، ط ١، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٨٦.
- (٤) يوسف بكار: شعر ربيعة الرقي، جمع وتحقيق ودراسة، ط ٢، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٤.
- (٥) ناصر حلاوي: العتابي حياته وما تبقى من شعره، المرقد، السنة الثانية، العدد الثالث، ١٩٦٩.
- (٦) الطيب العشاش: شعر منصور النميري، دار المعارف للطباعة، دمشق، ١٩٨١.

أما الطائيان الكبيران أبو تمام والبحثري فالدراسات عنهما كثيرة قديمة ————— و حديثة، وهي دراسات تنصب في مجملها على الموازنة بين مذعبيهما في الغالب الأعم، وقلما أعار الدارسون اهتماماً خاصاً بشأمتيهما وأثرهما فيهما، وما ورد في بعض تلك الدراسات عن أثر البيئة الشامية في شعرهما، لم يكن يزيد على التعمات جزئية عابرة. ومن تلك الدراسات كتاب نجيب محمد البهيتسي: "أبو تمام الطائي حياته وحياة شعره" (١)، ودراسة عبد القادر الرباعي "الصورة الفنية في شعر أبي تمام" (٢) ودراسة أحمد بدوي عن البحثري (٣).

ولكي يتحقق لي ما أريد من رصد للمؤثرات السياسية والثقافية والعمرائية في الشعر الشامي بعمومته لا بخصوصية أفرادها كما صنع جل أولئك الدارسين، ولكي يتحقق لي النظر أيضاً في أشعار شامية أخرى كثيرة تولدت في البيئة الشامية ونوه بنا كثير من القدامى وأغفلها المحدثون كلهم أو جلهم، كان لا بد من أن تكون مساحة الدراسة أفقية وعمودية في آن معاً، فكان أن اتخذت "الحياة الأدبية في بلاد الشام والجزيرة من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الثالث الهجري عنواناً لموضوع صالح للدرس الأدبي الأكاديمي، ثم عرضت أمر ما توضح لدي عن شعر هذه الحقبة وشعرائها والتصاقهما — أعني الشعر والشعراء — بمجمل أحداث العصر والبيئة وتفصيلاتها في كثير من الأحيان، على أستاذي الدكتور محمود السرة، فتلطف مشكوراً بقبول الإشراف على البحث وصاحبته، وقد عداني بفكر العالم وعمدو الباحث إلى كثير من مصادر الدراسة، وبصرتي بمحاذيرها، وبخاصة ما يتعلق منها بقضية عدم ارتباط شعراء الأمصار الإسلامية في تلك الحقبة بمصر دون مصر، ومن ثم صعوبة استيضاح أثر البيئة الواحدة في الشاعر. وبعد أن توضحت الجوانب التي ستشملها هذه الدراسة أنن — حفظه الله — بأن أجعل البيئة الشامية والجزرية وشغورهما هي المنطلق لدراسة الشعر الذي نظمه شعراء نَصَّ القدماء بدقة على شأمتهم، ولذلك نحيت جانباً الشعر الذي لزم يرتبط بالبيئة الشامية والجزرية وأحدهما، وإن قاله شعراء شاميون أو جزيريون أصلاً (إذ قالوه خارج بيئتهم) إلا ما كان من هذا الشعر يمثل الشوق والحنين إلى الشام وربوعها، أو ما كان في وصف

(١) نجيب محمد البهيتسي: أبو تمام الطائي حياته وحياة شعره، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٢.

(٢) عبد القادر الرباعي: الصورة الفنية في شعر أبي تمام، ط ١، جامعة اليرموك، إربد، ١٩٨٠.

(٣) أحمد أحمد بدوي: حياة البحثري وفنه، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

معارك المسلمين مع الروم في ما وراء الدروب ، لأن الإغتراب كان يحفز القرائح على استحضار صور  
مراع الصبا والشباب إلى النفوس الشاعرة ، فظلوا وعم البعيدون عنها ، يحيون فيها بخيالاتهم ، وكذلك  
يقال عن الشعر الذي نظم في وصف معارك المسلمين مع الروم في الشغور ، إذ الشغور جزء من الشام  
والجزيرة ، وما كان لأولئك الشعراء أن ينظموا فيها لولا إحساسهم بخطر يهدد المسلمين بعامية  
وأهل الشغور بخاصة .

وقد كان من حق هذه الدراسة أن تتناول النثر الشامي والجزيري إلى جانب الشعر ، ولكن بعد  
حين من النظر المستأنى الدقيق في مصادر الدراسة الأدبية والتاريخية والثقافية تبين لي أنني لم  
أجمع مادة نشرة كافية للدرس ، إذ لم يتجمع لدي غير بعض رسائل للإمام الأوزاعي <sup>(١)</sup> ، وبعض مواعظ  
لبعض الزهاد ليست بذات غناء <sup>(٢)</sup> ، وغير نثف من بعض رسائل العتّابي في الحياة والنقد <sup>(٣)</sup> ، وغير  
نصيحة - لعلها مصطنعة - منسوبة إلى أبي تمام وجهها إلى البحري <sup>(٤)</sup> ، وأطول تلك المواد النثرية  
وأصلحها ، وهي رسائل الإمام الأوزاعي ، لا تعدو أن تكون مجموعة من النصائح والوصايا والمواعظ  
التي تغلب عليها الصبغة الفقهية ، والتوجيهات العامة في شؤون شامية كرسالته في حث المنصور  
على مفاداة أسرى المسلمين من الروم ، ونصيحته له وقد استدعاه إلى بغداد ليفيد من توجيهاته ،  
ورسالته إلى صالح بن علي العباسي ينهيه فيها عن الإساءة إلى نصارى لبنان .

وبما أن مقدار هذه المواد النثرية مجتمعة غير كاف لتقوم عليه دراسة أدبية فقد وجدت تنبي  
مضطراً إلى أن أحصر البحث في الشعر وحسب ، ولهذا غدا عنوانه : " الشعر في بلاد  
الشام والجزيرة من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الثالث الهجري .

- 
- (١) انظر جملة هذه الرسائل في : الإمام الرازي : الجرح والتعديل ، ط ١ ، طبعة مجلس دائرة  
المعارف العثمانية ، حيدرآباد الدكن ، الهند ، ١ : ١٨٧ ، ٥ : ٢٦٦ ، اليسوي : المعرفه  
والتاريخ ، تحقيق أكرم ضياء العمري ، ط ٢ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨١ ، ٢ : ٣٩١ ، ابن  
الجزيري : صفة الصفوة : تحقيق محمود فاخوري ، ط ١ ، دار الوحي بحلب : ١٩٧٣ ، ٤ : ٢٥٦ ،  
أبو نعيم الأصبهاني : حلية الأولياء ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٦ : ١٣٥ - ١٤١ .  
(٢) حلية الأولياء ، ١ : ٢٨٢ .  
(٣) انظر طائفة منها في : أحمد زكي صفوت : جمهرة رسائل العرب ، العصر العباسي الأول ،  
ط ١ ، البابي الحلبي ١٩٣٧ ، ٣ : ٤٧٤ - ٤٧٨ .  
(٤) انظر : ابن رشيح القيرواني : العمدة ، ط ٥ ، تحقيق محيي الدين عبد الحميد ، دار  
الجيل ، ١٩٨١ ، ٢ : ١١٤ - ١١٥ .

أما المصادر التي عولت عليها فهي كثيرة متنوعة وأبرزها في الأهمية "تاريخ مدينة دمشق" للحافظ ابن عساكر الدمشقي ، وقد أفدت من هذا السفر الضخم بأجزائه كلها المطبوع منها والمخطوط ، كما أفدت من تهذيبه ، فهو قد أفدت من على أشواك قتاده في المنهج وفي الخط - بمعلومات غزيرة وفريدة لم أكن لأقع عليها في غيره من المصادر الأخرى ، وبخاصة ما تعلق منها بأحداث بلاد الشام الداخلية ، وما ارتبط بتلك الأحداث من شعر نظم الشعراء الشاميون مادحين ورائين وهاجين ورازين ، ويلييه أهمية بغية الطلب " لابن العديم الحلبي الذي كان مصدراً لكثير من الأشعار والأحداث التي ارتبطت بمنطقة حلب وما جاورها من كور ، والذي قدم للدراسة فائدة جلتى في دروس بعض الشعراء الذين لم يرد لهم ذكر في غيره من مصادر الدراسة ؛ ثم كانت دواوين الشعراء الشاميين ومجاميع أشعارهم هي المصدر الثالث التي عولت عليها مستقرباً في دراسة ميادين الشعر الوجداني والمذهبي ، والشعر في الصراع مع الخوارج والفرس .

ومن المصادر المهمة الأخرى التي اعتمد عليها البحث كتب التاريخ العام ، والطبقات ، والوفيات فأفدت منها فوائد جلتى في دراسة الحياة السياسية والثقافية ، وأبرز تلك الكتب "تاريخ الرسل والملوك" للطبري ، و "وفيات الأعيان" لابن خلکان ، و "الولاء والقضاء" للكسدي .

وظلّ لكتب الأدب العامة ككتايب "الأغاني" و "العقد" ، وكتب الاختيارات لكتب الحماسات ، و "الأنوار ومحاسن الأشعار" للشهيد شاطبي ، و "جمهرة الإسلام" للشيزري ، أهمية واضحة في الوقوف على الكثير من الدقائق الخاصة بحياة بعض شعراء الشام ، أو لتضمنها كثيراً من الشعر الشامي مما لم يرد في مجاميع بعض الشعراء الشاميين .

اشتملت هذه الدراسة على مقدمة وبابين وخاتمة ، وقد تضمن الباب الأول منها أربعة فصول تحدثت في الفصل الأول منها عن الحياة السياسية في بلاد الشام والجزيرة ، وكان التركيز منصباً فيه على ما شهدته الشام بأجنادها وشغورها من أحداث دامية ، وفتن مروعة من لدن الانقلاب العباسي حتى نهاية الدولة الطولونية في مصر والشام سنة ٢٩٢هـ / ٩٠٤م ، وقد تبين في هذا الفصل أن الشام والجزيرة كانتا قليلاً ما تعرفان الهدوء والاستقرار بسبب عدم رضا الشاميين عن العباسيين وولاتهم الذين كانوا في الغالب من البيت العباسي في أول الأمر ، ومن الترك والفرس في الفترة اللاحقة . كما تبين أن الشغور كانت تشهد حروباً طاحنة بين المسلمين والبيزنطيين ، ولذلك شاعت

سياسة العفاداة بين الطرفين التي أدت إلى أن يكون لهذه السياسة رسوماً الخاصة .

وتحدثت في الفصل الثاني عن النواحي الإدارية والمالية في بلاد الشام والجزيرة فتيبين أن الخلفاء العباسيين ظلوا على منهج الخلفاء الأمويين في تقسيم الشام إلى خمسة أجناد حتى عصر الرشيد الذي أفرده العواصم عن قُسرين ، دلالة على اهتمامه بحماية حدود المسلمين فسي وجه الهجمات الرومية المتلاحقة . وقد اقتضت سياسة تحصين الثغور ، وتزويدها بالمقاتلين والمرابطين وبناء المسالج فيها أن يتشدّد العباسيون وجباة خراجهم في التحصيل ، وفي فرض قوانين إضافية لذلك، وهي قوانين كان فيها مقدار غير قليل من العسف أرفعوا معها الناس .

وسقت الكلام في الفصل الثالث على النواحي العمرانية ، وقد لوحظ أن العباسيين لم يولوا العمران في بلاد الشام والجزيرة اهتماماً كافياً ، فهم لم ينشئوا مدناً جديدة غير الرافقة ، ولكنهم اهتموا اهتماماً زائداً بتحصين الثغور ، وبنائها أو ترميمها لخايات عسكرية .

وخصت الفصل الرابع للحديث عن الحياة الثقافية وألوانها التي كانت سائدة في بلاد الشام ، وقد ظهر أن الثقافة الشامية كانت ثقافة نابغة من القرآن الكريم والحديث الشريف دائرة حولها ، وهي على وجه الإجمال ثقافة لا تنفرد عن الثقافة الإسلامية التي كانت سائدة في الأمصار الإسلامية الأخرى آنذاك ، فمُني الشاميون بعلوم الإقراء والتحديث والمنازي والسير والفقه والتفسير على اختلاف في درجات الاهتمام بهذه العلوم ، وكانت علوم المنازي والسير ألصق بهم ، وعم بها أبرز . كما عني الشاميون ببعض الضروب الثقافية الأخرى من فلك وتنجيم وطب . وبرزت دمشق وحمص وبيروت والرقّة وأنطاكية وطرسوس من بين أشهر المراكز الثقافية في بلاد الشام . ولم يظهر لمدن جندي الأردن وفلسطين مقام يذكر ، بل بدت الأردن وفلسطين كأنهما كانتا بمعزل عن التأثيرات الثقافية المعاصرة .

لقد كان اهتمامي بهذا الباب بفصوله جميعها ضرورياً للدراسة الأدبية لأن الشعر لا يدرس بمعزل عن المؤثرات السياسية والاجتماعية والثقافية والعمرانية ، بل إن كثيراً من الشعر الشامي لا يمكن درسه منقطعاً عن تلك المؤثرات .

ودرست في الباب الثاني ميادين الشعر في الشام والجزيرة ، وقد جعلته في تمهيد وخمسة فصول ، فرصدت في التمهيد حركة الشعر في بلاد الشام والجزيرة ملاحظاً أنه بينما كان الشعراء في العصر الأموي يقدون إلى قصور الخلفاء الأمويين حتى زاحوا أقرانهم من الشعراء الشاميين المقيمين ، إذا بالشعراء الشاميين في العصر العباسي يهاجرون إلى العراق يرتادون قصور الخلفاء العباسيين وأمرائهم ، فمن تعلق من هؤلاء الشعراء بأولئك الخلفاء والأمراء اشتهر وحفظ شعره ، وأما من آثر البقاء في الشام والجزيرة أو من لم يغادرها إلا لماماً فإنه قليل الشعر . ومع أن عدد الشعراء الشاميين المقيمين كان كبيراً فإن من لمع اسمه منهم وطار ذكره قليل ، وأوضح دليل على هذا الفرق من الشعراء شعراء فتنة أبي الهيثم المزي الذي زاد عددهم على الأربعة والعشرين شاعراً وراجزاً لم يظفر أي منهم بشهرة تذكر .

ثم تناولت في الفصل الأول من هذا الباب دراسة الشعر الذي قيل في الصراع الداخلي ، وجعلته في ثلاث شعب كانت الأولى في الشعر الذي نظم في الصراع بين الأمويين والعباسيين بعد مجيء الحكم العباسي ، وظهر أثر هذا الصراع جلياً في أشعار أنصار هؤلاء وأولئك قدحاً أو مدحاً أو رثاءً وتنجساً .

وتناولت في الأخرى درس الشعر في الفتن والثورات الداخلية ، إذ فجر ثورة أبي العمير السفيناني ، وحركة الفديني ، وثورة المبرقع اليماني ، وفتن أهل حمص وفتنة أبي الهيثم المزي وثورات الجزيريين الطويلة طاقات أعداد كبيرة من الشعراء الذين بدا مقدار من التميز في الرصانة والجزالة في شعرهم على الرغم من أن الكثيرين منهم لم يرو له شعر آخر غير هذا الشعر المرتبط بهذه الفتنة أو بتلك الحرب ، كأبي الهيثم نفسه وأبي العمير السفيناني عينه ، وقد لفت نظري في هذا الفصل أن شعراء شاميين مشهورين نسبياً لم ترو لهم أشعار في تلك الفتن ، مع أنهم عاصروا بعضها ، فربيعة الرقي عاصر فتنة أبي الهيثم ، وليس له فيها شعر ، وعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي ، عاصر تلك الفتنة أيضاً ، ولم يرو له فيها شعر ، وديك الجن عاصر فتناً عديدة ، ومنها فتن أهل حمص ولم يرو له فيها شعر . وقد قادتني هذه الظاهرة إلى أحد افتراضين ، فإما أن يكون أولئك الشعراء ذاتيين جداً فلم تكتمهم الأحداث الدامية الدائرة حولهم ، وإما أن يكون لهم شعر آخر ولكنه ضاع ، ولا سيما أن ليس لأي منهم ديوان مذكور في المصادر .

لقد كان لهذه الفتن الداخلية أثر في إعادة الحياة إلى نقيّ النقائص والرجز، كما كان لها أثر في تفتح قرائح عدد من النسوة الشواعر اللواتي نظمن شعراً باكياً بكا، حاراً صادقاً كباكاً، ليلي بنت طريف الشيبانية في أخيها الوليد .

ويلاحظ أنه على الرغم من أن ثورات الجزيريين كانت ثورات خواجه فإنه لم يظهر أيّ شعور مذهبي للخواجه، بل ظل الظهور في هذا الصراع من نصيب بعض الشعراء الشاميين الذين ارتبطوا بالخلفاء وحسب .

وتناولت في الثالثة قضية الصراع بين العباسيين والطولونيين الذي أثمر عن مشاركة عدد غير قليل من الشعراء الشاميين بهذا الممّ شعراً على الجملة شعر قليل الحظ من الغناء من الوجهة الفنية، لا يستثنى منه غير شعر البحري .

أما الفصل الثاني من هذا الباب فهو مخصص لدراسة الشعر والصراع الخارجي، وقد برز في هذا الضرب من الشعر الطائيان الكبيران اللذان عُنيا بإثارة المشاعر الدينية لدى المسلمين، واهتمتا بقضية تحصين الشور، وأغلباً من شأن القيادات الإسلامية، وصوّراً كثيراً من المعارك التي خاضها المسلمون، كما لم يغفلا عن تصوير المشائ والعقبات التي كانت تعترض سبيل المجاهدين في الشور، ولا عن الوقوف على قضية الأسرى وتبادل الرسائل بين قادة المسلمين وحكام الروم، وعُنيا عناية طريفة بالسبايا الروميات. وقد صاغ الطائيان في هذه القضايا أجمل قصائد عم، وكادا يبلغسان فيها حد الملحمة الشعرية. واللافت للنظر أن عدداً قليلاً من شعراء الشام والجزيرة عم الذين عنوا بهذا الصراع وتصويره، وتصوير فرحة المسلمين بالانتصارات، ولعل سبب ذلك راجع إلى أن هذين الشاعرين كانا طائيين فمدحا بعض قادة الجيوش الذين كانوا من طي، فكان ذاك لهذا من جهة، ولأن هذين الشاعرين كانا من شعراء الخلفاء فمدحا الخلفاء ببعض ما كان يعني هو، لا الخلفاء أن يظهروا به أمام عامة الناس ووعو الجهاد في سبيل الله من جهة أخرى .

ودرست في الفصل الثالث أبرز ميادين الشعر الوجداني من وصف وحنين ورتنا وغزل وفخر وهجا، وما يمكن أن يضاف إليها توسعة من نقد اجتماعي . وقد أعملت غرض المديح هنا لأن هذا الغرض ذو امتداد في الفصول الأخرى .

وقد كان هذا الفصل هو أطول فصول الدراسة ، وذلك بحكم اشتراك معظم الشعراء فسي النظم في تلك الأغراض الشعرية ، ولإكثارهم من النظم في الموضوع الواحد أيضاً . وذلك يكشف عن أن ذاتية الشعراء الشاميين كانت أبرز حضوراً من الاعتماد بقضايا الناس العامة ، ولذلك غاب عن أشعارهم وصف المدن المدمرة ، والحصون المهتمة بفعل الفتن والحروب ، أو بفعل الكوارث الطبيعية من زلازل وبراكين وأمطار جارفة ، وذلك نفسه أيضاً ما غيب عن الشعر الشامي والجزري الاعتماد بوصف العمارة وال عمران ، وما جاء منهما في كان قليلاً برز فيه بعض شعراء أنطاكية ، وعلى الرغم من هذه الأحكام فإنه يظل يسجل للشعراء الشاميين استجاباتهم لظروف الحياة ومعطيات الحضارة إن في النزل أو في الوصف أو في النقد الاجتماعي .

وخصت الفصل الرابع للحديث عن الشعر في نصرة المذاهب ، وقد انحصر هذا الفصل بدراسة بعض شعر الشاميين الشيعي والقرمطي والزعدي ، لأنه ، فيما يبدو ، لم يكن للتيارات المذمبية الأخرى من ينظم فيها ، أو يعنى بجمعها في حال نظمها ، كالذي يمكن أن يستنتج من شعر ليلسى بنت كريف الشيبانية وأخيها الوليد ، فهما على كونهما شراة لم يزؤ لهما شعر يتبدى فيه شيء من فكر الخوان .

أما الفصل الخامس والأخير من الدراسة فقد ترجمت فيه لعدد من شعراء الشام من عرفوا بالتجويد في الشعر ، ولم يدرسوا بالمرّة أو درسوا دراسات تعريفية عارضة ، وهكذا اشتمل هذا الفصل على دراسة لستة من شعراء الشام هم : ديك الجن الحمصي ، وعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي ، ومحمد بن يزيد الحمصي ، والحسين بن علي التميمي الأنطاكي ، ومحمد بن أبي زرععة الدمشقي ، وأثبت شعراً لشاعر عرف بالحلي عاصر أبا تمام ، ولم يعرف اسمه ولا كنيته على وجه التحقيق .

أما خاتمة هذه الدراسة فقد أُنثرت فيها السؤال الذي بدأت به هذه الكلمة ، أعني : هل كان للشاميين مذهب أو طريقة في الشعر ، وخلصت إلى نتيجة غير قاطعة وهي أنه يمكن استخلاص سمات عامة لشعراء الشام ، وهي سمات يصلح أن تكون في معظمها متوافرة لدى كثير من شعراء أمصار إسلامية أخرى ، وإن ظلت ألصق بالشعراء الشاميين ، ومن أهم تلك السمات : المراوحة بين السلاسة والعدوية والجزالة والرصانة في الألفاظ ، والابتعاد عن التكلف والميل إلى ما يبرز مسحة من الطبع ، وتجنب الألفاظ الوحشية ، والاقتصاد في استعمال البديع .



وواضح مما عرضت أن منهجي في هذه الدراسة هو منهج توفيق تاريخي واستقرائي فسي  
آن معاً ، فهو يرصد الأحداث التي عصفت ببلاد الشام ، ويتبين مدى تأثيرها في الشعر والشعراء ،  
وهو أيضاً ينظر في الشعر ويحاول استجلاء الظلال الاجتماعية والأحداث السياسية البارزة فسي  
مسار حركة الشعر الشامي طوال حقبة الدراسة .

والحق أنه ما كان لهذه الدراسة أن تستوي على هذا النحو بغير توفيق الله أولاً ، ثم  
بتوجيهات أستاذي المشرف الدكتور محمود السعرة ثانياً ، ثم بمواكبة الأستاذ العلامة الدكتور  
إحسان عباس لخطوات إعدادها ، ورعايته لصاحبها ، وتوجيهاته السديدة ، ومكتبته النفيسة التي  
أمدني منها بكل ما هو نفيس لازم من المصادر .

وأسأل الله سبحانه أن يكون عملي هذا مرضياً ، وأن تكون أخطائي  
فيه تليسة ، والله الموفق .

٣٩٧٢٥٢

## الباب الأول

- ١- الفصل الأول : الحياة السياسية في بلاد الشام والجزيرة من سنة ١٣٢ - ١٣٢٢هـ / ٧٤٩ - ١٠٤٠م :-
  - أ - الفتن والثورات الداخلية
  - ب - الحروب الخارجية
- ٢- الفصل الثاني : النواحي الإدارية والمالية
- ٣- الفصل الثالث : العمران
- ٤- الفصل الرابع : الحياة الثقافية

## الفصل الأول

### أ - الفتن والثورات الداخلية

كان التحول من الأموية إلى العباسية بالنسبة إلى بلاد الشام والشاميين والجزيرة والجزيريين تحولاً كبيراً خطيراً ، فعشية طرد قوة لإحلال قوة أخرى مكانها شهد سكان تلك البلاد المذابح العامة ، والتخريب الكثير الذي قد يصاحب الاجتياح الحربي أحياناً . ولم يطل الوقت حتى أدرك الشاميون أن سيادة الشام للعالم الإسلامي لم تعد قائمة ، وأنهم لم يعودوا العنصر المميز وبخاصة في الجيش والإدارة . وقد شهد ابن المقفع في رسالة الصحابة أن الشاميين حُرِّموا ما ناله غيرهم ، فجمعهم فيهم إلى غيرهم ، ونحووا عن المنابر والمجالس والأعمال ، ومنعت منهم المرافق (\*) . صحيح أن ابن المقفع يجعل ذلك معاملة بالمثل إذ كان الأمويون - فيما يقول - يعاملون الناس أيام سيادتهم كذلك . ولكن الشق الأول من القضية ثابت ، بينما الشق الثاني منها يحتمل المناقشة . ويضيف ابن المقفع أن هذه المعاملة للشاميين خلقت في نفوسهم عداوة مبررة للعباسيين ، وأنه تعبيراً عن هذه المرارة ، وعن إحساسهم بالظلم فقد حاولوا استرداد سيادة ضاعت ، فواجهوا الدولة العباسية بثورات متوالية بعد إفاقتهم من الصدمة الأولى .

وعلى طول حقبة امتدت من ١٣٢ - ٢٥٦هـ / ٧٤٩ - ٨٦٩ م حاول الشاميون استرداد سلطانهم فقاموا بثورات متتابعة ، وإن اختلفت أسبابها المباشرة باختلاف الأحداث والظروف .

وكانت الدعوة إلى الالتفاف حول رجل منقذ مظهرًا بارزاً من مظاهر رفض الشاميين للوضع القائم ، فحمل كثير من ثوراتهم شعار الدعوة إلى رجل من البيت الأموي ليعيد المجد العربي إلى سابق عهده ، وهكذا التف الشاميون حول "سفياني" ليحقق لهم ذلك الحلم ، وكان أهل قنشرين بقيادة أبي الورد الكلابي أول من ثار على العباسيين ، فشملت ثورته حوران والبثينة ودمشق وحمص وتدمر .

(\*) ابن المقفع : رسالة الصحابة في رسائل البلغاء ، تحقيق محمد كرد علي ، القاهرة ، ١٩٤٨ م ، ١٢٧ - ١٢٨ ، أحمد زكي صفوت ، جبهة رسائل العرب ، المكتبة العلمية ، بيروت ، ٣ : ٤١ .

ثم البلقاء والجزيرة . وقد رفع أبو الورد شعار البياض في مقابل السواد ، ولم يدع هذا الثائر لنفسه ، وإنما اختار للخلافة أحد أبناء يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، فبايعه الثائرون ، ولكن هذه الثورة على الرغم من اتساع نطاقها - أخذت بسهولة ، وقتل فيها أبو الورد<sup>(١)</sup> ، وكان ذلك في السنة الأولى من قيام الدولة العباسية .

ولم يمر على الشام بعد حركة أبي الورد وقت طويل من الهدوء ، ففي سنة ١٢٦هـ / ٧٥٢م انضم أهل الشام إلى عبد الله بن علي الذي أعلن أنه أولى بالخلافة من أبي جعفر المنصور ، ولعل الثغاف الشاميين حوله كان من قبيل تعلقهم بمنفذ أياً كان انتماؤه ، حتى لو كانت يده قد تلطختا بدمائهم<sup>(٢)</sup> .

ولما تمكنت جيوش المنصور من إلحاق الهزيمة بعبد الله بن علي وبأنصاره من الشاميين ، خشى رجالاتهم من بطش المنصور بهم ، فسيروا إلى بغداد وقد أعلن باسمهم التوبة ، ويطلب منه الصفح عنهم<sup>(٣)</sup> .

وبعد ما يقرب من عام من حركة عبد الله بن علي بالشام ثار الخوارج في الجزيرة بزعامه مطبند ابن حرملة الشيباني الذي تمكن من إيقاع الهزيمة بالجيوش العباسية<sup>(٤)</sup> . ولعل ثورات الخوارج في الجزيرة أن تكون امتداداً لما كانت عليه حالهم في الدولة الأموية ، فقد شهدت هذه المنطقة ثورات خارجية قامت بها بكر وتغلب بين الحين والحين وعلى مدار قرن من الزمان بدءاً بثورة مطبند ، وكان من أبرزها ثورة الوليد بن حريف الشاري<sup>(٥)</sup> في عهد الرشيد .

- (١) انظر في تفصيل أحداث هذه الثورة الطبري تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٦ ، ٧٥ : ٤٤٣ - ٤٤٨ ، وابن كثير : البداية والنهاية ، مكتبة المعارف ، بيروت ، مكتبة النصر ، الرياض ، ١٠ : ٥٢ - ٥٣ .
- (٢) انظر الطبري ٧ : ٤٧٤ ، ابن أعمش الكوفي : الفتوح ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٦م ، ٤ : ٣٨٢ ، ابن كثير ، ١٠ : ٤٥ .
- (٣) ابن عساکر : تهذيب تاريخ مدينة دمشق ، تهذيب عبد القادر بدران ، ٣ : ٤٥٣ .
- (٤) انظر في حرملة وحركته : الطبري ٧ : ٤٩٦ ، ابن كثير ، ١٠ : ٧٣ .
- (٥) انظر : الأزدي : تاريخ الموصل ، تحقيق علي حبيبة ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ٢٧٩ : المقدسي : البدء والتاريخ ، نشر كلان هوار ، باريس ، ١٩١٦ ، ١٠٢ : ٥ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء : تحقيق محمد نعيم العرقسوسي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ٨٥ : ٧٠٦ ، وانظر عن أسباب توالى ثورات الخوارج في منطقة الجزيرة : آدم متر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة محمد عبد الهادي أبي ريدة ، ط ٣ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ٢ : ٤٦ .

وكانت أشد الثورات الشامية قسوة وأبعد ما مدى ثورة أبي الهيثم المُرِّي (١٧٦هـ/ ٧٩٢م) .  
 وظاهر الحال أنها فتنة بين القيسية واليمنية ، وقد اختلفت المصادر في تحديد الأسباب التي أدت إلى  
 اشتعالها (١) . غير أن الذي يبدو من سياق الروايات التاريخية ، أن السياسة العباسية تجاه  
 بلاد الشام كانت هي المحرك في إذكاء نيران هذه الفتنة القبلية ، فقد قرب أحد ولاة العباسيين  
 بدمشق اليمنية إليه ، وتحامل على القيسية ، بل حاول إذلالهم ، فوعدت حرب طاحنة بطلها من  
 الجانب القيسي أبو الهيثم المُرِّي . وقد دخلت هذه الثورة في مراحل متعددة ، وكان أبو الهيثم يؤكد  
 في كل مراحلها إخلاصه للخليفة . ومعنى هذا انشعاب السياسة العباسية تجاه الشام في شعبيتين  
 متباعدتين : فعلى مستوى الخلافة كانت بغداد تجد في الفتنة معطّلاً عن التنبيه للشعور ، وعلى مستوى  
 الولاة المحليين كانت المكائد تستمر ، وتستمد حظها من الفرقة القبلية .

وحين بلغ الرشيد ما سفك في هذه الفتنة من دماء ، وما حرق من قرى : وما هُدم من بيوت ،  
 حرص على إطفائها لثلاث تمتد فتجرتنا أخرى . وقد أفلح أحد ولاته بالقضاء على هذه الثورة بعد  
 أن أصابت بالأضرار البالغة منطقة واسعة من أرض الشام هي دمشق والبلقاء والجولان والبقاع والأردن ،  
 وحروران وحصن فلسطين . أما أبو الهيثم الذي اقترنت هذه الفتنة باسمه فقد انتهى أمره نهاية  
 غامضة ، فبعض الروايات يقول إنه اختفى (٢) ، وبعضها يقول إنه قبض عليه في مكيدة (٣) ، وتذهب  
 رواية ثالثة إلى القول إنه قتل وتفرق عنه أعوانه (٤) .

وما كادت ثورة القيسية تطفأ في سنة ١٧٧هـ / ٧٩٣م ، حتى عادت لتشتعل من جديد  
 معارك بين القيسية واليمنية في عام ١٨١هـ / ٧٩٦م ، وكانت حصن بوزرتها (٥) ، فسير الرشيد إلى

- (١) انظر في ذلك روايات ابن عساكر عنها في : تاريخ مدينة دمشق : تراجم حرف العين المتلوة  
 بالألف ، تحقيق شكري فيصل ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ٣٩٣ - ٤٢٦ ، ابن  
 خلدون : العبر ، مؤسسة جمال للطباعة ، بيروت ، ١٩٧٩م ، ٣ : ٢١٦ .  
 (٢) انظر : الأزدي : تاريخ الموصل ، ٢٧٩ ، ابن العديم : مصورة بغية الطلب ، ٢ : الورقة ٢١٥ .  
 (٣) انظر ابن عساكر : تراجم حرف العين المتلوة بالألف ، ٤١٥ .  
 (٤) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، دار صادر ، بيروت ، ٢ : ٤١٠ .  
 (٥) انظر : اليعقوبي ، ٢ : ٤١٠ ، الجهشياري : الوزراء ، الكتاب ، حققه مصطفى السقا  
 وآخران ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٣٨ ، ٢٠٨ .

العقتلين من قيس وبن جعفر بن يحيى البرمكي الذي أفلح في إصلاح ذات البين ، ثم نزع من القوم السلاح في إجرا فريد من نوعه في ذلك الزمان <sup>(١)</sup> . ولعل هذه الفتن الشامية والجزرية المتلاحقة هي التي حفزت الرشيد مع أسباب أخرى - على الانتقال إلى الرقة والإقامة فيها <sup>(٢)</sup> . ويبدو أن إقامة الرشيد بالرقة قد أثمرت في التقليل من حدة الفتن ، فلم يظهر شي منها في أرض الشام إلا في سنة ١٨٧هـ / ٨٠٢م ، حين اقتتل اليمنيون والقيسيون مرة أخرى في دمشق ، فأرسل الرشيد أحد رجاله وأمره أن يتكفل بدفع ديات القتلى من بيت مال دمشق <sup>(٣)</sup> .

ومن سياق هذه الإجراءات يتضح أن الدولة العباسية كانت تتفعل على خلاف مواقف ولاتها في سياستهم ، فالأمر المعينون على بلاد الشام لم يحسموا خلافاً ، بل كان حسم الخلاف الناشب يقوم على عاتق مبعوثين يرسلهم الخليفة ، لا يستثنى من ذلك غير إبراهيم بن شكلة <sup>(٤)</sup> الذي ساوى بسين قيس واليمن فظفر برضاهم جميعاً عنده .

وإذا كانت فتنة أبي الهيثم وما تلاها من فتن بين قيس وبين قيس قد لبست زي العصبية القبلية ، فإنه لم يكن هذا هو شأن كل الثورات في الشام . بل إن البداية التي بدأها أبو الورد الكلابسي استمرت ، فقام أبو العميطر علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية (١٩٥-١٩٨هـ / ٨١٠-٨١٣م) يدعو إلى رفض العباسية ، وينادي بفكرة "السفياني المنتظر" <sup>(٥)</sup> . وكان هذا الثائر ينتسب من جهة أبيه إلى معاوية بن أبي سفيان ، ومن جهة أمه إلى علي بن أبي طالب . وقد قدر أن هذا النسب سيجمع حوله الأتباع من كل جهة . غير أنه وقع في خطأ جسيم عندما اعتمد على كلب (أو اليمانية) ، وإذ فإنه كان لديه من الخصائص ما يجمع حوله الأنصار ، فبالإضافة إلى النسب كان عالماً مسرموقلاً ،

- (١) انظر: الطبري ٨: ٢٦٢ ، اليعقوبي ٢: ٤١٠ .
- (٢) الطبري ٨: ٢٦٦ ، ابن كثير ١٠: ١٧٥ .
- (٣) انظر: ابن عساكر : صورة تاريخ مدينة دمشق ٨: ٧٥ .
- (٤) هو إبراهيم بن المهدي المعروف بـ"شكلة نسبة إلى أمه ، انظر أخباره في : الأغاني : أبو الفرج الأصفهاني ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ١٠: ٩٥-١٤٩ ، وانظر خير ولايته على الشام وما رافقها من استتباب الأمن فيها مدة ست سنين تقريباً : تهذيب ابن عساكر ٢: ٢٦٦-٢٧٢ .
- (٥) أخبار ثورة أبي العميطر في : صورة تاريخ مدينة دمشق ١٢: ٤٤٧ ، ابن خلدون ٣: ٢٣١ سير الذهبية ٩: ٢٨٤-٢٨٦ . وانظر في فكرة السفياني المنتظر : محمد كرد علي : خطط الشام ، ط ٢ ، بيروت ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م ، ٢: ١٤٨ ، فتحي عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ٢: ١٣٧ .

وكان له تلاميذ كثيرون ، كما كانت سنة تبعده عن الخفة والطيش ، والظروف المواتية بسبب الخلاف الشديد بين الأمين والمأمون . وهكذا نجحت ثورته أول الأمر ، فوزع العمال على المدن الشامية . ولكن تفرغ المأمون للثورة ، واستبعاد أبي العميصر للقيسية ومعاداته لها عجل في نهايتها . وتمكّن أحد قادة المأمون من القضاء عليها ، بعد أن أفسد على أبي العميصر الجو السياسي فنصب من المروانية خصماً لهذا السفيناني عندما قرب إليه مروانياً يدعى مسلمة بن يعقوب المرواني ، وبذلك استطاع الانتصار على هذا الثائر بعد أن كانت ثورته قد عمت أهل الغوطة وحصن وحبلس والسواحل .

وبعد أبي العميصر قام بالثورة على العباسيين داعية جديد يعرف بالفديني (نسبة إلى الفديين وهي قرية لعلها مدينة المفرق الأردنية اليوم) <sup>(١)</sup> واسم هذا الثائر هو سعيد بن خالد بن محمد ، من نسل عثمان بن عفان ، وزعم أنه السفيناني المنتظر غير أن الفديني وقع في الخطأ الذي وقع فيه من قبله أبو العميصر ، فاعتمد على اليمنية ، وأخذ يغير على المواقع القيسية ، وانضم إليه بعض المغنطانيين والأمويين ، وقلول أنصار أبي العميصر الفارين من دمشق حتى صار معه زهاء عشرين ألفاً . غير أن عسكر القيسيين المدعومين بجند العباسيين خرب حصن زيزيا ، وحصر الفديني في حُصْبَان فتخلّى عنه أتباعه . ثم تسكت المصادر عن ذكر أية تفاصيل أخرى بعد ذلك <sup>(٢)</sup> ، مما قد يعني أنه اختفى ، ولم يعد له أثر يذكر .

وتعد ثورة نصر بن شبث العقبلي من ذبول الخلاف بين الأمين والمأمون ، وكان على الشام آنذاك عبد الملك بن صالح بن علي الهاشمي . وقد ولّاه الأمين عليها ليقف في وجه قائد المأمون طاهر بن الحسين . وجمع عبد الملك رؤساء الشام ، وكلفهم إعداد جيش كبير لمواجهة طاهر بن الحسين ، فاجتمع لديه جيش كبير قوامه من الزواقل - وهم قوم بناحية الجزيرة - <sup>(٣)</sup> ، والأبنا من الجند الخراساني ، وأعراب من الشام وبخاصة من كلب . وهي عناصر من الصعب تألفها ، ولهذا سرعان ما افتترقت واقتتلت ، وانسحب أعراب الشام من الجيش بعد أن اقتتل الزواقل والأبنا ، وبعد

(١) الفديين : قرية من قرى حوران ، (معجم البلدان : مادة الفديين) .  
(٢) انظر في أخبار ثورته في : مصورة تاريخ مدينة دمشق ، ٧ : ٢٧٧ . معجم البلدان (الفديين) .  
(٣) قال ذلك ابن دريد ، انظر : الزبيدي : تاج العروس ، دار ليبيا للنشر والتوزيع ، بنغازي ٣٥٨ : ٧ .

أن ثبَّط زعيم من زعماء كلبٍ عَصَم أتباعه بقوله: "يا معشركلب ، إنما الراية السوداء" ، والله ما ولَّست . . . . ولا نذل ناصرها . . . . وإنكم لتعرفون مواقع سيوف أهل خراسان في رقابكم . . . . شَأْكُمْ شَأْكُمْ . . . . الموت الفلسطيني خير من العيش الجزري ، ألا وإنِّي راجع ، فمن أراد الانصراف فليُنصِرَفْ معي <sup>(١)</sup> .

ثم زاد الأمر سوءاً بموت عبد الملك بن صالح ، وكان نصر بن شيبث زعيماً للزواقيل فأصر على متابعة التصدي لجند طاهر الزاحف ، وكان يدفعه إلى ذلك رفضه لسياسة المأمون القائمة على تقديم العناصر الفارسية في الدولة ، وكأنه أراد بهذه الحركة تصحيح موقف العباسيين من العرب ، ويستبدل على ذلك من قوله ، وقد عرض عليه أنصاره أن يسمى لحركته خليفة: "إنما هوأى في بني العباس ، وإنما حاربتهم محاماةً عن العرب ، لأن بني العباس يقدمون عليهم العجــم <sup>(٢)</sup> .

وقد استمرت ثورة نصر حتى سنة ٨٢٠٩ / ٨٢٤ م ، وفيها هزمه عبد الله بن طاهر بعد أن حصره في حصن كيِّسوم ، وقيل بالأمان لقا الصفا عما أسلفــ <sup>(٣)</sup> .

وفي عهد المعتصم وفي سنة ٨٢٢٧ / ٨٤١ م عاد أهل الشام إلى القول بظهور السفيناني ، وذلك في شخص أبي حرب اليماني الذي لقب بالبرقع <sup>(٤)</sup> . وتعدَّ ثورته بحق ثورة الفلاحين ، فقد بلغ أتباعه مائة ألف كان أكثرهم منهم . وكان أبو حرب ينياً لا سفينانياً ، وكان يضع على وجهه برقعاً تنكراً ، لأنه ، فيما يقال ، كان فاراً من الدولة لجريمة ارتكبها . وكان موطن هو "الأثارين هـــــــــــــــــــــ الأردن وفلسطين . غير أن القضاء على ثورة البرقع لم يكن يحتاج إلى استعدادات عسكرية كبرى .

(١) الطبري ٨ : ٤٢٧ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) انظر في أخبار حركة نصر : الطبري ٨ : ٤٢٦ ، وما بعدها ، وانظر ٥٩٨ - ٦٠١ أيضاً ، ابن اعثم : الفتوح ٤ : ٤٥٠ ، معجم البلدان ( كيسوم ) ، وكيسوم قرية مستطيلة من أعمال سمرقند وكان بها الحصن الذي تحصن فيه نصر بن شيبث أيام حربه مع المأمون .

(٤) أخبار ثورته في الطبري ٩ : ١١٦ - ١١٨ ، ابن الأثير ، الكامل ، دار الفكر ، بيروت ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ، ٥ : ٢٦٤ ، وقد وهم زكي المحاسني في كتابه شعر الحرب في أدب العرب ( طبعة دار الفكر العربي ١٩٤٧ ) ، فظن أن البرقع اليماني قرمطي . انظر ص ١٣٩ من كتابه ، حيث يقول : " وظهر من القرامطة منقح آخر في فلسطين أيام المعتصم كنيته أبو حرب . . . . . وكان أموياً فزعم لجمعه أنه السفيناني المنتظر . . . . . "



إذ كان يكفي الإدراك النابه الذي أدركه رجاء بن أيوب الحضاري قائد جيش المعتصم ، إذ تروى ، ولم يواقع المبرقع حتى حان موسم حراثة الأرض ، فانصرف عن المبرقع أتباعه لحراثة أراضيهم ، فأطبق عليه وعلى من بقي معه رجاء ثم أسره ، وأخذه إلى سامراء<sup>(١)</sup> ، مع زعيم قيسي كان قد ثار في الوقت نفسه في دمشق بعد مقتل خمسة آلاف من أتباع هذا الثائر الدمشقي<sup>(٢)</sup> .

وفي عهد المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧هـ / ٨٤٦ - ٨٦١م) قامت ثورات عدة في المدن الشامية ، بدأت بحمص<sup>(٣)</sup> ، ويبدو أن المسلمين والنصارى كانوا يداً واحدة في هذه الثورة ، ولهذا أمر المتوكل بإخراج جميع النصارى من المدينة ، وأن تخرب كنائسهم ، ويضرب رؤسائهم حتى الموت .

ويبدو أن سبب اشتراك نصارى حمص في هذا التمرد كان من قبيل رد الفعل على الإجراءات الصارمة التي كان المتوكل قد أخذ بها النصارى في أ. خلافته كلها<sup>(٤)</sup> ، تلك الإجراءات التي بدى بتنفيذها سنة ٢٢٥هـ / ٨٤٩م .

وحدث في عهد المتوكل شغب كبير في دمشق نزل فيه الدمشقيون أميراً وعددًا من أصحابه ، فأثار ضيعهم هذا حنق المتوكل عليهم ، وتهدهم ، ثم سير إليهم جيشاً ضخماً بقيادة أنريدون التركي ، وأباح له المتوكل القتل في دمشق يوماً ، والنهب ثلاثة . ولكن هذا القائد مات على أبواب دمشق ، فانصرف الجيش راجعاً إلى العسراق<sup>(٥)</sup> .

كان لهذه الأحداث أثر في تخوف الدمشقيين من بطشة منتظرة سيوقعها المتوكل بهم . ولكن لا يحدث ذلك ، ولكي يستميل الدمشقيون المتوكل إليهم فقد صنف محمد بن أبي طيفور كتاباً يشتمل

- 
- (١) الطبري ١١٦:٩ - ١١٨ ، البدء والتاريخ ١١٩:٥ ، ابن الأثير ٢٦٤:٥ ، سير النبلاء ٣٠١:١٠ ، ابن كثير ٢٩٥:١٠ ، خطط الشام ١:١٦٣ ،
  - (٢) انظر: الطبري ١١٨:٩ ، ابن الأثير ٢٦٧:٥ .
  - (٣) انظر: الطبري ١١٧:٩ - ٢٠٠ ، ابن الأثير ٢٩٣:٥ - ٢٩٥ ، ابن كثير ١٠:٣١٩ .
  - (٤) انظر في تفصيل هذه الإجراءات: الطبري ١٧١:٩ - ١٧٥ .
  - (٥) انظر: الصفدي: تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مصر ١٩٦٩ ، ٥٢٥ .

على فضائل دمشق ، وصحة عوائدها ، وعدوية مائتها ، وفيه يحضر المتوكل على الخروج إليها (١) . وفعللاً  
فقد دخل المتوكل دمشق ، وعزم على اتخاذها دار ملكه وأمر ببناء قصر له فيها .

وفي أثناء خلافة المستعين (٢٤٨ - ٢٥٣هـ / ٨٦٢ - ٨٦٧م) عاد أهل حمص إلى الثورة  
وكان زعيم الثائرين أحد شيخ كلب ، ولكن جموعه لم تصمد لجيوش بَغَا التركي (٢) .

وفي أواخر عهد المهدي وأول أيام المعتد (٢٥٦ - ٢٧٩هـ / ٨٦٩ - ٨٩٢م) ، تغلب  
عيسى بن الشيخ أبو موسى الشيباني على إمرة دمشق ، وذلك في سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٨م ، فقد سارع  
إلى خلع السواد . - شعار العباسيين ، ورفض مبايعة المعتد ، ثم ضرب عصبا مهما في اقتصاد الدولة  
العباسية عندما استحوذ على مال الشام . غير أن أماجور التركي قائد العباسيين هزمه وقضى  
على حركته (٣) .

تلك صورة لأهم الثورات المحلية التي قام بها الشاميون . ولكن بروز أحمد بن طولون فسي  
مصر قد كان ذا أثر في وضع الشام تحت عوامل سياسية جديدة ، إذ استطاع ابن طولون أن يجمع  
جزءاً كبيراً من الشام تحت إمرته . وبقيت مناطق قنسرين وديار مضر والعواصم تابعة لأحمد الموفق أخشي  
الخليفة المعتد ، وبهذا تغيرت تبعية بلاد الشام ، وأصبحت المشكلة هي كيف تستقر هذه التبعية  
على حال واحدة ، أعني : أن تكون الشام تابعة للخليفة العباسي ببغداد أم للحاكم الطولوني بمصر .  
والسبب في هذا التنازع اشتداد المنافسة بين الموفق وابن طولون . فقد كان ابن طولون على مصر  
منذ عام ٢٥٤هـ / ٨٦٨م ، وكان الموفق على ديار مضر وقنسرين والعواصم في سنة ٢٥٨هـ / ٨٧١م ، وفي

(١) انظر مصورة تاريخ دمشق ١٥ : ٤٨٥ ، ومحمد بن أبي طيفور جوجاني الاصل ، أقام في دمشق  
سنتين (من المصدر نفسه) .

(٢) انظر : الطبري ٩ : ٢٧٦ ، ابن كثير ١١ : ٦ .

(٣) انظر : الطبري ٩ : ٤٧٤ - ٤٧٥ ، الكندي : ولاية مصر ، تحقيق حسين نصار ، دار بيروت ،  
دار صادر ، بيروت ١٩٥٩ ، ٢٤١ - ٢٤٢ ، ابن سعيد الاندلسي : المغرب في حلسي  
المغرب ، تحقيق زكي محمد حسن وزميليه ، مطبعة جامعة فؤاد الاول ، ١٩٥٣ ، (الجوزة  
الاول من القسم الخاص بمصر : ٨٠) ، تهذيب ابن عساكر ٣ : ١٠١ ، وكان عيسى بن الشيخ  
الشيباني يتقلد جندي فلسطين والأردن في أيام الخليفة المهدي .

هذه السنة كتب الموفق الى موسى بن بغا أن يصرف أحمد بن طولون عن مصر لخشيته منه لما رأى كثرة أتباعه من السودان (١) . فكتب موسى بن بغا الى أما جور التركي الذي كان قد هزم عيسى بن الشيخ الشيباني في دمشق وتولى أعماله ، أن يخرج الى ابن طولون ، ولكن عجز أما جور عن ذلك ، فخرج موسى بن بغا بنفسه لملاقاة ابن طولون ولكنه أقام في الرقة وخرج ابن طولون من مصر في سنة ٢٦٤ هـ / ٨٧٧ م قاصداً الشام لملاقاة موسى ، فخضعت له الرملة ودمشق وحمص ، ولم يتأب عليه إلا سيما الطويل بأنطاكية ، فحصره ابن طولون فيها ، فاشتد ذلك على أهلها ما دفعهم الى قتل سيما ، فخضعت المدينة له ، ثم سار ابن طولون بعد ذلك الى طرسوس ، فارتد عنها بعد أن ثبتت له بقيادة أميرها المجاهد المحبوب يا زَمَان (٢) .

وكانت المرحلة الثانية في هذا النزاع بين الموفق وابن طولون هي إعلان الموفق خلع ابن طولون وتولية إسحاق بن كُدَاج على مصر ، فقام ابن طولون باستتغار الرأي العام في الشام ومصر على الموفق ، وكاتب الفقهاء والقضاة والأشراف في الشام والدور بأن الموفق خلع بيعة المعتمد مستغلاً في ذلك محاولة المعتمد اللجوء اليه بعد أن استأثر الموفق بمقاليد الحكم لما رأى أخاه الخليفة منكبا على اللهو ، فأفتاه الفقهاء بخلع الموفق (٣) .

وفي سنة ٥٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م توفي ابن طولون ، فخلفه ابنه خمارويه ، وتجدد فيعهده النزاع بين الطولونية وأحمد المعتضد بن الموفق الذي أسرع في القدوم إلى الشام ، فانضم إليه أهل الرقة وقنسرين والمواصم ، كما ملك دمشق ، فخرج إليه خمارويه بجيش عظيم في سنة ٥٢٧١ هـ / ٨٨٤ م ، والتقى الجيشان عند نهر أبي فطرس قرب الرملة من أرض فلسطين في مكان يقال له الطواحين ، وقد انهزم في هذه المعركة جيش أبي العباس أحمد بن الموفق ، فكرر راجعاً بفلول جيشه إلى دمشق ، فامتعت

- (١) انظر البلوى : سيرة أحمد بن طولون ، تحقيق محمد كرد علي ، مطبعة الترقى ، دمشق ، ١٩٣٩ هـ ، ٥٦ ، أمينة البيطار : الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام (١٢٢ - ٣٥٨) ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، ١٩٨٠ هـ ، ١٠٣ .
- (٢) انظر البلوى : ٣١٠ - ٣١٢ هـ ، وانظر : المغرب في حلى المغرب ، القسم الخاص بمصر ٨٠ - ٨١ هـ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، ٤٠ : ٣ .
- (٣) انظر : البلوى ٢٨٦ هـ ، ٢٨٩ هـ ، ٢٩٠ هـ ، ٢٩٤ هـ ، ٢٩٦ هـ .

عليه . ثم سار خمارويه إلى الرافقة فهزم فيها جيش إسحاق بن كنداج الذي فر إلى سر من رأى . فعادت معظم أرض الشام والجزيرة والعواصم إلى حكم الطولونيين (١) .

وفي سنة ٢٨٦هـ / ٨٩٩م تنازل هارون بن خمارويه عن قنسرين والعواصم بعد أن طرد أهل طرسوس زعماء الطولونية فيها ، فأقر المعتضد هارون بن خمارويه على مصر بعد أن أصرر إليه .

وفي عهد المكتفي (٢٨٩ - ٢٩٦هـ / ٩٠١ - ٩٠٨م) كانت نهاية الطولونية ، وذلك فسي سنة ٢٩٢هـ / ٩٠٤م ، وكتب الخليفة المكتفي إلى قائده الذي هزم الطولونيين ألا "يترك أحداً منهم بمصر ولا بالشام ، وأن يبعث بهم إلى بغداد" (٢) .

وكانت الشام في عهد المكتفي قد دخلت مرحلة سياسية خطيرة جديدة ، إذ ظهرت الدعوة القرمطية فيها على شكل حركة حربية سياسية على يد ريش عرف بـ "صاحب الناقة" ظهر في منطقة حمص ، وأقبل الأعراب من جند حمص على مشايخته ، وبخاصة من كلب ، وكان صاحب الناقة قد أخفق في أن يمكن لثورته في سواد الكوفة ، فانتقل إلى الشام . وهذا تحول جذري في طبيعة الثورات في بلاد الشام في فترة الدراسة ، فبعد أن كانت الثورات يقودها سفانيون ، إذأ بثورة القرامطة يقودها شخص ينتسب إلى علي بن أبي طالب ، ويبدو أن الفترة التي مرت ، بعد القضاء على الثورات السفانية وما أشبهها ، قد فتحت المجال لانتشار دعوات علوية استجاب لها الناس في البوادي (٣) ، الذين أغراعهم بعدُهم عن مراكز القوة بذلك .

واستطاع صاحب الناقة أن ينتصر على الجيوش التي وجهها حاكم الشام ، وهو يومئذ طغج بسن جف من قبل الطولونية ، بل حاصر أتباعه دمشق ، ولكن الأمداد التي أرسلت من مصر صدتهم عنها ،

(١) انظر في تفصيل ذلك : الكندي ، ولاية مصر ٢٥٨ - ٢٥٩ ، ابن كثير ١١ : ٥٧ .

(٢) الطبري ١٠ : ١١٩ ، وانظر ابن كثير ١١ : ٩٩ .

(٣) انظر في : تثبيت دلائل النبوة "للغاضي عبد الجبار من كتاب : سهيل زكار : أخبار القرامطة ط ٢ ، دار حسان ، ١٩٨٢ ، ١٤٧ .

وقتل طنج صاحب الناقصة<sup>(١)</sup> . فخلفه أخوه الذي عرف بـ "صاحب الشام"<sup>(٢)</sup> ، وأحرز صاحب الشامسة النصر في الجولات الأولى ، وكسر سائر عساكر الشام ومصر التي خرجت إليه ، وتلقب بأمير المؤمنين ، ودعي له على المنابر في حمص ، وأخذ يستولي على المدن الشامية مستعرضاً الناس بالقتل الجماعي ، في حماة ، ومعرة النعمان ، وعلبك ، وسلمية .

وفي هذه الأخيرة قتل حتى صبيان الكتائب<sup>(٣)</sup> . واستنخ الناس الخليفة العباسي ، فأرسل جيشاً زاد في أعطياته ليرغبهم في القتال بعد أن صار أمر القرامطة مرعباً مخوفاً ، وانتقل الخليفة نفسه إلى الرقة ليكون على مقربة من مسرح الأحداث ، وقام بدر الحماي صاحب ابن طولون بإنزال هزيمة كبيرة بالقرامطة قبل أن يوافي جيش العباسيين . فما أن التقى الجيش العباسي قوات القرامطة في سنة ٨٠٣ / ٤٢٩١ م في منطقة بين الرقة وحماة حتى انهزم القرامطة مرة ثانية فروا على أثرها إلى البوادي ، لكي يعسر على العباسيين ملاحقتهم<sup>(٤)</sup> .

غير أن القرامطة عادوا في سنة ٩٠٦ / ٤٢٩٤ م يشيرون الرعب في بصرى وأذرعات والبثينة<sup>(٥)</sup> ، ويقتلون ويستولون على الأموال ، وقصدوا دمشق ، فصدوا عنها ، فتحولوا إلى طبرية ، ونهبوها ، وكانوا حينئذ يعملون بقيادة قائد لهم اسمه نصر ، وحين ظهرت جيوش الخلافة في الشام لجأ القرامطة إلى بادية السماوة<sup>(٦)</sup> ، ولما أحس القرامطة أنهم محاصرون ، انقض أحد الكلبيين منهم على زعيمهم نصر وقتلوه .

وهكذا كتب للمكفي أن يشهد حدثين بارزين ظهرا في بلاد الشام هما : أنول الدولة الطولونية ، والقضاء النسبي على القرامطة . وكان انشغال الطولونيين بمحاربة القرامطة سبباً من أسباب ضعفهم ، فيسر ذلك على المكفي إنها حكمهم .

(١) انظر: صورة تاريخ دمشق ٨ : ٢٥٧ ، في ترجمة طنج .

(٢) انظر: الطبري ١٠ : ٩٦ ، ابن كثير ١١ : ٩٦ - ٩٧ .

(٣) انظر: أخبار القرامطة لثابت بن سنان من كتاب سهيل زكار ١٩ - ٢١ .

(٤) انظر: أخبار القرامطة ٢٣ ، الطبري ١٠ : ١٠٤ .

(٥) بصرى مدينة في جنوب سوريا اليوم (معجم البلدان : بصرى) ، وأذرعات هي درعا اليوم .

والبثينة وتسمى البثنة أيضاً قرية بين أذرعات ودمشق ، معجم البلدان .

(٦) بادية بين الكوفة والشام ، ياقوت (سماوة) .

(\*)

ما تقدم نرى أن الشام توالى عليها ولاية عباسيون منذ بداية الدولة ثم وليها منذ عهد الرشيد ولاية من الفرس من أسرة آل برمك ، وتعاقب عليها ولاية كانت غالبيتهم من الترك منذ حكم الواثق ، وفسى عهد هو "الولاية تعمقت الخلافات العصبية بين عرب الشام من قيسويين ، ولكن ، على الرغم من هذه الخلافات ، لم ينس الشاميون أن يلجأوا إلى الثورة باسم "السياني المنتظر" أو غيره لاستعادة الماضي . غير أن تباعد هذه الثورات ، وضعف قاعدة كل منها أدى إلى إخفاقتها ، فبدأ الحلم الجميل مستعصياً على التحقيق ، ثم كان دور السيادة الطولونية في مصر ، والنزاع بين الطولونيين والعباسيين واتخاذ الشام مجالاً للتحركات العسكرية ، هذا النزاع أدخل عنصراً جديداً في حياة الشام ، وصرفها عن الثورات المحلية . فكان ظهور القرامطة هو العنصر الأقوى ، إذ اقترن ظهورهم بالأعمال الدموية فصرف الناس عن كل شيء ، سوى التفكير في السلامة الذاتية .

(\*) انظر المسرد الممثل لولاية العباسيين على الشام في : اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ٢ : ٣٨٤ ، ابن العديم : زبدة الحلب ، تحقيق سامي الدهان ، دمشق ١٩٥١ ، ١ : ٥٩ ، خـ طط الشام ١ : ١٨١ .  
ففي هذه المصادر إشارات كافية إلى اختصاص البيت العباسي بولاية الشام فقد تولى عبد الله ابن علي على الشام ثم تلاه عليها صالح بن علي العباسي ، وتولى هذا أيضا على قنسرین والعواصم ، وولي العباس بن محمد على الجزيرة ، وعبد الله بن صالح على حمص ، والفضل ابن صالح على دمشق ومحمد بن إبراهيم على الأردن ، وعبد اللوهاب بن إبراهيم على فلسطين والفضل بن صالح على حلب وقنسرین ، وانظر ولاية الجزيرة في عهد المهدي ، مصورة تاريخ دمشق ١٤ : ٢٣٢ ، ترجمة الفضل بن صالح العباسي المتوفى سنة ١٧٢ هـ .

## ب - الحروب الخارجة

شهدت الحدود الإسلامية البيزنطية في الفترة الممتدة من سنة ١٣٢ هـ - ٢٩٤ هـ نزاعات كانت تشتد حيناً وتخبو أحياناً أخرى ، وكان الانتصار والانكسار في هذه الحروب سجلاً ، وكان تبادل الأسرى سياسة متفقاً عليها بين الدولتين ، كما كانت المفاداة أمراً تفرضه الحرب .

وكانت أول حملة عباسية على الروم سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م قام بها صالح بن علي على جند الشام ، والعباس بن محمد على جند خراسان <sup>(١)</sup> . وفي السنة التالية تمت المفاداة الأولى للأسرى بعد أن كان المنصور قد رفض أن يقوم بها ، لأن أهل الشغور رفضوا مساعدته في ثورة النفس الزكية <sup>(٢)</sup> ، ولكنه عاد فوافق على إجراؤها المفاداة بعد أن كتب إليه الإمام الأوزاعي رسالة يحثه فيها على المفاداة ، لأن الله استرعه أمر الأمّة <sup>(٣)</sup> .

وكانت أول غزوة حقيقية للمسلمين على الروم في عهد المنصور هي الغزوة التي كان قائدها معيوف بن يحيى الحجوري ، وذلك في سنة ١٥٢ هـ / ٧٧٠ م ، فتح فيها معيوف حصناً رومياً وسبى من فيه ، ثم فتح اللاذقية واستاق من فيها من المقاتلة <sup>(٤)</sup> .

وفي عهد المهدي كانت أكبر حملة على الروم هي الحملة التي قادها الحسن بن قحطبة الطائي الذي بث الرغب في صفوف الروم بكثرة ما فتح ، وما سبى ، حتى لقد سمته الروم بالتبسين <sup>(٥)</sup> .

وبرز الرشيد قائداً مرهوباً مظفراً في خلافة أبيه المهدي ، وكانت أبرز حملة قادها فسي خلافة أبيه غزاته التي وقعت في سنة ١٦٥ هـ / ٧٨٢ م ، إذ دخل هرون بلاد الروم حتى بلغ القسطنطينية ، واضطرت ملكة الروم أن تطلب الصلح ، وأن تعرض عليه مفاداة الأسرى ، فقبل ذلك هرون بعد أن كان

(١) اليعقوبي ٣ : ٣٩٠ ، ابن العديم : بغية الطلب ١ : ٥٩ .

(٢) هو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الذي خرج بالمدينة ، وقتل في سنة ١٤٥ هـ . الطبري ٧ : ٥٥٢ - ٦٠٩ .

(٣) انظر هذه الرسالة في : حلية الأولياء ٦ : ١٣٥ .

(٤) الطبري ٩ : ٢٨٤ ، ابن الأثير ٥ : ٢٤٦ .

(٥) اليعقوبي ٢ : ٤٠٢ ، الطبري ٩ : ٣٢٦ - ٣٤٢ ، ابن الأثير ٦ : ١٥ - ٢١ .

المسلمون قد قتلوا وأسروا أعداداً كبيرة من الروم ، وبعد أن غنموا غنائم كثيرة من الدروع والبغسال والبراذين بيعت في أسواق المسلمين بأبخس الأثمان (١) .

ولما صار الرشيد خليفة أخذ يقود الكثير من الغزوات بنفسه ، كهيادته لغزوة سنة ١٨١هـ / ٧٩٧م ، التي فتح فيها حصن الصَّفَّاف بمنطقة الصَّيِّمَة (٢) .

وفي سنة ١٨٧هـ / ٨٠٢م نقض الروم صلحهم مع المسلمين ، وتجدد نقفور ملكهم الرشيد ، فورد عليه الرشيد بكتاب مشهور قال فيه : ٠٠٠٠ إلى نِقْفور كلب الروم ، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه دون أن تسمعه ٠٠٠٠ (٣) . ثم جيش الرشيد جيشاً ضخماً ، فهاجم هِرَقْلَة (٤) ، وفتح وغنم وخرب عدة حصون ، فاضطر الروم أن يقبلوا بدفع الجزية . ولما عاد الرشيد إلى الرقة عاود نقفور النكست لأن الوقت كان شتاءً ، وعلى الرغم من كراهية المسلمين للحرب في وقت الشتاء ، فقد عاود الرشيد الغزو فغنم

وفي سنة ١٩٠هـ / ٨٠٥م أغارت الروم على عين زُرِّيَّة والكنيسة (٥) فأسروا بعض أهلها ، فخفف لنجدتهم أهل الصيصة ، ونجحوا في تخليص أسارى المسلمين منهم . ثم كان رد الرشيد عظيماً على هذه الغارة ، فدخل أرض الروم في جيش بلغت عدته ١٣٥ ألف مقاتل ، استولى في أثناءها على عدد من الحصون وأخرب هِرَقْلَة .

وفي هذا العام نفسه عزا المسلمون بالبحر قيرس ، وسبوا من أهلها ١٦ ألف شخص بيعةوا بالرافقة بثمن بخس (٦) .

(١) الطبري ٨ : ١٥٢ - ١٥٣ ، ابن الأثير ٥ : ٦٥ .

(٢) الطبري ٨ : ٢٦٨ .

(٣) الطبري ٨ : ٣٠٧ - ٣١٠ ، ابن كثير ١٠ : ١٩٣ - ١٩٤ ، الأغانى ١٨ : ٢٣٩ .

(٤) الطبري ٨ : ٣٠٨ ، وهرقلة مدينة ببلاد الروم (معجم البلدان : هرقلة) .

(٥) الطبري ٨ : ٣٢٢ - ٣٢٣ ، ابن الأثير ٥ : ١٢٣ ، وعين زُرِّي كما ضبطها ياقوت بلد بالشعر

من نواحي الصيصة ويقول لسترنج إنه ما يزال قائما وعرفه الصليبيون باسم Anazarbus

انظر: بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمه وعلق عليه كوركيس عواد وبشير فرانسيس ، ط ٢ ، مؤسسة

الرسالة ، بيروت ١٩٨٥ ، ١٦١ ، والكنيسة ويقال لها الكنيسة السودا ، بلد بشعر

الصيصة كذلك انظر: معجم البلدان (عين زري) ، والكنيسة ( ) .

(٦) ابن كثير ١٠ : ٢١٤ .



وتمت في زمن الرشيد مفاداة كبرى للأسرى بين المسلمين والروم ، وذلك في سنة ١٨٩هـ / ٨٠٤م وقد تغنت الشعراء بهذه المفاداة بعد أن كان المسلمون قد يعيشوا من إطلاق سراح أسرارهم ، ولسان حالهم يقول معبراً عن اليأس الذي كان ، والفرحة التي تمت في آن معاً : (١)

وَفَكَّتْ بِكَ الْأَسْرَى الَّتِي سُيِّدَتْ لَهَا      مَحَابِسٌ مَا فِيهَا حَمِيمٌ يَزُورُهَا  
عَلَى حِينٍ أَعْيَا الْمَسْلِينَ فَكَأَكَّهُمْ      وَقَالُوا سَجُونُ الْمُشْرِكِينَ قُبُورُهَا

وتوقفت في عهد الأمين النشاطات العسكرية بين الدولتين ، لانشغال الجيوش بأمر الفتنة بين الأمين والمأمون ، ولم تُستأنف هذه النشاطات بقوة إلا في سنة ٢١٥هـ / ٨٣٠م ، وذلك بعد أن تمكن المأمون من القضاء على ثورة نصر بن سُبَيْكٍ العُقَيْلي . وقد استغل المأمون انشغال الروم قسي حروب صقلية (٢) ، فدخل عدة حصون ومطامير رومية (٣) ، ثم قتل عائداً إلى دمشق ، فانتهزت الروم فرصة ابتعادها فهاجموا طرسوس والمصَيِّصة ، وقتلوا عدداً من سكانها ، وأسروا أعداداً كبيرة أخرى ، فعاد المأمون في سنة ٢١٦هـ / ٨٣١م ، مهاجمة الحصون الرومية ، وافتتح أخوه أبو إسحاق ثلاثين حصناً ومطمورة ، ثم عرض الروم عليه الصلح ، وإطلاق سراح آلاف من أسرى المسلمين ، وأن تضع الحرب أوزارها خمس سنين ، ولكنه رفض (٤) .

وفي عام ٢١٨هـ / ٨٣٣م عرض ثيوفيل الصلح على المأمون والمفاداة والتعاون في المصالح ، فرد المأمون عليه يعرض عليه الدخول في الإسلام أو دفع فدية . ثم جهز المأمون جيشاً ضخماً قيل إنه كان ينوي به فتح عاصمة الروم (٥) ، وكتب إلى أخيه أبي إسحاق أن يفرض على أهل دمشق

- (١) هذان البيتان في شعر مروان بن أبي حفصة ، جمع حسين عطوان ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٢٣م ، ٦٠٥ ، الطبري ٨ : ٣١٨ ، ابن كثير ١٠ : ٢٠١ .
- (٢) انظر : ابن طيفور : كتاب بغداد ، طبعة عزت العطار الحسيني ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، فتح عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية ٢ : ١٧٨ .
- (٣) المطامير : كهوف كانت الروم تلجأ إليها تحصناً .
- (٤) اليعقوبي ٢ : ٤٦٥ ، الطبري ٨ : ٦٣١ ، فازيليف : العرب والروم ، ترجمة محمد عبد الهادي شغيرة ، دار الفكر العربي ، القاهرة : ١٠١ - ١٠٤ .
- (٥) اليعقوبي ٢ : ٤٦٩ ، فازيليف : ١٠٦ .

وحمص والأردن وفلسطين أربعة آلاف رجل ، ووعده بأنه سيجعل لكل فارس مائة درهم ، ولكل راجل خمسين ، وأخذ في الوقت نفسه من أهل تنسرين والجزيرة وبنغداد ألفي رجل ، فسار قسم من الجيش إلى الطَّوَّانَة ، حيث كان ابنه العباس يعسكر ، وسار هو إلى أرض الروم ، ولكن نهاية هذه الحملة لم تسفر عن غير فتح عدة حصون رومية مات بعدها المأمون في طرسوس سنة ٨٢١٨ / ٨٢٢ م (١) .

وفي زمن المعتصم استؤنف الصراع الإسلامي البيزنطي في سنة ٨٢٢ / ٨٢٨ م ، وكان سبب هذا التأخر هو انشغال المعتصم بحرب الخُرَّمِيَّة . وكان سبب استئناف القتال بين الطرفين هو استعانة الخرمية بالروم ليخففوا ضغط المسلمين عنهم ، وكان الروم هم البادئين بمهاجمة الثغور الإسلامية ، إذ اجتاح جيش رومي ضخم ثلاث مدن هي زِبْطَرَة وشمشاط وملطية ، وأحرقوا وقتلوا سكان المدينتين الأوليين (٢) . أما سكان ملطية فقد أفلتوا من الدمار والتقتيل بفكاكهم لسراح أسرى السروم ، وفتحهم لحصون مدينتهم في وجه القوات الرومية المهاجمة .

وقد ابتهج الروم ابتهاجاً عظيماً بهذا النصر ، وآلم ذلك المسلمين أشد الألم ، وانطلقت صيحات الاستغاثة والدعوة إلى الانتقام تتردد ، وما قيل في هذا الموقف قول إبراهيم بن المهدي (٣) :

يا غارة الله قد عاينت فانتهمكسي  
هتت النساء وما منهن يُرتكب  
هَبِ الرِّجَالِ عَلَى إِجْرَامِهَا قِتْلًا  
مَا بِالْأَطْفَالِهَا بِالذَّبْحِ تَنْتَهَبُ

(١) الطبري ٨: ٦٤٦ . التنبيه والإشراف : صححه وراجعه عبد الله الصاوي ، دار الصاوي للطبع ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ص ٣٠٤ .

(٢) اليعقوبي ٢: ٤٧٥ ، فتحي عثمان ، ٢: ٢٠١ ، وزبطرة مدينة بين ملطية وسيمسراط والحدث في طرف بلد الروم . وشمشاط مدينة بالروم على شاطئ الفرات في طرف أرمينية ، وسلطية بلدة من بلاد الروم متاخمة للشام . معجم البلدان . وهي اليوم في الأراضي التركية . أما زبطرة فكانت تعرف عند الروم بـ ZAPETRA . وأما ملطية نسماها الروم ملطيين بلدان الخلافة الشرقية : ١٥٢ - ١٥٣ . وقال لسترنج : إن شمشاط مدينة ذات شأن قد اختفت من الخارطة وهي أرسوساطا ARSAMOSATA عند الروم قديماً . انظر : بلدان الخلافة الشرقية ١٤٨ - ١٤٩ .

(٣) الجهمشاري : النوزراء والكتّاب : ٣١٢ ، وانظر في ذلك أيضاً : المسعودي : مروج الذهب ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط ٣ ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٩٥٨ ، ٣: ٤٧٢ ، فازلييف : ١٢٨ - ١٢٩ .

ولم يستطع المعتصم أن يهب لنجدة أهل هذه المدن المنكوبة حتى تمكن من القضاء على حركة بابك الخرمي ، ولما أفلح في ذلك جهز جيشاً ضخماً عدة وعدداً ، ثم قصد بنفسه بلاد الروم ففتح مدناً عدة كان من بينها أنقرة وعمورية التي تزعم المصادر أن عدد من قُتل من الروم فيها أربعون ألفاً ، عدا الأسرى والتدمير في الممتلكات ، ثم رمم المعتصم بعض الحصون <sup>(١)</sup> . وعاد إلى سُر من رأى بعد أن أشيع أن العباس بن المأمون يفكر في نقض بيعته ، وانشغل بعدها في أمور الفتن الداخلية التي كان من بينها فتنة المبرقع اليماني في فلسطين .

وافتح الواثق عهده بعد وفاة المعتصم سنة ٢٢٧هـ / ٨٤٢م بالقضاء على فتنة المبرقع ولكن الحدث البارز في خلافته كان مفاداته لأسرى المسلمين الذين قدر عددهم بثلاثة آلاف وخمسمائة أسيره وقيل بـ (٤٣٦٢) أسيراً . واشترط الواثق ، الذي كان متعصباً لمبدأ خلق القرآن ، على كل أسير مسلم يُفادى أن يقول : إن القرآن مخلوق . وكان من بين أسرى المسلمين لدى الروم ممن تعرضوا لهذا الامتحان العسير مسلم بن أبي مسلم الجرمي الذي عاش في أسر الروم سنين طويلة مكنته من أن يتعرف إلى بلاد الروم ونظمهم ، فكتب عدة كتب عن رؤسائهم وأباطرتهم وأقاليمهم ومساكنهم ، وأنسب الأوقات لنزوعهم <sup>(٢)</sup> ، وكانت كتبه مصدراً مهماً لابن خردادبة في الجزء الخاص عن الروم في مؤلفه الجغرافي "المسالك والممالك" .

وافتح المتوكل عهده ( ٢٣٢هـ / ٨٤٧م ) بتسيير صائفة بقيادة علي بن يحيى الأرمني ، خرجت في ثلاث صوائف متتالية بدءاً بسنة ٢٣٧هـ / ٨٥١م ، ورد الروم في سنة ٢٣٨هـ / ٨٥٣م بمهاجمة أسطولهم للشواطئ المصرية ، ونزولهم في دمياط <sup>(٣)</sup> . وكان لهذا الهجوم البحري الرومي أثر كبير ، إذ فتح أعين المسلمين على ضرورة الاهتمام بأمر البحر ومراكبه . ولعل ذلك هو الذي يفسر اهتمام المتوكل بترتيب المراكب في عكا وجميع السواحل ، وشحنها بالمقاتلة <sup>(٤)</sup> . وهو الإجراء نفسه

(١) انظر في تفصيل ما حدث : الطبري ٩ : ٥٥-٧٠ ، فازيليف : ١٥٣ .

(٢) فازيليف : ١٧٥-١٧٦ ، فتحى عثمان ٢ : ٢١٨ .

(٣) الطبري ٩ : ١٩٣-١٩٥ ، فتحى عثمان ٢ : ٢١٨-٢١٩ .

(٤) سيدة كاشف : أحمد بن طولون : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة : ١٣٦-١٣٧ .

الذي أخذ به أحمد بن طولون فيما بعد بينا المراكب، وإطافتها بالجزيرة (١) . وأجرى المتوكّل للسبب نفسه الأرزاق على جراحة لبنان لاستعانة المسلمين بهم في أمر البحر، مع ما عرف عنه من تشدّد في معاملة النصارى على وجه العموم :

وفي سنة ٢٤٧هـ قتل المتوكّل، وتلا مقتله وقوع هزيمة شديدة بالمسلمين، قتل فيها أمير ملطية عمر بن عبد الله الأتّطع، وألفان آخران من جنوده، وذلك في سنة ٢٤٩هـ / ٨٦٣م، وهي السنة نفسها التي فقد فيها المسلمون قائداً آخر من قادتهم هو علي بن يحيى الأرمني (٢) . وكان لمقتل هذين القائدين في أعقاب مقتل الخليفة المتوكّل أثر شديد في نفوس المسلمين . ويصف الطبري مشاهد من الحزن الذي عم أهل بغداد وصفاً دقيقاً (٣) . فتحرّك الرأي العام الشعبي، وأثر بتوجيه أنظار الناس والدولة إلى ضرورة الاهتمام بالشؤون

والحق أن عهد المتوكّل كان عهد انتكاسات عسكرية، ففي سنة ٢٤٢هـ / ٨٥٦م هاجم الروم الشغور الجزيرة، وانتهبوا عدة قرى، وأسروا نحواً من عشرة آلاف إنسان (٤) . وفي سنة ٢٤٥هـ / ٨٥٩م غزا الروم العرب وقتلوا وأسروا أعداداً كبيرة، وقد خلّد الروم ذكرى هذا الانتصار بنقش محفور على أسوار أنقرة (٥) .

ووقعت في زمن المتوكّل أيضاً مفاديتان للأسرى : الأولى في سنة ٢٤١هـ / ٨٥٥م، فسودي فيها ثمانية آلاف أسير مسلم من أصل ٢٠ ألفاً، لأن ملكة بيزنطة كانت قد أمرت بقتل من رفض اعتناق النصرانية منهم (٦) . والثانية في سنة ٢٤٦هـ / ٨٦٠م، وأطلق في هذه المفاداة سراح ألفي مسلم، مقابل ألف رومي (٧) .

- 
- (١) ولاية مصر : ٢٤٤ .
  - (٢) الطبري ٩ : ٢٦١-٢٦٢ واليعقوبي ٢ : ٤٩٦ . سير أعلام النبلاء ١٢ : ٣٦-٣٧ فازيليف ٢١٩-٢٢٥ . وتذكر أن ذلك كان في سنة ٢٥٣هـ / ٨٦٧م .
  - (٣) انظر : الطبري ٩ : ٢٦٢ .
  - (٤) الطبري ٩ : ٢٠٧ . ابن كثير ١٠ : ٣٤٣ .
  - (٥) فازيليف : ٢٠٧ .
  - (٦) الطبري ٩ : ٢٠٢ . فازيليف : ١٩٧ - ١٩٨ .
  - (٧) الطبري ٩ : ٢١١ . المسعودي : التنبيه والإشراف : ١٦٢ - ١٦٣ .

وشهدت مناطق الثغور هدوءاً كبيراً في عهد المعتز (٢٥٢-٢٥٥هـ/٨٦٦-٨٦٨ م) والمعتدي (٢٥٥-٢٥٦هـ/٨٦٨-٨٦٩ م) ، وأوائل حكم المعتد (٢٥٦-٢٥٧هـ/٨٦٩-٨٧٢ م) ، وذلك لانشغال الخليفتين الأولين بالفتن الداخلية ، ولانشغال المسلمين بمحاربة صاحب الزنج بالبصرة في عهد الخليفة الثالث ، إلى جانب النزاع بين العباسيين وأحمد بن طولون (١) .

وكان أول تماس بين القوتين قد وقع بعد ذلك في سنة ٢٦٤هـ/٨٧٨ م عندما هاجم أهـل الثغور الشامية معاقل الروم ، فتعقبهم الروم وقتلوا منهم عدداً كبيراً ، وأسروا في جملة من أسروا قائد الحملة الإسلامية . ثم خرجت الروم في السنة التالية فهاجموا أذنة بجيش كبير ضم خمسة من بطارتهم وتمكنوا من أسروالي الثغور ومعه ٤٠٠ أسير آخر ، وكبادرة على حسن الجوار فقد أطلق الروم سراح مجموعة من أسرى المسلمين سلموهم لأحمد بن طولون (٢) . غير أن سيما الطويل خليفة أحمد ابن طولون على طرسوس قام بنزول الروم ، ثم ظهر اسم يا زمان الخادم صاحب طرسوس بعد أن تمكن من إلحاق هزيمة شنيعة بالروم في سنة ٢٧٠هـ/٨٨٣ م . وتكرر ظفر هذا القائد على الروم إلى أن كان مقتله على أيديهم في سنة ٢٧٩هـ/٨٩٢ م (٣) . وظلت هذه هي حال الثغور بين شد وجذب على مدار الفترة ، تشتد حيناً ، وتخبو أحياناً ، تبعاً للظروف الداخلية لكلتا الدولتين . وظلت سياسة مفاداة الأسرى سياسة متبعة لها رسومها وإجراءاتها الخاصة (٤) .

وكان آخر صدام عنيف بين المسلمين والروم في الفترة موضوع هذا البحث الذي وقع في سنة ٢٩١هـ/١٠٣ م ، وفيه تم فتح مدينة أنطاكية التي يقول الطبري عنها إنها تعادل القسطنطينية ، ويبدو أن هذه المعركة كانت برية وبحرية ، إذ أخذ المسلمون فيها ستين مركباً ، وحرروا أربعة آلاف أسير مسلم ، وقتل من الروم خمسة آلاف (٥) . وقد تم للمسلمين هذا النصر على الرغم من انشغالهم بأمر القرامطة .

- (١) انظر في ذلك مثلاً: البليسي ٢٨٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ .
- (٢) انظر: الطبري ٩ : ٥٤٤ - ٥٤٥ .
- (٣) انظر الطبري ١٠ : ١٠٠ .
- (٤) انظر عن الأقدية بصورتها الرسمية كتاب : التنبيه والإشـراف : ١٦٠-١٦٣ .
- (٥) الطبري ١٠ : ١١٧ .

وهكذا ظلت الحدود الإسلامية البيزنطية مضطربة على مدار فترة الدراسة . ولم تسجل أي من القوتين نصراً حاسماً على الأخرى ، فقد ينتصر المسلمون في معركة انتصاراً كبيراً كانتصارتهم في عمورية ، وقد ينتصر البيزنطيون انتصاراً مماثلاً كانتصارتهم على عمر بن عبد الله الأقطع وهو الانتصار الذي عدّه فازيليف أكبر هزيمة لحقت بالإسلام إلى العهد الصليبي (١) .

ولكنّ أيّاً من هذه الانتصارات لم يحسم الموقف على الثغور لإحدى القوتين ، ومن أجل ذلك ظلت المواقع الثغورية غير ثابتة . ومن أجل ذلك أيضاً كثر سكنى الثغور من فئات المتطوعة ، إلى جانب توطين أقوام آخرين فيها للمرابطة والمجاهدة . وقد ترتب على هذا الوضع المأزوم دوماً أن سكان الثغور كانوا يدفعون من دمائهم ومن أموالهم ثعناً لهذا الصمود . ولذلك وجدنا بعض الخلفاء يغسري بعض الناس بسكنى الثغور مقابل زيادة في أعطياتهم (٢) .

ولو أننا أخذنا بأقوال قدامة بن جعفر عن أزمنا الصوائف والمرايع والشواتي وأطوالها لعرفنا أن تلك السنة تقريباً كان الناس فيه مشغولين بالحرب ، فالمرايع مدتها ثلاثون يوماً غير انشغالهم بتحسين أحوال خيولهم ، والصوائف مدتها ٦٠ يوماً ، والشواتي عشرون ، ولم يكن المسلمون يحبسون الشتاء ، ولذلك لم يكونوا يوغلون في أرض الروم فيه (٣) .

(١) فازيليف : ٢٧ .

(٢) سبقت الإشارة إلى شي من هذا .

(٣) انظر : الخراج وصناعة الكتابة ، شرحه وحققه محمد حسين الزبيدي ، دار الرشيد للنشر ، وزارة الإعلام العراقية ، بغداد ، ١٩٨١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، فازيليف : ٩١ .

## الفصل الثاني

### النواحي الإدارية والعالية

ورثت الدولة العباسية عن الدولة الأموية قسمة الشام إدارياً في خمسة أجناد هي : جند دمشق ، وجند حمص ، وجند قنسرين ، وجند الأردن ، وجند فلسطين ، وقد بقيت هذه القسمة على حالها حتى عهد الرشيد حين فصل الثغور عن جند قنسرين ، وجعل منها قسماً إدارياً مستقلاً وساعا العواصم ، وبقيت الجزيرة قسماً إدارياً على حدة .

وعلى هذا فمحيط الدراسة يشمل الشام بأجنادها الخمسة ، وثغورها التي يعرف بعضها بثغور الشام وبعضها بثغور الجزيرة ، لأن كل ما كان وراء الفرات فمن الشام ، وإنما سمي من ملطية الى مَرَعَش ثغور الجزيرة لأن أهل الجزيرة بها كانوا يرابطون ويفنون<sup>(١)</sup> . كما يشمل العواصم التي تضم مَنبِج ودُلوك ورَّعبان وقورس وأنطاكية وتيزين<sup>(٢)</sup> وحاضرتها مَنبِج<sup>(٣)</sup> : كما يشمل الجزيرة وحاضرتها الرقصة .

ولم يكن هذا التقسيم الإداري يعني أن كل جند مستقل بوال ، بل كثيراً ما عين الوالي الواحد على ما يتجاوز الجند الواحد ، ففي بداية الدولة العباسية عين السفاح عمه عبد الله بن علي والياً على قنسرين ودمشق وحمص والأردن ، أي أنه جمع له أربعة أجناد معاً ، ولم يخرج عن سيطرته سوى جند فلسطين ، وأفراد جند الجزيرة بوال هو المنصـور<sup>(٤)</sup> .

- (١) ابن حوقل : صورة الأرض ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت : ١٥٤ ، الإصطخري : مسالك الممالك ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٩٦٧ ، ٥٥ ، الإدرسي : نزهة المشتاق ، نشر معهد اللغات الشرقية ، نابلس ، ٤ : ٣٥٣-٣٧٧ ، وانظر عن الخلاف بين الجغرافيين العرب في تحديد ثغور الشام والجزيرة : فتحي عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية ١ : ٢١٣-٢١٧ .
- (٢) تيزين قرية كبيرة من نواحي حلب ، كانت تعد من أعمال قنسرين ثم صارت في أيام الرشيد من العواصم ، وقورس من نواحي حلب ، كانت خربت في زمن ياقوت الحموي ، ودُلوك بليدة من نواحي حلب بالعواصم ، ورَّعبان مدينة بالثغور معدودة في العواصم . انظر ياقوت .
- (٣) انظر : البلاذري : فتوح البلدان ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع و عمر أنيس الطباع ، دار النشر للجامعيين ، بيروت ١٩٥٨ ، ١٥٦ ، الطبري ٨ : ٢٣٤ ، لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ١٦٠-١٦١ .
- (٤) الطبري ٧ : ٤٥٩-٤٦٠ .

وحين استحدث الرشيد جنداً سادساً هو العواصم كان واليه عليه هو عبد الملك بن صالح<sup>(١)</sup>، وجمع المأمون الشام ومصر معاً تحت إدارة أخيه أبي إسحاق (المعتصم)، كما عهد لابن العباس بولاية الجزيرة والشغور والعواصم<sup>(٢)</sup>. وكان الأمين قد جمع الشام والجزيرة لعبد الملك ابن صالح<sup>(٣)</sup>.

وفي عهد المعتضد كان عيسى بن الشيخ الشيباني والياً على جندَي فلسطين والأردن، بينما كانت ديار مصر وقنسرين والعواصم من حصة الموفق أخي المعتضد<sup>(٤)</sup>، وكل هذا يعني أن القسمة إلى أجناد كانت أمراً تقليدياً اقتضته طبيعة دواوين الجند، وترتيب الجيش الخاص بكل جند من حيث الأعطيات. وهكذا فحين تراخت قبضة الدولة إدارياً كان في مقدور ابن الشيخ أن يلجأ إلى الغلبة ليضم تحت سيطرته جند دمشق. وأصبح في مقدور خمارويه الذي حكم مصر وأجزاء من الشام والعواصم أن يعقد صفقة مع المعتضد في سنة ٢٨٦هـ / ٨٩٩م تنازل له فيها عن قنسرين والعواصم في مقابل أن يقره المعتضد على الاستئثار بالديار المصرية<sup>(٥)</sup>.

ولدى اعتبار الشام وحدة إدارية واحدة، فلا بد أن نقدر أن كل مدينة وما كان يتبعها من ريف، كانت تحت وال واحد، وأن النظام الإداري المتبع في تلك المدن كان يمثل صورة مصغرة مما يجري في العاصمة، وأن الدواوين كانت تتعدد وتتكاثر على مر الزمن، وأن نظاماً دقيقاً للبريد كان يربط مدن الشام بعضها ببعض، كما يجعلها تحت سيطرة دقيقة من قبل أصحاب الأخيـار.

أما التنظيم المالي فقد كان من ضمن التنظيم الإداري. وكان الدخل المالي هو القضيـة الكبرى التي تشغل بال الدولة الجديدة بعد أن استتب لها الحكم، وقد ورثت في الشام

(١) انظر: فتوح البلدان: ٢٠٨، سير أعلام النبلاء ٩: ٢١.

(٢) انظر الطبري ٨: ٦٣١.

(٣) انظر نفسه ٨: ٤٢٤.

(٤) انظر: الطبري ٩: ٤٧٥، ولاية مصر ١: ٨٠، (القسم الخاص بمصر).

(٥) انظر الطبري ١٠: ٧٠ - ٧١، ابن كثير ١١: ٨٣ - ٨٤.



والجزيرة وغيرهما - نظاماً مالياً يعتمد أكبر الاعتماد على الخراج<sup>(١)</sup> ، والعشر<sup>(٢)</sup> ، ومعنى ذلك أنه يعتمد على الزراعة ، إلى جانب الجزية على من لم يعتنقوا الإسلام . ولهذا لجأت الدولة دائماً إلى مراجعة ما تحصله لا من أجل إنصاف دافعي الضرائب ، بل من أجل التوصل إلى زيادة دخلها ، وقد عرفت هذه المراجعة بـ "التعديل" ، وهو شيء قام به عبد الملك بن مروان من قبل ، إذ أرسل الضحاك بن عبد الرحمن الأشعري إلى الجزيرة فأحصى عدد رؤوس أهل الذمة ، ثم قدر نفقة كل فرد بحسب ما يحتاج إليه من طعام وكسوة وغير ذلك ، فوجد أن كل فرد يستطيع أن يدفع أربعة دنانير سنوياً للدولة مسوياً في ذلك بين فئات الناس جميعاً ، ثم قدر الخراج على الأرض على أساس قوتها أو بعدها من الأسواق ، فالنم كل مائة جريب قريب ديناراً واحداً ، وكل مائتي جريب بعيد ديناراً واحداً كذلك ، وفرض على الزيتون ديناراً على كل مائة شجرة قريبة ، ومثله على كل مائتي شجرة بعيدة ، وسوى في ذلك "التعديل" بين الشام والجزيرة والموصل<sup>(٣)</sup> .

ويبدو أن الأمر استمر على ذلك ، وأن إجراء عبد الملك لقي ارتياحاً لدى الدولة ودافعي الضرائب على حد سواء .

فلما كانت أيام المنصور أحب مراجعة الخراج والجزية لكي يتوصل إلى زيادة الدخل المخصص للدولة ، فأرسل إلى الجزيرة عاملاً يطوف مدنها واحدة إثر أخرى ، ويحصي فيها الأسواق ، فصادر ذلك العامل كل حانوت ، وكل رحى لم توجد مسجلة في قوائم الخراج القديمة ، وضمها إلى ممتلكات الدولة ، كما استصفى كل حقل لم يكن مدوناً في قوائم الخراج ، ووزع ما استصفاه قطائع . وعين الخليفة عاملاً يشرف على الأعشار ، ويقول صاحب التاريخ المنسوب للتلمحري : إنه كان إذا رأى في حانوت أمتعة

- (١) الخراج هو أرض الصلح التي رضي المسلمون بما صولحوا عليه عنها في وقت فتحها ، ومنها زكاة أعشار الأرضين التي يزدرعها المسلمون . قاله قدامة بن جعفر . انظر: الخراج وصناعة الكتابة : ٢٩٩
- (٢) أرض العشر سنة أضرب من ذلك الأرضون التي أسلم عليها أهلها وهي في أيديهم ، والذي يجب على أهلها منها العشر ، ومنها ما يستحييه المسلمون من الأرضين الموات التي لا ملك لأحد من المسلمين والمعاهد فيها ، فيلزمهم العشر من غلاتها ، ومنها ما يقطعه الأئمة لبعض المسلمين فتلزمه الزكاة عنها وهي العشر . الخراج لقدامة : ٢٠٤ .
- (٣) أبو يوسف : الخراج ، تحقيق إحسان عباس ، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٨٥ ، ١٣٩١ .

ويبدو أن شيئاً من الإصلاح لم يتم حتى عهد الرشيد الذي لجأ إلى أبي يوسف ليقوم بدراسة الوضع المالي : فكتب كتابه " الخراج " . ويستنتج من هذا الكتاب أن الرقابة على الوالي كانت ضعيفة ، وأن الوالي كان يخرج معه عدداً من بطانته للانتفاع بمركزه وجاهه ، فيوليهم جباية الضرائب ليكمل لهم الأثـــــــرا .

ويشدد أبو يوسف على ضرورة الرقابة في كل مرحلة . وهذه الرقابة لا تتم إلا بإخراج جنــــد مع الجباة ، يمنعون من ضرب المزارعين وتعذيبهم بإقامتهم في الشمس ، أو تعليق الجرار في رقابهم ، وزيادة الأرزاق المفروضة على دافعي الضرائب بأسماء مختلفة مثل : رزق العامل ، وحمولة طعام السلطان ، ومن الصحف والقراطينــــــــــــــــس (١) .

وكان من أهم اقتراحات أبي يوسف الفصل بين جباية الخراج والجزية والعشور على تجارارات أهل الذمة ، وبين جباية الصدقات والعشور على المسلمين ، بإقامة ديوان خاص لكل من الجبايتين ، وهذا المطلب يؤكد الحيف الذي كان يقع على المسلمين ، كما وصفه صاحب التاريخ المنسوب ، لأن الجباة كانوا يحصلون الصدقات وعشور المسلمين على القاعدة نفسها التي يحصلون بها الخراج والجزية من غير المسلمــــــــــــــــين (٢) .

وعلى هذا كله لم يبدأ إصلاح الأوضاع الخراجية إلا في أيام الرشيد . ولسنا نعرف المسدى الذي شمله إصلاحه في الشام والجزيرة ، غير أن البلاذري يخص فلسطين بالحديث فيقول : " وفلسطين فرور سجلات من الخلفاء مفردة من خراج الامامة " (٣) . وهذا يعني تخصيص الفلاحين هناك بسجلات تنحو نحو التخفيف ، لأن فلاحي بعض الضياع هجروها ، وامتنعوا عن زراعتها ، فتعطلت ، فتلطف الرشيد لإرجاعهم بأن بعث إليهم هرثمة بن أعين ليعيد عمارة تلك القرى ، فأغرى بعض الفلاحين بالرجوع إليها على أن يخفف عنهم ما كانوا يدفعونه من خراج ، ويعتمد في استخراجها بالمعاملة الحسنة ، فرجعوا

(١) الخراج لأبي يوسف : الفقرتان : ١١٥ ، ١١٦ .

(٢) التاريخ المنسوب للتلحــــــــــــــــري : ١٨٨ - ١٨٩ .

(٣) فتوح البلدان : (١٧) .



ستصل إلى ذلك الحد ، ولعله أراد تهدئة الخواطر أيضاً فبعث مولاة رزينا لمعاينة الأحوال ، فطاف رزين في ميافارقين وأرزن<sup>(١)</sup> ، ووقف على اختلاس العمال فيها ، فأمر بالقبض عليهم ، وجلد هم جلداً شديداً ، واستخرج منهم ما اختلسوه من أموال ، وتولاهم بعد العقوبة بالتعزير<sup>(٢)</sup> .

إن هذا الإجحاف الذي كان يلم بالرعية بسبب الضرائب ، دفع بعض الناصحين النيارى إلى تقديم اقتراحات لمعالجة ذلك الوضع ، فكتب ابن المقفع في رسالة الصحابة بأنه لا بد من وجود سجل ضريبي مدون تفسر به مقادير الخراج ، ويعتمده الجباة لدى تحصيل الأموال لأن الجباة أحد رجلين: رجل متقبل<sup>(٣)</sup> معتسف يغالى في الاستخراج ليضمن الربح الكبير لنفسه ، أو رجل معه دفتر مساحة قيدت فيه مساحة الأرض العامرة ، فهو يطبق ما يراه في دفتره دون نظر إلى واقع الأرض ، هل عطلت الأرض التي كانت عامرة ، وهل عمرت أرض كانت معطلة ، وإصلاح هذا الوضع يتطلب تقدير وظائف معلومة تفرض على الرساتيق<sup>(٤)</sup> والقسرى ويرجع فيها إلى سجل مدون ، فلا يؤخذ من رجل إلا بمقدار ما قدر عليه<sup>(٥)</sup> .

واقترح عبيد الله بن الحسن العنبري في رسالة رفعها إلى المهدي (١٥٩هـ / ٧٧٥م) ينصحه فيها بأن يعتد مبدأ "التخفيف" في تقاضي الضرائب من في ، وصدقات ، واعتماد الاستحقاق فـسـى توزيعها<sup>(٦)</sup> . وكتب أبو عبيد الله معاوية بن عبد الله كاتب المهدي رسالة أخرى إلى الخليفة نفسه بين فيها ما يحل بأهل الخراج من ظلم إن عم ألزمو ما لا محدوداً عن كل جريب لتقلب الأسعار بسين الغلاء والرخص ، واقترح حلولاً عملية لمعالجة الأمر<sup>(٧)</sup> .

- (١) ميافارقين أشهر مدينة بديار بكر على ما قال ياقوت ، وذكر لسترنج أن اسمها العربي محرف عن الأرمينية ، انظر ١٤٢ ، وأرزن مدينة مشهورة لبا قلعة حصينة كانت من أمر نواحي أرمينية ، كانت خربت في زمن ياقوت ، وانظر لسترنج : ج : ١٤٤ .
- (٢) التاريخ المنصور للتلحمري : ٣٠٣ - ٣٠٤ .
- (٣) متقبل : متكفل .
- (٤) الرساتيق : النواحي ، جمع رستاق . انظر الجواليقي : المغرب ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، ١٣٦١هـ ، ٢٩ .
- (٥) رسائل البلغاء لمحمد كرد علي : ١٣٢ ، جمهرة رسائل العرب ٣ : ٤٥ - ٤٦ .
- (٦) انظر هذه الرسالة في وكيع محمد بن خلف : أخبار القضاة ، نسخة مصورة عن طبعة القاهرة ، ١٢٦٦هـ - ١٢٦٩هـ ، ٢ : ٩٧ - ١٠٧ .
- (٧) كتاب الخراج لقدامة : ٢٢٢ - ٢٢٣ .

على هذا الشرط، وُسِّمُوا "أصحاب التخافيف"، وتأخر قوم منهم في العودة فودت إليهم أراضيهم على المقدار السابق من الخراج، وعرفوا باسم "أصحاب السردود" (١).

ويتحدث البلاذري في موضع آخر عن أن طاعوناً أصاب أرض فلسطين في أوائك حكم الرشيد، فهلكت فيه عائلات بروتها، وتعطلت الأرض، ولم يعد لها من يفلحها، فشجع الخليفة على إعمار تلك الأرض، وتآلف الأكره والمزارعين إليها، وأصبحت تعد من أراضي الخلافة (٢). ويظهر من كلام البلاذري أن الرشيد لم يغير ما كان قد سنه يزيد بن معاوية في مقدار الجزية، وذلك أنه ظل يتقاضى خمسة دنانير عن كل واحد، وفي عهد المتوكل (٥٢٤٦هـ / ٨٦٠م) شكا جماعة من السامرة في منطقة نابلس عجزهم عن دفع ذلك المقدار، فقبل المتوكل من كل واحد منهم ثلاثة دنانير (٣).

وكانت الدولة تتبع بتحويل الأرض التي هلك عنها أهلها بالطاعون إلى صواف لها، السياسة المالية التي جرى عليها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه - إذ كانت الصوافي تعني من جملة ما تعنيه: الأرض التي مات عنها أهلها دون وارث أو ورثة (٤).

ولكن الدولة العباسية اعتبرت أملاك الأمويين صوافي أيضاً، وعاملتها كما عامل المسلمون أملاك الدولة البيزنطية عند فتح الشام والجزيرة، ومن أمثلة ذلك أن باليس (٥) وقراها كانت لورثة كسيلة بسن عبد الملك، فلما قبض عبد الله بن علي على أموال بني أمية دخلت في قبضته، فأقطعها أبو العباس السفاح سليمان بن علي، وانتهى بها الأمر إلى أن أصبحت للمأمون ثم لولده من بعده (٦). كما قبض العباسيون على الهنسي والعري التي أعمرها هشام بسن عبد الملك بالمزارع، فأصبحت قطيعة للزبيدة أم جعفر (٧)، وصارت عين الرومية بالرقه لأبي العباس السفاح، فأقطعها ميمون

(١) فتوح البلدان : ١٩٦ .

(٢) المصدر نفسه : ٢١٦ .

(٣) المصدر نفسه : ٢١٦ .

(٤) كتاب الخراج لأبي يوسف : ١٦٩ - ١٧٠ .

(٥) بالربلدة بالشام بين حلب والرقه، انظر (معجم البلدان : باليس).

(٦) فتوح البلدان : ١٧٨ - ١٧٩، الخراج لقدامة : ٣٠٥، معجم البلدان مادة باليس.

(٧) فتوح البلدان : ٢١٣، والهنسي والعري نهران يازا، الرقة والرافقة حفرهما هشام بن عبد الملك وأحدث فيهما واسط الرقة (معجم البلدان : مادة الهنسي).

ابن حمزة - مولى علي بن عبد الله بن عباس، ثم ابتاعها الرشيد من الورثة (١)، وكانت في أرض سَـرُوج منطقة تدعى غابة ابن هبيرة فأقطعت لبشر بن ميمون، ثم ابتاعها الرشيد أيضاً (٢).

ومن الحق أن نفترض أن هذه القطائع كانت عَشْرية، وكانت الدولة تستغل دخلها، وليس من الطبيعي أن نعدّها مكافآت لذوي الحظوة، أو طعمة لذوي الاستئثار. على أن الفرض الثاني غير مستبعد، إذ يحدثنا البلاذري نفسه أن الثغر حدثت فيه إينارات، والإينار أن يعطي الملك الأرض من غير خراج، أو أن يؤدّي الخراج إلى السلطان الأعلى، ولا يؤدّيه إلى عمال الخراج، وإذا كان التفسير الأول هو المعتمد فذلك يعني إعطاء الأرض لذوي الحظوة دون مقابل، ويعلق البلاذري على الإينارات بقوله: "إنها قد تحيفت من يرتفع من أعشاره - أي الثغر - حتى قصرت عن نفقاته"، فأمر المتوكّل سنة ٢٤٣هـ/٨٥٧م بإبطال تلك الإينارات (٣).

ولعل من الأسباب الداعية إلى انتهاج الخلفاء العباسيين لهذه السياسة العالية الصارمّة احتياجهم الدائم الملح إلى الإنفاق على الثغور بتحصينها، وترميم أسوارها، وإعادة بناء ما دمرته الحروب منها، إلى جانب دفع أجور العيون والبريد والمسالج في الجبال ومخاضات الأنهار، وتجهيز الحملات العسكرية وأعطيات الجند، وحقاً فإن ارتفاع خراج جند قنسرين والعواصم على ما ذكر قدامة كان أكبر بكثير من ارتفاع خراج أي من أجناد الشام، إذ بلغ ارتفاع خراج جند قنسرين والعواصم (٣٦٠) ألف دينار، في حين بلغ ارتفاع خراج جند دمشق (١١٠) آلاف من الدينار، وخراج جند الأردن (١٠٩) آلاف، وخراج جند فلسطين (١١٥) ألف دينار (٤). أما الجهشياري فذكر أن خراج جند قنسرين والعواصم بلغ (٤٩٠) ألف دينار، وخراج جند حمص (٣٢٠) ألف دينار، وخراج جند دمشق (٤٢٠) ألف دينار، وخراج جند الأردن (٩٦) ألفاً، وخراج جند فلسطين

- 
- (١) فتوح البلدان : ٢١٤ .
  - (٢) سروج : بلدة قريبة من حرّان من ديار مصر (معجم البلدان : سروج) .
  - (٣) فتوح البلدان : ٢٠٣ .
  - (٤) قدامة : الخراج : ١٧٧ - ١٧٨ .

(٣٢٠) ألفنا (١) . وإذا علمنا أن ارتفاع خراج جند العواصم وحده كان مائة ألف دينار (٢) ،  
وإذا علمنا كذلك أن نفقات الصوائف والشواتي كانت تتراوح بين مائة ألف دينار وثلاثمائة ألف دينار ، تبين  
أن العباسيين كان لهم بعض العذر في انتهاج تلك السياسة العالية الصارمسة .

---

(١) الجهمشياري : الوزرا والكتاب : ٢٨٥ - ٢٨٨ .  
(٢) فازيليف : العرب والسرورم : ٩٠ .

### الفصل الثالث

#### العمـران في بلاد الشام

شهدت بلاد الشام والجزيرة في هذه المدة - موضع الدرس - نشاطاً في الناحية العمرانية بعامة ، سواء في داخل البلاد أم في منطقة الثغور والسواحل ، وكان لزيارة بعض الخلفاء لبلاد الشام أثر في تنبيههم إلى بعض ما تحتاجه من العمران ، وأول مدينة استحدثها العباسيون في الجزيرة هي الرافقة ، وقد أمر ببنائها أبو جعفر المنصور إلى جوار الرقة ، على الرغم من اعتراض الرقيين على إنشائها وكان السبب في ذلك الاعتراض خوفهم أن تتعطل أسواق بلدتهم بمنافسة المدينة الجديدة لها ، ثم لوقوع تكاليف بنائها على عدواتهم ، إذ أجبر كل موسر في الرقة على أن يسلم بدفع أربعين درهماً لتحقيق تلك الغاية (١) . وقد أنشئت المدينة الجديدة على غرار بغداد في تخطيطها العام (٢) ، وكان ذلك سنة ١٥٥ هـ / ٧٧١م بإشراف المهدي ولي العهد ، ثم بنى الرشيد في الرقة قصره (٣) .

ويذكر صاحب التاريخ المنسوب أن المنصور استشار المنجمين قبل أن يقوم ببناء الرافقة فأنبأوه أن ملكاً يبني مدينة إلى جوار فالينيتوس ( الرقة ) ويتوجه من ثمة إلى بيت المقدس فيشيد فيها مسجداً (٤) وتذكر المصادر العربية أن المنصور زار بيت المقدس فعلاً ، وصلى هناك في شهر ربيع الأول عام ١٥٥ هـ / ٧٧١م (٥) ، ولكنه لم يبن مسجداً في المدينة المقدسة ، وإن زعم صاحب التاريخ المنسوب أنه بنى مسجداً للمسلمين على أنقاض هيكل سليمان ، ورّم خرائب (أورشليم) . كما ينسب عذا المؤرخ إلى المنصور قيامه بأعمال تخريبية في القدس ، مما يتنافى وطبيعة الخليفة المسلم (٦) .

- 
- (١) ابن كثير ١٠ : ١١٣ .
  - (٢) فتوح البلدان : ٢٤٧ ؛ الطبري ٨ : ٤٦ ؛ القشيري : تاريخ الرقة ، تحقيق طاهر النعلسي ص : ج .
  - (٣) الخراج : ٣١٥ .
  - (٤) التاريخ المنسوب : ١٧٨ .
  - (٥) الطبري ٨ : ٤٤ .
  - (٦) التاريخ المنسوب : ١١٠ .



وتم في عهد المنصور أيضاً عبارة ثغر المصيبة سنة ١١٣٩هـ / ٧٥٦م، وسماها المعمورة، إذ كان حائطها قد تداعى بسبب الزلازل فتم بناؤه، وأقيم فيها مسجد جامع واسع في موضع هيكل كان بها<sup>(١)</sup>، كما بنيت أذنة سنة ١١٤١هـ / ٧٥٨م، والقصر الذي على جسرهما بأمر من صالح بن علي العباسي<sup>(٢)</sup>، وتم كذلك تتبع حصون السواحل ومدنها والقيام بتعميرها وتحصينها<sup>(٣)</sup>، وأرسل المنصور عبد الوهاب ابن إبراهيم الإمام والي الجزيرة ومعه الحسن بن قحطبة لإعادة بناء مَلْطِيَّة وتحصينها، وقطعت البعث على أهل الشام والجزيرة حتى فرغوا من بناء المدينة ومسجدها في ستة أشهر<sup>(٤)</sup>، وبنى لها مسلحة، وأسكن فيها أربعة آلاف مقاتل من أهل الجزيرة لأنها ثغورهم، وشجعهم على ذلك عندما زاد فسي عطا كل رجل منهم، فضلا عن تقديم معونة نقدية أخرى. وقد ظهر أثر تحصينها واضحا عندما عجزت الروم عن اقتحامها في هجمتين وقعتا في زمن الرشيد<sup>(٥)</sup>.

وقام المشدي بمتابعة عمل أبيه في تحصين الثغور، وزاد في شحنتها<sup>(٦)</sup>، فأمر بشح المصيبة بألفي رجل، وبنينا مدينة الحدّث، ثم مدينة طرسوس، عندما أخبره الحسن بن قحطبة الطائي فسي أننا غزاه في بلاد الروم سنة ١١٦٢هـ / ٧٧٨م ما في تحصين طرسوس وشحنها بالمقاتلة من الغنا، عن الإسلام، والكبت للعهد<sup>(٧)</sup>، فبدأ عملاً أنه ابنه الرشيد، إذ قام بتعمير طرسوس، وتحصينها وشحنها بالمقاتلة<sup>(٨)</sup>.

وزار المهدي حلب وبيت المقدس<sup>(٩)</sup>، واتخذ الرشيد من الرقة عاصمة حربية له، ليشرف على شؤون الثغور، وعلى شؤون البلاد الشامية التي أخذت تعصف بها الفتن القبلية، وزاد فسي

- (١) قدامة: الخراج: ٣٠٨، بلدان الخلافة الشرقية: ١٦٢-١٦٣، وفيه أن المصيبة مدينة رومانية تعرف بـ *MOPSUESTIA* وهي من مدن أرمينية اليوم.
- (٢) فتوح البلدان: ٢٣٠، وأذنة بلد من الثغور قرب المصيبة (معجم البلدان: مادة أذنة)، وابن العديم: بغية الطلب، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، طبعة مصورة عن نسخة آيا صوفيا، فرانكفورت، ١: ٩٩.
- (٣) فتوح البلدان: ٢٢٧، بغية الطلب: ١: ٩٩.
- (٤) أبو الفدا: المختصر في تاريخ البشر، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ٢: ٢-٣، التاريخ النسب: ١٢٥.
- (٥) قدامة: الخراج: ٣١٩.
- (٦) بغية الطلب: ١: ٩٩.
- (٧) فتوح البلدان: ٢٣١-٢٣٢، الخراج: ٣١٠، بغية الطلب: ١: ٢١٨-٢١٩.
- (٨) بغية الطلب: ١: ٢٠٦.
- (٩) المصدر نفسه: ١: ٩٩.

وزار المأمون دمشق في سنة ٢١٥هـ / ٨٣٠م ، وترتب على زيارته لها وإقامته فيها فوائده  
عمرانية متعددة ، فقد قام بتعمير دير مروان بسفح قاسيون<sup>(١)</sup> ، وبنى القُبَيْبَةَ التي فوق الجبل ، وكان  
يأمر أن توتد بالليل مجامر ضخمة تجعل في طسوت كبار تتدلى من تلك القببية بسلاسل فتضي الغوطة  
أمامه<sup>(٢)</sup> .

وجد المأمون بعد زيارة له إلى بيت المقدس عمارة مسجد قبة الصخرة ، ولا تزال الكتابة  
تشهد على ذلك بمحاولة طمس اسم منشئ المسجد ، وهو عبد الملك بن مروان ، بوضع اسم المأمون  
فوقه<sup>(٣)</sup> .

وفي عهده بنيت أيضاً مدينة الرَّحْبَةِ ، بناها مالك بن طوق ، وعرفت به ، وحالها كحال  
الرافقة لم يكن لها أثر قد يسم<sup>(٤)</sup> .

وقد مر في موضع سابق أن المتوكل أعجب بدمشق كثيراً ، وأنه عنم على اتخاذها دار إقامته ،  
وبدى ، بينا قصره<sup>(٥)</sup> بدارين .

وفتر الاهتمام بالعمران في الشام في الفترات التالية بسبب انشغال العباسيين بالحروب  
الداخلية والخارجية ، فقد شغل الخلفاء التالون بحرب صاحب الزنج والطولونية والقرامطة ، كما  
اشتدت وطأة الروم في الشَّام .

- 
- (١) ابن كثير ١٠ : ٢٦٩ ، وقال ياقوت : الذي بدمشق بضم الميم ، والذي بالحجاز يفتحها ،  
( انظر : معجم البلدان مادة دير مروان ) .
  - (٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٠ : ٢٢٨ ، النُّعَيْمِيُّ : قضاة دمشق ، مطبوع مع الشَّامِ  
البيساق في ذكر من ولي قضاء الشام ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، مطبوعات المجمع العلمي  
العربي بدمشق ، ١٩٥٦ ، ترجمة أبي مسهر ١٥ - ١٧ .
  - (٣) فيليب حنتي : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة كمال اليازجي ، دار الثقافة ، بيروت  
٢ : ١٣٠ .
  - (٤) الخراج : ٣١٥ ، معجم البلدان ( مادة رحبة مالك ) .
  - (٥) انظر السيوطي : تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة  
بمصر ، ١٩٥٢ ، ٣٤٨ .

والملاحظ على الحركة العمرانية في بلاد الشام والجزيرة وشغورها ما يلي : —

- ١ — نشاط هذه الحركة في عهد الخلفاء العباسيين الأتقياء<sup>١</sup> وفتورها في عهد الخلفاء الضعفاء .
- ٢ — الإهتمام بأمر العمران لم يكن تجديداً في كل حال ، بل تستدعيه كثرة التخريب الذي يحدث بسبب الحروب من ناحية ، وبسبب الكوارث الطبيعية من ناحية أخرى . فمن الناحية الحربية كان الإهتمام بالشغور يمثل يقظة الدولة على حماية حدودها ، وعلى السهر الدائم لمنع الروم من التعدي عليها ورعاية أحوال السكان المقيمين في الشغور ، وقد كان الانتصار والانكسار في الحروب الثغرية سجلاً لا غير أنه من الملاحظ أنه كلما حدثت فتنة داخلية في الدولة العباسية . كفتنة الأمين والمأمون ، ضعف الإهتمام بأمر الشغور فتعرض لغزو الروم وتخريبهم لحصونهم<sup>(١)</sup> . بل كان أمراء الشغور يضطرون إلى تخريبها لئلا تقع في أيدي الروم كما فعل بحصن زبطرة<sup>(٢)</sup> . ولأن الشغور كانت معرضة للعطيات العسكرية ، وللتهديد المستمر ، فقد لجأ الخلفاء والولاة إلى أسلوب الترغيب في سكانها بزيادة الأعطيات<sup>(٣)</sup> .

أما العمران بسبب الكوارث الطبيعية فكان أيضاً مطلباً ضرورياً لترميم ما ينتج عن السيول والطواعين والصقيع في تخريب العمران الزراعي ، وبالدرجة الأولى لما ينتج عن الزلازل المدمرة . وبحسبنا هنا إيراد مثلين عن زلزال اكتسح الجزيرة في سنة ١٢٧ هـ / ٧٥٥ - ٧٥٦ م ، قدم مرثسلات قرى على نهر الخابور ، ومات تحت الأنقاض من كان فيها من الناس ، واندثرت بتلك الهزة أماكن عديدة<sup>(٤)</sup> . وعن زلزال آخر عنيف تعرضت له مدن الشام زمن المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ / ٨٤٦ - ٨٦١ م) ، وأصاب بالتخريب الرقة وحمص ودمشق وطرسوس والمصيصة وأذنة واللاذقية وغيرها من مدن السواحل الشامية ومات بسببه خلق كثير ، ويصف الطبري ما حدث بأنطاكية فيقول : "قتلت الرقة في أنطاكية خلقاً كثيراً ، وسقط منها ألف وخمسة مائة دار ، وسقط من سورها نيف وسبعون برجاً ، وسمعوا أصواتاً هائلة

(١) انظر قدامة : الخراج : ٣١٧ .

(٢) نفسه : ٣٢١ .

(٣) نفسه : ٣١٩ .

(٤) التاريخ المنسوب : ١١٨ ، وانظر : السيوطي : تاريخ الخلفاء : ٣٤٧ ، ٣٤٩ .

لا يحسنون وصفها من كُوى المنازل ، وهرب أهلها إلى الصحارى ، وتقطع جبلها الأقرع ، وسقط فسي البحر ، وأما اللاذقية : "فما بقي منها من نزل" . (١) .

٣- نقض بعض المظاهر العمرانية التي كان الأمويون قد أنشأوها من ذلك نقض قصر أنيق مزخرف كان بناء سليمان بن عبد الملك ، كما نقض ما كان بمسجد حلب من الرخام والآلات ، ونقل ذلك إلى جامع أنشئ بالأنبار (٢) ، كأنهم - إن صدقت الرواية التاريخية - كانوا يريدون طمس معالم بني أمية .

---

(١) الطبري : ٩ : ٢١٢ ، ابن كثير : ١٠ : ٢٤٦ ، سير أعلام النبلاء ١٢ : ٣٣ .  
(٢) ابن الشحنة الحلبي : الدر المنتخب في تاريخ ملكة حلب ، علق عليه يوسف بن إلياس سركيس ، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٩٠٦ ، ٥٩ ، ٦٢ .

## الفصل الرابع

### الحياة الثقافية في بلاد الشام

يفزع الدارس أول ما يحاول دراسة الحياة الثقافية في بلاد الشام والجزيرة الى كتب التراجم مثل : " مشاهير علماء الأمصار " للبستاني (١) ، وكتاب " الطبقات الكبرى " لابن سعد ، وأشباههما من كتب التراجم ، ولكن غاية ما يفعله في هذه الكتب هو تراجم لأعلام القراء والمحدثين ، والفسرين ، والفقهاء ، والمؤرخين ، وأصحاب السير ، والنحاة واللغويين ، وقد يظفر من هذه التراجم بمعلومات يسيرة تسهم في رسم معالم عامة تحدد مناخ الثقافة في بلاد الشام ، وتشير بإشارات إلى أبرز المراكز الثقافية فيها . ومن هذا يتبين أن أشهر المراكز الثقافية هي : دمشق ، وحمص ، وبيروت ، والرقصة ، وطرسوس ، والمصيصة ، وبيت المقدس ، وأنطاكية ، وبعليبك ، وطبرية ، والرملة ، وعسقلان ، وأطرابلس على تفاوت بينها ، فكانت دمشق أبرزها على الإطلاق ، لأنها كانت عاصمة خلافة بني أمية ، فظل لها حضورها المتميز في العصر العباسي ، يشهد على ذلك أن المتوكل كاد ينقل مركز الخلافة العباسية إليها ، وكان المأمون قد زارها غير مرة وأقام فيها مرصداً فلنياً على جبل قاسيون (٢) .

وكانت حمص هي المركز الثقافي الثاني البارز ، وإليها ينسب عدد كبير من العلماء في هذه الفترة (٣) . وتحتل الرقة منزلة كبيرة من بين أبرز المراكز الثقافية في بلاد الشام ، ويعود ذلك إلى وقوعها على أطراف بلاد الشام المتاخمة للعراق من جهة ، ولقربها من مناطق الصراع بين المسلمين والروم من جهة ثانية ، فكان أن اتخذها الرشيد عاصمة ثانية لدولته ، واستقر بها بعض الاستقرار من بعده بعض خلفاء بني العباس ومنهم المأمون .

- 
- (١) البستاني ، محمد بن حبان : مشاهير علماء الأمصار ، تصحيح م . فلا يشهر ، مطبعة لجنسة التأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م .
  - (٢) انظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ١٠ : ٢٢٨ ، قضاة دمشق : ١٥ - ١٧ .
  - (٣) انظر أسما العلماء الحمصيين في معجم البلدان لياقوت : مادة حمص .

أما مدن الثغور ، وبخاصة طرسوس ، فكانت موئل المشطوعة والمجاهدين الذين كانوا يفتدون إليها من أقطار العالم الإسلامي للمرابطة والجهاد ، وكذا يقال عن مدن الثغور البحرية من مثل بيروت وأطرابلس وأنطاكية . في حين ظلت مدن فلسطين ضعيفة التأثير والمشاركة في النشاطات الثقافية ، فعدة من برز فيها من العلماء قليلون . ولعل ذلك راجع إلى انزوائها عن المشاركة الفاعلة في صناعة الأحداث السياسية في العصر العباسي ، وإلى إهمال العباسيين لها تبعاً لذلك ، فلم تحظ المدن الفلسطينية بالرعاية والعناية الواجبة ، مما دفع بأهل نابلس إلى ترك مزارعهم وأراضيهم في زمن الرشيد (١) ، ثم تفجر غضب الفلسطينيين في ثورة الفلاحين الضخمة أيام المعتصم والواثق (٢) . وقد عبر الذهبي عن ضعف مشاركة مدن فلسطين في الثقافة الإسلامية في العصر العباسي بقوله وهو يترجم لشهاب بن خراش الشيباني : "قال ابن عدي : ولا أعرف للمتقدمين فيه كلاماً فأذكره . . . . . وذلك لانزوائه بفلسطينين" (٣) .

ولم تكن مدن الأردن أحسن حالاً من مدن فلسطين ، فقد وسمت طبرية حاضرة جند الأردن بأنها "بلدة نائية عن جادة الطريق" (٤) وقل من يقدم عليها من العلماء (٥) .

وكانت المساجد هي مواطن التعليم والتعلم منذ القرن الأول للهجرة ، وفي ذلك يقول أحد شيوخ هذا القرن : "عهدت المسجد الجامع بدمشق ، وأن عند كل عمود شيخاً ، وعليه الناس يكتبون العلم" (٦) . وظل هذا شأنها بعد ذلك ، ففي ترجمة أبي مسهر الغساني قيل : "لا يئس مسهر الغساني حلقة في جامع دمشق بين العشاء والعتمسة" (٧) .

- (١) سبقت الإشارة إلى ذلك في الحديث عن الحياة السياسية .
- (٢) سبقت الإشارة إلى ذلك في الحديث عن ثورة المبرقع اليماني .
- (٣) شهاب بن خراش الشيباني كوفي تحول إلى الرملة ، محدث معاد للقدرية والمرجئة ، توفي قبل سنة ١٨٠ هـ ، انظر : سير أعلام النبلاء ، ٨ : ٢٥٢ .
- (٤) انظر : صورة تاريخ دمشق ٩ : ٨٤٥ - ٨٤٦ ، ترجمة عبد الرحمن بن إبراهيم المعروف بدحيم .
- (٥) انظر الجداول التي أعدتها ملكة أبيض عن عدد العلماء في أجناد الشام اعتماداً على تاريخ ابن عساكر في كتابها : التربية والثقافة العربية الإسلامية في الشام والجزيرة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٠ م ، ٢٩٦ ، وما بعده .
- (٦) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١٠ : ٣١٥ .
- (٧) ابن طولون : الثمر البسام ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، مطبوعات المجمع العلمي العربي ، بدمشق ، ١٩٥٦ : ١٥٠ .

ومن غير شك أن المساجد لم تكن وحدها دور العلم ، فقد كانت قصور الخلفاء والأمراء تشهد ألواناً من النشاطات الثقافية ، وبخاصة الأدبية منها . وفي تلك القصور كانت تلقى القصائد فيتصدي لها جمهور الحضور بالنقد والتعليق <sup>(١)</sup> ، على شاكلة ما كانت الحال عليه في قصر عبد الملك بن مروان في العصر الأموي <sup>(٢)</sup> . كما كانت لبعض الأدباء مجالس خاصة مثلما كان لأبي تمام مجلس للشعراء في حمص يعرضون عليه فيه أشعارهم ليتفهمها <sup>(٣)</sup> .

لقد كانت السمة الغالبة على المادة الثقافية المتداولة في القصور هي السمة الأدبية ، ولم تكن تلك المادة أكثر من ملاحظات عابرة ، ونصائح عارضة ، وهي جميعاً لا تشكل مادة كافية للدراس غير أن ذلك لا يعني أن المجالس كانت محصورة في الأدب . فقد شهدت الرقة مناظرة فقهية بين الشافعي (المتوفى سنة ٢٠٤هـ) ومحمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة (المتوفى سنة ١٨٩هـ) <sup>(٤)</sup> انتصر فيها الشافعي ، وكان لانتصاره هذا أثر في شيوع مذهبه الفقهي في الشام . فاندحر مذهب أهل الرأي الذي كان الشيباني يعمل على إشاعته في الرقة وأخذ الشاميون بعد ذلك بمذهب الشافعي السذي يتفق مع مذهب إمامهم الأوزاعي في اعتماده على الحديث النبوي ، ثم حل محله في نهاية المطاف بعد أن أشاعه أبو زرعة الدمشقي في أيام الخلاف بين ابن طولون وأبي أحمد الموفق <sup>(٥)</sup> .

كما شهدت الرقة مجلساً احتدم فيه النقاش بين المأمون ومجموعة من العلماء كان من بينهم بعض علماء أهل الشام حول قضية خلق القرآن . وكان عبد الأعلى بن مسهر الغساني الدمشقي ممن ابتلوا بهذه المحنة . فقد أبي أن يقول إن القرآن مخلوق ، فكان جزاؤه السجن في بغداد التي

- (١) انظر مثلاً الاغانى ١٣ : ١٤١ - ١٤٧ ، وفيه أخبار عن مثل هذه المجالس في قصر الرشيد بالرقة .
- (٢) انظر مثلاً على ذلك : إحسان عباس : "عبد الملك بن مروان ودوره في ثقافة عصره" ، مجلة دراسات ، المجلد ١٣ ، العدد الأول ، الجامعة الأردنية ، عمان ، ١٩٨٦ ، ١٠٩ - ١١١ .
- (٣) الصولي : أخبار الباحثين ، تحقيق صالح الاشر ، ط ٢ ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٦٤ ، ٥٥ ، ٥٦ .
- (٤) ياقوت : معجم الأدباء (نسخة مصورة عن نسخة عيسى البايي الحلبي ١٩ : ٢٤٦) .
- (٥) أصل أبي الحسن من قرية حرستا من غوطة دمشق . غلب عليه مذهب شيخه أبي حنيفة ، فعرف به ، ولاء الرشيد قضا الرقة . له مؤلفات كثيرة ذكرها ابن النديم في الفهرست : ٢٨٧ (نسخة مصورة عن طبعة دار المعارف) . وانظر هذه المناظرة في ابن عساكر في ترجمة محمد ابن إدريس الشافعي ١٤ : ٢٨٧ .
- (٥) انظر : التميمي ٢٢ - ٢٣ ، ابن تفردي ٣ : ١٨٣ ، ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ط ٢ ، دار المسيرة ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ٢٦ : ٢٣٩ .

أن مات . وأكبر الظن أن المأمون عرض أبا مسهر لهذه المحنة لسبيين ، فهو أولاً أراد أن يشيع فكره الاعتزالي دون أن يجد في أرض مملكته من يعارضه ، وبخاصة الفقهاء أصحاب التأثير الكبير في الناس من أمثال ابن حنبل وأبي مسهر وغيرهما . وهو ثانياً ينتقم من أبي مسهر لأنه - أي أبا مسهر - كان تولى القضاء في حكومة أبي العمير السفياني ، ولأن أبا مسهر انتقد تصرفات المأمون في المجامر الفخمة التي كانت تدلى بسلاسل وحبال من جيل قاسيون فتضيء الغوط<sup>(١)</sup> .

وشهدت دمشق مجلساً آخر للمأمون عقده لاختيار قاضٍ لحمص من بين أربعة من علمائها ، وقد وقع اختياره على خالد بن خلي أبي القاسم الكلاعي الحمصي لأن الثلاثة الآخرين أجمعوا على إبراز ثلاث صفات في خالد هي تراءته للقرآن ، وأخذ العلم ، وكتابته الفقه<sup>(٢)</sup> .

ومثلما تحرى المأمون الموضوعية في اختيار قاضي حمص ، تحرى أحمد بن محمد بن المدبر<sup>(٣)</sup> الذي ولي خراج دمشق والأردن في زمن المتوكل ، الدقة في مسألة من مسائل التاريخ ، فعقد لها مجلساً في دمشق حضره أكابر علمائها منهم هشام بن عمار ، وعبد الله بن ذكوان ، وأبو زرعة الدمشقي<sup>(٤)</sup> ، وناقش الحضور مسألة فتوح الشام أغنوة تمت أم صلحاً ، واستمع الإجابة عن هذا السؤال قضايا وإجراءات لها مساس وظيفي بوقف أرضها على المسلمين أو تقسيمها عليهم<sup>(٥)</sup> .

وهكذا يتبين أن مواد ثقافية متباينة كانت مدار المجالس الشامية ، أما حلقات التعلم والتعليم حول سوازي المساجد ، فكانت تتركز في العلوم الدينية ، دائرة في فلك القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، فشاعت القراءة وعلومها ، والحديث ، والفقه ، والتفسير ، والأخبار والسير ، وعلوم اللغة والنحو ، على تفاوت بينها في الاهتمام .

- 
- (١) انظر في ذلك الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، نسخة مصورة عن طبعة مطبعة دار السعادة ، ١٩٣٩ ، ١١٦ : ٧٢ ، سير أعلام النبلاء ، ١٠ : ٢٢٨ ، النعماني : ١٥ - ١٧ .
  - (٢) انظر قصة ذلك في : تهذيب ابن عساكر ، ٥ : ٣٣ .
  - (٣) انظر ترجمته في تهذيب ابن عساكر ، ٢ : ٦٢ . وقد توفي في سجن أحمد بن طولون بمصر سنة ٨٢٧ هـ / ٨٨٣ م .
  - (٤) هو أبو زرعة الدمشقي صاحب كتاب "تاريخ أبي زرعة" توفي سنة ٢٨١ هـ / ٨٩٤ م .
  - (٥) انظر تاريخ مدينة دمشق ، ١ : ٥٨٦ .



ففي الإقراء<sup>(١)</sup> كان ابن عامر اليحصبي قد أرسى قواعد قراءة أهل الشام منذ القرون الأولى للهجرة، وحذقها ثلاثة من قراء الشاميين هم عبد الله بن ذكوان المتوفى سنة ٢٤٢هـ / ٨٥٦م، وهشام بن عمار<sup>(٢)</sup> المتوفى سنة ٢٤٥هـ / ٨٦٩م، وهارون بن موسى بن شريك الأخفش الدمشقي<sup>(٤)</sup> المتوفى سنة ٢٩١هـ / ٩٠٢م، ورووها بالإسناد المتصل عنه. فإسناد قراءة ابن ذكوان عن ابن عامر كما في كتاب التيسير لابن الداني هو قوله: "حدثنا أيوب بن تميم التميمي<sup>(٥)</sup> قال: حدثنا يحيى ابن الحارث الذماري<sup>(٦)</sup> قال: قرأت على ابن عامر....."<sup>(٧)</sup>.

وإسناد رواية هشام إلى ابن عامر هو: "حدثنا عراك بن خالد المرّي<sup>(٨)</sup> قال: قرأت على يحيى بن الحارث الذماري قال: قرأت على عبد الله بن عامر....."<sup>(٩)</sup>.

- (١) ابن عامر أحد القراء السبعة المشهورين، وشيخ أهل الشام في الإقراء، توفي سنة ١١٨هـ. انظر في ترجمته: ابن الداني: التيسير في القراءات السبع، تصحيح أوتوبرنزل، مطبعة الدولة، إستانبول، ١٩٣٠: ٥ - ٦، ابن زنجلة: حجة القراءات، تحقيق سعيد الأفغاني منشورات جامعة بنغازي ١٩٧٤م، ١١٤ من مقدمة المحقق.
- (٢) كان ابن ذكوان إمام جامع دمشق، وشيخ الإقراء بالشام. انظر في ترجمته: ابن الجوزي غاية النهاية في طبقات القراء، شرح: برجستراسر، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٠م، ٤٠٤: ١، ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، تحقيق شكري فيصل وزميليه، مطبوعات مجلس اللغة العربية، دمشق، ٢٩٦: ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب ٢: ١٠٠.
- (٣) كان هشام إمام أهل دمشق وخطيبهم ومقرئهم ومحدثهم ومفتيهم. انظر في ترجمته: طبقات القراء ٢: ٣٥٤، شذرات الذهب ٢: ١٠٩.
- (٤) كان الأخفش الدمشقي أبرز تلاميذ ابن ذكوان، وإليه رجعت الإمامة في قراءته. انظر في ترجمته: معجم الأدباء، ١٩: ٢٦٣، السيوطي: بغية الوعاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٤، ٢٥: ٣٢٠، سير أعلام النبلاء، ١٣: ٥٦٦، طبقات القراء ٢: ٣٤٧، شذرات الذهب ٢: ٢٠٩.
- (٥) كان أيوب الدمشقي مقرئاً مشهوراً، توفي في خلافة المعتصم سنة ٢١٩هـ. انظر: طبقات القراء ١: ١٧٢.
- (٦) كان يحيى بن الحارث الدمشقي من أعيان التابعين وشيخ القراء بدمشق بعد ابن عامر، توفي سنة ١٤٥هـ، مصورة تاريخ دمشق ١٨: ٤٨، طبقات القراء ٢: ٣٦٧.
- (٧) التيسير: ١٣ - ١٤.
- (٨) كان عراك المرّي الدمشقي شيخ أهل دمشق في عصره. خلف في الإقراء بالشام يحيى بن الحارث الذماري. توفي قبل سنة ٢٠٠هـ. انظر ترجمته في: طبقات القراء ١: ٥١١.
- (٩) التيسير: ١٤.

وإسناد رواية الأُخفش إلى ابن ذكوان كما يرويهما أحد تلامذة الأُخفش هو قوله : "قرأت بها بدمشق على أبي عبد الله هارون بن موسى بن سُريك الأُخفش" ورواهما الأُخفش عن عبد الله بن ذكوان (١) .

وعلى الرغم من أخذ ابن ذكوان وهشام القراءة بإسناد متصل عن ابن عامر ، فإنهما أضافا إلى ما جاء عنه إضافات غير يسيرة تشهد بعلمهما الغزير ، واستقلالهما في الرأي استقلالاً لا يخرج عن الأسس الثلاثة المعروفة في صحة القراءة (٢) . وسائرا غيره من شيوخ القراء في بعضها ، وخالفاهم جميعاً في مواضع (٣) .

وقد ظل الإقراء بحرف ابن عامر ، وبروايئيه ابن ذكوان وهشام عنه هو الشائع في حلقات الإقراء في مساجد الشام على مدار دُور عديدة حتى قرأ بها ابن الداني المتوفى سنة ٤٤٤ هـ (٤) .

وظهرت في بلاد الشام إلى جانب هذه القراءة المشهورة قراءات شاذة (٥) ، وبخاصة فسي حصص ، وقد عرف بها موسى بن عيسى أبو عمرو الحمصي (٦) ، وعمران بن عثمان الزبيدي الشامي (٧) .

- (١) التيسير : ١٣ .
- (٢) الأسس المقصودة هي شروط الصحة في القراءة التي صاغها علماء القراءات وهي : (أ) موافقة القراءة رسم المصحف العثماني (ب) موافقتها وجهاً من وجوه العربية مجعماً عليه ، أو مختلفاً فيه اختلافاً لا يضر مثلسه (ج) صحة السند بالقراءة إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، متواترة من أول السند إلى آخره . انظر في ذلك : حجة القراءات : ١١-١٢ من مقدمة المحقق .
- (٣) انظر في إضافات ابن ذكوان وهشام ومخالفتهما لابن عامر ، الصفحات ٦٥ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٥٢ ، من كتاب التيسير .
- (٤) انظر التيسير : ١٣ ، ١٤ .
- (٥) القراءة الشاذة : هي ما صح نقله عن الآحاد ، وصح وجهه في العربية ، وخالف لفظه لفظ المصحف . ابن الجزري : النشر في القراءات العشر ، تصحيح علي محمد الضباع ، مطبعة مصطفى محمد بمصر : ١٤٠ ، وعرفها السيوطي بقوله : هي القراءة التي يختل فيها ركن من أركان القراءة الصحيحة ، سواء أكانت عن القراء السبعة المعروفين أم عن هو أكبر منهم ، انظر : الإتيان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، مطبعة المشهد الحسيني ، القاهرة ، ١٩٦٧ م ، ١ : ٢١٠ .
- (٦) انظر في ترجمته : طبقات القراء : ٢ : ٣٢٢ ، وفيه أنه توفي سنة ١٨٣ هـ .
- (٧) انظر في ترجمته : طبقات القراء : ١ : ٦٠٤ .

ويبدو أن أول ما كان يلقنه شادي العلم صبيًا هو قراءة القرآن ، فقد كان الأوزاعي لا يقبل في حلقة من الصبيان من لم يكن قد تعلم القرآن<sup>(١)</sup> . كأنه يتقنى في ذلك سنن عبد الحميد الكاتب في وصيته للكتاب بقوله : " وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل ، والفرائض ، ثم العربية " .<sup>(٢)</sup>

وكان تعليم مواد اللغة والنحو مصاحبًا لتعليم القرآن باعتبارهما علمين يسهمان في تحفيظ القرآن وتأويل آياته<sup>(٣)</sup> .

• وبلغ من اهتمام المسلمين في هذا العصر بتحفيظ القرآن وإقراءه أن كان للجنود مقرئون • ومن اشتهر بذلك يحيى بن الحارث الذمري المتوفى سنة ١٤٥هـ / ٧٦٣ م وأيوب بن تميم التيمي المتوفى سنة ١٩٠هـ / ٨٠٦ م<sup>(٤)</sup> .

وصنف علماء القراءات الشاميون المصنفات التي يذكر منها كتاب " فضائل القرآن " <sup>(٥)</sup> لهشام ابن عماره ، وكتابا " أقسام القرآن " و " ما يجب على قارئ القرآن عند حركة لسانه " لابن ذكوان<sup>(٦)</sup> . وتبدو الصبغة التعليمية واضحة في عنوان كتاب ابن ذكوان الثاني ، مما يدل على ممارسته لحرفة الإقراء .

ويبدو هذا التكامل بين علوم القرآن قراءة وتفسيراً ، وعلوم العربية نحواً ولغة ومعانسي ، في شخص هارون بن موسى بن شريك الأخفش الذي صارت إليه الإمامة في علوم القراءة بعد ابن ذكوان . فقد أجمع من ترجموا له على إمامته في القراءات السبع ومعرفته بالتفسير وعلوم اللغة والنحو وتأليفه فيها جميعاً<sup>(٧)</sup> .

- (١) مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٠ : ٨٤ .
- (٢) إحسان عباس : عبد الحميد الكاتب وما تبقى من رسائله ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان ، ١٩٨٨ : ٢٨٣ .
- (٣) انظر أمثلة على ذلك في ترجمة عمرو بن ميمون بن مهران ، وعبد الله بن محمد الكلابي في ابن عساكر " مصورة تاريخ دمشق " ١٣ : ٦٥٦ ، ١٠ : ٧٣١ .
- (٤) انظر في ترجمة أيوب : تهذيب ابن عساكر ٣ : ٢٠٢ .
- (٥) ذكره ابن الجزري في طبقات القراء ٢ : ٣٥٤ .
- (٦) ذكرهما ابن الجزري في المصدر نفسه ١ : ٤٠٤ .
- (٧) انظر معجم الأدباء ١٩ : ٢٦٣ ، طبقات القراء ٢ : ٣٤٧ ، بغية الوعاة ٢ : ٣٢٠ .

ولا يعرف لأهل الشام في هذه الفترة نشاط بارز في التفسير ، مع أنه يذكر أن أبا علي حسين ابن دواد المصيصي المحتسب المتوفى سنة ٥٢٢٦هـ / ٨٤١م ألف كتاباً كبيراً في التفسير سماه "التفسير الكبير" (١) ، كما ذكر أن لآدم بن إياس المؤززي العسقلاني المتوفى سنة ٥٢٢٠هـ / ٨٣٥م مصنفاً في التفسير (٢) ، وأن لسعيد بن بشير الدمشقي المتوفى سنة ٥١٦٨هـ / ٧٨٥م جهوداً في التفسير، غير أنه كان يرمي بالقدر ، فدعا بعض علماء أهل الشام إلى ترك الرواية عنه ، في حين أجاز الوليد بن مسلم (٣) ، وسعيد بن عبد العزيز (٤) ، وهما من خيرة علماء أهل الشام ، الإفادة منه في التفسير (٥) .

وعلى ذلك يلاحظ أن المهتمين بالتفسير في بلاد الشام كانوا قلة بالقياس إلى عدد المهتمين بالاقراء وعلوم الحديث ، والظاهر أن انشغال علماء الشام كان منصباً على قضايا تبعدهم عن الحرج في التأويل ، وبخاصة إذا علمنا أن التيار العام الشائع في بلاد الشام هو مسامرة ما أثار عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - من سنة . كما قد يكون للاعتماد على الحفظ باعتباره المصدر الأرقى من مصادر المعرفة الدينية أثر في دفع الناس إلى الإجماع عن حفظ التفسير مخافة الزلل ، والوقوع في الإثم ، فنقل تبعاً لذلك عدد المهتمين به (٦) .

وعني علماء الشام بالحديث النبوي عناية كبيرة رواية وتدويناً متناً وإسناداً .

- 
- (١) انظر تاريخ بغداد ٤٢ : ٨ ، سير أعلام النبلاء ١٠ : ٦٢٧ ، شذرات الذهب ٢ : ٥٩ .  
 (٢) انظر : السيوطي : طبقات الحفاظ ، تحقيق علي محمد عمر ، مطبعة الاستقلال الكبرى ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ١٦٨ .  
 (٣) كان الوليد بن مسلم أبو العباس عالم أعمل دمشق في زمانه ، توفي سنة ١٩٥هـ / ٨١٠م ، انظر في ترجمته : طبقات القسرا ٢ : ٣٦٠ .  
 (٤) هو سعيد بن عبد العزيز بن أبي يحيى التنوخي الدمشقي الفقيه ، قال عنه الإمام أحمد بن حنبل : ليس بالشام رجل أصلح حديثاً من سعيد ، هو والأوزاعي عندي سوا ، توفي سعيد سنة ١٦٧هـ / ٧٨٣م ، انظر : طبقات الحفاظ : ٩٣ ، سير أعلام النبلاء ٨ : ٢٨ .  
 (٥) انظر في ترجمة سعيد بن بشير : ابن سعد : الطبقات الكبرى ، دار صادر ، بيروت ٧ : ٤٦٨ ، تهذيب ابن عساكر ٦ : ١٢٣ ، شذرات الذهب ١ : ٢٦٥ .  
 (٦) انظر كتاب الداودي : طبقات المفسرين ، تحقيق علي محمد عمر ، مكتبة وهبه ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، فستجد عدد القراء كبيراً جداً بالقياس إلى عدد المفسرين .

أما المتن فاشترطوا في صحته شرطاً عاماً هو توافقه مع القرآن ، وفي ذلك يقول الإمام الأوزاعي :  
لا نقبل إلا ما صدقه كتاب الله . كما اشترطوا ألا يقبل من الحديث إلا ما لا يشك فيه أصحاب العلم  
والدراسة ، وفي ذلك يقول الأوزاعي أيضا : " كما نسنع الحديث فنعرضه على أصحابه كما نعرض الدرهم  
الزائف على الصيارفة ، فما عرفوا أخذنا ، وما أنكروا تركنا " . (١)

أما سند الحديث فاشترطوا في رجاله صفات الحفظ والصدق وسحة الكتب . وكان التلاميذ  
الناهبون يتحرون هذه الصفات في من يأخذون عنه . فكان الوليد بن مسلم مثلاً يسأل الأوزاعي وسعيد  
ابن عبد العزيز عن سيجال السهم من أهل العلم . (٢)

وقد استوعبت رواية الحديث في بلاد الشام معظم طرق الرواية من سماع مجرد ، وكتابة ، ونسخ ،  
من كتاب الشيخ ، وسماع مقرون بنسخة مكتوبة في يد التلميذ ليصح نسخه على ما يسمعه من شيخه ،  
وعرض نسخة التلميذ على الشيخ مما سمعه عليه ليقوم بقراءتها وتصويبها . وكانوا يعدون السماع المقرون  
بالعرض أصح من السماع المجرد ، وفي ذلك يقول العباس بن الوليد بن مزيد البيروتي : " سمعت من  
أبي ، وعرضت عليه ، والعرض أصح " . (٣)

وكانت رواية الشامي مقبولة فيما يرويه عن أهل الشام ، مردودة أحياناً فيما يرويه عن غيرهم إذا لم  
يكن قد دون مروياته عنهم . فقليل في إسماعيل بن عياش : " كان ثقة فيما يروي عن الشاميين ، وأما  
روايته عن أهل الحجاز فإن كتابه ضاع ، فخلط في حفظه عنهم . . . وأنه ليس به بأس في أهل الشام ،  
والعراقيون يكرهون حديثه " . (٤)

(١) تاريخ أبي زرعة الدمشقي بتحقيق شكر الله بن نعمة الله القوجاني ، مطبوعات مجمع اللغة  
العربية بدمشق ، ١٩٨٠م ، ٢ : ٧٢٢ ، صورة تاريخ مدينة دمشق : ترجمة منيب الأوزاعي  
١٧ : ٢٥٠ - ٢٥١ .

(٢) انظر صورة تاريخ مدينة دمشق : ترجمة الوليد بن مسلم ١٧ : ٨٩٩ .

(٣) انظر تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق شكري فيصل وزميليه ، الجزء الخاص بالتراجم من عبادة بن  
أوفى إلى عبد الله بن ثوب : ٢٧٧ ، سير أعلام النبلاء ١٢ : ٤٧١ . وقد توفي العباس بن مزيد  
البيروتي سنة ٢٦٧هـ / ٨٨٠م ، وانظر في بعض صور الرواية في هذه الفترة : تاريخ أبي زرعة  
الدمشقي ٢ : ٧٢٣ .

(٤) سير أعلام النبلاء ٨ : ٢٧٧ ، ٢٨٢ - ٢٨٥ . وإسماعيل بن عياش من محدثي الشام المشهورين ،  
قليل فيه : ليس أحد أروى لحديث الشاميين منه ومن الوليد بن مسلم . توفي سنة ١٨١هـ / ٧٩٧م .  
انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ٨ : ٢٧٧ ، طبقات الحفاظ ٨ : ١٠٨ ، تهذيب ابن عساكر ٣ : ٣٦ .

ونشط الشاميون نشاطاً كبيراً في تدوين ما سمعوه من أحاديث عن شيوخهم فقبل إن أبا مسهر الغساني جمع مادة ضخمة من علم شيخه الأوزاعي ، فأخذ مادة ثلاثة عشر كتاباً عن إسماعيل بن عياش<sup>١</sup> والباقي عن الوليد بن مزيد البيروتي<sup>(١)</sup> (المتوفى سنة ٢٠٧هـ / ٨٢٢م) . وذكر أن للوليد بن مسلم سبعين كتاباً كانت تدرس في مسجد باب الجابية بدمشق<sup>(٢)</sup> .

ويكمن تصنيف مؤلفات علماء أهل الشام في الحديث النبوي وعلومه في الاتجاهات التالية:

-- كتب المسانيد ، وفي هذه الكتب كانت الأحاديث النبوية المعروية عن صحابي تجمع في كتاب مستقل يسمى مسنداً كسند أبي بكر ومسند عائشة ومسند عثمان لأحمد بن علي بن سعيد<sup>(٣)</sup> .

-- كتب ترتب فيها الأحاديث النبوية في أبواب ، وتسمى تلك الكتب بالجامع أو المجموع ، أو المصنف ومنها كتاب الديات لخالد بن يزيد الهمداني<sup>(٤)</sup> .

-- كتب ، خاصة في نقد الرجال ، ومعرفة الشيخ ، وأهل الحديث ، وذلك يتضح مثلاً في أبي زرعة الدمشقي الذي ألف في علل الرجال<sup>(٥)</sup> .

-- كتب الطبقات ، وهي كتب تعنى بتصنيف المحدثين في طبقات تصنيفاً زمنياً ، بحيث يشكل الرجال الذين عاشوا في فترة زمنية طبقة واحدة . ويظهر أن أول مصنف اختط هذا الاتجاه في بلاد الشام هو مصنف محمود بن إبراهيم بن سميع القرشي<sup>(٦)</sup> (المتوفى سنة ٢٥٩هـ / ٨٧٢م)

- (١) كان الوليد أحد الثقات ، روى عن الأوزاعي وغيره . قيل فيه : كان ثقة وكانت كتبه صحيحة ، لا يخطئ ولا يدلس . انظر في ترجمته : ابن ماكولا : الإكمال ، صححه عبد الرحمن بن يحيى المعلمي ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدرآباد الدكن ، الهند ، ١٩٦٢ ، صورة تاريخ مدينة دمشق ١٧ : ٨٩٣ ، سير أعلام النبلاء ، ١٩ : ٤١٩ .
- (٢) انظر في ذلك : صورة تاريخ دمشق ١٧ : ١٠٤-١٠٥ ، سير الأعلام ١ : ٢١٥ ، وانظر أيضاً في ترجمة محمد بن فراس أبي عبد الله العطار : صورة تاريخ دمشق ١٥ : ٨٥٣ .
- (٣) انظر في ذلك : ترجمة أحمد بن علي بن سعيد في قضاة دمشق : ٢١ ، شذرات الذهب ٢ : ٢٠٩ .
- (٤) انظر في ترجمة إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني (ت ٢٥٦هـ) : تهذيب ابن عساكر ٢ : ٣١٠ .
- (٥) انظر : ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، دار المعرفة ، بيروت ١ : ٢٠٥ ، تاريخ أبي زرعة ١ : ٥١ من مقدمة المحقق .
- (٦) انظر صورة تاريخ مدينة دمشق ١٦ : ٢٨٥ .

ثم على نهجه سار تلميذه أبو زرعة في كتاب له في هذا الاتجاه (١) .

كتب في التاريخ المحلي لأعلام المحدثين ، ومن أمثلتها البارزة كتاب "تاريخ أبي زرعة"   
الدمشقي ، وكتاب "تاريخ الحميين" لأحمد بن محمد بن عيسى البغدادي (٢) .

وعلى الرغم من شيوع ظاهرة التأليف في الحديث النبوي وتدوينه فإن بعض المحدثين ظل   
حذراً في قبول ما يرد في هذه المدونات من أحاديث ما لم تقرن بالسمع على الشيخ ، وفي ذلك يقول   
خلف بن نعيم بن مالك (المتوفى سنة ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م) ، وقد طلب منه نسخ كتاب لحيوة بن شريح (٣)   
" لا أقبله إلا سماعاً " (٤) .

وتعرضت بعض هذه المصنفات للنقد والتجريح ، لا لمنهجيتها ، بل لما أخذ أخذت على مصنفها   
في التريث والكذب . ومن أمثلة ذلك النقد الذي وجهه ابن معين لخالد بن يزيد بن عبد الرحمن   
الهمداني (المتوفى سنة ١٨٥ هـ / ٨٠١ م) فقال : "في الشام كتاب" وفي العراق كتاب ينبني أن يدفنا   
٠٠٠ . وأما الذي بالشام فكتاب الديات لخالد بن يزيد ، لم يرض أن يكذب على أبيه ، حتى كذب على   
أصحاب رسول الله " (٥) .

وعلى الرغم من تقديم العلماء المسلمين عموماً للعلم المأخوذ بالسمع (٦) فإن ذلك لم يمنع   
علماء الحديث الشاميين من الأخذ عن لم يكن يحسن الحفظ ، إذا ثبت لديهم أنه متقن الكتب ، ومن

(١) انظر مقدمة كتاب تاريخ أبي زرعة ١ : ٥٤ .

(٢) انظر ترجمته في مصورة تاريخ دمشق ٢ : ٢٠٨ ، ولمزيد من التفصيل في هذه الاتجاهات

انظر مقدمة التحقيق في تاريخ أبي زرعة ١ : ٤٨ - ٧٧ .

(٣) حياة بن شريح عو أبو زرعة المصري ، كان فقيهاً عابداً ، توفي سنة ١٥٨ هـ / ٧٧٤ م انظر

في ترجمته : ابن سعد ، طبقات ابن سعد ٧ : ٥١٥ ، شذرات الذهب ١ : ٢٤٢ ، طبقات

الحفـاظ : ٨٠ - ٨١ .

(٤) تهذيب ابن عساکر ٥ : ١٧١ .

(٥) تهذيب ابن عساکر ٥ : ١١٦ .

(٦) انظر ما قاله ابن سلام الجمحي في ذلك : طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود محمد

شاکر ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ١٩٧٤ م ، السفر الأول فقرة (٤) : وليس لأحد ٠٠٠٠ أن يقبل

من صحيفة ولا يروى عن صُفـفـي .

هو «العلماء الوليد بن مزيد البيروتي» فقد قال عنه أبو مسهر النسائي : «ثقة لم يحفظ» وكان كتب صحيفته<sup>(١)</sup> ، وقال الأوزاعي عنه أيضاً : «ما عرض علي كتاب أصح من كتب الوليد بن مزيد»<sup>(٢)</sup> .

ومن القضايا اللافتة للنظر في المدرسة الشامية أيضاً تجويز رأسها الأوزاعي إصلاح اللحن في الحديث ، ووجهه في ذلك ، وعمي حجة منطقية «أن القوم كانوا عرباً»<sup>(٣)</sup> .

وعلى الجملة فإن عناية الشاميين بالحديث النبوي كانت كبيرة ، وكان لكل مدينة من مدنها محدثوها المشهورون ، فكان لأهل حمص أبو المنيرة عبد القدوس بن الحجاج الخولاني المتوفى سنة ٨٢٧/٥٢١٢ م ، وله مسند أهل حمص<sup>(٤)</sup> ، وكان لفلسطين صخرة بن ربيعة أبو عبد الله الرملسي المتوفى سنة ٨١٧/٥٢٠٢ م<sup>(٥)</sup> ، وكان لأهل الشام أبو إسحاق الفزاري المتوفى سنة ١٨٦ هـ / ٨٠٢ م<sup>(٦)</sup> ، وبرز في دمشق أكابر محدثي أهل الشام : الأوزاعي ، وأبو مسهر النسائي ، والوليد بن مسلم الذي اختص بحفظ الحديث الطويل ، وأحاديث الملاحم . وكان محدث أهل عسقلان آدم بن أبي إياس المتوفى سنة ٨٢٥/٥٢٢٠ م ، وكان الوليد بن محمد الموقري من أشهر محدثي أهل البلقاء ، وإن كان مرمياً بالتدليس والضعف<sup>(٧)</sup> .

وفي الفقه كسبت السيادة لمذهب الإمام الأوزاعي في الشام تقريباً من مائتين وعشرين سنة<sup>(٨)</sup> ، إذ ظل مذهبه يدرس في دمشق حتى وفاة أحمد بن سليمان بن حذلم في سنة ٢٤٧ هـ<sup>(٩)</sup> . كما عمل به أهل الأندلس مدة<sup>(١٠)</sup> ، وذلك دليل واضح على المكانة الكبيرة التي بلغها الأوزاعي في الفقه .

- (١) صورة تاريخ دمشق ١٧ : ٨٩٦ .
- (٢) المصدر نفسه ١٧ : ٨٩٦ ، سير الأعلام ٩ : ٤١٩ .
- (٣) انظر : تاريخ أبي زرع الدمشقي ٢ : ٧٢٢ ، صورة تاريخ دمشق ١٠ : ٨٥ - ٨٦ .
- (٤) انظر : سير الأعلام ١٠ : ٢٢٣ .
- (٥) انظر : المصدر نفسه ٩ : ٣٢٥ .
- (٦) انظر نفسه : ٨ : ٤٧٣ .
- (٧) انظر صورة تاريخ دمشق ١٧ : ٨٨٨ - ٨٩١ .
- (٨) انظر محاسن المساعي في مناقب الإمام الأوزاعي : ٢٤ ، تاريخ بيروت لصالح بن يحيى ، تحقيق لويس شيخو ، نشر مجلة المشرق ، المجلد الأول ، سنة ١٨٩٨ ، ١٣٢٥ .
- (٩) انظر ترجمته في سير الأعلام ١٥ : ٥١٤ ، الذهبي : العبر ، تحقيق فؤاد سيد ، الكويت ، ١٩٦١ م ، ٢٧٥ : ٢٤٥ .
- (١٠) انظر : المقرئ : نفع الطيب ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ٣٤٠ - ٣٤١ .



وعناد مذهب الإمام الأوزاعي في الفقه قائم على منحج الاتباع . ولعل ذلك يعود إلى أنه كان قد نشأ محدثاً ، فاستتبع ذلك تخرجه من إبداء رأيه الشخصي في مسائل الحياة والناس ما لستم يكن له سند شرعي من القرآن أو الحديث .

وكان تأثير الإمام الأوزاعي في أهل الشام كبيراً ، فعندما عرض الأوزاعي بثور بن يزيد القسري سارع أحد التلاميذ إلى محو كتابه الذي كان سمعه من ثور . كما سارع أهل حمص إلى نفي ثور من بلدهم (١) .

وقد أدرك العباسيون ما للأوزاعي من قيمة وتأثير كبيرين في أهل الشام فعملوا على التقرب منه ، والتودد إليه . وكان أول تماس بينهم وبينه في أعقاب هزيمة بني أمية على يد علي بن عيسى العباسي . فقد استحضر عبد الله الأوزاعي إلى مجلسه ثم سأله عن دماء بني أمية وأموالهم ، فقال له الأوزاعي بجرأة نادرة : " قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والشيب الزاني ، والتارك لدينه المفارق للجماعة . . . إن كانت أموال بني أمية - في أيديهم حراماً فهي حرام عليك أيضاً ، وإن كانت لهم حلالاً فلا تحل لك إلا بطريق شرعي " (٢) .

ويبدو أن هذا اللقاء كان لقاء اختبار لقوة هذا الإمام ، فلما أبصر عبد الله بن علي ما أبصر من رباطة جأش الأوزاعي تودد إليه فعرض عليه القضاء ، ولكن الأوزاعي أبى قبوله .

وكان أبو جعفر المنصور كثيراً ما يخطب ود الأوزاعي ، فكتب إليه رسالة طلب منه فيها أن يكون له ناصحاً (٣) ، ولبي الأوزاعي هذه الرغبة فكان يرسل إلى المنصور الرسائل في شؤون المسلمين . واستعفى الأوزاعي المنصور من لبس السواد - شعار العباسيين - فأعفى احتراماً ، أو خشية ، أو عما معسلاً .

(١) انظر: تهذيب ابن عساکر ٣: ٢٨٦ .  
(٢) محاسن المساعي : ٨١ - ٨٢ .  
(٣) انظر هذه الرسالة في صورة تاريخ مدينة دمشق ١٠: ٩٧ ، سير أعلام النبلاء ١٢٥ : ٧ .

وقد حاول خلفاء بني العباس الثالون أن يتّودوا مذهب أبي حنيفة في الشام كما ساد في العراق ، فعين الرشيد محمد بن الحسن الشيباني قاضيًا على الرقة ، وعين المأمون يحيى بن صالح الوحاظي <sup>(١)</sup> قاضيًا على حمص ، وعين المعتمد عبد الحميد أبا حازم السكوني البصري <sup>(٢)</sup> قاضيًا على دمشق والأردن وفلسطين .

ويستفاد من الرواية القائلة إن الأوزاعي أتى في سبعين ألف مسألة <sup>(٣)</sup> شيئا : أن الطريقة المتبعة في الإفتاء كانت تتم بأن يلقي التلاميذ أسئلتهم واستفساراتهم فيجيب عنها الشيخ ، ويتناقلها الناس عنه بعد ذلك ، وأن عدد المسائل التي أتى فيها الأوزاعي كبير جدا .

ويبدو أن الأوزاعي كان يشجع تلاميذه على التصدر للإفتاء ، مثلما أباح ل محمد بن شعيب ابن شاذب أن يفعل في مجلسه <sup>(٤)</sup> .

وشجع الأوزاعي مذهبه الفقهي بالإكثار من رواية قصص المناري ، وبالجرأة في مخاطبة العباسيين في شؤون المسلمين بعمامة ، وفي بعض مشكلات الشاميين من مسلمين ونصارى بخاصة . وقصته مع نصارى لبنان الذين فرقهم صالح بن علي العباسي في مدائن الشام ذائعة مشهورة <sup>(٥)</sup> ، ومن أجل ذلك أحبه الشاميون جميعًا ، فلما مات خرج في جنازته المسلمون واليهود والنصارى <sup>(٦)</sup> .

ويتضح لدارس سيرة الإمام الأوزاعي أنه أتباع مذهبه الفقهي عن طريقين : -

- (١) يحيى بن صالح الوحاظي ، قيل هو من أهل دمشق ، وقيل بل حمصي ، حدث عن مالك بن أنس وسعيد بن عبد العزيز وغيرهما . استفده المأمون إلى دمشق ليوليه قضا حمص . توفي سنة ٢٢٠هـ / ٨٣٥م . انظر مصورة تاريخ دمشق ١٨ : ١٢٦ .
- (٢) المتوفى سنة ٢٩٢هـ / ٩٠٥م ، قيل في ترجمته : كان عراقي المذهب في الفقه ، انظر ترجمته في مصورة تاريخ دمشق ٩ : ٨٠٢ .
- (٣) انظر محاسن المساعي : ٦٦ .
- (٤) انظر في ترجمة محمد بن شعيب : مصورة تاريخ دمشق ١٥ : ٤٦٢ ، وكان محمد بن شعيب هذا الرابع من العشرة الذين كانوا أعلم الناس بالأوزاعي وبحديثه وفتياه . وهو من ثقات الشاميين من بيروت ، وبها توفي سنة ١٩٧هـ / ٨١٢م .
- (٥) البلاذري : فتوح البلدان ٢٢٢ ، سير الأعلام ٧ : ١٢٧ ، خطط الشام ١ : ١٥١ .
- (٦) انظر : سير الأعلام ٧ : ١٢٧ .

الأول : مجالس العلم التي يلتقي فيها الطلاب فيسألونه ويجيبهم .  
الثاني : كتابة الرسائل إلى ذوي السلطان وإلى أشخاص معينين ، ككتابه رسالة إلى قـدري يعظه فيها (١) .

ويظهر أن فقه الأوزاعي كان يركز على ائتلاف الصف الإسلامي ، ولذلك كانت معاداته لأهـمـسـلـ القدر نابذة من خشيته من وقوع الفتنة بين الناس ، ولأن القول بالقدر يبعدهم عن إجلال صحابة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم (٢) . ولم يكن هذا شأنه مع أهل القدر حسب ، بل كان ذلك مع من يرى في تصرفه أو اعتقاده مساساً بوحدة هذا الصف . فقد بلغ الأوزاعي أن عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان العنسي (٣) أخذ يتخلف عن الجُمُعات والصلوات في المسجد الجامع بحجة أن الصلاة لا تجوز خلف ولاية الجور ، فكتب إليه رسالة ينهاه فيها عن ذلك (٤) .

إن محاربة الأوزاعي وتلامذته للقائلين بالقدر تدل دلالة قطعية على كثرة أتباع مذهب القدرية ، وذلك يعني أيضاً أن قتل غيلان الدمشقي (٥) ، في زمن هشام بن عبد الملك المتوفى سنة ١٢٥هـ / ٧٤٣م لم يجتث آثار القدرين في الشام . فقد عرف في فترة الدراسة من المشهورين بالقول بالقدر غير ثور بن يزيد ومحمد بن عائد الدمشقي جماعة أخرى منهم سعيد بن بشير الدمشقي (٦) المتوفى سنة ١٦٨هـ / ٧٨٥م ويحيى بن حمزة الحضرمي (٧) المتوفى سنة ١٨٣هـ / ٨٠٠م .

- (١) انظر: تهذيب ابن عساكر ٦: ٤١٣ .
- (٢) انظر: تهذيب ابن عساكر ٦: ٣٤٤ ، ابن حجر العسقلاني : ميزان الاعتدال ، تحقيق علي محمد البجاري ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ٢: ٣١٠ ، سير النبلاء ٧: ٣١٥ .
- (٣) كان شيخاً عالماً من أهل دمشق ، توفي سنة ١٦٥هـ / ٧٨١م ، انظر ترجمته في : البخاري ، التاريخ الكبير ، دار الكتب العلمية ، بيروت ٥: ٢٦٥ ، مشاهير علماء الأمصار : ١٨١ ، تاريخ بغداد ١٠: ٢٢٢ ، سير الأعلام ٧: ٣١٣ - ٣١٤ .
- (٤) انظر هذه الرسالة في : البسوي ، المعرفة والتاريخ ، تحقيق أكرم ضياء العمري ، ط ٢ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨١م ، ٢: ٣٩١ ، سير الأعلام ٧: ٣١٤ .
- (٥) هو غيلان بن مسلم الدمشقي تنسب إليه فرقة النبلانية القدرية ، كان عمر بن عبد العزيز استتابه عن القول بالقدر فتاب ثم رجع إلى مذهبه في خلافة هشام بن عبد الملك فاحضر الإمام الأوزاعي لسنابته فأفتى الأوزاعي بقتله فقتل بدمشق بعد سنة ١٠٥هـ . انظر: الشهرستاني : الملل والنحل ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، دار المعرفة ، بيروت ١٩٨٤ ، ١: ٤٤٧ ، مصورة تاريخ دمشق ١٤: ١٨١ .
- (٦) انظر ترجمته في مصورة تاريخ دمشق ٧: ٥٧ .
- (٧) انظر مصورة تاريخ دمشق ١٨: ٥٧ ، قضاة دمشق ١٣ - ١٤ ، سير الأعلام ٨: ٣١٤ ، ابن حجر : التهذيب ١١: ٢٠٠ ، شذرات الذهب ١: ٣٠٥ .

والذي يغلب على الظن أن القول بالقدر لدى هؤلاء العلماء لم يكن عقيدة راسخة، ومنهجاً متبعاً، وإنما كان ميلاً إليه. ولذلك روى أصحاب الحديث عن هؤلاء الشيوخ أحاديث نبوية كثيرة (١) كما أجازوا الأخذ عن سعيد في التفسير. وقالوا في محمد بن عائذ: مؤرخ صادق، وقد ظل كتابه "المغازي" متداولاً إلى عصر شمس الدين الذهبي الذي قال: "سمعت معظمه" (٢).

ويبدو أن تبني المأمون والمعتصم والواثق لمبدأ القائلين بالقدر، وتشدد الواثق منهم به، لم يشرف في بلاد الشام في هذه الفترة عن قديرين راسخين، أو معتزلة مشهورين، بل ظل مذهب أهل الشام مذهباً يقوم على الأصول السنية الكبرى، وهي: الأخذ بما أمر الله، والنهي عما نهى، والرضا بقضاء الله، والتسليم لأمر الله، والصبر على حكمه، والإيمان بالقدر خيره وشره، وترك العسراء والجدال والخصومات في الدين، والصلاة يوم الجمعة مع كل بر وفاجر، والصلاة على من مات من أهل القبلة، والإيمان قول وعمل يزيد وينتقص، والقرآن كلام الله، والجهاد مع كل خليفة، وإن عمل أي عمل، والصبر تحت لواء السلطان على ما كان منه من عدل أو جور، وعدم الخروج على الأمراء بالسيف وإن جاروا، وعدم إنزال أحد من أهل القبلة جنة أو ناراً، وعدم تكفير أحد من أهل التوحيد ولو عمل بالكبائر، والكف عن مساوي أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم..... (٣).

وسبب من هذا المنهج العام في فكر أهل الشام، فإن الحركات الفكرية الخارجة عن هذا الإطار التي كانت تظهر في بعض المدن الشامية كانت سريعاً ما تختفي، وذلك لأن الشاميين كانوا يعارضونها. فعلمنا لم يعرف من الشاميين قدير كبير، قبرت الفقرة الكرامية في بيت المقدس بعد أن تبين لأهلها ولتمولي السلطان فيها أن محمد بن كرام يقول: إن الإيمان قول بلا عمل، مع أنه قيل إن أصحابه ببيت المقدس نحو من عشرين ألفاً (٤). كما قبرت الحركة الراوندية التي زعم أتباعها أنهم بمنزلة الملائكة، والتي ظهرت في حلب في حدود سنة ١١٤١هـ/٢٥٨م (٥).

- (١) انظر: مصورة تاريخ دمشق ١٥: ٤٨٦، في ترجمة محمد بن عائذ الدمشقي، ١٨: ١٢٨، في ترجمة يحيى بن صالح الوحاظي.
- (٢) سير الأعلام ١١: ١٠٤.
- (٣) انظر: مصورة تاريخ دمشق ٣: ١٢٣-١٢٤ (ترجمة أمية بن عثمان الدمشقي).
- (٤) انظر في الكرامية وصاحبها محمد بن كرام المتوفى سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م، البداية والنهاية ١١: ٢٠.
- (٥) انظر: الأزدي: تاريخ الموصلي: ١٧٣.

غير أن بلاد الشام شهدت انتشاراً ملحوظاً للزهاد يقيمون في بيروت أو طرسوس أو بيت المقدس أو سواها . ولم يكن هؤلاء الزهاد العباد جميعاً شاميين ، بل كان بعضهم يفتد إلى بلاد الشام للإقامة في شغورها مرابطاً مجاهدًا ، ويتبدى<sup>ذلل</sup> من أنساب الكثرة الكاثرة منهم إلى شغور الشام ، لأن زهدهم أو زهد أكثرهم كان استجابة لدواعي الجهاد ، أو لأنه أثر من آثار المآسي والنكبات التي كانت تشهدها تلك الشغور بحكم طبيعتها الحربية ، فهانت الدنيا عليهم وهم يرون الموت يتخطف الأرواح ، ويعصف بمتع الحياة . ويضاف إلى ذلك مآسي الشام العامة بفعل الفتن الداخلية والحروب بين العباسيين والأمويين . وهكذا كان سليمان الخواص بيروتيًا<sup>(١)</sup> ، وعلي بن يكار البصري مصيبيًا<sup>(٢)</sup> ، وأحمد بن عاصم أنطاكيًا<sup>(٣)</sup> ، ومحمد بن عمرو غزنيًا<sup>(٤)</sup> ، وأحمد بن أبي الحواري دمشقيًا<sup>(٥)</sup> ، وهم جميعاً ممن أبرز الزهاد الشاميين .

واهتم فريق من علماء الشام بالرواية التاريخية ، فرروا قصر المغازي والفتوح ، والأحاديث النبوية الطويلة وبخاصة أحاديث الملاحم ، ومن اشتمر برواية هذا الضرب من الأحاديث الوليد بن مسلم . وقد روي عن اهتمامه بها روايات تدل جميعها على سعة حفظه ، وكثرة تصنيفه حتى قيل تصنفات الوليد سبعون كتابًا .<sup>(٦)</sup> وألف محمد بن عائذ الدمشقي كتب "المغازي" و "الفتوح" و "الصوائف"

وفي فتوح البلدان للبلاذري مواطن عديدة تدل على أخذه كثيرًا من رواياته في أخبار الفتوح والمغازي عن شيوخ من المؤرخين الشاميين من مثل قوله : "حدثني هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم عن الأوزاعي"<sup>(٧)</sup> ، و "حدثني أبو حفص الدمشقي عن سعيد بن عبد العزيز"<sup>(٨)</sup> ، و "حدثني جماعة من أهل العلم بأمر الشام"<sup>(٩)</sup> .

- (١) انظر ترجمته في سير الأعلام ١٥٩ : ٨ .
- (٢) انظر حلية الأولياء ٣١٨ : ٩ ، سير الأعلام ٥٨٤ : ٩ .
- (٣) السلمي : طبقات الصوفية ، ط ٢ ، تحقيق نور الدين شريعة ، دار الكتاب النفيس ، حلب ، ١٩٨٦ هـ ، ١٢٧ ، سير الأعلام ٤٨٧ : ١ .
- (٤) انظر : سير الأعلام ٤٦٤ : ١١ .
- (٥) انظر : حلية الأولياء ٥٠ : ١ ، طبقات الصوفية : ٩٨ ، سير الأعلام ٩٥ : ١٢ .
- (٦) انظر : بصورة تاريخ دمشق ١٧ : ١٢٩ ، سير الأعلام ٢١٥ : ١ .
- (٧) فتوح البلدان : ١٨٩ .
- (٨) نفسه : ١٧٩ - ١٨١ .
- (٩) نفسه : ١٩٥ .

وعلى الرغم من الشهرة الفائقة التي حظي بها الأوزاعي في مجالَي التحديث والفقه ، فقد عرفته ولعه برواية المغازي حتى قيل فيه وفي الإمام مالك في مقارنة دالة : غير الأوزاعي الإمام مالكاً في المغازي ، وغيره مالك في الفقه (١) .

إن اهتمام علماء الشام بالرواية التاريخية يظل جزءاً من الاهتمام العام بالحديث النبوي وتدوينه ، وجلاء ما غرض من أمره . ولذلك كان المؤرخون هم المحدثين والفقه (٢) . ولم يبدأ التصنيف التاريخي في بلاد الشام بمعزل عن علوم الحديث إلا في فترة تالية في القرن الثالث الهجري ، عندما بدأ المؤرخون يُعَنَوْنَ بذكر فضائل بعض مدن الشام . ولعل هذا التحول كان وليد الظروف السياسية والاجتماعية القاسية التي كانت تعربها مدن الشام . وخير ما يمثل هذا الاتجاه المعنوي بذكر فضائل مدن الشام كتاب "فضائل بيت المقدس" للوليد بن حماد الرملي (٣) ، وكتاب ابن طيفور في فضل دمشق ، الذي صنفه صاحبه ليرغب المتوكل في السكنى فيها ، فتحدث فيه عن صحة هوائها وعذوبة مائها (٤) ، وإذن فإن هذا الاتجاه من التأليف التاريخي في بلاد الشام كان كأنه "رد فعل على المآسي والآلام التي كانت تحل بالشام منذ أوائل العصر العباسي . . . . . فظهرت كتب الفضائل . . . . . لتدافع عن الاستيطان في هذه المناطق" (٥) .

غير أن هذا الاتجاه لم يكتب له الشيع والانتشار حتى كان عصر الحروب الصليبية : فعناد ليظهر بقو من جديد . في حين ظل الاتجاه السائد على مدار القرنين الثاني والثالث الهجريين هو التدوين التاريخي المنبثق من علوم الحديث . وكان كتاب أبي زرعة الدمشقي عومسك الختمام فسي المصنفات التاريخية الشامية في هذه الفترة وعمصنف جامع لسيرة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، ولسير الخلفاء الراشدين ، وفيه ذكر لأهل الفتوى من قضاة دمشق وفلسطين ، وفيه تراجم لطبقات من

- (١) انظر: ابن كثير ١١: ١١٦ ، محاسن المساعي : ٦٦ .
- (٢) انظر: الأقوال الواردة في اختصاص أهل الشام بالمغازي : تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، مطبوعات المجمع العلمي العربي ، دمشق ، ١٩٥١ ، المجلد الأول : ٣١٦ - ٣١٧ .
- (٣) انظر: سير الأعلام ١٤ : ٧٨ .
- (٤) انظر : مصورة تاريخ دمشق ١٥ : ٤٨٥ ، ترجمة محمد بن أبي طيفور .
- (٥) شاعر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٩ ، ٢ : ٢٢٣ .

الصحابة والتابعين والعلماء من توفوا بدمشق<sup>(١)</sup> . غير أن هذه الخصوصية في التأليف التاريخي لم تمنع من الاعتماد بالتأليف في تاريخ جند من الأجناد، فقد صنف حرّانيان هما أبو عمرو الحسن بن محمد بن أبي معشر الحرّاني المتوفى سنة ٣١٨هـ، وأبو الحسن علي بن علان بن عبد الرحمن الحرّاني، كتابين في تاريخ الجزيرة<sup>(٢)</sup> .

وعني بعض علماء الشام بعلوم اللغة والنحو، غير أن عناية الشاميين بهذين العلمين كانت محدودة، ولا تقاس بحال بعناية أهل العراق بهما، وليس لذلك من تعليل غير كثرة الفتن والفلاقل التي مرت بالشام، فتوجهت أنظار العلماء إلى أماكن آمنة، وإلى أماكن يجدون في ظلها التشجيع والرعاية والعناية من السلطة، وذلك كله في العراق، فشدوا إليها الرحال .

ومع ذلك، فإن بلاد الشام لم تعدم الاهتمام بهذين العلمين، فإن المبرد رأس المدرسية البصرية في زمانه يذكر أنه أتى الشام وهو حدث فكتب عن الشاميين، وتلقى العلم منهم<sup>(٣)</sup> .

واشتهر من الشاميين بعلوم اللغة والنحو جماعة أبرزهم عارون بن موسى بن شريك الأخفش الدمشقي الذي كان عارفاً بالتفسير والنحو والمعاني والغريب، وصنف في ذلك المصنفات<sup>(٤)</sup>، وعلال بن العلاء الرقي (المتوفى سنة ٢٨٠هـ/٨٩٣م بالرقعة) الذي وُصِف بأنه من أهل العلم واللغة<sup>(٥)</sup>، وأحمد بن مروان المؤدب العكسي بأبي مسهر، وهو من أهل الرملة، وكان عالماً باللغة شاعراً فسي أيام المتوكل<sup>(٦)</sup> .

ولأن أخبار هؤلاء اللغويين والنحاة الشاميين جاءت في كتب التراجم، فإن الدارس لا يقع على شيء من تراثهم اللغوي أو النحوي، ويبدو أن لغويي الشام ونحاتها لم يتركوا لهم بصمات

- (١) انظر في التعريف بهذا الكتاب: مقدمة محقق تاريخ أبي زرعة ١: ٥١ - ٥٢ .
- (٢) انظر معجم البلدان (حوران) .
- (٣) انظر: مصورة تاريخ دمشق ١٦: ١١٥، معجم الأدباء ١٩: ١١١ .
- (٤) انظر: ياقوت: معجم الأدباء ١٩: ٢٦٣، السيوطي: بغية الوعاة ٢: ٣٢٠ .
- (٥) انظر: ياقوت: معجم الأدباء ١٩: ٢٩٤، بغية الوعاة ٢: ٣٢٩ .
- (٦) معجم الأدباء ٥: ٦٢، بغية الوعاة ١: ٣٩١ .

واضحة في التراث العربي النحوي واللغوي في هذه الفترة ، وإنما كانت مشاركتهم هامشية بالقياس إلى ساحة العراق ولغوييه البصريين والكوفيين والبغداديين .

وشهدت بعض نواحي الشام نمطا آخر من أنماط الثقافة ، وذلك بالإقبال على ترجمة بعض المؤلفات اليونانية والسريانية ، وبالتأليف في علوم الأوائل من فلسفة ومنطق . وألفت إلى جانب ذلك مؤلفات في علوم الطبيعة من فلك وحساب وهندسة . ومهر بعض الشاميين في الطب والنجوم .

وتجدر الملاحظة هنا أن الشاميين الذين برعوا في هذه الميادين جميعاً كانوا دمشقيين أو حرانيين . فمن الدمشقيين يذكر العلماء : الحكم بن أبي الحكم الدمشقي الطبيب الذي عاش في صدر الدولة العباسية <sup>(١)</sup> ، والذي عظمه الدمشقيون لفضله عليهم في الطب ، وعيسى بن الحكم الدمشقي الطبيب الذي وصف بأنه حسن المباشرة والمعالجة <sup>(٢)</sup> .

ومن الحرانيين نبغ عدد من العلماء في المنطق والحساب والهندسة والتنجيم . ولأن هؤلاء الحرانيين كانوا صابئة ، فقد ترجموا مؤلفات كثيرة عن السريانية إلى العربية لعدد من خلفاء بني عباس . ومن هؤلاء يذكر قسطنطين بن لوقا البعلبكي ، فقد كان فيلسوفاً شامياً ، وكان دخلاً بلاد الروم ، وحصل من تصانيفهم الكثير ، وعاد بها إلى الشام . ثم لما اشتهر أمره استدعاه العباسيون إلى العراق ليترجم لهم . وقد صنف وترجم الكثير <sup>(٣)</sup> ، ومنهم أيضاً ثابت بن قرة الحراني الصابي الذي صنف وترجم الكثير ، وكان مقرباً من المعتضد <sup>(٤)</sup> ، وكان نبغ أول ما نبغ بخران ، ثم أقدمه الخليفة المعتضد إلى بغداد ، وأدخله في جملة المنجمين .

(١) ذكر القفطي أنه توفي سنة ٢١٠هـ / ٨٢٥ م ، انظر ترجمته في : القفطي : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، تصحيح محمد أمين الخانجي ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٣٢٦هـ : ١٢٢ - ١٢٤ .

(٢) ذكر القفطي أنه كان حياً في سنة ٢٢٥هـ / ٨٤٠ م ، المصدر نفسه : ١٦٥ .

(٣) كان قسطنطين بن لوقا معاصراً للفيلسوف المشهور أبي يوسف الكندي المتوفى سنة ٢٦٠هـ / ٨٧٣ م ، انظر ترجمة قسطنطين في : ابن النديم ، الفهرست : ٤١٠ ، والقفطي : إخبار : ١٧٣ - ١٧٤ .

(٤) انظر ترجمته في : ابن النديم : ٣٨٠ ، القفطي : ٨١ - ٨٢ .





## السبب الثاني

مهاجرين الشعرفي الشام والجزيرة (من ١٣٢٢هـ/٧٤٩م - ١٢٩٢هـ/١٠٤٠م)

تقديم

كان الشعرفي الشام حين كانت مركز الدائرة في العالم الإسلامي واندأ في الأغلأ ، وقد أخل الشعرا الوافدون ، كجرير بن عطية اليماني الأصل<sup>(١)</sup> ، والغززدق البصري الدار<sup>(٢)</sup> ، الشعرا الشاميين إلا ثلاثة منهم هم الأخل الجزري<sup>(٣)</sup> ، وعدي بن الرقاع العاملي دمشقي<sup>(٤)</sup> ، والخليفة الأموي الشاعر الوليد بن يزيد الدمشقي<sup>(٥)</sup> .

فلما تحولت الشام إلى ولاية تابعة لبغداد أخذت الحركة الشعرية فيما تتحول إلى الخارج طلباً للرزق والشهرة في قصور الخلفاء وأكابر الوزراء ، بل عد عدم تحول الشاعر الشامي أو الجزري إلى العراق سبباً في خمول ذكره ، كالذي قيل في ربيعة الرقي<sup>(٦)</sup> : " وإنما أخل ذكره ، وأستطسه عن طبقتة بعده عن العراق ، وتركه خدمة الخلفاء ومخالطة الشعرا " . . . . . وقد يكون هذا هو السبب نفسه الذي أدى إلى ضياع شعر كثير من الشعرا الشاميين الذين لم تقترن أسماؤهم بأسماء خلفاء بني العباس ، فكان ما عملنا مثلاً من شعر عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي ، ومحمد بن سلامة بن أبي زرعة الدمشقي ، ومحمد بن يزيد الحصني شتاتاً متناثراً على الرغم من جودته . ولذلك كانت الكثرة الكاثرة من الشعرا الشاميين والجزريين وبخاصة المجلون منهم يتحولون إلى العراق ، وتتوثق صلاتهم هناك بأعيان أهل زمانهم .

- (١) انظرفي أخبار جرير : محمد بن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعرا ، ١ : ٢٩٧ ، الأغاني ٨ : ١ .
- (٢) انظرفي أخبار الغززدق : طبقات فحول الشعرا ، ١ : ٢٩٨ ، وما بعدها ، الأغاني ٩ : ٣٢٤ .
- (٣) انظرفي أخبار الأخل : طبقات فحول الشعرا ، ١ : ٢٩٨ ، وما بعدها ، الأغاني ٨ : ٢٨٠ .
- (٤) انظرفي أخبار عدي : الأغاني ٩ : ٣٠٧ .
- (٥) انظرفي أخبار الوليد : الأغاني ٧ : ١ .
- (٦) الأغاني ١٦ : ٢٥٤ .

فأبو تمام ولد في قرية جاسم الواقعة على الطريق بين دمشق وطبرية في سنة ١٨٠٢م / ١١٨٨هـ ،  
أو في سنة ١٨٠٥م / ١١٩٠هـ (١) قد تحول إلى العراق في زمن المعتصم حوالي سنة ١٢١٩هـ / ١٨١٤م ،  
فهو على هذا التقدير قضى في الشام فترة غير قصيرة كانت كافية لظهوره بالشعر واشتهاره ، وهو لم  
يفادر الشام في أثناء تلك المدة التي سبقت تحوله إلى العراق إلا إلى مصر ، والراجح أنه كان تصد  
مصر سنة ١٢١٥هـ / ١٨١٠م ، ومكث فيها فترة تزيد بعض الشيء على خمس سنين عبر عنها قوله بضيق (٢) :

أخسة أحوالٍ مَثَّ لِمَنْبِيهِهِ      وشهران بل يومان نَكَلٌ مِنَ النَّكَلِ (٣)

ثم عاد بعدها إلى الشام ، وحين دخل المأمون الشام كان أبو تمام ما يزال فيها ، فقال فيه قصيدتين  
(رقم ٤٨ ، ١٢٣ من ديوانه) ، وما جاء في الأولى منها قوله مرحبا بمقدمه :

أهلاً وسهلاً بالإمام ومرحباً      سَمِلَتْ حُزُونََهُ كُلَّ أَمْرٍ قَرَدٍ (٤)

وقد ذكر أبو تمام في هذه القصيدة كل ما يروى المأمون ويعجبه من إجراءات وبخاصة قضاؤه على ابن  
السري الذي كان خرج عليه في مصر في حدود سنة ٢١٠هـ (٥) ، فقال فيها في إشارة لاحقة إلى  
ذلك :

مَجْرَدٌ نَبَتْ الْمَوَاطِيءُ حَزْمُهُ      مَجْرَدٌ لِلْحَادِثِ الْمُتَجَرِّدِ  
فانتسائس مصر من اللثيا والتي      بتجاويز وتعطيف وتغميد (٦)

كما أعلن أبو تمام في هذه القصيدة عن فرحه الدائم بمقدم المأمون الذي سيغني المسترفدين بجوده  
العظيم ، "فسعده الأسعد" - المأمون - قد جاء ليخلص من "نجس الزمان بسعيه" من الضائقة  
الشديدة التي كان يعانيها :

- (١) انظر: أخبار أبي تمام: ٥٩ ، تاريخ بغداد ٨: ٢٥٢ ، وفيات الأعيان ٢: ١٧ ، النجوم الزاهرة ٢: ٢٦١ ، وقد حاول نجيب محمد البهبيتي (أبو تمام الطائي حياته وحياة شعره ، دار الثقافة ،  
الدار البيضاء ، المغرب ١٩٨٢م ، ٦٠ - ٦١) أن يرجح فرضية افتراضها بأن سنة ١٧٢ هـ هي  
تاريخ مولد أبي تمام ، وهي فرضية لا أساس لها في المصادر الأدبية ، بل إنه هو نفسه عاد  
ليجعل سنة ١٨٨ هـ تاريخاً لمولد أبي تمام . انظر ذلك في ص ٩٨ من كتابه .
- (٢) من القصيدة ٤٦٨ ، ٤ : ٥٢٢ من ديوانه .
- (٣) النكل : القيد الشديد ، أو ضرب من اللحم ، أو هو حديدة اللجام .
- (٤) القرد : الغليظ الشاق .
- (٥) انظر في تفصيل القضا على حركة عبد الله بن السري الكندي : الولاة والقضاة : ٢٠٤ - ٢٠٧ .
- (٦) الطبري ٨: ٦١٥ - ٦١٨ ، ابن الأثير ، الكامل ٥ : ٢١١ .
- (٧) اللثيا والتي قول يقال فيمن يقع في الداهية الكبيرة والصغيرة ، انتاش : خلص .

خَابَ امْرُؤٌ نَحِمَ الزَّمَانَ بِسَعْيِهِ فَأَقَامَ عِنْدَكَ وَأَنْتَ سَعَدُ الْأَسْعَدِ  
ذَلِكَ الَّذِي قَرِحَتْ بَطُونُ جَفُونِيهِ مَرَمَحًا ، وَتَرَبُّهُ أَرْضِهِ مِنْ إِثْمِيهِ

أما الثانية فيبدو أن أبا تمام نظمها في أعقاب انتصار المأمون على الروم في الثغور ، ففيها وصف دقيق للجيش الضخم العدد ، المكمل العدة الذي كان المأمون قاده في الثغور ، ثم قفل به عقب ذلك إلى دمشق ، ولما كانت مصادر التاريخ المعتمدة قد ذكرت أن أول احتكاك حربي بين المأمون والروم كان في سنة ٢١٥ هـ (١) ، فإن هذه القصيدة تكون قد نظمت في هذه السنة أو في السنة التي تليها .

ونصت روايتان على أن هاتين القصيدتين نظمهما أبو تمام في المأمون وعما في الشام ، فقصده جاء في ديوان أبي تمام ما يلي (٢) : " سار - أبو تمام - إلى المأمون في بلاد الشام فمدحه بقصيدتين فما وجد من يوصلهما إليه ، ثم سار إلى العراق في خلافة المعتصم " .

وروى ابن خلكان ما يلي (٣) : " ولما سار المأمون إلى بلاد الشام يريد غزو الروم مدحه أبو تمام بقصيدتين فلم يجد من يوصلهما إليه ، وذلك قبل قدوم أبي تمام العراق ، ثم سار إلى العراق في خلافة المعتصم ، فمن ذلك قوله في المأمون قصيدة قال فيها : -

ثَمَ أَنْبَرْتُ أَيَّامًا هَجِيرًا أَرْدَفَتْ نَحْوِي أَسَى فكَانَتْهَا أَعْوَامٌ  
ثَمَ انْقَضَتْ تِلْكَ السَّنُونَ وَأَهْلُهَا فكَانَتْهَا وَكَانَهُمْ أَحْلَامٌ

..... ومن قصيدته الأخرى التي مدح بها المأمون التي أولها :

كُشِفَ الْغَطَاءُ فَأَوْقَدِي أَوْ أَخْمِدِي

ويقول فيها : -

أُولَى أُمَّةٍ أَحْمَدٍ مَا أَحْمَدُ بُضِيعِ مَا أُولَى أُمَّةٍ أَحْمَدِ

(١) انظر ما قاله في ذلك مثلا: الطبري ٨ : ٦٢٣-٦٢٤ ، البداية والنهاية ١٠ : ٢٦٦ .

(٢) ديوان أبي تمام ٤ : ٦٠٥ - ٦٠٦ .

(٣) وفيات الأعيان ٢ : ٢١ .

أما الهدى فقد أمتدحت بزئوده للعالمين فويل من لا يهتدي

وعلى هذا يمكن أن يعد كل شعر قاله أبو تمام قبل عام ٢١٩ هـ شامي المكان، إلا القصائد التي نظمها في بعض المصريين كعياش بن لهيعة الحضرمي<sup>(١)</sup> ويوسف السراج الشاعر<sup>(٢)</sup>، ويدخل في هذا الإطار الشامي شعر أبي تمام في بني عبد الكريم الطائيين الحمصيين، وأهاجيه في عتبة بن أبي عاصم الحمصي، كما تنتمي إلى هذه الفترة بعض قصائده في أبي المغيث موسى بن إبراهيم الراقبي، ومداخه في محمد بن حسان الضبي الرقي، وقصائده في محمد بن سعيد الثوري، وقصائده في خالد ابن يزيد الشيباني. وبيان ذلك كله ما يلي :-

١- ورد في ديوان أبي تمام عن قصائده في مدح بني عبد الكريم الطائيين بحمص، وعن أهاجيه في عتبة بن أبي عاصم ما يلي<sup>(٣)</sup> : كان - أبو تمام - في أول أمره منقطعاً إلى بني عبد الكريم الطائيين بحمص، وكانوا محسنين إليه، وهداهم عتبة بن أبي عصيم الحمصي فعارضه أبو تمام وهداه، ثم انتقل إلى مصر فمدح بها عياش بن لهيعة الحضرمي. وجاء فيه أيضاً في موضع آخر<sup>(٤)</sup> : لما قال أبو تمام قصيدته "أرأمة كنت مألّف كل ريم" بعد مقدمه إلى حمص من مصر، اتصل خبرها بعتبة بن أبي عصيم، وعوكلي بن قضاة، وكان عالماً أديباً شاعراً، فأحب أن يسمعها من أبي تمام، فلما جاءه أبو تمام وأنشده إياها قال عتبة : "أحسنت يا غلام على صغر سنك". ووردت هذه الرواية بنصها في وفيات الأعيان كذلك<sup>(٥)</sup>.

٢- أوضح دليل على أن قصائده في أبي المغيث الراقبي قد قيلت قبل رحيله إلى بغداد قوله في إحداهما<sup>(٦)</sup> :

وغداً تبين كيف غبُّ مدائحني  
إن ملئ بي حمي إلى بغداد

فالبيت يدل بوضوح على أنه لم يكن قد توجه بعد إلى بغداد، وإنما كان طموحه يحثه على ذلك.

- (١) كان عياش قد ولي شرطة مصر سنة ٢٠١ هـ. انظر: النجوم الزاهرة ٢: ١٦٨ واسمه فيه عباس وهو تصحيف، وانظر: حياة أبي تمام : ٧٨ - ٨٥ .
- (٢) انظر: حياة أبي تمام : ٨٥ - ٨٧ .
- (٣) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ٤: ٦٠٥ .
- (٤) المصدر نفسه : ٦٠٥ - ٦٠٦ .
- (٥) انظر: وفيات الأعيان ٢: ٢١ .
- (٦) من القصيدة ٥٨ : ٢ : ١٣١ من ديوانه .

٣- الأدلة على أن مدائجه في محمد بن حسان الضبي نظمت وهو في الرقة قوله (١) :-

لولا ابن حسان المرجى لم يكن بالرقّة البيضاء لي مثل يوم  
وقوله في أخرى (٢) :-

بالشام أهلي وبغداد الهوى وأنا بالرقتين وبالفسطاط إخواني

٤- تعدد مدائح أبي تمام لمحمد بن سعيد الثغري ولخالد بن يزيد الشيباني وهما يخوضان معارك المسلمين في الثغور دفاعاً عن الشام في الحيز الأصغر ، ودفاعاً عن الإسلام في الحيز الأكبر ، وهما أمران في تلك الفترة لا ينفصلان . ولهذا صح أن نعد شعراً أبي تمام وهو في الشام شعراً شامياً ، وأن نعد جانباً كبيراً من شعره ، وهو خارجها ، سواء أكان في خراسان أم في العراق ، ذاء علاقة وثيقة بالشام وثغورها ، وبخاصة ما نظمه منه في الثغور .

وللبحتري موقف مشابه لموقف أبي تمام ، فقد ولد البحتري بمُنْبِج سنة ٢٠٥هـ أو ٢٠٦هـ / ٨٢٠م ، ونشأ في نواحي حمص والجزيرة (٣) ، وقد نبّه في قرص الشعر قبل أن يتحول إلى العراق إذ روى عنه الصولي قوله (٤) : " كان أول أمرى في الشعر ونباهتي فيه أنى صرت إلى أبي تمام وهو بحمص ، فعرضت عليه شعري ، وكان الشعراء يعرضون عليه أشعارهم ، فأقبل عليّ ، وترك سائر الناس ، فلما انتسروا قال : أنت أشعر من أشدني ، فكيف حالك ؟ فشكوتُ إليه خلةً ، فكتب إليّ أمل معصرة النعمان ، وشهد لي بالحدق في الشعر . . . . . " وتورد رواية ثانية تعضد الرواية الأولى فسي أن نباهة البحتري بالشعر اكتملت وهو في الشام ، فقد جاء في هذه الرواية (٥) أن أول لقاء بين الطائيين كان في مجلس محمد بن سعيد الثغري وهو يومئذ وال على الشام والجزيرة ، وفي ذلك اللقاء

(١) من القصيدة ١٤١ ، ٣ : ٢١٤ من ديوانه .

(٢) من القصيدة ١٦٣ ، ٣ : ٣٠٩ .

(٣) انظر : أخبار البحتري : ٥٦ ، ٦٤ ، الأغاني ٢١ : ٣٦ ، تاريخ بغداد ١٢ : ٤٤٦ ، معجم الأدباء ١٩ : ٢٤٨ ، وفيات الأعيان ٦ : ٢١ .

(٤) الأغاني ٢١ : ٤٠ .

(٥) انظر : أخبار أبي تمام : ١٠٥ - ١٠٦ ، والقصيدة : ٥٧١ من ديوان البحتري ، والموازنة ١ : ٨ - ٩ .

ألقى البحترى قصيدته التي مطلعها: -

أَفَاقَ صَبٍّ مِنْ هَوَى فَأَفَيْقًا  
أَمْ خَانَ عَهْدًا أَمْ أَطَاعَ مَغْفِقًا

ويرد في رواية ثالثة<sup>(١)</sup> أن البحترى ألقى في ذلك اللقاء قصيدته التي مطلعها:

فِيمَ ابْتَدَأُكُمْ السَّلَامَ وَلُوعًا  
أَبَكَيْتَ إِلَّا دُمْنَةً وَرُبُوعًا

وأياً ما كانت الحال، فإن الذي لا خلاف فيه هو أن شاعرية البحترى كانت قد اكتملت نضجاً قبل لقيا الشاعرين بشهادة أبي تمام نفسه، وأن ذلك تم قبل أن يرتحل البحترى إلى العراق، وإذا كان ذلك كذلك فإن معظم شعره الذي قاله قبل هذه الفترة يعد شامياً، كما يعد منه كل شعره الذي قاله في عمال الشنور وقادة الجيوش الذين خاضوا المعارك في الدروب الرومية والشنور الشامية والجزيرية دفاعاً عن الحيز الأصغر - الشام - وينضاف إلى ذلك كل شعره الذي قاله في البيئة الشامية والجزيرية في أثناء زيارته لبعض نواحي الشام كزيارته لدمشق بصحبة المتوكل، وزيارته الكثيرة لضياحه وأهله بمنبج، وما رافق ذلك من احتجاجاته على عمال البريد والصدقات، مما سيتضح في موضع تال من الدراسة.

ومنصور الثمري المولود في رأس عين بنواحي الجزيرة نشأ في بلدته هذه، واتصل بالبرامكة في الرقة، وانقطع لهم، وفيها مدح الرشيد في غير قصيدة، كما نظم فيها بعض قصائده في آل علي<sup>(٢)</sup>، وقد أقر بشأميته مناسه في الحظوة لدى الرشيد مروان بن أبي حفصة عندما قال في مقابلة بيبي شعريهما: "هذا شامي، وأنا حجازي"، أفتراه يكون أشعر مني؟<sup>(٣)</sup>، وكان أستاذه العتّابي قد قرّظه عند الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي فاستقدمه من الجزيرة إلى بغداد واستصحبه، ثم وصله بالرشيد.

(١) انظر: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحترى ١: ٩، والقصيدة ٥٠٢ من ديوان البحترى.

(٢) انظر: طبقات ابن المعتز: ٢٤٢ - ٢٤٧، الأغاني ١٣: ١٤٠، تاريخ بغداد ١٣: ٦٥.

(٣) الأغاني ١٣: ١٤١.

والعتابي كلثوم بن عمرو قَسْرَني (١) ، وقد استقدمه إلى بغداد الرشيد ثم المأمون بعد  
أن شاع ذكوره (٢) .

والأشجع السُّلَمي - على الاختلاف في أصله - جزري لزم الرقة مختلفاً إلى قصور البرامكة مادحاً  
إياهم ، كما مدح الرشيد في قصائد عدة، أثنى فيها على صنيعه في الدفاع عن الثغور الإسلامية . أما  
مدائحه في البرامكة فقد خصصها لإظهار فضائلهم على الشاميين الذين كانت حرب أبي الهيثم قد  
استعرت نارها فيهم (٣) . وكان أشجع كثيراً ما يرتحل إلى العراق بصحبة الرشيد ، ولازم ابنيسه  
الأمين والمأمون .

وربيعة الرقي كان مقيماً في الرقة ، وندر ارتحاله عنها ، ولعل ذلك بسبب عماء ، ومع ذلك  
استقدمه المهدي إلى بغداد لسمع شعره ، ويكافئه عليه (٤) ، وقد عُدَّ مكوته في الرقة ، وعدم رحيله عنها  
سبباً في خمول ذكره ، وإسقاطه عن طبقة ، كما قال ذلك أبو الفرج الأصبهاني :

لقد كان عمولاً الشعراء الجزريون يعدون جميعاً شاميين ، فقد قال الثعالبي فيهم (٥) : لم  
يزل شعراء عرب الشام وما يقاربها أشعر من شعراء عرب العراق . . . والكلام يطول في ذكر المتقدمين  
منهم ، فأما المحدثون فنخذ إليهم منهم العتابي ومنصوراً النمري والأشجع السلمي ، ومحمد بن زُرْعَةَ  
الدمشقي وربيعَةَ الرقي ، على أن في الطائفتين اللذين انتهت إليهما الرئاسة في هذه الصناعات  
وعما عموماً .

ولم يحافظ على الإقامة في الشام والجزيرة من الشعراء الشاميين إلا نفر قليل ، منهم ديبك  
الجن الحمصي ، ومحمد بن يزيد الحمصي السلمي وعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي مما سيرد بيانه

(١) انظر: طبقات ابن المعتز: ٢٦١، الأغاني ١٣: ١٠٧، تاريخ بغداد ١٢: ٤٤٨، معجم الأدباء  
١٧: ٢٧

(٢) انظر الشعر والشعراء ٢: ٧٤٠، الأغاني ١٣: ١١١ ، ١١٥ ، ١١٦ .

(٣) انظر: طبقات ابن المعتز: ٢٥١ - ٢٥٤ ، الشعر والشعراء ٢: ٧٥٨ - ٧٦١، الأغاني ١٨: ٢١٢ ،  
تاريخ بغداد ٧: ٤٥ . وقد قال أبو الفرج إنه يماي نشأ وترى بالبصرة ، ثم لما كبر وعُدَّ نفسي

الفحول خرج إلى الرقة ومدح بها الرشيد وضمته سليم إليها ، غير أنه لطول ملازمته الرقة بعد  
انضمامه إلى بني سليم في الرقة صار يُعدَّ جزرياً ، انظر الأغاني ١٨: ٢١٢ .

(٤) انظر: طبقات ابن المعتز ١٥٧ - ١٧٠ ، الأغاني ١٦: ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٥) بيتية الدهر ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الكتب العلمية ١٩٧١: ١٢: ١٢ .



في الحديث عنهم في موضع تال من هذه الدراسة . ومنهم كذلك البطينُ البجليُّ الحصي الذي ظلل في نواحي حمص وسلَّمية ، ولم يغادر الشام إلا إلى مصر مصاحباً عبد الله بن طاهر ، ومات فـي الإسكندرية في حدود سنة ٢١١هـ / ٨٢٦م بعد عام من تزكته للشمام (١) .

ويبدو أن من هذا الفريق أيضاً محمد بن سلامة بن أبي زُرعة الدمشقي الذي قيل فيـه "هو والدك شاعرا الشام" (٢) ؛ والحسين بن علي أبو طالب النفاث الأنطاكي الذي قال فيه ابن العديم في بغية الطلب "شاعر متقدم على عصر سيف الدولة" (٣) ؛ والحلي الذي لم يعرف ابن العديم ولا كنيته ، ولكنه قال عنه إنه في عصر ابن المعتز ، وله في أبي تمام رثاء (٤) . فعلى الرغم من ندرة المعلومات عن هؤلاء الشعراء ، فإن الأشعار التي رويت لهم في المصادر تدل على أنهم كانوا يصفون بيئتهم الشامية مما سيتضح في موضعه من هذه الدراسة .

ولما كانت بلاد الشام قد شهدت أحداثاً سياسية وحرية وقتناً وانتقاضات داخلية ، فقد تفجرت فيها طاقات شعرية كثيرة ، وصيغت في تلك الفتن والأحداث قصائد ومقطعات ذات لون محلي محدود . ويبدو أن أكثر أصحاب تلك القصائد والمقطعات لم يكونوا يحترفون الشعر كاحتراف أبي تمام والبحرسي ومنصور النمري وأضرابهم له ، ولنا في أعداد الشعراء والرجاز الذين نظموا في أحداث فتنة أبي الهيثم دليل واضح ، فإن الأربعة والعشرين شاعراً والرجاز الثمانية الذين نظموا في تلك الأحداث لم تسرو لأبي منهم ، ما عدا الأشجع السلمي ومنصوراً النمري والخزيمي ، أية قطعة أو قصيدة في شأن آخر من شؤون الحياة والناس . وينسحب هذا الحكم أيضاً على النسوة الشواعر ، فإنهن - على قلتهم - لم ينظمن ، أو لم يُرَوَّ لهن شعر خارج إطار عموم النزاعات القبلية ، والانتقاضات الشامية والجزرية . ولعل سبب ذلك يعود إلى عدم وجود جوارٍ شاعرات في الشام في هذه الفترة كما كانت الحال فـي بغداد .

- 
- (١) انظر: الورقة ١٠ - ١٢ ، طبقات ابن المعتمر ٢٤٨ - ٢٥١ .  
(٢) معجم الشعراء : ٣٦٩ ، صورة تاريخ دمشق ١٥ : ٤١٥ ، الوافي بالوفيات ١١٦ : ٣ .  
(٣) بغية الطلب ، ٢٦٢ : ٨ .  
(٤) المصدر نفسه .

ويلاحظ أيضاً أن زيارات بعض خلفاء بني العباس ووزرائهم وعمالهم لبعض حواضر الشام والجزيرة أثرت في تحريك عم بعض الشعراء الشاميين والجزيريين ، فإن زيارة الرشيد للرقّة، واستقباله الشعراء في قصره فيها بعد عودته من غزاة هِرَقْلَةَ، أثرت عن ولادة مجموعة من القصائد لشعراء شاميين وغير شاميين . ومن القصائد التي قيلت في هذا المجلس قصيدة أشجع السلمي التي منها (١) :

أَلَقَّتْ عَلَيْهِ جَمَالَهَا الْأَيْسَامُ	قَصْرٌ عَلَيْهِ تَحِيَّةٌ وَسَلَامٌ
فِيهِ لِأَعْلَامِ الْهُدَى أَعْلَامٌ	قَصْرٌ سَقُوفَ الْعَزْنِ دُونَ سَقُوفِهِ
هَامًا لَهَا ظِلُّ السِّبْوَافِ غَمَامٌ	بَرَقَتْ سَمَاوُكَ فِي الْعَدْوِ وَأَمْطَرَتْ

وقصيدة منصور النمرى التي منها (٢) :-

مَا تَنْقُضِي حَشْرَةً مِنِّي وَلَا جَسْرَةً إِذَا ذَكَرْتُ شَبَابًا لَيْسَ يُرْتَجَعُ

وكان من حضر هذا المجلس من الشعراء غير الشاميين مروان بن أبي حفصة ، وسلم الخاسر ، وأبو محمد التيمي (٣) .

ويتضح أثر زيارات بعض الخلفاء العباسيين أوعمالهم للشام في الشعر الشامي بصورة أجلي لدى النظر في قصيدتي أبي تمام في المأمون، لما وفد إلى دمشق ، ولدى النظر في القصائد التي نظمها البحري في دمشق لدى زيارة المتوكل لها مما سترد دراسته في موضع تال . كما أدت زيارة عبد الله ابن طاهر إلى الشام وعمو في طريقه إلى مصر ، إلى أن ينظم في تلك الزيارة شعر ترحيبي ، كما فعل ذلك البطلين البجلي الحمصي (٤) ، وإلى نكوص عن هجاء ، كما فعل ذلك محمد بن يزيد الحنسي الذي اعتذر عن نقيضته في عبد الله بن طاهر ، ومدّحه بعدها ، واختص به (٥) .

(١) انظر: الأغانى ٢١٤: ١٨ - ٢١٦ .

(٢) انظر: الأغانى ١٣ : ١٤٦ .

(٣) انظر في التعريف بمروان بن أبي حفصة : الشعر والشعراء ٢ : ٦٤٩ ، الأغانى ١٠ : ٧١ ، وفي سلم الخاسر انظر : طبقات ابن المعتز ٩٩ - ١٠٦ ، الأغانى ١٩ : ٢٦٠ ، وفي التيمي أبي محمد عبد الله بن يوسف ، أو الحجاج بن يوسف التيمي : الطبري ١٠ : ٩٢ - ٩٣ ، البداية والنهاية ١٠ : ٢٠٣ .

(٤) الورقة : ١٠ - ١٤ ؛ طبقات ابن المعتز : ٢٤٨ - ٢٥١

(٥) الأغانى ١٢ : ١٠٥ - ١٠٦

ويحكم موقع الشام الطبيعي المتوسط بين العراق ومصر فقد كانت معبراً للشعراء العراقيين المتجهين صوب مصر وإفريقية ، ومن ذلك أنه لما قصد أبو نواس مصر لمدح واليها الخصب بن عبد الحميد اجتاز بحمص ، وأحب أن يلتقي شاعرها الذي فتن أهل العراق بشعره في الخمر والغزل<sup>(١)</sup> ، فذهب إلى دار ديك الجن . ولما قصد رِعبل بن علي الخُزاعي حمص التقى شاعراً من شعرائها يدعى حُوَيِّ بن عمرو السَّكَّي ، فهجاه وهجا أهل حمص لأنهم لم يكرموا وفادته ولأنه بطبعه هجاء<sup>(٢)</sup> .

ومع أن كل هذا قد يقال عن عوامل التمجير للشعراء الشاميين، فقد ظل للبيئة الشامية بظروفها السياسية والحربية والاجتماعية والثقافية تأثيرات بارزة أدت إلى تعدد الميادين الشعرية وتنوعها ، ويمكن أن نجعل تلك الميادين في ما يلي :

- ١- الشعر والصراع الداخلي .
  - ٢- الشعر والصراع الخارجي .
  - ٣- الشعر في نصرة المذاهب .
  - ٤- ميدان الشعر الوجداني وهو يضم الوصف والحنين والغزل والرشا' والهجاء' وما اتصل بذلك من موضوعات أخرى .
- وسيجيء الكلام في كل ميدان موضحاً مواطن الثبات والتحول ، وأثر البيئة الشامية فيه بعامية .

(١) وفيات الأعيان ٣ : ١٨٥ .

(٢) انظر الأغانسي ٢٠ : ١٢٩ .

## الفصل الأول

### الشعر والصراع الداخلي

#### ١- الشعر والصراع بين الأمويين والعباسيين :-

كان من المتوقع أن يبكي الشعراء مذابح الأمويين وهزائمهم على أيدي العباسيين . كما كان من المتوقع أن ينظم شعر كثير يصف المعارك الدامية بين الفئتين ، وأن ينظم شعر كذلك يصور فرح العباسيين وأنصارهم بانتصاراتهم المتلاحقة على بني أمية . ولكن غاية مايقع عليه الباحث فسي مصادر الأدب والتاريخ الباقية المتاحة جملة من مقطعات نظمها عبد الله بن علي العباسي ، صـورها فيها انتشاءه بإطاحته بالأمويين ، وتغنيه بتقتيلهم ، وعبد الله بن علي ليس شامياً ، ولكنه يمكن أن يحسب كذلك نظراً لتعرضه بأمر الشام في أثناء ولايته لها ، ونظراً لأن شعره في تلك الأحداث يمثل إشارة لشعراء الشام ، أو لمؤيدي الأمويين لكي يردوا عليه . إن استطاعوا . فمن ذلك قوله مخاطباً الأمويين ، مفتخراً بانتصاره عليهم وتذبيحهم (١) :-

بنو أمية قد أفنيت جمعكم	فكيف لي منكم بالأول الماضي
يطيب النفس أن النار تجمعتكم	عوضتم من لظاها شر معتاض
سئتم - لا أقال الله عثرتك	بليغ غاب إلى الأعداء نهائي

ويعمل عبد الله بن علي في قطعة ثانية أسباب تقتيله للأمويين، بأنه ضرب من القصاص على ما كسبته الأمويون اقترفوه من جرائم بحق العلويين والهاشميين جميعاً . فقد روى الصولي أن امرأة أموية قالت له يوماً (٢) : "قتلت من أهلي و ذريتهم اثني عشر ألفاً ، فيهم ألفاً لحية خضية ، فقال :

تكبر عندي القتل وهو صنير	على مأرب والدائرات تدور
وقالت : قتلت الأهل في كل بلدة	وأنت يعقوب لو تشاء قدير
فقلت : وهل فيكم لعنوي موضع	ولي منكم بعد القنائة سور
لئن دنت الأنساب منا ومنكم	لقد باعدتها بالعراق قبور

وتفصل رواية ثانية لهذا الخبر ما جاء في هذا الشعر تلميحاً وإشارة ، فقد روي أن تلك المرأة طالبت عبد الله بن علي أن يكون عادلاً ، فأجابها بقوله (٣) : "إذن لا يبقى منكم أحد ، لأنكم حاربتهم

- (١) الصولي : أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم ، نشرج . بيروت دن ، مطبعة الصاوي ، مصر ، ١٩٣٦ و ٣٠٤ ، ابن الأثير : الكامل : ٤ : ٣٣٣ .
- (٢) أشعار أولاد الخلفاء : ٣٠٤ .
- (٣) المصدر نفسه : ٣٠٤ .

علياً ، ونقضتم شرطه ، وقتلتم الحسين بن علي ، وقطعتم رأسه ، وقتلتم زيد بن علي (١) ، وصلبتم  
جسده ، وقتلتم يحيى بن زيد (٢) ، ومثلتم به ، ولعنتم علي بن أبي طالب على منابركم ، وضربتكم على  
ابن عبد الله (٣) ظلماً بسياطكم ، وحبستم الإمام إبراهيم في حبسكم ، فعدلنا ألا نبقي منكم  
أحداً .

وإذا صحت هذه الرواية التي تبدو علوية النوى، فهي محاولة من عبد الله بن علي أن يستميل  
عواطف العلويين نحو ذوي قربانهم من العباسيين، حين كان هؤلاء في فترة الانقلاب الأولى بحاجة  
ماسة إلى المناصرة .

ولعبد الله بن علي قطعة أخرى يستلج فيها التمني بتقتيل الأميين ويستعذ به ، وهو  
يجعل التقتيل فيها قائماً على معادلة الثأر . ويكاد مضمون شعره يكون من نسق الشعر الجاهلي ذي  
المضمون الذي يدور حول الثأر، لولا البيت الأخير الذي استخدم فيه صورة إسلامية لتعميق فعل الحقد،  
يقول (٤) :-

ورَدْنَا دَمًا مِنْ أُمَّيَّةَ عَذَّ بَسَّةَ	وَكَلْنَا لَهُمْ فِي الْقَتْلِ بِالصَّاعِ أَصُوعَا
وَمَا فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ لِقَتِيلِنَا	وَفَاءٌ ، وَلَكِنْ كَيْفَ بِالثَّأْرِ أَجْمَعَا
رَعَيْنَا نَفُوسًا مِنْهُمْ بِسَيُوفِنَا	وَصَاحَ بِهِمْ دَاعِيَ الْفَنَاءِ فَأَسْمَعَا
قَتِينَا بِسَمِّ دِينَا وَزَيْدِنَا عَلَيْهِمْ	كَمَا زَادَ بَعْدَ الْفَرَسِ مَنْ قَدْ تَطَوَّعَا

وَمَنْ تَأْمَلْ مَقْطَعَاتِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ وَجَدَ مَا مَتِينَةَ السَّبِكِ : قُوَّةً فِي تَعْلِيلِهَا لِاضْطِرَامِ الْحَقْدِ ،  
وَتَلْهَبَ جَمْرَتِهِ ، عَامِدَةً لِإِبْرَازِ الْمَعْنَى الْمَرَادِ دُونَ تَرَدُّدِ . وَيَكْفِي أَنْ تَكُونَ فَيْضُ نَفْسٍ جِيَاشَةً بِالْانْفِعَالَاتِ  
الْمُتَشَابِكَةِ مِنْ غَيْظٍ وَحَقْدٍ مِنْ نَاحِيَةٍ ، وَزَهْوٍ وَرُضَى نَفْسِي مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى ، وَلِهَذَا لَا يَجِدُ السُّدَارُ

- (١) زيد بن علي بن الحسين ، كان قتل بالكوفة في خلافة هشام بن عبد الملك . انظر : أبو الفرج  
الأصبهاني ، مقاتل الطالبين ، حقه أحمد صقر ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٤٦ : ٦٠٨ .
- (٢) يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب . كان قتل بخراسان في أيام الوليد  
ابن يزيد . انظر : مقاتل الطالبين : ١٠٣ ، شذرات الذهب : ١ : ١٦٧ .
- (٣) علي بن عبد الله بن عباس ، وهو جد المنصور . كان الوليد بن عبد الملك نفاه إلى الحميمة  
ولم يزل ولده بها إلى أن زالت دولة بني أمية . انظر شذرات الذهب : ١ : ١٤٨ .
- (٤) أشعار أولاد الخلفاء : ٣٠٠ .

مَسَوِّفًا لِيَتَشَكَّكَ فِي نَسَبِهَا إِلَيْهِ ، أَوْ يُعِدُّهَا حِكَايَةَ حَالِ قَالِبِهَا مَنْ تَعَثَّلَ النَّاسِبَاتِ وَالْأَحْدَاثِ وَنَسَبِهَا  
لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ .

ونشطت طائفة أخرى من الشعراء الموالين للعباسيين في التحريض على الفتك ببني أمية  
ولكنَّ أحدًا منهم لم يكن من بلاد الشام<sup>(١)</sup> . لأنَّ الشاميين جميعًا اكَوَّوْا بنار العباسيين ، وعانوا  
قسوة عبد الله بن علي وجبروته ، فلا يعقل أن ينظم في هذا المنحى شاعر شامي .

غير أن راجزًا شاميًّا يدعى المَخْيَسِ بن أَرْطَاة<sup>(٢)</sup> نظم بعض الأراجيز التي مدح فيها العباسيين ،  
وعرض في أثناءها ببني أمية ، فقال في إحداها<sup>(٣)</sup> :

أَهْلًا وَسَبَلًا بِخِيَارِ النَّبِئَاتِ  
بِيَأْتِيهِمْ أَهْلُ النَّدَى وَالْبِئْسَاتِ  
بَدَّلْتَ الْوَحْشَةَ بِالْإِنْسَانِ<sup>(٤)</sup>  
وَقَدْ عَلَا الْفَرْعُ عَلَى الْأَسْبَابِ  
تَدَاوَلُوهَا يَا بَنِي الْعَبَّاسِ  
تَدَاوَلُ الْأَكْمَافَ بِالْأُمُرِاسِ<sup>(٥)</sup>

ويقول في آخره في السفاح أو المنصور ، وهي تجوي مجرى سابقتها في إعلان الفرح بانتصار  
العباسيين الذين يراهم الشاعر أهل الحق في الخلافة<sup>(٦)</sup> :

- (١) من أبرز من حرض العباسيين على الأمويين سُدَيْفُ بْنُ مَيْمُونٍ ، وهو شاعر حجازي من مخزوميي  
الدولتين . انظر: ابن قتيبة: الشعر والشعراء ، دار الثقافة ، بيروت ، ٢ : ٦٤٧ ، المبرد :  
الكامل ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاتة ، دار نهضة مصر للطبع والنشر  
٤ : ٤٨ ، الأغاني ٤ : ٤٤٤ ، ١٦ : ١٣٥ ، ومنهم أيضًا إبراهيم بن عَرْمَةَ ، وهو حجازي أيضًا من  
مخزوميي الدولتين ، انظر: الشعر والشعراء ٢ : ٦٣٩ ، الأغاني ٤ : ٣٦٧ ، ٥ : ٢٦٠ ، ومنهم  
كذلك شَبَلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ مَوْلَى بَنِي هَاشِمٍ ، انظر: المبرد : الكامل ٤ : ٨ .
- (٢) كان المخيس بن أَرْطَاة أحد مخزوميي الدولتين ، ومن السباقين لمدح بني العباس في خلافتهم  
وهو - على ما يقول المرزباني - شامي . انظر: معجم الشعراء بتصحیح گرهنگو : ٤٧٩ .
- (٣) المصدر نفسه .
- (٤) يلاحظ الخطأ في هذا الرجز لأنَّ الباء تدخل على المتروك ، فعكس الشاعر المعنى المراد .
- (٥) الأُمُرَاسُ : الحبال جمع مَرَسِيَّة .
- (٦) معجم الشعراء : ٤٧٩ .

الآن قرَّ الملك في مقبرته  
وطاب حلوا العيش بعد مُرته  
إذ رجَّع الملك لمستقره  
إلى بني العباس أعلل سره

وهذا الرجز أدخل في باب المجاملة منه في الشعر النابغ من الوجدان الصادق ، وذلك مؤشراً على مسايرة الشاعر لهذا الانقلاب محض مسايرة . وأين هذا الشعر من الأصوات الناعمة على من قتل من بني أمية في الزاب ، وعلى نهر أبي فطرس بفسطاطين ؟ لقد تعددت تلك الأصوات ، وبكثت بفضيحة على بني أمية ، مع أن اثنين منهما لم يكونا ممن شهد نهايات الأمويين ومقاتلتهم ، إذ كانا يقطنان إبان تلك الأحداث خارج بلاد الشام . وأبرز أولئك الشعراء المفجوعين بالأمويين ثلاثة عسم : أبو العباس الأعشى <sup>(١)</sup> ، والذبيلي <sup>(٢)</sup> ، وآدم بن عبد العزيز <sup>(٣)</sup> .

أ - أما أبو العباس الأعشى فيقول في شعر باك حزين مخاطباً المنصور ، مترجماً على بني أمية <sup>(٤)</sup>

وَنَاتُهُمْ بِضِيَعَةٍ أَيْتَامُ	آمَتْنَا بَنِي أُمَيَّةَ مِنْهُمْ
وَالنَّجْمُ يَسْقُطُ وَالْجُدُودُ تَنَامُ	نَامَتْ جَدُودُهُمْ وَأُسْقِطَ نَجْمُهُمْ
فَعَلَيْهِمْ حَتَّى الْمَمَاتِ سَلَامُ	خَلَّتِ الْعُنَابِرُ وَالْأَسْرَةُ مِنْهُمْ

(١) هو السائب بن فروخ المتوفى بعد سنة ١٣٦هـ / ٧٥٣م . وهو مكِّي . كان هجاءً خبيثاً مبعوضاً لال الرسول ، مائلاً إلى بني أمية ، مادحاً لهم ، كان يلهم بالشام في أيام مروان بن محمد . انظر ترجمته في : الصفدي : نكت الهميان ، ١٥٣ - ١٥٥ ، أبو الفرج البصري : الحماسة البصرية ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد الدكن ، الهند ، ١٩٦٤ و ١٣٧ .

(٢) هو عبد الله بن عمر بن عبد الإله المكي بابي عدي . شاعر مجيد من شعراء قريش ، وهو أموي من مخزومي الدولتين ، كان أكثر مقامه بالحجاز . انظر ترجمته في : الأغاني ، ٤ : ٢٣٦ - ٢٤٢ ، ١١ : ٢٩٥ .

(٣) آدم بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز كان أحد من من عليه أبو العباس السفاح ممن بني أمية لما قتل من وجد منهم . وكان المهدي يحبه لظرفه . انظر ترجمته في الأغاني ، ١٥ : ٢٨٦ - ٢٩٧ ، تهذيب ابن عساکر ، ٢ : ٢٦٤ - ٣٦٥ .

(٤) نكت الهميان ، ١٥٣ ، الحماسة البصرية ، ١ : ١٣٧ .

ب - وأما العَبَلِي فقد فزع إلى أبي العباس السفاح محتماً به خوفاً من أن يلقي منه ما لقيه  
الأمويون من تقتيل واستلاب . ومع أن علاقة هذا الشاعر بخلفاء بني أمية كانت غير حميدة ، ومع أنه  
كان هاشمي الهوى ، فإن شعوره بمأساة الأمويين كان عميقاً جداً . يقول مصوراً فزعه وفزع الأمويين  
على شكك حوار بينه وبين ابنته (١) :-

تقولُ أُمَامَةَ لَمَّا رَأَتْ	نُشُوزِي عَنِ الْمَضْجَعِ الْأَنْفُسِ
وَقَلَّةَ نومي على مضجعي	لدى هَجْعَةِ الْأَعْيُنِ النَّعْسِ
أبي ، ما عراك؟ فقلتُ: الهمومُ	عَرُونَ أَبَاكَ فَلَا تُبْلِسِي
عَرُونَ أَبَاكَ فَحَبْسَنَّهُ	من الذُّلِّ في شَرِّ مَا مُحْبِسِ
لَقَعْدِ الْعَشِيرَةِ إِذْ نَالَهَا	سَهَامٌ مِنَ الْحَدَثِ الْمُبْسِ

ويصور سائر القصيدة ذهاب من كان حياً من بني أمية ويذكر مواطن مذابحهم . فقد  
استحضر لها الشاعر مقومات التأثير بهذا الحشد المنظم الواعي لألفاظ الرهبة ، والحوار القصير  
الخاطف الدال والقافية الهامسة عس المخوف :-

فَصَرَاعُمٌ فِي نَوَاحِي الْبِلَادِ	تَلَقَى بِأَرْضِي ، وَلَمْ تَرَمَسْ (٢)
وَأَخْرُتْ طَارَ خُوفَ السَّرْدَى	وَكَانَ الْهُمَامُ ، فَلَمْ يُحْسِسِ
فَكَمْ غَادَرُوا مِنْ بَوَاكِي الْعَيْسُونَ	مِنْ مَرْضَى ، وَمِنْ صَبِيَّةٍ بُسُوسِ
وَبِالزَّابِيَيْنِ نَفُوسٌ تَوَتَّ	وَقَتْلَى بِنَهْرِ أَبِي فُطْرُسِ

ولعل هذه القصيدة من أقدم ما نظم في الشعر العربي في رثاء ملك زائل ، وتكاد تتفوق في دقّة  
تصويرها ، وبساطة تعبيرها ، وصدق عاطفتها ، وموامة موسيقاها للجو النفسي للشاعر على

- (١) الأغاني (١) : ٢٩٨ . وقد وردت بعض أبيات هذه القصيدة في معجم البلدان ، مادة  
"أبي فطرس" . وقيل إن هذه القصيدة اشترك فيها آخران مع العبلي حنين  
أناعم جميعاً خبيراً مقتل بني أمية ، وقد يفسر هذا ورود بيتين منها في تاريخ الموصول  
للأزدي منسوبين إلى شاعر يدعى أبا حراب العتكي . انظر : الأغاني (١) : ٢٠٢ تاريخ  
الموصول : ١٢٩ .
- (٢) لم ترمس : لم توضع في الرمس ، وهو القبور .



قصيدة الخريسي في رثاء بغداد (١) ، وتصيدة ابن الرومي في رثاء البصرة (٢) .

ج - وأما آدم بن عبد العزيز حفيد الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي تحول من الشام (٣) إلى بغداد بعد الإطاحة بقومه فيبدو أن فقدته لقومه قد قاده إلى اتجاهين متناقضين في الظاهر، وإن كانا يبتخان من بئر واحدة في الواقع: الاتجاه إلى الخمرة والعكوف عليها في أول الأمر، ثم الاتجاه إلى الزهد . ولعله وجد في الخمرة تعلته وسلوانه عما حل بالأمويين ، فقال يستحث سقياها في بعض ما نظمه قبل أن يتره - :

اسْتَقِنِي وَاسْتَقِ خَلِيلِي	فِي مَدَى اللَّيْلِ الطَّوِيلِ
مَنْ يَنْلُ مِنْهَا ثَلَاثًا	يَنْسُ مِنْهَا سَبِيلًا
فَمَتَى مَا نَسَالَ خُمْسًا	تَرَكَتُوهُ كَالْقَتِيلِ
لَيْسَ يَدْرِي حِينَ ذَاكُمْ	مَا دَبِيرٌ مِنْ قَبِيلِ

نوعى الشاعر بأن الخمرة تنسي شاربها منهاج السبيل ، وأنها تنقده القدرة على التمييز بين الدبير والقبيل يكافئ ، وعيه بعمق الجراح في قلبه على ضياع ملك بني أبيه ، بل لعله عنى بالليل الطويل ظلمة الحكم العباسي الذي انبسط على رقعة الأرض الإسلامية . ويرشح هذا التوجيه ما أفصح به عن تلبسهم له، بذهاب مجده بقوله (٤) متخيلاً أو حقيقة أن جماعة تعيره بذهاب مجدهم :

- (١) مطلع هذه القصيدة :  
قالوا ، ولم يلعب الزمان بيننا  
انظر : ديوان الخريسي بتحقيق علي جواد الطاهر ومحمد المعيد ، دار الكتاب الجديد : ١٩٧١ (القصيدة رقم : ٢٤) .
- (٢) انظر هذه القصيدة في ديوانه بتحقيق حسين نصار ، الصرية العامة للكتاب ، ١٩٨١ ، ٦ : ٢٣٧٧ ، ومطلعها :
- (٣) زاد عن مقلتي لذيذ المنام  
شغلها عنه بالدموع السجام  
في الأغناسي ١٥ : ٢٩١ ، كان آدم مع بني أمية الذين أمر عبد الله بن علي بقتلهم بنهر أبي فطرس ، وجاء في تهذيب ابن عساكر ٢ : ٣٦٤ ما يلي : كان بالشام حين ذهب ملك آل بيته ، فأراد عبدالله بن علي قتله فيمقتل منهم بنهر أبي فطرس فاستعطفه فتركه ، وسكن العراق بعد ذلك .
- (٤) الجاحظ : البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، مصر ٢٠١ : ٣ .

وإن قالت رجالٌ قد تولّيت  
فما ذهب الزمان لنا بمجيد  
وما كنا لنخلد إذ ملكنا  
زمانكم ، وذا زمنٌ جديدٌ  
ولا حسب إذا ذكّر الجود  
وأى الناس دام له الخلود

أما الاتجاهُ إلى الزهد في الحياة (١) فيمثلُه قوله، وقد أخذ نفسه على الصبر بترك الخمر (٢) :

أهل فتى عن شرية الرّاح صابِرٌ  
شريت فلما قيل ليس بمقلبيع  
ليجزيه يوماً بذلك قـادِرٌ  
نزعْتُ ، وثوبى من أذى اللؤلؤ طاهرٌ

أما الصوت الوحيد المبكر من الشاميين الذي وقف على التحول من الأموية إلى العباسية قادحاً ببني أمية فكان صوت حفص (٣) الشاعر الأموي الذي لحق بعبد الله بن علي ، فلما أوشك عبد الله أن يبطريه لهجائه القديم لبني هاشم ، اضطر إلى النول معرضاً ببني أمية ، ذاماً إياهم ، مادحاً السفاح ، فقال في بعض شعره (٤) :

وكانت أميةً في ملكها  
فلما رأى الله أن قد طغيت  
رماعا بسفاح آل الرسـول  
تجورٌ وتكبرٌ رعدوانها  
ولم يطبق الناس طغيانها  
فجند بكفيته أعيانها

ترى ما سرُّ ندرة الشعر الشامي الذي بكى بني أمية وكان من المتوقع أن يكون كثيرًا ؟ لعلّه ضاع ، أو على نحو أدق أراد له العباسيون أن يضيع ، لأنه يمثل شهادة سهلة الحفظ والتناقل على ما ارتكبهوه .

وبعد زوال أثر الصدمة التي أحدثها زوال ملك بني أمية وقيام الدولة العباسية ، أخذ الشعر يتحول إلى ترديد ذكريات ، ليس فيها حدة المصادمات الأولى ، لأن الزمان استطاع أن يضمده

- (١) في الأغاني ١٥ : ٢٨٦ : " وكان آدم في أول أمره خليعاً ماجئاً منهمكاً في الشراب ، ثم نسك بعدما عمر ، ومات على طريقة حمودة " .  
(٢) تهذيب ابن عساكر ٢ : ٣٧٦ .  
(٣) انظر : تهذيب ابن عساكر ٤ : ٣٩١ ، ياقوت : معجم الأدباء ١٠ : ٢٠٩ .  
(٤) المصدران السابقان .

كثيراً من الجراح ، وذلك هو شأن محمد بن يزيد بن مسلمة بن عبد الملك بن مروان الملقب بأبي الأصبغ الحِصْنِي (١) ، نسبة إلى حصن مسلمة بن عبد الملك حيث كان ينزل ، فهو قد مدح المأمون ، ولكنه لم يتخلَّ عن الفخر بجدوده من بني أمية ووجوعهم فقال من تصيده لم نظفر بنغيـــــر بيت منها ، يقول فيه مفتخراً (٢) :-

أما صفاتي فلها شأنٌ      وقد نَماني الشيخُ مروانُ

وقد قيَّضَ لابي الأصبغ شاعرنا قاضه هو محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمي القنْصَرِينِي (٣) ، إذ يقول مفتخراً بالهاشميين ، تادحاً في بني أمية وأيام حكمهم :-

أنا ابنُ آلِ اللهِ من هاشمٍ      حيث نَمى خيرواحسانُ  
من تبعته منها نبيُّ الهُدى      مورِثيةٌ والفِرْعُفِينِسانُ (٤)

وكان من الممكن أن يظفر الدارس بمادة أوفر لتصور ما كان يجوي من نقائض لو أسعفت المصادر على إيراد القصيدتين كاملتين .

وأما أبو عبيد الله الأشعري ، وهو شاعر من أهل طبرية ، فقد وزر للمهدي ، ولكنه في أخريات أيامه أخذ يؤنب نفسه على معاضدته لبني العباس "الفسدين الغادرين" ، يقول (٥) :-

(١) انظر ترجمته في : معجم الشعراء : ٤١٩ ، صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات تحقيق س. ديدرنج ، فيسبادن ، ١٩٧٠ ، ٥ : ٢١٨ ، البكري : سبط اللائي ، تحقيق عبد العزيز الميني الراجوتي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، مصر ١٩٣٦ م ، ١ : ٥١٧ ، وقال ابن عساكر كان المسلمي هجاء عبد الله بن طاهر ثم حسنت العلاقة بينهما عندما قدم عبد الله بن طاهر إلى الشام ، وقد صحبه المسلمي إلى مصر ، فلما عاد ابن طاهر إلى العراق ماراً بدمشق ظل المسلمي بها .

(٢) معجم الشعراء : ٤١٩ ، الوافي بالوفيات ٥ : ٢١٨ .

(٣) قال المرزباني في ترجمته : شاعر مشهور أديب ، كان ينزل أرض قنسرين ، عاصر من الخلفاء العباسيين المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل . (معجم الشعراء) بتحقيق عبد الستار أحمد فراج : ٣٦٣) . وانظر : الوافي بالوفيات ٤ : ٣٥ .

(٤) الوافي بالوفيات : مورثية .

(٥) انظر ترجمة صاحب هذا الشعر في : معجم الشعراء : ٣١٥ ، وفيه أن اسمه معاوية بن عبيد الله بن يسار ، وكان مولى عبد الله بن عضاء الأشعري .

لله دَعْرُ أضعنا فيه أنفسنا  
بالجهل لو أنه بعد النهى عبادا  
أفسدت ديني بإصلاحي خلاقتهم  
وكان إصلاحها للدين إفسادا  
ما قربوا أحدا إلا ونيتهم  
أن يُعقبوا قرنه بالخذرا بعبادا

وهذا الشعر يتعمد على واقع فردي ، ويحفزه حادثة ربما كانت عابرة ، غير أنه يكشف عما كان  
كان يستكن في بعض النفوس الشامية من كراهية للعباسيين .

ومن الشعراء الشاميين الذين نظموا في التحول من الأموية إلى العباسية الشاعر طالسب  
بن الأزهر الشامي الطائي<sup>(١)</sup> الذي يدل بفضل قومه على العنصور ، ونصرتهم للعباسيين فيقول  
مخاطبا آيها<sup>(٢)</sup> :-

اذكر لقومي فضلهم ووفاءهم  
يا ابن الأكارم إني من عصبية  
لکم ، وكن يا ابن الكرام وصبولا  
متسربلين من الحديد شليلا<sup>(٣)</sup>  
خرجوا لدعوتكم فلم يألوا نقصد  
رفعتكم فوق الأنعام طويلا

هذا ما تم العثور عليه من الشعر الشامي الذي يصور أحداث الانقلاب العباسي وزوال الأموية ،  
وذلك مقدار قليل بالقياس إلى حجم الحدث وقوله . فهل كانت أرض الشام عاقرا إلا من هو ؟ لا الشعراء  
المذكورين ؟

الجواب عن ذلك أن الندرة كانت في الموضوع لا في الشعراء ، فقد ظهر في النصف الثاني من  
القرن الثاني الهجري شعراء شاميون كثيرون ، ولكنهم لم يقبلوا على هذا الموضوع لأن الحياة فتحت  
أمامهم موضوعات جديدة ، نعم ، إن شيئا من الأفكار السالفة قد بقي يعتل في النفوس ، ولكن تلك  
الأحقاد ظللها شيء من التعقل ، ومحاولة الألفة للواقع العملي . وقد عبر عن ذلك أموي يقول للرشيد

(١) ترجمته في : ابن الجراح : الورقة ، تحقيق عبد الوهاب عزام وعبد الستار أحمد فراج ،  
ط ٢ ، دار المعارف بمصر ، ١٥ ، بصورة تاريخ دمشق ٨ : ٤٩٦ .  
(٢) المصدران السابقان .  
(٣) الشليل : الغلالة ونحوها تلبس تحت الصدر .

وأنتم بني العباس عمن محمّد  
وقد سرتني أنّ الخلافة فيكم  
لكم إرثها والحقّ منها ولم يكن  
وإنّ بني حرب ومروان أصبحوا  
يخضون أبحاراً مغيظاً ضميرها  
يمين قريش إذ سواكم شمالها  
مخيفة ، ما إن يخاف انتقالها  
لنيركم إلا أسما وانتقالها  
يدار هوان قد عراهم نكالها  
ويبدون الحاظاً مبيناً كلالها

ولعل حديث البحتري عن حق العباسيين بالخلافة في هذا الوقت المتأخر بعد زوال ملك بني أمية مؤشراً على أن الخطر بعودة الحكم إلى الأمويين ظلّ هاجساً يتخوفه العباسيون وأنصارهم . ولا شك أن لثورات الشاميين المتعاقبة أثراً في بقاء مثل هذا الهاجس . وهو الحلم نفسه الذي ظل يراود الأمويين وأشباعهم على مدار قرن من الزمان تقريباً في شخص "السياني المنتظر".

ومن الحق أن تربط مناسبة هذه القصيدة - وهي عودة المتوكل من دمشق إلى سر من رأى في سنة ٢٤٤هـ / ٨٥٨ م - بما أورده ابن العديم عن الطريق التي اجتازها المتوكل في أثناء هذه العودة ، ووقوفه بدير حنيناً<sup>(١)</sup> ، وقراءته ما كتبه شاعر من موالي بني أمية يدعى الفرخ في صدر هيكله ، فذلك كليل بأن يكشف عن سر حديث البحتري عن الأمويين والعباسيين في هذا الزمان . فقد قرأ المتوكل - فيما يقول ابن العديم<sup>(٢)</sup> - :

أيا منزلاً بالدير أصبح نارياً  
كأنك لم تظنك بيض نواعيم  
وأبناء أملاك عباسم سادة  
إذا نزعوا تيجانهم فضاغيم  
على أنهم يوم اللقاء قساور  
ولم يصح الصهريج والناس حوليه  
وحولك رايات لهم وعساكر  
تلاعب فيه شمأل ودببور  
ولم تتبختر في فنائك حور  
صغيرهم عند الأنام كبير  
وإن لبسوا تيجانهم فببور  
ولكنهم يوم النوال بحور  
عليه فساطيلهم وقبور  
وخيل لهم بعد الصهيل نخير

(١) لم يرد في معجم البلدان ذكر لدير بهذا الاسم ، كما لم يرد في الديارات للشاهشتي بتحقيق كوركيس عواد ، ط ٢ ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٦٦ م ، وذكر محمد كرد علي أن هذا الدير من أديرة الغوطة الدائرة وكان لا يزال عامراً حتى القرن السابع الهجري ، انظر: غوطة دمشق ، ط ٢ ، مطبوعات المجمع العلمي العربي ، بدمشق ، مطبعة الترقى ، ١٩٥٢ : ٢٦٤ .

(٢) بغية الطلب ٨ ورقة ٢٥٥ ، وقال ابن العديم في صدر هذه القصيدة : "لما أراد ==="

ليالي هشام بالرّصافة قاطنًا  
إني العلك غص والخلافة لدنة  
وروضك مرناض وينعك يناربع  
بمسلمة الميمون وهو الذي لسه  
بلسي « فسقيت الغيث صوبًا مباكسرا  
تذكرت قومي فيكم فبكيته  
فعرزت نفسي وعي نفس لها - إذا  
رويدك إن اليوم يعقبه غند  
لعل زمانًا جبار يومًا عليهم  
فيخرج مرثادًا ويأمن خائفًا

وفيك ابنه يا دير وهو أميــــر  
وأنت خصيب والزمان طريــــر  
ودهر بني مروان فيك نضيــــر  
تكاؤ قلوب المشركين تطيــــر  
إليك به بعد الرواح بكــــور  
وإن شجيا بالبكا لجديــــر  
جوى ذكر قومي - أنة وزفيــــر  
وإن صروف الدائرات تــــدور  
لهم بالذي تهوى النفوس يجــــور  
ويطلق من ذل الوفاق أسير

فيذه القصيدة مشيرة للخليفة بما فيها من حب دافع لبني أمية « وأمل مقيم بإمكان رجوع الحكم إليهم » إلى ما فيها من إثارة حادة لخصومهم العباسيين « لا بضمونها الذي يعلي من الخلفاء الأمويين إعلًا » ويشيد بفضلائهم وفضلهم على الإسلام والمسلمين « ويزري بمظالم العباسيين إززا » وحسبه بل أيضًا بجمال صياغتها « وحسن تأتي الشاعر فيها بإقامتها على الاسترجاع المستلج « والتصوير المعجب أيضًا « فكانت قصيدة البحري تعلقة وسلوانا .

ويستوقف الدارس بعد هذا كله في مناصرة البحري للعباسيين واختصاصه بمدح عدد كبير من خلفائهم بيت مفرد له « فضل فيه الأمويين على العباسيين » وقد جاء هذا البيت في قصيدة عبّر فيها البحري عن ألمه لحبس المتوكل لأبي سعيد الثغري « وتسليمه إلى أبي الخير النصراني الجهمذ الذي تكفل بتعذيب الثغري ليستخرج منه مالاً اتهم بأخذه » فقال البحري (١) مستنكرًا حبس هذا

جعفر المتوكل الخروج من الشام إلى العراق أحب أن يجعل طريقه على البرية لينظر إلى آثار بني أمية ومصانعهم « وكان في طريقه دير يعرف بدير حنيننا « فلما أزمع على ذلك اتصل خبره ببعض موالي بني أمية . . . ثم تقدم الفرج إلى الدير فجعل لصاحبه جعلا على أن يدهه يكتب في صدر الهيكل أبياتا « فأذن له « فكــــب . . . . .

(١) هي القطعة رقم ٧٧٧ من ديوانه وتاريخها سنة ٢٣٣هـ / ٨٤٧ م . وانظر في خبرها في الصولي : أخبار البحري : ١٧ .

القائد وتسليه إلى التعدييب :-

هذا ابن يوسف في يدي أعدائه  
نامت بنو العباس عنه ولم تكن  
يُجْزَى على الأيام بالأيام  
عنه أمية لورعت بنيام

وأكبر الظن أن البحتري إذ يفضل الأمويين على العباسيين هنا، كان ينطلق من حسرتهم  
سائد في الأوساط الشامية تجاه الأمويين والعباسيين، وبخاصة إذا علمنا أن البحتري حتى تاريخ  
هذه القصيدة لم يكن قد ارتبط بعلاقة مصلحة بخلفاء بني العباس، وهو الارتباط الذي سيؤدي إلى  
تحوله إلى شاعر عباسي منتفع .

قد رأينا أن بعض تلك الفتن مثل فتنة أبي العميطر السفياي « وأبي حرب اليماني » وابسن بيهس الدمشقي كانت حركات تهدف إلى إحياء الخلافة الأموية على يد سفياي منتظره وهي بهذا تفترق في غايتها عن فتن أخرى كانت لا تتجاوز في مفهومها معنى الصراع القبلي الذي قد تشيهره حادثة تافهة ، ثم لا يجني الفريقان من ورائها إلا التقتيل ، وإرواء الغليل .

وفي النوع الأول من الشعرات ظل أهل الشام يكيدون لبني العباس وظلت الأحلام تراودهم بإمكان إعادة الخلافة إليهم . وفي المقابل استغل العباسيون التناقض القبلي بين أهل الشام من تيسية ويمنية ، وكان انكاؤهم على هذا التناقض سبباً بارزاً من أسباب نجاحهم في القضاء على حركات الخارجين عليه .

( أ ) فتورة أبي العميطر - على هذا الأساس - تحتل وجهاً سياسياً ساطعاً من وجوه ذلك الصراع ، ويوضح بعض شعر هذا الشاعر رغبته الملحة في ائتلاف الصف الأموي لدرء الخطر العباسي ، فيقول من قصيدة يرثي فيها ابنه القاسم الذي قتلته قيس (١) :-

بنو أمية إن الرأي مشـترك	والتصح عند ذوي الألباب مقبول
حتى متى أنتم في كل حادثة	راد قتيل وعان ثم مغلول
هذا ابن بيهس قد أبدى عداوتكم	فالحرب قائمة والسياف مسلول
وأنتم دبر عن ملككم خذل	وفيكم السادة النسر البهاليل (٢)
يحمي ابن بيهس ملكاً لا لعترته	لكن لدنيا لها بالعرض تعجيل (٣)

- (١) صورة تاريخ مدينة دمشق ١: ٤٤٦ : « وأول هذه القصيدة :  
والراح مهجورة والجسم مدخول  
وللامور بما تجرى عقابيل  
بهلك قيس وان الكل مشلول  
والبيض مزقة والعيش منقول  
والظلم لا شك ، والمذوان مخذول  
كانت بواً وبعض القتل مطلقول
- (٢) دبر : مدبرون مهزومون . البهاليل مفرداها البهلول وهو السيد الجامع لصفات الخير .  
(٣) عترة الرجل نسله ورهطه وعشيرته .



ففي هذه الأبيات يرى أبو العميطر أن بني أمية أولى الناس بالملك ، وأن ما يحدثه فيهم بنو العباس من تقتيل وأسروا إذ لال كان جدِّيرا به أن يكون حافظا لهم على الاتحاد ، وقد آلمه جسداً أن يرى القيسية وزعيمها قد اختاروا طمعاً مناصرة العباسيين .

وَيُرْجَعُ أَبُو الْعَمِيطَرِ عَلَى هَذَا الِهْمِ الْأُمَوِيِّ الْمُقِيمِ فِي قَصِيدَةٍ أُخْرَى تَنْضِحُ أَسَىً وَحَقْدًا فَنَسِي  
 آن ، فَهُوَ يَخُوفُ الْأُمَوِيِّينَ مِنْ عَاقِبَةِ الْإِنْتِسَامِ ، مَذْكَرًا إِيَّاهُمْ بِالْفِظَائِمِ الَّتِي أَحَقَّهَا بِهِمُ الْعَبَّاسِيُّونَ ، مَحْدَرًا  
 مِنْ غَدْرِ أَسْوَدٍ يَتَرَضُّ بِهِمْ إِنْ لَمْ تَتَّحِدْ كَلِمَتَهُمْ (١) :-

أَبْنَسِي أُمَيَّةً أَنْكُتُمْ	أَصْبَحْتُمْ غَنَمَ الذُّنُوبِ
وَأَرَى بَنِي الْعَبَّاسِ طُورًا	وَالزَّمَانَ إِلَى أَنْقِلَابِ
يَسْقُونَكُمْ مَا كُتُّكُمْ	تَسْقُونَ مِنْ سَلْعٍ وَصَّابِ (٢)
إِنْ كَانَ دُهُرُكُمْ التَّخَرُّمُ	أَذَلُّ فِي الثَّلَمَاتِ الصَّعَابِ
فَدَعُوا الشَّيْءَ لِرُحْلَةٍ	لَيْسَتْ تَحُورُ إِلَى إِيَّابِ
وَتَوَقَّعُوا سَلْبَ الشَّوَا	رِعْنَ الْعَقِيلَةِ وَالْجِيَابِ
وَتَوَائِبَ الْأَعْدَاءِ فِيهِمْ	مَا بَيْنَكُمْ مِنْ كَلِّ بَسَابِ

ويبدو الشاعر مغاضباً من انحياز قيس إلى بني العباس ، فيرفع عن نفسه العتاب إذ يوجه دعوة صريحة إلى أنصاره بأن يفتكوا بالقيسيين :-

لَسْتُمْ أُمَيَّةً فِي قَرِيْبَةٍ	بِالصَّرِيْحِ وَلَا اللَّيْسَابِ
إِنْ لَمْ تَدْعُ صَوْلَاتُكُمْ	قَيْسًا بِمَنْقَطِيعِ السُّتْرَابِ
قَطَمَتِ بَقْتِيلَ بَنِي أُمَيَّةٍ	قَيْسُ أَسْبَابِ الْعِتَابِ (٣)
يَوْمَ الْبُضِيْعِ وَمِثْلِهِ	أَيَّامُ سَكَا وَالْقَبَابِ

- (١) مصورة تاريخ مدينة دمشق ١، ٢: ٤٤٩ ، والمخطوطة غير دقيقة الضبط والخط ، ولهذا غيرت في القراءة بحسب المعنى ، ولم اشر إلى مواضع التغيير لان هذا يثقل الحواشي كثيراً .
- (٢) السلع : نبات مر ، وقيل نوع من السم ، والصاب : العلقم . ومن الغريب أن الشاعر الذي يدافع عن بني أمية ينسب إليهم الظلم ، وأنهم كانوا يسقون الناس سلماً وصاباً .
- (٣) البضيغ جبل بالشام مشرف على الغوطة بدمشق ، وسكا : بفتح أوله وتشديد ثانيه ، اسم قرية بينها وبين دمشق أربعة أميال . معجم البلدان . ولم يرد في كتب الجغرافيين ذكر للقباب ، ويبدو أنه من المواضع التي شهدت حروب القيسية واليمنية قرب دمشق .

وكان أبو العَمِيْطَر قد حقق انتصارات على قوات العباسيين في الشام ، ودانت له مناط سق واسعة منها ، فأخذته نشوة الظفر ، فكتب إلى ابن بيهس كتاباً يدعو فيه للانضمام إليه ، قال فيه (١) :  
” بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فالعجب كل العجب لتخلفك عن بيعة أمير المؤمنين ، وجدانك أنعم أبائك عليك ، ولست ، ولا أحد من سلفك إلا في نعمته . وأنت تعلم مكان حرقتك بقرية تلغيانا (٢) ، وأن عشيرتك بالغوطة كرش منشورة . وأمير المؤمنين يحلف لك بالله لئن سمعت وأطعت ليلدن بسك أقص غاية الشرف ، وليولينك ما خلف أباه . ولئن تخلفت وتأخرت لبيعن إليك ما لا قبل لك به من الزحوف التي تتلوها الحتوف بشاهد هذا السلاح المعد لأهل الخلاف والمعصية . ”

وقية هذه الرسالة تكمن في كونها تفسح عن رغبة أبي العَمِيْطَر في تألف قلوب الشاميين جميعاً إليه ، وهو لذلك يغري زعيم قيس بالانضمام إليه ليستقيم له أمر الشام كلها ، وليتحقق للشاميين جميعاً قيسيتهم ويمنيهم حلمهم الطويل بأن تعود إليهم العزة المفقودة .

وقد ألحق أبو العَمِيْطَر برسالته هذه أبياتاً من الشعر تهدد فيها ابن بيهس وتوعده من منة مخالفته ، ومناه فيها ، في الوقت نفسه ، بالسلامة إن أطاعه وأتبعه ، يقول (٣) : -

لئن كان هذا الجِدُّ منك لقد هَسَوِي	بئس الحين في أمورية غير طائس
أبعد اجتماع الشام سمعاً وطاعة	إلي وإذ لالي جميع القبايس
وتوجيهي العمال في كل بلدة	وزحفي إليها بالقنا والقنايس (٤)
رجوت خلاني أو تمنيت جامعاً	إزالة ملك ثابت غير زائس
فإن تعط سمعاً أو تعلق بطاعة	تقل من ملات شيدان السزازل
وإن تعص لا تسلم وفي السيف واعظ	لذي الجهل ما لم يتعظ بالرسائل

- (١) صورة تاريخ مدينة دمشق ١٥ : ٤٦٧ .
- (٢) تلغيانا بكسر الفاء ، من قرى غوطة دمشق ، الدائرة اليوم ، ذكرها في حديث أبي العَمِيْطَر .  
ياقوت : معجم البلدان ، مادة تلغيانا ، وانظر : غوطة دمشق : ٢٢٥ .
- (٣) صورة تاريخ مدينة دمشق ١٥ : ٤٦٧ - ٤٦٨ .
- (٤) القنابل جمع القنبل وهم الطائفة من الناس ومن الخيائل .

ويكشف هذا الشعر عن مدى اتساع سلطان أبي العميظر في الشام ، وعن توفقه الشديد إلى عودة الحكم الأموي إلى الشام . فكانت هذه الإجراءات الإدارية السريعة بتوجيه العمال ، وإرسال الزحفوف إلى القبائل النائرة . كما كان في إطلاق لقب أمير المؤمنين على نفسه أكبر دليل على هذا التوق . ومع هذا كله ، فإن القاري يحس بقلق الشاعر الدفين ، إذ ما تزال هذه الإنجازات مهددة بالزوال . ولم يؤثر التوعد والتهديد في ابن بيهس ، ولم يستجب لدعوة أبي العميظر ، وهنا تحولت الثورة الشامية على العباسيين إلى صدمات قبلية ، وعبر الشعر بدوره عن ذلك التناحر القبلي . وما يوضح الناحية التاريخية الشعرية في تلك الصدمات أن أعرض مراحلها بتسدرج :

١- خاض الفريقان معركة طاحنة ذعب فيها قتلى كثيرون ، وكُسر جيش أبي العميظر ، وخرج ابن بيهس من المعركة أقوى مما كان ، واضطر أبو العميظر للتحصن في دمشق ، وإغلاقتها على نفسه ، وأطاف ابن بيهس ومعه القيسية حول دمشق يحاصرونها ، وإلى هذا يشير ابن بيهس بقوله (١) :

حصرتُ بني أمية في دمشقِ	فما يُبدون منها قيسَ شبر
وكتت لهم شجاً في حلق غياو	دعا فأجابته ضلالٌ فيشر (٢)
حصرتُ بني أمية بعدما قعد	أباحوا للعراق وأرض مصر
ولم أغلق بقيتهم وإنما	لحرب بما بقيت لآل صخر
حسرت لهم قناع القتل فيهم	فما أنفك ذا قتل وأسبر
ولولا أن قيساً أسلمتني	ولم تشفع شجاعتها بصبر
لقد أجلت أمية عن دمشقِ	وأصبح جائزاً نهيسي وأميري
ولي في ذاك بعد البدء عسود	بأقصى غاية إن طال عميري

٢- اجتمع إلى أبي العميظر وزراؤه ، وعزوه عن الانكسار بأن الحرب سجال ، فكتب إلى السواحل والبقاع وحصص يطلب مدداً ، وتجمع له جيش كبير جعل ابنه القاسم قائداً له ، والتقى جيش ابن بيهس في موقع بين شبعاً وقرحنا ، فكانت بينهم حرب شديدة ضارية ، قتل فيها القاسم ورشاه

(١) مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٥ : ٤٦٨ .  
(٢) ضلال فهرت قصد بهم الأميين . وفهر هو جد قرش ، انظر ابن حزم : جمهرة الأنساب : ٤٦٤ .

بقصيدة أوردتها أنفا ، وعاد ابن بيهس إلى سكا - مركز أعماله - ونصب هناك الأعلام العباسية السود ، ورفع رأس القاسم معها ، وقال يفتخر بما أنجزه (١) :-

شفتني من أمية باقيات	على الأيام من بيض الوقاء
وأنستني وتيعمة يوم سكا	وما أعطيته يوم الصوامع (٢)
وفي قردا قتلت حواء صخر	وكل مخاليف خزبان خاليع (٣)
عصيت بني أمية إذ أتاهم	سواي من القبائل للمظامع
وصرحت الخلاف لهم وإنسي	لما ص لابن حرب غير طامع
فمن عقلت يداي فبيس من راد	ومأسور يئن من الجوامع (٤)
ومن أظفر به من آل حرب	يُعادر للذئاب وللخوامع (٥)

٣- بعد هذه الانتصارات أصيب ابن بيهس بمرض ، وثقلت علته ، فأحب أن يتوجه إلى حوران ، ولدى إزماعه ذلك جمع رؤسا بني نعيم وقال لهم : قد كان من علتي ماترون ، فارتقوا بيني مروان بن الحكم ، والطفوا بهم ، وعليكم بمسلمة بن يعقوب ( مروان من نسل مسلمة بن عبد الملك ) ، وأعلموه أنكم لا تثقون ببني أبي سفيان ، وإنما تثقون به ، فكلمت بنو نعيم مسلمة وبايعوه ، فدخل على أبي العميطر في الخضراء (٦) على عادته ، وسلم عليه ، ثم أمر بالقبض عليه وتقييده بالأغلال ، وبغاث إلى رجال بني أمية يأمرهم بالقدوم على لسان أبي العميطر ، فكلما قدم واحد منهم أمره بالبيعة والسيوف على رأسه ، وأدنى مسلمة القيسية ، ولبس الثياب الحمر ، وإعلانا لقيسيته ، وخص كل وجه قيس كل امرئ بمنزل في دمشق .

- (١) صورة تاريخ دمشق ١٥ : ٤٧٠ .
- (٢) المواقع المذكورة جرت فيها حروب بين القيسية والبيسية في هذه الفتنة ، وهي جميعا في غوطة دمشق أو قريية منها . انظر : غوطة دمشق : ١٧ ، ٢٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ .
- (٣) خاليع : ناقض للحكم خارج عليه .
- (٤) الجوامع مفردا الجامعة : الغل يجمع اليدين إلى العنق .
- (٥) الخوامع : الضباع .
- (٦) الخضراء هو قصر معاوية بن أبي سفيان . حرق في فتنة الفاطميين مع العباسيين سنة ٤٦١ هـ انظر : غوطة دمشق : ٢٠٥ .

٤- أبل ابن بيهس من علة ، وأقبل يريد دمشق ، فقال مسلمة لمن حوله : هذا صاحبكم - يعني ابن بيهس - يريد بنا ما صنع بأبي العميظر ، فقالوا له : ما عولنا بصاحب ، وما نعرف غيرك ، وهذه سيوفنا دونك ، وقال له بعضهم مؤكدا ذلك (١) : -

ستعلم نضحنا إن كان كسون	وتعلم أننا صبر كبرام
حماة دون ملكك غير ميئيل	إذا ما جد بالحرب احتيدام
وسوف نريك في الأعداء ضربا	تطير سواعد منه وهام
وطعنا في النحور بذابلات	طوال في أسنتها الحمم

عندئذ هاجم ابن بيهس دمشق ، ونشب قتال بين جماعته وجماعة مسلمة وكثرت الجراحات بين الفريقين ، وانصرف عنهم ابن بيهس ، وقد سا ظنه بقيس ، وهو يقول (٢) : -

سيكبي الله وهو أعز كاف	أمير المؤمنين ذوي الخلاف
وكل مقدر في اللوح يأتي	وكل ضابطة فالس انكشاف
وما أنا بالتقيير إلى نصير	سوى الرحمن والأسل العجاف (٣)
وعن حق أدانع أهمل جور	وسبي بين قصيد وانحراف

٥- تحسبت القيسية الملتفة حول مسلمة ، وتوجست خيفة مما قد يصنع ابن بيهس بها ، فدخلوا على مسلمة وهم ينوون الغدر به ، وقالوا له : نرى أن نخرج إلى ابن بيهس ونسأله الرجوع عنا ، وحقن الدماء بيننا ، فإن فعل وإلا بطأنا أصحابنا عنه ، فصوب مسلمة رأيهم ، وبات وفد القيسية إلى ابن بيهس عنده ، وأحكموا معه الخطة للاستيلاء على دمشق ، وقد تم لهم ما أرادوا ، وفوجس مسلمة ومعه أبو العميظر في قيوده بهذا الذي حدث ، فهربا بملابس النساء من باب الجابية حتى أتوا العزة . وكان دخول ابن بيهس مدينة دمشق سنة ١٩٨ هـ ، وظل يقاتل أهل العزة ودارها ، وبيت لهيأ حتى سنة ٢٠٨ هـ حين قدم عبد الله بن طاهر إلى دمشق . وبعد سنتين عاد ابن طاهر من مصر إلى بغداد بطريق دمشق ، فأخذ ابن بيهس معه .

(١) صورة تاريخ دمشق ١٦ : ٤٦٠ - ٤٦١ .

(٢) نفسه : ١٦ : ٤٦١ .

(٣) الأسل : نبات ذو أغصان كثيرة شبائكة الأطراف تصنع منه الرماح والنبيل ، ويطلق على كل ما رقق وحد من الحديد من سيف أو سكين أو سنان .

ولابن بيهس شعر كثير في هذه الحروب الطويلة يفخر فيه بإفشال طموح الأمويين ،  
إذ يقول (١) :

يُبْسَتْ أُمِيَّةٌ بَعْدَ طَوْلِ رَجَائِهِمُ	لِلْمَلِكِ وَأَعْتَرَفَتْ بِطَوْلِ شِقَائِهِمُ
وَمَنْعَتُهَا مَا حَاوَلَتْ مِنْ دَوْلَتِي	كَانَتْ تَوَهُمًا لِمَلِكِهَا بِنُورِ مَائِهِمُ
وَقَتَاتُهَا عُقْبَانَ مَا قَامَتْ بِهِ	وَمَنْعَتُهَا مِنْ ظُلْمِهِمُ وَسَبَائِهِمُ
أَفْأَنْ يَقُمَ مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ مَارِقُ	فَلَقَدْ دَنَا مِنْ حُتْفِهِمُ وَبِلَائِهِمُ
وَأَنَا الزَّعِيمُ لَهَا حَيَاتِي أَنْ تَسْرِي	لِلْمَلِكِ طَالِبَةً بَدَارِ فَنَائِهِمُ

ومن غير شك أن ابن بيهس القيسي كان يخشى أن تقوم للأمويين قائمة جديدة على يدي أبي  
العميطر السفياي أو غيره من الأمويين الذين ينتصرون باليمنية حين يثورون ، لأن في بعث الدولة الأموية  
خطرا يتهدد القيسيين المنحازين عن الأمويين ، المناصرين للعباسيين ، وعزاً لكلب المؤيدة للسفيايين ،  
وهذا الحسن يظهر بلا مواربة في قول ابن بيهس في قصيدة أخرى (٢) :

بَنِي عَيْلَانَ قَدْ أَشَّتْ مَجْزَدًا	لَكُمْ فِي النَّاسِ إِذْ تَمَّ الْبِنَاءُ
أَمَلْتُ لَهَا شِمَّ عُنُقًا لِيَكُمُ	وَوَدًّا لَا يَزَالُ لِسَهْ بَقَاءُ
وَسَوْفَ تَرَوْنَ غِبًّا وَعَيْسًا	إِذَا أَعْلَسَى بِكَعْبِكُمُ الْعَمَلُ
وَذُلَّ أَبِي الْعَمِيطْرِ عِزُّ قَيْسٍ	وَعِزُّ الدِّينِ مَا بَرَّقَ الضِّيَاءُ

ويلاحظ ما في الأبيات من كراعية الشاعر الشديدة للأمويين ، وذلك بإيرادها لألفاظ أمية ،  
صخر ، ابن حرب ، آل حرب ، في مواطن التشفي بتقتيلهم والظفر بهم ، وعصيان أمرهم ، فضلاً عما  
يببدو من استخفاف ابن بيهس بهم ، إذ يعددهم بأن تبقى جثث قتلاهم طعاماً لكواسر الوحوش . كما  
يصرح بأن غايته من كل ما قام به هي إرضاء المأمون . يقول في إثر مقتل القاسم بن أبي العميطر (٣) :

(١) صورة تاريخ مدينة دمشق ١٥ : ٤٦٨ .  
(٢) المصدر نفسه ١٥ : ٤٦٩ .  
(٣) نفسه ١٥ : ٤٧١ .

منعتُ بني أميةَ ما أرادتُ      وقد كانت تمتُ بالخلافةَ  
أبرئهم من الشاماتِ قتلًا      ولم تكُ لي بهم في ذاك رافةً (١)  
أناضلهم عن المأمونِ إنسي      على من خالف المأمونَ آفةً

ويُدلُّ ابن بيهس بنفسه وبقبيلته على المأمون في قصيدة أخرى أرسلها إليه ليحظى بمكافأة شخصية لنفسه ، وأخرى لقبيلته ، وفيها يقول كاشفًا عن هاتين الخائيتين بصورة جلية ، وبلا أدنى موارد (٢) :-

أبلغنا اليومَ على الـ      بعدُ أميرَ المؤمنينَ  
أنني أهلكُ بالشـ      ام أميرَ المُجرمينَ  
وقتلُ ابنِ عظيمِ الـ      مارقينِ المُعتدينَ  
تاسمًا لما عمداً يستجليـ      ب الحربِ الزبونِ (٣)  
لم ندعُ بالشـ كباشـ      من كباشِ العيشمينَ (٤)  
ظالمًا إلا سقنـ      ه بها الكأسَ المنونـ  
ليت شيعري هل أتى المـ      أمونَ أنما قد عُنينـ  
بالذي صارَ إليه      في أمورِ المُسلمينـ  
وكفئناهُ بيبيـ      مرهفاتٍ من يلينـ

٦- وتوفي مسلمة في الغزة ، وصلى عليه أبو العميطر ، فلما رُفعت جنازة قال أبو العميطر يخاطبه :  
"رحمك الله ، وإن كنت قد ظلمتني وظلمت نفسك " . ولم يعيش أبو العميطر بعده إلا قليلاً ، وتوفي في الغزة أيضًا ، ودفن في حانوت ليخفي قبره فلا يُنبش (٥) .

- (١) أبرت : أهلكت .
- (٢) تهذيب ابن عساكر ٢ : ١١٢ .
- (٣) الزبون : يقال تزبن الحرب الناس تصدمهم فهي زبون ، على التشبيه .
- (٤) العيشمين : قصد الأمويين الذين ينتسبون إلى عبد شمس .
- (٥) تاريخ مدينة دمشق ١٦ : ٤٦١ .

عده صورة تلك الأحداث ، وما قيل فيها من أشعار ، ومن المناسب التوقف هنا لإلقاء نظرة على محصول ذلك كله . وعنا لا بد أن نذكر أن أبا العميطر حين بويح بالخلافة كان شيخاً كبيراً قد تجاوز التسعين ، ومثله لا يصلح في تلك السن الواهنة للتعرض بشؤون كبيرة . والنائب أن أبا العميطر لم يكن إلا " واجهة " يتستر وراءها طامحون تغريهم على الخروج شائعات تصور لهم الخلاص على يد سفياني ، وقد أرادوه على الخروج عدة مرات وعوياً أي " حتى اصطنعوا الحيل للإيقاع في روعه أنه هو " المخلص " المرموق ، فمن أساليهم أنهم حفروا تحت بيته سرداباً ، وكانوا يدخلونه في الليل وينادونه : " اخرج فقد آن لك " ، وكرروا ذلك عدة ليال ، فخرج <sup>(١)</sup> . وكان هو " لا " الناس يتفنونون في تلقيه فيقولون مثلاً : يا علي يا مختار ، يا من اختاره الجبار ، على بني هاشم الأشرار ، أو يقولون للناس : بايعوا " مهدي اللـه " ، أو : قوموا بايعوا الرضى من آل محمد <sup>(٢)</sup> . وقد كانت الوحدة بين القبائل العربية سبيلها إلى النجاح في تقويض الحكم العباسي ، خصوصاً لأن الفتنة بين الأمين والمأمون كانت قد بدأت . ولكن عتق العصبية القبلية بين اليمنية والقيسية ، وإسراع أبي العميطر إلى تهديد ابن بيهس لا إلى استمالته بالليلين ، وتبيان المصالح المشتركة بينهما قد جعل ابن بيهس يقاتل دفاعاً عن خلافة غائبة عن الشام . ومن هذا الوجه نجد اختلاطاً في تلك الفتنة بين أهداف سياسية وأخرى قبلية . وكانت الأهداف تتبادل بحسب تقلب الحال ، وتلون ظروف الحرب ، ولا ريب أن الفصل هنا بين السياسي والقبلي أمر متعذر ، فابن بيهس وقف إلى جانب الخلافة ، لا حفاظاً على رابطة الجماعة وتخوفاً من نتائج الفتنة ، وإنما حفاظاً على مصالح قبلية وأخرى شخصية .

ومهما تكن نظرتنا إلى تلك الحروب ، فالهم في هذا المقام هو ما تمخضت عنه من شعر . ولا ريب أنها كفلت بروز شاعرين لم تكن لنسمع عنهما لولا اتصال أشعارهما بتلك الأحداث . ومن الحق أن يقال إنهما شاعران متميزان ، ولكن اقتضار شعرهما على الفتنة قد حد من شهرتهما . وإذا كان هذا الشعر قد فجرت الفتنة ، فأخرب به أن يحمل في ثناياه ما تبثه الفتنة في النفس من عـرام وحقد ! وهذا واضح تماماً في شعر ابن بيهس ، وهو أقل وضوحاً في شعر أبي العميطر السـذي جنحت به السن قليلاً إلى إضعاف حدة المزاج فيه ، ويحس قارى هذا الشعر بأنه يصدر في كـل حال عن أفق ضيق محصور في ما تفجروه العداوة من براكين . فالشاعر لا يرى أمامه سوى ملابسات

(١) تاريخ مدينة دمشق ١٢ : ٤٤٦ .

(٢) المصدر نفسه ١٢ : ٤٤٨ .



الأحداث ، فهو إذا استثار أورش أو تمنى فإنما يفعل ذلك كله من خلال فوهة الحدث نفسه ، غير معني بأبعد من ذلك . وأوضح شاعد على ذلك رثا أبي العميظر لابنه القاسم ، فهو لا يرثي ابنه ، وإنما كل همه معقود بهلك قيس ، وتسريح الخيل لتعميت في ديارهم إفساداً ، وتحريض بني أمية ، واستثارة نخوتهم بألوان من التعبير لكي يتنبهوا لابن بيهس الذي يحارب عن ملك لبيس لعترته فيه نصيب .

وهذا الانحصار في حدود الحدث واضح تمام الوضوح في شعر ابن بيهس ، فهو يتحدث عن حصره لبني أمية في دمشق ، ولكنه هو في شعره الذي يسجل فيه ذلك الحدث محصور في نطاق ضيق محدود لا يكاد يتعداه ، وهو أنه حصر بني أمية في تلك المدينة ، لأنهم أباحوا العراق وأرض مصر ، وسيظل حرباً عليهم ، وسيظل يقتلهم ويأسرهم ، ولولا تخاذل قيس إذن لأجلاهم عن دمشق ، وإذا كان أخفق في تلك المرة فإنه سيحاول ذلك مرة أخرى . ولما كان هذا الشعر لا يحمل إلا بعداً واحداً فإنه لا يستطيع أن يعيش في النفوس بعد ذهاب الحادث نفسه ، وقد يحاول ابن بيهس أن يخرج في بعض أبياته من هذه الزاوية الضيقة ، فيمزجه بعناصر دينية ، كما في مقطوعته القافية : -

سيكفي الله وهو أعزُّ كافي أمير المؤمنين ذوي الخلاف

فيحدث عن عناية الله بال خليفة ، وعن المقدر وأنه آت ، وعن انقشاع غيمة الشدة ونزول الفرج ، وعن الإيمان بنصر الله . ويصف قيامه على أهل الجور بأنه ذب عن الحق ، ولكن هذا الوتر غير شائـم كثيراً في شعـره .

ومما يحد من القدرة على التفاعل مع هذا الشعر دوران أكثره على " الذات " ، والتمسـدح بشؤون ليست من عظام الأمور مثل : حصرت بني أمية ، ومنعتُها ما حاولت من دولة ، وقتلتها ، وعصيت بني أمية ، وصرحت الخلاف لهم ، ومن أظفر به منهم غادرت للذئاب والضباع . وإذا كان كل هذا يحقته قائلة فإنه يوحي للسامع أو القارئ أنه يجرب جيروته الطاغية في عدو له ضعيف واهن كالأرانب حيناً وضعفاً . ولهذا لا يجد قارئ هذا الشعر أية راحة نفسية فيه كذلك الراحة التي يشعر بها إزاء إنصاف الشاعر لأعدائه . وحسبنا أن نقارن بين النماذج التي وردت من قبل وبين قصيدة لشاعر اسمه يزيد بن عاصم من وجوه أصحاب ابن بيهس نفسه ، وكان فارساً قائماً بحرب أبي العميظر ، ونصرة المأمون ، وقصيدته

في الموضوع نفسه - أعني معركة قبلية - يفتخر فيها الشاعر بزعيم قبيلته قيس و بانتصارها ، ولكنه لا يغط  
 البغياتيين نصيبهم من الشجاعة والصبر على عَضِّ الحَرْبِ (١) :-

فما أنسى من شيء كشيء فأننسي	لأيامنا والخارجيِّ ذكُورُ
غداة بني حرب يزجون نحونا	عساكر أمثال الجبال تسيروُ
ثلاثون ألفاً بين رجلٍ وفارس	لهم عارضٌ مُستقبلٌ وصَبيرُ (٢)
فلما التقينا للزوالِ وأرغبتْ	سماءٌ علأ والدائراتُ تدور
صبرنا لهم دون الحريمِ وصابروا	فكل على وقع الحديدِ صَبور
نُطاعِنُهُمْ طوراً ونضربُ تبارة	بمأثورةٍ عما ماتَ منهم ونسور (٣)
شعاراتنا المأمون في كلِّ مَأزقٍ	وفي كلِّ حالٍ والدماءُ تَقُور
إذا ما شدنا شدةً نَصَبُوا لِمَا	صدورُ قنا تُشقى بهنَّ نُحور
ونحن إذا شدوا صبرنا ، فمَيَّتْ	جريحٌ ، ومطعمون اللبان نحسور
فلما رأونا لا تُردُّ وجوهنا	وقد طالَ ليلُ القومِ وهو قصير
تولوا عباديدَ الفرار كما نجستْ	يعاقيبُها جت بينهنَّ صقور (٤)
ونحن على آثارهم فمَجَّسَدَلٌ	سليبٌ ، ومشدودُ اليدين أسير
لنا سائس في الحرب من آلِ بيهمسِ	يخافُ علينا في الأمور أميسر
لعمري ، ولم أمتنْ بذاك على امسري	ولي في العدا يومَ اللقاءِ نكيسر
لقد علمتْ علياً نبيسراً بأنسني	إذا عاب مقدامُ الرجال ، جسور
وأنسي غداة العرجِ لم أك زَمِلاً	ولا كان لي في العالمين نظيسر (٥)
ولي موقفٌ يومَ الصوامعِ ذِكُورُهُ	على الدهرِ باقٍ ما تبلجَ نسور

فهذه القصيدة شديدة الشبه بالقصائد التي سميت "المنصّفات" ، وإن كانت تختلف عن المنصّفات  
 بعض الاختلاف ، لأن المنصّفات تهتم برسم التكافؤ بين القبيلين ، وهذه القصيدة تجعل الغلبة للفئة

- (١) مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٨ : ٣١٧ .  
 (٢) الصبِير : السحاب الأبيض المتكاثف ، جمع صَبَّير . (٣) نسور : نبطش .  
 (٤) يعاقيب جمع يعقوب وهو ذكر القطا والحجل .  
 (٥) زملاً : جباناً نذلاً .

القليلة ، والنسفات لا تنتهي إلى غلبة أحد الفريقين ، وقضاري الشاعر في المنصّفات أن يُصوّر الفريقين وقد خرجا منهكَيْن (١) :-

فبانوا بالصّعيد لهم أحاحٌ ولو خفت لنا الكلمى سريننا

ومن الخريب أن دارس الشعر - في أوقات الصراع هذه - لا يكاد يظفر بشعر شامي يُقدّم مصلحة الشام كلها بقيسها وينها على المصلحة القبلية الضيقة غير الأبيات التي قالها أبو خالد التنوخي القنسريني (٢) ، ففيها تنبه إلى هذه الناحية ، كما أن فيها توبيخاً صادراً عن نفس مكلومة لهذا (٣) التعزق في صفوف الشاميين ، إذ هو يستل على خصومهم الخراسانيين استلابهم والغلبة عليهم ، يقول :-

يا أيها نزار وإيها عنك تحططان  
حتم شغلكم حرباً وشئان (٤)  
فيم التحارب يا للشام قد جشأت  
عليكم ( ) تبلوها خراسان (٥)  
لا المال مال بال الشام إن قطعست  
خل الفرات ولا الأوطان أوطان  
هذي أراكم بشرحجة رقتهم  
نوها إلى هللكم غرثان ظمآن (٦)  
قد يمتكم فأدنى عفوها نقتهم  
وودها لكم غيل وأضعفان

فهو يضع الشاميين جميعاً من القيسيين واليمنيين أمام محك كبير ، وتحدّ عظيم ، هو الخطر الداهم الذي سيحل بهم على أيدي الخراسانيين أنصار بني العباس ، ولا شك أن الشاعر في تحذيره

- (١) الحماسة ، شرح المرزوقي ، نشرها أحمد أمين وعبد السلام هارون ، مطبعة التأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٥١ ، القصيدة ١٥٢ (١ : ٤٥٠) ، والبيت من قصيدة لعبد الشارق بن عبد العزى الجهنّي ، وهو شاعر جاهلي ، ومعنى البيت كما قال المرزوقي هو : بقوا ليلهم يثنون على الصعيد وهو وجه الأرض ، ولو ساعدتنا الطائفة المجروحة منا وقدرت على السرى لسريننا ، ولكن كلا منّا اضطر إلى الإقامة والتلوم ريثما يتوب إليه القوى بعد لحوق الجهد ومشاركة السرى .
- (٢) شاعر كان في زمن المأمون ، ترجم له دعبل في طبقات الشعراء ، انظر : بغية الطلب ، مصورة الجامعة الأردنية : ٨ ، الورقة ٧٦ / ب .
- (٣) المصدر السابق .
- (٤) وإيهاً : اسم فعل للاستزادة من حديث أو عمل ما . وتكون للإسكات والكف بمعنى حسبك كما في هذا البيت .
- (٥) جشأت ، يقال جشأ العدو إذا نهض وأقبل ، وجشأ على نفسه ضيق ، وقد سقطت من البيت كلمة أدخلت الوزن فأثبتناه على حاله .
- (٦) غرثان : جائع .

يستذكر ما حلّ بأهل الشام من مأس وفجائع على أيدي أبي مسلم الخراساني وعبد الله بن علي إبان قيام الدولة العباسية ، وهو لذلك يخشى من تكرر المأساة بسبب من هذا الاحتراب والتنازع بين قيس ويمين .

(ب) وفي أيام المأمون أيضًا ، وبعد حركة أبي العميظر ، خرج سفياتي آخر هو سعيد بن خالد ابن محمد القُدَيْنيّ في يمن ، وجعل يتعقب القيسية ، وكان الذي تولّى حربه هو يحيى بن صالح ابن بييس ، أبو الوليد ، وهو أخو محمد الذي كان قد تصدّى لحرب أبي العميظر ، ويقول فيه ابن عساکر : « كان يحيى من علماء أهل الشام بأيام العرب ووقائعها » ، رأى أبا تمام الطائي بدمشق ٠٠٠ . وكسان فارسًا شاعرًا ، وهو الذي تولّى حرب سعيد بن خالد بن محمد الذي خرج في أيام المأمون بعد أبي العميظر<sup>(١)</sup> ، وأورد ابن عساکر من شعره الأبيات التالية يفتخر فيها بقبيلته وبفروسيته وبدفاعه عن ملك المأمون ، ويقضاه على هذا الخارج الأموي<sup>(٢)</sup> : -

إذا ما الناسُ عدوا جاهليًّا	من الأفعال عجمانًا وعربانًا
رأونا خيرَ من ألقَت نزارَ	إليه أمورًا شرقًا وغربًا
لعمرو أبي موارق عبدِ شميس	أليّة صادفٍ لم يأت ذنبًا
لقد لقيت بما سوح عرامسًا	أميةً عمها طعنًا وضربًا <sup>(٣)</sup>
عشيّة لا أرى إلا قتيلاً	ومأسورًا يُقادُ إليّ سحبيًا
أناغلهم عن المأمون إنسي	رضيتُ فعالةً واللّه ربًا

وقيمة هذا الشعر تكمن في بعده التاريخي ، إذ يُبرز إصرار الأمويين على نقض الحكم العباسي ، وعلى نجاح العباسيين في ائتلاف الأنصار من إحدى الطائفتين لتظل لهم السيادة على الشام ، مستفيدين من هذا التناقض القبلي . ومن اللافت للنظر أن أبا العميظر وسعيد بن خالد أول من تجرأ على

(١) مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٨ : ١٣٦ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) عرام الجيش حده وشدته وكثرته : وما سوح قرية بالبلقاء . والمعنى : لقد لقيت أمية في هذا المكان جيشًا شديدًا أوقع بها الطعن والضرب .

حمل لقب الخلافة في العصر العباسي من غير العباسيين قبل أن يفعل ذلك العبيديون الفاطميون بنحو قرن من الزمان .

(ج) وعاود الشاميون الثورة في فلسطين والأردن بقيادة المبرقع اليماني ، وفي دمشق بقيادة قيسي يدعى ابن بيهس ، ولعله غير ابن بيهس الذي ناصر المأمون ، وكانت ثورتاهما في أواخر خلافة المعتصم ، وأوائل عهد الواثق ، وفيهما نظم الطائيان الكبيران أبو تمام والبحتري شعراً يعرض وجهة نظر الدولة الحاكمة ، فأسى البحتري المبرقع اليماني بالباغي الطاغي ، وأسى أبو تمام ابن بيهس القيسي وحركته بالفتنة . غير أن الشاعرين يفترقان بعد ذلك ، إذ بينما اکتفى البحتري بالثناء على جهود القائد العباسي الذي "نجح في القضاء على المبرقع وثورته ، فإن أبا تمام أضاف إلى الثناء على موسى الرافقي <sup>(١)</sup> جملة نصائح ليستقيم له أمر الحكم في دمشق كما افترق الشاعران في أمر آخر ، إذ بينما من البحتري ثورة المبرقع اليماني مساً رفيقاً متعجلاً فجاً ، حدیثه عنهما حدیثاً عارضاً في أبيات معدودات من قصيدة عدتها أربعة وثلاثون بيتاً ، خصص جزءها الأول للنسيب ، وخصص الجزء الأكبر للثناء على المدوح وأعمله الفارسي <sup>(٢)</sup> ، فإن أبا تمام أعطى ثورة الدمشقيين على موسى الرافقي اهتماماً أكبر ، وإن لم يذكر زعيم الثائرين القيسي مثلما فعل البحتري بذكره اسم زعيم الثائرين اليماني .

يقول البحتري في عبد الله بن دينار وقضائه على حركة المبرقع مهمللاً تماماً الحديث عن رجاء ابن أيوب الحضاري الذي ذكرت كتب التاريخ أنه هو الذي أخذ حركة أبي حوب اليماني <sup>(٣)</sup> : -

- (١) هو موسى بن إبراهيم الرافقي ، أبو المغيث . كان أميراً على دمشق في أيام المعتصم والواثق ، وتولى في زمن المتوكل أمر المعونة بحمص . انظر ترجمته في : معجم الشعراء : ٢٧٩ ، مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٥ : ٢٥٥ ، ابن الأثير : الكامل ٥ : ٢٦٧ ، سير أعلام النبلاء ١٠ : ٥٧٤ .
- (٢) اسم هذا القائد عبد الله بن دينار بن عبد الله ، كان أخوه أحمد أمير البحر في زمن المتوكل . وتذكر المصادر التاريخية أن الذي قضى على ثورة المبرقع هو رجاء بن أيوب الحضاري ، غير أن في قصيدة البحتري رقم ٣٤ التي ندرس دليلاً على اشتراك عبد الله بن دينار في هذا الجهد . وانظر : البدو والتاريخ ٥ : ١١٩ ، الطبري ٩ : ١١٨ ، ابن الأثير ٥ : ٢٦٧ .
- (٣) في مصورة تاريخ دمشق ٦ : ٢٢٩ ، ما يلي : "ولي الواثق رجاء بن أيوب الحضاري قتال أبي حرب المبرقع الذي خرج بفلسطين ، وكان رجاء بالرقّة ، فتوجه أول الأمر إلى دمشق لحرب قوم من قيس خرجوا فيها على موسى الرافقي ، فقاتلهم فقتل منهم ألفاً وخمسائة ، وقتل من جماعته ثلاثمائة ، وانضم إليه اليمانية ، ففر ابن بيهس القيسي إلى قومه بحوران ، ثم سار رجاء صوب الأردن لمحاربة المبرقع ، وتوفي رجاء سنة ٢٤٤ هـ / ٨٥٨ م ، والبيتان من القصيدة ٣٤ من ديوان البحتري .

فَجَرَدَ نَهْمَ السَّيْفِ حَتَّى تَفَرَّقَتْ  
عَنِ السَّيْفِ مَخْضُوبًا جَمْعُ أَبِي حَرْبٍ  
فِي أَنْ هَمَّ أَعْمَلُ النَّوْرِ يَوْمًا بَعْدَ  
إِلَى النَّعْيِ مِنْ طُغْيَانِهِمْ فَهُوَ بِالْقُرْبِ

ويقول أبو تمام (١) في حركة ابن بيهس والثنا على موسى الرافقي :

فَتَنُّ جَلَّوَتْ ظَلَامَهَا مِنْ بَعْدِ مَا  
مَدَّوْا عَيْوَنَا نَحْوَهَا وَرَوَّوْا  
حَرْبٌ يَكُونُ الْجَيْشُ بَعْضُ صَبُوحِهَا  
وَيَكُونُ فَضْلُ غُبُوقِهَا الْكُرْدُ وَسَلَا (٢)  
سَارَ ابْنُ إِبْرَاهِيمَ مُوسَى سِيْرَةً  
سَكَنَ الزَّمَانَ لَهَا وَكَانَ شَمُوسَا  
فَأَقْرَبَ وَاسْطَةَ الشَّمَامِ وَأَنْشَأَتْ  
كَهَاهُ جُودًا لَمْ يَنْزِلْ مَرْمُوسَا (٣)  
كَانَتْ مَدِينَةُ عَسْقَلَانَ عَرُوسَهَا  
فَعَدَّتْ بِسَيْرَتِهِ دَمَشْقَ عَرُوسَهَا

إلى أن يقول يابينا ذكي ناصحًا موسى بأن يكون كريمًا سمحًا تقياً ، وكأنما قدم فيه المديح ليكسب  
رد الأُمير فيقبل منه النصيح :

أَعْطِ الرِّيَاسَةَ مِنْ يَدِيكَ فَلَمْ تَنْزَلْ  
مَنْ قَبْلَ أَنْ تُدْعَى الرَّئِيسَ رِئِيسَا (٤)  
أَسْقِ الرِّعِيَّةَ مِنْ بَشَاشَتِكَ السَّيِّئِ  
لَوْ أَنَّهَا مَا لَكَ لَكَانَ مَوْسَا (٥)  
إِنْ الطَّلَاقَةَ وَالنَّدَى خَيْرٌ لَهُمْ  
مَنْ عَفَا جُمُوسَتَ عَلَيْكَ جُمُوسَا (٦)  
لَوْ أَنَّ أَسْبَابَ الْعَفَافِ بَلَ تَقْسَى  
نَفَعَتْ ، لَقَدْ نَفَعْتَ إِذَنْ إِبْلِيسَا

وقد كانت ثورة المبرقع اليماني بوطأتها ، وبعدها الاعتمادي قمينة بأن ينظم فيها شعير  
كثير يتجاوز نظم البحري العارض فيها في مدوحه ، ولعل شيئاً من ذلك كان .

(١) القصيدة ٨٢ من ديوان أبي تمام بشرح التبريزي ، وتحقيق محمد عبدة عزام ، ط ٦٢ دار  
المعارف بمصر .

(٢) الكرردوس : الكرردوسة هي الطائفة العظيمة من الخيل والجيش جمع كراديس .

(٣) المرموس : المدفون .

(٤) ذكر نجيب البهبيتي أن المقصود بهذا البيت هو طلب أبي تمام الرئاسة لنفسه من موسى  
الرافقي ، ولا معنى لهذا التوجيه بدلالة الأبيات الأخرى ، والمعنى المراد :  
أعطى الرئاسة حقهما من الاعتماد والفضل . انظر قول البهبيتي في : أبو تمام الطائي  
حياته وحياة شعره : ٩٢

(٥) الموس من الماء ما يشفي الغلظة ، والتريقاق .

(٦) جس بمعنى جسد ، ومعنى البيت : كن كريماً طلق اليدين بالبذل فذلك خير لهم من الإمساك .

ومن عجب أن أبيات أبي تمام في ثورة الدمشقيين على موسى الرافقي تصور الشاعر صاحب موقف قد يوصف بأنه منحاز إلى صف الجماهير إذ يجعل من نفسه ناصحاً أميناً للوالي عندما يبصّره باحتياجات الرعية ، ولكنّ وضع "الطلاقة والندی" في مقابل العفة تعني أن الرعية أحوج إلى البذل ، فهي به تنتفع ، ولكنها لا تنتفع بالعفة التي هي مقصورة على صاحبها ، وهذا فضلاً عما يحس به القاري من تجريح خفي لشخص المدح وسياسته تجاه رعيته .

(د) ما تقدم من ثورات كانت كلها تمثل دور دمشق في محاولة الخروج على السلطان العباسي ، ولكنّ حصص حملت عنها هذا الدور في عهد المتوكل ، وخاصة ثوراتها المتنامية على عماله . وقد استوفقت ثورات الحمصيين البحتريّ في ثلاث قصائد مدح بها المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان (١) . وفيها يتحدث الشاعر عن حصص يسكنها جميعاً على اختلاف قبائلهم ، فكأن الحمصيين كانوا متحدي الكلمة في تحدي السلطة العباسية (٢) .

وليس في هذه القصائد الثلاث معلومات تاريخية ضافية عن ثورة الحمصيين ، فالبحتري لم يكن يؤرخ ، وإنما كان يمدح ، ولكنه حين يقول (٣) :

أرى شعلكم يا أهل حصص مجتمعاً      بعقب افتراق منكم وتشعب  
وكنتم شعاعاً من طريد مشردٍ      وثاوردٍ ، أو خائف مرقب  
ومن نقر فوق الجذوع كأنهم      إذا الشمس لاحتهم حرابي تنضب (٤)

فإن في قوله هذا دليلاً على التنكيل الذي حدث في تلك المدينة ، إذ هداوا والتّم شملهم بعمد أن جعلتهم العقوبة فرقاً ، بعضهم فارّخائف ، وبعضهم قد سكن القبور ، وبعضهم عُلق مصلوباً على

(١) الفتح بن خاقان (٥٠٠هـ - ٢٤٧هـ / ٠٠٠٠ - ٨٦١م) كان أنبياً فصيحاً ، وشاعراً نبياً ، وزيراً للخليفة المتوكل ، وأمره على الشام ، وكان مقدماً على الأهل والولد . قتل معاً في سنة ٢٤٧هـ ، انظر في التعريف به : معجم الأدباء ، ١٦ : ١٧٤ - ١٨٦ ، قوات الوفيات ٢ : ١٢٣ .

(٢) في بعض المصادر التاريخية أن أهل حمص وثبوا في زمن المتوكل بعاملمهم على المعونة أبي

المنيث الرافقي فأخرجوه من مدينتهم ، وأخرجوا معه صاحب الخراج . فلما بلغ المتوكل ما فعله أهل حمص بعماله أرسل إليهم من يحاربهم ، وأمدّه المتوكل بجند دمشق ، وأمره أن يأخذ ثلاثة من رؤسائهم فيضربهم بالسياط ضرب التلف ، فإذا ماتوا صلبهم . انظر : الطبري ٩ : ١١١ .

(٣) من القصيدة ٦٣ من ديوانه .

(٤) حرابي جمع حرباً ، وهي الدويبة المعروفة ، شبههم بها لأنها تستقبل الشمس نهارها وتدور معها كيف دارت ، وتتلون ألوانها .

الجدوع، والفضل في تأمين الخائف، وإغاثة اللمهوف، منهم يعود إلى الفتح بن خاقان، فهو الذي رد الطمانينة إلى قبائل طي، ومدحج وذبي الكلاع ويحصب :

تَدَهْدَهُتُمْ مِنْ حَالِي مُتَّصِبٌ	تلافاكم الفتح بن خاقان بعد ما
وَعَوْنَا لَلْمُهوفِ، وَغَنَّا لَلذُنُوبِ	بعارفة أهدت أماناً لخالقنا في
(١) خصوصاً، وعمت في الكلاع ويحصب	عنت طيئنا جمعاً، وثنت بمدحج
(٢) لهم جانب اليوم العبوس العصبسب	ردت الردى عن أهل حمير وقد بدأ

لقد غدا الحمصيون في هذا الشعر هم المذنبين، وغدا المتوكل ووزيره الفتح هما اللذين استأثرا بكل فضيلة حين سَملا النائرين بعفوهم وتسامحهما وإحلالهما للأمن .

وإمعاناً من الشاعر في تجاعل أسباب ثورات النائرين في حمص وفي الجزيرة، وإمعاناً منه في التودد إلى مدوحه، أو مدوحيه نلقاه يصل بين هذا الفضل الطارف الطارى، بآخر قديم تالده، بين عفو عن الحمصيين، وعفوه عن التغلبيين الذين كانوا خرجوا في الجزيرة، فيقول : -

وكانت يداً بيضاءً مثل اليدا التي	نعشت بها عمرو بن غنم بن تغلب
فلم ترعيني نيمتين استحققتسا	ثناهما في ابني معند ويغرب

وكرر الشاعر هذا الربط في قصيدة أخرى (٤)، فقال في فضائل المدوح : -

فكم حقت في تغلب الغلب من دم	مباح، وأدنت من شيت مفترق
وكم نغست في حمص عن متأسف	غدا الموت منه آخذاً بالمخنشق
وقد قطعت عرض الأرنؤد إليهم	كثائب تزجسي فيلقاً بعد فيلق

(١) طي، ومدحج والكلاع ويحصب قبائل فحطانية، انظر: ابن حزم : جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٢ : ٤٣٤، ٤٧٦، ٣٩٨ - ٤٣٥ .

(٢) العصبسب : الشديد الشمر .

(٣) عمرو بن غنم بن تغلب حي كبير فيهم بيت تغلب وعددها . انظر جمهرة الأنساب : ٣٠٣ - ٣٠٤ .

(٤) هي القصيدة ٥٨١ من ديوانه .

(٥) سمت تغلب بالغلبا، لأنها كانت عزيزة ممنوعة .

(٦) المخنشق : العنشق .

(٧) الأرنؤد : هو نهر العاصي، ويقال له نهر الرستن، ونهر أنطاكية .



إن السلطة العباسية في هذه الأشعار تبدو متسامحة حاتنة للذم ، آخذة بيد الملهوفين مؤلفة للقلوب ، مبعدة لأشباح الخوف والقتل والتشريد عن الناس . فهل كانت كذلك حقاً ؟ أغلب الظن أن الشاعر أحد اثنين : فإما أنه يفتك على الحقيقة والواقع لأنه منتفع ، لأن تلك الثورات ما كانت لتحدث لو أن الناس كانوا راضين عن واقعهم السياسي والاقتصادي . وإما أنه يريد من السلطة أن تأخذ أولئك الثائرين بالحسن ، وأن توسّع على الناس أسباب الرزق ، ومطالب الحياة فلا يشعرون ، وذلك قد يُستشف من قول الشاعر<sup>(١)</sup> في ممدوحه الفتح :-

به استأنفوا برد الحياة وأسندوا      إلى ظلّ فينانٍ من العيش مُسورِقِ  
تني عنكم زحف الخِلافة بعد ما      أضأت بروق العارض المُتألّقِ

وقوله في أخرى<sup>(٢)</sup> في المتوكل في إشارة صريحة إلى أن الثواب أنفع في السياسة وأجدي من العقاب :-

تداركت بالإحسان حصراً وأهلها      وقد قارفوا نعل الإساءة والخُرقِ  
طلعت لهم وقت الشروقِ فعاينوا      سنا الشمس من أفقٍ ووجهك من أفقِ  
أرئيتهم إذ ذاك قُدرة قساير      وعفو محبٍ للسلامة مُستبِقِ  
مننت عليهم بالحياة فأصبحوا      مواليك فازوا بك بالمن والعثيقِ

ثم إن الشاعر يُراهن مطمئناً إلى نتيجة مراهنته على أن الإحسان سيثمر إحساناً مثله :-

وإنّ ولاّ المعتقّين من الردى      يفوق ولاّ المعتقّين من السرّقى

وإنه ليحسن أن يقال عنا إن البحتري ، وهو الشاعر الشامي الأصيل ، كان يمكن أن يكتبون أكثر التصاقاً بسموم الشاميين بعامة ، والحصيين بخاصة ، لو لم يركض وراء الجاه العريض ، والثراء الواسع يحصلهما في تصور الخلفاء العباسيين ، بل كان من الممكن أن يشير إلى فساد إدارة عمّال المتوكل على حصص ، ومنهم عامله على المعونة موسى بن إبراهيم الرافقي الذي سبق للدمشقيين أن ثاروا عليه في عهد الواثق ، وانتقده أبو تمام من قبل في أمذاحه فيه قبل أهاجيه :-

(١) من القصيدة ٥٨١ من ديوانه .

(٢) من القصيدة ٦٠٠ من ديوانه .

(هـ) وتتميز الفتنة التي ارتبطت باسم أبي الهيثم المرّي، وهي حرب قيس وبنين، بأنها استنزفت - إلى جانب الأرواح والدماء - طاقات شعرية كثيرة. فقد بلغ عدد من أخصيت من نظم في تلسك الأحداث المتلاحقة أربعة وعشرين شاعراً، وثمانية رُجّاز، وموزعين بين القبيلتين وأنصارهما على النحو التالي: ستة عشر شاعراً قيسياً هم -

- ١- أبو الهيثم عامر بن عمارة السُزّي (١).
- ٢- خريم بن عامر بن عمارة (٢).
- ٣- عثمان بن عمارة أخو أبي الهيثم (٣).
- ٤- عامر بن عاصم السلمي (٤).
- ٥- أشجع السلمي (٥).
- ٦- جناح بن روح بن جناح (٦).
- ٧- صادر بن كامل بن بدر العبسي (٧).
- ٨- عبد الله بن سعيد بن عتبة الثقفي (٨).
- ٩- أحمد بن محمد بن فضالة الدمشقي (٩).

- (١) هو رأس قيس في هذه الفتنة، كان فارساً شجاعاً، انظر ترجمته في: ابن الجراح: الورقة: ٢٤، الطبري ٨: ٢٥١، البكري: سبط اللائي ١: ٥٥٩٣، ابن عساكر: تراجم حرف العين المتلوة بالالف من تاريخ دمشق: ٣٩٣، ابن الأثير: الكامل: ٦: ١٢٧، ابن خلدون: العبر: ٣: ٦٤، النجوم الزاهرة ٢: ٩٧، معاهد التنصيص بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ١: ٢٥١.
- (٢) كان شاعراً فارساً وهو ابن رأس قيس في الفتنة، رثاه أبو يعقوب الخريزمي، انظر ترجمته في: تهذيب ابن عساكر: ١٣٩.
- (٣) دمشق ولي سجستان للرشيد ثلاث سنين، ثم قتله عامله فيها، انظر ترجمته في: معجم الشعراء ط ٢، تصحيح كرتكو: ٢٥٦، مصورة تاريخ مدينة دمشق ١١: ٤٣٧.
- (٤) انظر تاريخ مدينة دمشق، تراجم حرف العين المتلوة بالالف: ٢٤٩.
- (٥) انظر ترجمته في الاغانى ١٨: ٢١١، الشعر والشعراء ٢: ٧٥٨، خليل بن بيان الحسون: أشجع السلمي، حياته وشعره، دار المسيرة، بيروت ١٩٨١.
- (٦) من معدودي شعراء دمشق، شهد الحرب ونظم فيها، انظر ترجمته في تهذيب ابن عساكر ٣: ٤٠٩.
- (٧) شاعر مجيد، رثى اخاه بدرا الذي قتله اليعن في حرب أبي الهيثم، انظر: تهذيب ابن عساكر ٦: ٣٦١.
- (٨) شاعر فارس من معدودي فرسان قيس، جرح عدة جراحات في تلك الوقائع، انظر: تهذيب ابن عساكر ٧: ٤٣٩.
- (٩) شاعر شهد وقائع الفتنة، وقال ابن عساكر: ذكره العرياني في معجم الشعراء، انظر تهذيب ابن عساكر ٢: ٧٦.

- ١٠- صبح بن سعيد بن بشر النصرى دمشقي (١) .
- ١١- عبد الصمد بن شعيب القرشي (٢) .
- ١٢- عمرو بن واقد (٣) .
- ١٣- محمد الكناي الليثي الدمشقي (٤) .
- ١٤- قيس الملالي (٥) .
- ١٥- كتيبة بنت الواقعة السعدية (٦) .
- ١٦- أبو يعقوب الخريزي مولى المرتضى (٧) .

وسبعة شعراء يمنيين هم :-

- ١- محمد بن يزيد بن مَحَصَّن الأزدي (٨) .
- ٢- حَجَّسوة بن مُدْرِك النَّسَائِي (٩) .

- (١) من شعراء دمشق : شهد الفتنة ونظم فيها . انظر مصورة تاريخ دمشق ٨ : ٢٣٠ .
- (٢) كان أبوه من فقهاء دمشق ، وكان محدثاً ، له شعر في مدح أبي الهيثم . انظر مصورة تاريخ دمشق ١٠ : ٣٣١ .
- (٣) كان مولى عتبة بن يزيد بن معاوية ، وكان محدثاً شاعراً . انظر : معجم الشعراء : ٢١٧ ، مصورة تاريخ دمشق ١٣ : ٦٥٦ .
- (٤) كان شاعراً قتل رأساً من رؤوس اليمن في هذه اليمن . انظر : مصورة تاريخ دمشق ١٦ : ١٥٩ .
- (٥) له شعر اتخرف فيه بوقائع قيس مع اليمن . انظر ترجمته : مصورة تاريخ دمشق ١٤ : ٤٩١ .
- (٦) شاعرة من النسوة الشواعر في هذه الفتنة ، انظر : ابن عساكر : تراجم النساء ، من تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق سكيئة الشهابي ، دمشق ١٩٨٢ ، ٣١٣ .
- (٧) هو إسحاق بن حسان ، ويكنى أبا يعقوب ، كان مولى ابن خريم . عني بعدما أسن ، كان نزل الجزيرة والشام ، وسكن بغداد ، ذكر أن الجاحظ روى بعض شعره الذي سمعه منه . انظر ترجمته في : الشعر والشعراء ٢ : ٧٣١ ، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٦ : ٣٢٦ ، تهذيب ابن عساكر ٢ : ٤٣٤ ، ديوان الخريمي .
- (٨) شاعر يمني لام قومه على تقصيرهم في حرب أبي الهيثم ، انظر مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٦ : ١٢٦ .
- (٩) سكن دمشق ، وكان يتردد إلى منبج ، وقد رثى أخاه أسعد الذي قتل في حرب أبي الهيثم ، سنة ١٩٠ هـ ، وقال ابن العديم : أصله من الكوفة ، ونزل منبج ، ثم انتقل إلى دمشق ، انظر ترجمته في : تهذيب ابن عساكر ٤ : ٩٠ ، مصورة بغية الطلب ، عن نسخة فضائل الله ، وهي نسخة غير مرقمة الصفحات .

- ٣- طالوت بن الأزهر الكلبسي (١) .
- ٤- مُحْرِز بن مُدْرِك الغساني (٢) .
- ٥- شَدُّ قَم الكلبسي (٣) .
- ٦- عثمان بن مرة الخولاني (٤) .
- ٧- امرأة عنسية من أهل داريسا (٥) .

أما الشاعر الرابع والعشرون فهو منصور النمري (٦) الذي لم يكن صاحب هوى قبلي فسي هذه الفتنة ، وإنما كان معنياً بمدح جعفر بن يحيى البرمكي .

وأما الرّجّاز الثمانية الذين وثقت على نثف من أرجازهم في هذه الفتنة فهم :

- ١- سعد الغساني (٧) .
- ٢- عاصم بن بحدل الكلبسي (٨) .
- ٣- معتصم بن عصمة الكلبسي (٩) .

- (١) قال ابن عساكر : ذكره دعبل في كتاب طبقات الشعراء . وقال صاحب الورقة : له أخ شاعر يدعى طالب الطائي ، وكان معاصراً للمنصور ، وله فيه مدائح . انظر : الورقة : ١٥ ، مصورة تاريخ مدينة دمشق ٤٩٦ : ٨ .
- (٢) شاعر من أهل دمشق . قال ابن عساكر : ذكر له محمد بن عبد الملك الوراق أشعاراً يتهدّد فيها أبا الهيثم . انظر : مصورة تاريخ مدينة دمشق ٢٢٨ : ١٦ .
- (٣) شاعر يمني حرض قومه على حرب أبي الهيثم . انظر ترجمته في تهذيب ابن عساكر ٢٩٦ : ٦ .
- (٤) من أدرك حرب أبي الهيثم ، ونظم فيها . انظر مصورة تاريخ مدينة دمشق ٤٥١ : ١١ .
- (٥) شاعرة يمنية رثت ابن عم لها قتل في حرب أبي الهيثم . انظر : ابن عساكر : تراجم النساء : ٥٨٨ .
- (٦) من شعراء الجزيرة ، اختص بمدح البرامكة والرشيد ، وسكن بغداد . انظر ترجمته في : الشعر والشعراء ٢٥ : ٢٣٦ ، الأغاني ١٣ : ١٤٠ ، شعر منصور النمري ، جمعه وحققه الطيب المشاش ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٨١ .
- (٧) لم ترد له ترجمة تذكر . انظر تهذيب ابن عساكر ١١٧ : ٦ .
- (٨) كان عاصم بن بحدل بن محمد بن بحدل على جند دمشق في غزوة بعض الصوائف . وكان رأساً على اليمن في حرب أبي الهيثم ، وقد هرب إلى بغداد بعد أن ظفر أبو الهيثم بقومه . انظر : تاريخ مدينة دمشق ، تراجم حرف العين المتلوة بالألف : ٨٤ .
- (٩) ممن جد في حرب أبي الهيثم محرضاً قومه . انظر : مصورة تاريخ دمشق ١٧ : ٢ .

- ٤- الحارث بن سعيد الحَجَّـوري (١) .
- ٥- وَزِيْرَة بن سَمَـاك العُنْـسِي (٢) .
- ٦- مالِك بن رُكَيْـزَة المُـرْتِي (٣) .
- ٧- حُرَيْم بن عامر بن عمارة (وقد مر ذكره في الشعراء أنفـاء) .
- ٨- عبد الرحمن بن حارث القرشـي (٤) .

إن هذا الجدول الإحصائي مهم لهذه الدراسة ، لأنه يكشف عن عدد كبير من شعراء مغبورين لم يجر لهم ذكر في كتب تاريخ الأدب ، ولم يذكر منهم إلا شاعران ربطا نفسيهما إلى عجلة الخلافة وهما البخري ومنصور النمري . ولا شك أن اثنين وعشرين شاعراً ( من مجموع أربعة وعشرين ) يمنحنا تصوراً تقريبياً لضخامة الكم الشعري في البيئة الشامية إبان فتنة أبي الهيثام ، وبخاصة إذا أضفنا الضائع المقدر إلى الموجود الذي اتصل بالفتنة اتصالاً مباشراً .

فأما الحكم على النوع فسيظل حكماً جزئياً ، لا لأن الموجود لا يمثل إلا نسبة ضئيلة من المفقود وحسب ، بل لأن الشعر الذي عايش الفتنة ، أو على الأدق ما نقله الرواة منه ، إنما وصلنا على شكل مقطعات ، وهي ألبق بالانفجارات النفسية الآتية التي تتيحها الفتن . وقبل أن يتم إخضاع هذه المقطعات للدراسة ، لا بد من وضع بعض الحقائق أولاً ، ومن أهمها : -

- ١- أن هذا الشعر كان مجالاً طبيعياً لكثرة الرثاء والفخر الذاتي والقبلي ، وعماً موضوعاً - ستم دراستهما في فصل خاص ، ولكن يصح أن يقال هنا إن الرثاء قد استمد قوة الشجسى فيه من مشاركة المرأة .
- ٢- أن ساحات القتال قد أعادت للرجز دوره الأصيل الذي كان له في الجاهلية وصدر الإسلام وأكثر العصر الأموي - قبل ظهور العجاج ورواية - أعني ارتجاز الفرسان عند لحظات النزال

---

(١) همداني ، حث قومه من كلب على الجد في حرب أبي الهيثام . انظر: مصورة تاريخ مدينته دمشق ٤: ١٠٣ .

(٢) من أهل داريا من فرسان اليمن ووجوههم وسراتهم ، قتل في حرب أبي الهيثام . انظر مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٧: ٧٦١ .

(٣) انظر مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٦: ٢٠١ .

(٤) انظر المصدر نفسه ٩: ١٠٨ .

بعد أن كاد يختص بموضوعات معينة من أهمها الطرد والمنظومات التاريخية والعمليسة،  
وما شابهها .

٣- أن السجال القولي بعث الحياة في فن النقائض من جديد ، بعد أن أصبح هذا الفن  
عارضاً .

٤- أن الشعر في تلك الأحداث - كان بطبيعة الحال - معرضاً لمدح الزعماء والقادة .

وسأتعرض للنقاط الثلاث الأخيرة ( ٢ ، ٣ ، ٤ ) بشيء من التفصيل في ما يلي :-

الأراجيز : يقول أبو عبيدة في نشأة الرجز : " إنما كان الشاعر يقول من الرجز البيتين  
والثلاثة ونحو ذلك إذا حارب أو شاتم أو فاخر " (١) . وهذه الموضوعات الثلاثة ممكنة في الفتن  
التي أتحدث عنها ، ولكن الذي تقوم به هذه الأراجيز قبل كل شيء هي صدرها عن الفرسان وهم  
يتوجهون إلى المبارزة متحدّين أقرانهم " أي إذا حاربوا " والراجز في مثل هذه الحال يقول ما  
يشاء من تحريض لقومه ، أو افتخار بشجاعته ، أو تهديد لخصمه أو هجاء لقبيلة الأعداء ، وقد أدت  
الأراجيز موضع الدرس هنا هذه الأغراض كلها ، فمن التحريض المزوج بهجاء القبيلة قول عاصم بن  
بحدل الكلابي (٢) :

يا كلبُ سيئري سيرة العروس  
وأثخني بالضرب في السروس  
سيرى إلى قيس بلا تحميس  
فقد أطاعوا الأمر من إبليس

وعلى هذا النسق - من التحريض دون هجاء للعدو - قول مُعْتَصِم بن عِصْمَةَ الكلابي (٣) :

خوضوا إلى الموت بني قحطان  
بالرمي والسيف وبالطمان

(١) ابن رشيقي القيرواني : العمدة ، ١ : ٩٠ .

(٢) تاريخ دمشق ، تراجم حرف العين المثلوة بالألف : ٨٤ .

(٣) مصورة تاريخ مدينة دمشق ، ١٧ : ١ .

جُزُوا الرقابَ من بني عِيءَ لَانِ  
لم تشهد ونسي أمس من إْحسانِي  
واليومَ لا أرجعُ كالخَزْبانِ

ويبدو عنصر التحريض للقبيلة مسيطراً على أراجيز اليمانية ، لأنهم كانوا بحاجة إلى التعاضد والتكاتف بعد أن منوا بخسارة كبيرة في منازلهم للقيسية ، وكان الرجز أداة لبعث روح الاستقواء في نفوسهم ، فأما القيسية الذين كانت كفتهم راجحة في المعارك ، فقد كان كل واحد منهم معنياً بإنجازه الفردي ، وبإظهار ثفوه وعدم تقصيره عن أقرانه من الفرسان ، ولهذا يقول خريم بن أبي الهيثم (١) :-

لا رَدَّني الإلهُ إن رَدَدْتُ  
ولا أراني النصرَ إن حَمَلْتُ  
والأعلى الكِبشُ ، وإن هَلَكْتُ

وتتمثل في أرجوزة عبد الرحمن بن حارث القرشي كل ما يمكن أن ينطوي عليه الرجز من أغراض ، ففيها دعوة إلى الصمود في الميدان ، وتحذير للخصوم ، ومفاخرة بالنفس وبالأنصار ، وهجاء لابن سنان (٢) :-

سَلَّتُ يميني إن رَدَدْتُ مَهْدِي  
حتى أنالَ من عَسَدِي وَتَهْدِي  
فإن في ذاك شفاءً صَدْرِي  
إن لم أمت صَبْرًا فَقَصْرِي قَبْرِي  
ودنَعُكَ الضَّيْمَ سِنَاءَ الفَجْرِ  
أنا النِّلامُ القَرشِيُّ النُّجْرِي  
ويل لمن أَعْلَقَهُ بِظُلْفِي

(١) مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٦ : ٢٠٩ .

(٢) مصورة تاريخ مدينة دمشق ٩ : ١٠٨ .

يا قيس أنتَ عَضُدِي وظَهْرِي  
لكم ودادي أبداً ونصيري  
سُدُّوا على مثلِ الإمامِ البَطْرِ  
قد خرجت أنفُسُهُم من دُعُرِ  
أبناءِ قحطانِ القصارِ الزُعُرِ (١)

إن اقتران الرجز بالتعني « منذ بداياته » قد جعله أصلح ألوان النظم للترداد عند النزول إلى ساحة الحرب، وهذا هو السبب في استخدامه في الفتنة بين القيسية واليمانية « وقد وردت أرجاز أخرى لا تخرج عن جادة ما عرضته هنا (٢) » ومنها قول مالك المري متحدثاً فرسان اليمن في دعوتهم إياهم إلى الميسرة (٣) :-

هل فارس يدعو إلى البيرِ سرازِ  
فالموتُ عندي سُكْرُ الأَمْـسَـوِازِ  
ها أنا ذا أهجمُ بالأرْجـازِ

فقد غدا الرجز وسيلة من وسائل القتال كالسيف والرمح . وأكبر الظن أن المرتجز كان يصرخ برجزه على خصمه رافعاً عقبرته ليعث في نفس خصمه الرهبة والخوف .

**النتائج :** تعدد النقااض مظهرًا من مظاهر " الحرب الكلامية " بإزا" الحرب الفعلية، أو لعلها كانت كالمناقرات نوعًا من الحركة المسرحية لا لأنها تعتمد الحوار وحسب ، بل لأن السرد " بالعمل " يعني التزامًا متعمدًا بين الفعل و " رد الفعل " . وهذه الصلة بينهما يعبر عنها فسي الغالب الأعم بوحدة الوزن والقافية وحركة الروي ، من حيث الشكل ، وينقض الثاني لما قاله الأول فسي الموضوع ، فقيس الهلالي يتحدث عن شجاعة قومه يوم داريًا ، وأنهم تركوا أهل داريا جثثًا مطروحة .

- 
- (١) الزعر جمع أزر وهو السبع الخلسق .
  - (٢) انظر رجز وزيرة بن سماك العنسي في صورة تاريخ دمشق ١٧ : ٧٦٩ .
  - (٣) صورة تاريخ مدينة دمشق ١٦ : ٢٠٩ .



ويربط شدة قيس في الانتقام بغضب الله ، فالله هو الذي اختارها لفعل ما فعلته ، لأن قيساً في صلابتهم صَوَّان بل حديسد (١) :

كأنا يوم داريا أُسودُ	تدافع عن مساكنها أُسودا
تركنا أهل داريا رميمًا	حطامًا في منازلهم هُمسودا
إذا غضب الإله على أناس	دعا قيسًا فتميرهم هُمسودا
وذلك أن قيسًا غير شك	من الصَوَّان بل خلقت حديسدا

فيرد عليه عثمان بن مرة الخولاني (٢) ماحيًا كل ما قاله وقرره بقوله : "كذبت " :

كذبت لقد بقيت لكل أمير	يسوؤك ، فاستمع مني الوعيدا
------------------------	----------------------------

وبدلا من أن يتحدث هذا الخولاني عن أفعاله نجد أنه يتحدث عما سوف يفعل :

سأجلبُ نحوكم خيالًا جيدًا	وفتيانًا تخالهم الأُسودا
فنتسيكم فخاركم وشيكم	والجبق فلکم جمعًا ثمسودا

ويستنكر الخولاني أن تكون الغلبة لقيس عيلان ، لأن ذلك لم تجر به عادة ، ويقر بأنهم مغلوبون ، وذلك فعل الدعر السبيعي الذي يُعلي ويخفض ، ولا يلبث أن يغطي على هذا الاعتراف بالماضي المجيد الذي أنجبت فيه خولان سادة ليس كثير منهم التماج :

متى طومت بنوعيلان فينا	فتطمع أو ترجسي أن تسودا
ولكن دولة دارت علينا	ودهر السوء قد رفع العبيدا
ألسنا النجيبين ذوي المعالي	وأمل أن نسوس وأن نعودا
لبسنا التاج قد علمت معسد	زمان يحوك غيرهم البُسرودا

ومن تتبع النقيضة والرد عليها وجد أن العلاقة الجدلية موجودة " فعلت - سأفعل " فخر بالحاضر - فخر بالماضي " ، ولكن من العيب أن يتوقع المرء تسلسلاً فكرياً في الرد ، فإن الشاعر الذي ينقض على خصمه أقواله قد يخلع صفة على خصمه كان هو يُعيير بها ، فاليمانين يعيرون

(١) مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٤ : ٤٩١ .

(٢) المصدر السابق نفسه .

بأنهم حاكمة سرود، فما كان من هذا الخولاني إلا أن تبرأ من هذه الصفة، وألقاها على القيسي .

وليست لدينا أمثلة كثيرة من هذه النقائض، ولكن مثلاً آخر منها يكفي للقول إنها كانت متداولة . وقد احتفظ ابن عساكر بموقف آخر بين متناقضين، وهما امرأة قيسية من بني ثعلبة بن سعد اسمها كتيبة بنت الوقعة، يرد عليها شاعر يمني هو محرز الغساني (١) . وفي هذا الموقف طرافة خاصة، فهذه المرأة العجوز لا يزال صدرها يغلي بالغيظ على الينية . ومع أنها تقرأ خريماً شفى غليلها مرات بتقتيله بني خولان وغسان، ثم بتقتيله السكاسك، فإنها تستزيده لأنها ظامئة إلى مزيد من الدماء . وموضع الطرافة أن الشاعر الغساني يتسلل إلى الرد عليها من منافذ مختلفة، فهي عجوز ولكنها ليست مريم بنت عمران، إنما هي تشبه عجوز ثمود أصحاب الحجر (٢)، ولما كانت تأمر بالظلم جهاراً، فهو يدعو عليها بأن يصلبها الله نيراناً، ويذكرها بأن قحطان لم تنكح عن قيس، ولكن أذاقتها جمره الحرب حتى بكت تلك العجوز من وقع ما أصابها، لا رقا الله لها دمعاً . فهذه المناقضة تدل على أن الشاعر المناقض لا بد له أن يحتال في الرد، لهذا لم يجد محرز الغساني لنفسه ملجأ في ذلك السجال الحربي الذي لا يرضى عنه الدين سوى أن يلون بالجو الديني، رداً على تلك القيسية التي لم تطفئ السنون الكثيرة جمر غيظها الملتهب .

وإذا كانت هذه النقائض تشاكل غيرها من النقائض في الشعر العربي شكلاً ومضموناً، فإنه يسجل لها خلوعاً من الإسفاف والهجاء المقذع، كما يسجل للشاعر محرز بن مدرن الغساني التفاته إلى القصص القرآني وإفادته منه في تشبيهاته . .

(١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) ٢١٢ - ٢١٤ . ومطلع نقيضة كتيبة:

وناد يا عامر الغارات أسربهم حتى تُبيد بهم خضراً قحطاننا

وهي في تسعة أبيات، ويرد محرز الغساني في خمسة أبيات مطلعها: -

نادت عجوزُ أبا الهيدام مُسمِعةً ليست بريم بنت الكهل عِمرانا

(٢) عجوز ثمود الحجر: هي التي حرّضت قومها على قتل ناقة صالح - عليه السلام - فكانت عاقبة فعلهم أن أهلكهم الله . انظر قصتها في تفسير ابن كثير الآية ٢٣ من سورة الأعراف .

الممدوح : حين ننظر إلى شعر المدح في فتنة أبي الهيثام فليس من الضروري أن ننظر إلى انقسام المتحاربين بين قيسية ويمنية ، ذلك لأن أي شاعر من أحد الحيين إنما يمدح زعيماً قبلياً بما يمكن أن يضاف إلى ذلك الزعيم من نخوة وشجاعة وكرم محتد . ولكن المشاركين في تلك المدائح يفرضون أن نرى في هؤلاء الشعراء فريقين آخرين يقوم بينهما بعض التفاوت ففريق شعراء الفتننة ، وفريق شعراء الدولة . وقيل أن يقوم الدارس برسم حدود الاختلاف بين هذين الفريقين ، فإنه يستطيع أن يتخيل أن شعراء الفريق الأول يمدحون مؤججي فتنة ، وأن شعراء الفريق الثاني يمدحون مطفي فتنة . ويمثل الفريق الأول شاعران هما عمرو بن واقد مولى عتبة بن يزيد بن معاوية<sup>(١)</sup> ، وعبد الصمد بن شعيب القرشي<sup>(٢)</sup> . ويمثل الفريق الثاني ثلاثة من أشهر شعراء هذه الحقبة في دولة الخلافة وهم منصور النعري ، وأشجع السلي ، وأبو يعقوب الخرمي ، والأولان ينتميان إلى قبيلتين لهما صلة من قريب أو بعيد بالأحداث . والخرمي مولى لأخي أبي الهيثام ، فهم إذن قريبون من دائرة الحرب ، بعيدون في الوقت نفسه عنها ، لأن مشاعرهم تختلف عن مشاعر الشعراء الضالعين فيها .

وبينا نجد لشاعري الفريق الأول قصيدة لكل واحد منهما ، نجد مشاركة الفريق الثاني مجتمعين قد أثمرت عدة قصائد . وفي قصيدتي شاعري الفتنة يتجلى انضواء الشاعر تحت راية القبيلة ، فهو يمدح الزعيم أو يمدح القبيلة نفسها ويتنقص الأعداء ، فقبيلته صقور والأعداء خرفان أو ضأن نعق بها ناعق . ويقوى لديه شعوره بالأمن في كنف القبيلة (على الرغم من الحرب) ، وأن أبطالها دانعوا عنه وعن قومه ، وليس في الصفات التي تسبغ على الممدوح شيء لافت للنظر . ومثال ذلك قول عبد الصمد القرشي في أبي الهيثام :

لكم جالدوا عنا وقادهم	مُحَرَّبٌ مِنْ بَنِي دُبْيَانَ كَالْأَسَدِ
قد حصت البيضة الخرقاً مما تمته	معاوداً ليضراب الكبش ذي الحارد <sup>(٣)</sup>

- (١) معجم الشعراء : ٢١٧ ، وترجمته في مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٣ : ٦٥٦ ، ومطلع ما بقي من قصيدته :
- (٢) فلم أر كالهيثام في الناس فارساً  
مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٠ : ٢٣١ ، ومطلع ما تبقى من قصيدته :
- (٣) أفدي غداة الوغى قيساً إذا سجرت  
الحرد : الغيظ والغضب ، حصت : أزلت وأسقطت شعره

يُثْمِيهِ أُرُوعٌ مِنْ عَيْلَانَ ذَوْ حَسَبٍ      عَوْدٌ وَلَمْ يَكْ يَدْعَى بِيضَةَ الْبَلَدِ (١)  
أَعْنِي بِذَلِكَ أبا الهيثم إنَّ لهُ      عِنْدِي يَدًا سَفَعَتْهَا مِنْهُ خَيْرٌ يَدِ (٢)  
مِثْلُ الْأَعْرَابِيِّ الْهَيْذَامِ مَا حَمَلَتْ      حُضْنَ النِّسَاءِ وَلَمْ يُفْطِمْ وَلَمْ يَلْبِدْ  
بَعْدَ النَّبِيِّ وَأَقْسَامٌ أَعَدُّهُمْ      مِنْ رَهْطِهِ السَّادَةِ الْجَمِّ النَّدَى النَّجْدِ

ويدور أكثر شعر الفريق الثاني على مدح جعفر البرمكي الذي وكل إليه الرشيد أمر إطفاء الفتنة ، والمدح هنا أهم بكثير في نظر الشاعر من الفتنة وأبطالها وأحداثها والتخريب الذي تسببت فيه ، ولذلك تجد هذه النخبة عالية في القصيدة الوحيدة التي بقيت من شعر منصور النمري متصلة بالأحداث (٣) . فهو في البيت الأول يخبر عن وجود فتنة " لقد أوقدت في الشام نيران فتنة " ومن أجل إطفائها " رماها أمير المؤمنين بجعفر " الماجد الميمون النقيبة وزير أمير المؤمنين وموضع سره ، الوفي الذي يجلي الخطوب ، ويعالجها بحذق ٠٠٠ الخ ، وهو يسير إلى الشام سير غمامة تطفئ بظرها النيران ( أو غمامة تطر تخريباً ) : -

لَقَدْ نَشَأَتْ بِالشَّامِ مِنْكَ غَمَامَةٌ      يَوْمَ مَلَّ جَدَّوَاهَا وَيَخْشَى دَمَارُهَا  
فَطُوبَى لِأَهْلِ الشَّامِ أُمَّ وَيْلٌ أُمَّهَا      أَتَاعَا حَيَاهَا أَوْ أَتَاهَا بَوَارِعَا  
فَإِنْ سَالَمُوا كَانَتْ غَمَامَةٌ نَائِلِ      وَغَيْثٌ وَإِلَّا فَالْدَّمَاءُ قِطَارُهَا

وأما الخريبي فقد كان من الممكن أن يكون أكثر الثلاثة مشاركة بشعره في الفتنة ، لأنه كان مع أبي الهيثم ، وقد رثاه ورثى ابنه خريماً بشعر كبير (٤) ، ولكنه لا يشير إلى موقفه من الفتنة في مراثيه ، وإنما هو إحياءات يستمد منها إعجابه بخريم وذويه بني مَعَدٍّ (٥) : -

بَقِيَّةُ أَقْتَارٍ مِنَ الْعُرَى لَوْ خَبَيْتِ      لَظَلَّتْ مَعَدٌّ فِي الدُّجَى تَتَسَكَّمُ  
وَكَانَ لِسَانَ الْحَيِّ قَيْسٌ وَنَابَهُمَا      وَكَانَتْ بِهِ قَيْسٌ تَضْرِبُ وَتَنْقَعُ

- (١) يراد ببيضة البلد أن له نسباً يحميه .  
(٢) سفعتها: جعلت فيها وسماً وعلامة .  
(٣) الطبري ٨ : ٢٦٢ - ٢٦٢ ، وشعر منصور النمري ٩٢ - ٩٥ .  
(٤) مقدمة ديوان الخريبي : ٥٥ ، وانظر ترجمته في بغية الطلب ( مصورة الجامعة الأردنية )  
٢ : ٢٦٦ .  
(٥) ديوان الخريمي : ٤٣ ، ٤٦٥ .

وأما أشجع السلمي فكان أكرر الثلاثة شعراً في تلك الفتنة ، فله فيها ثماني بين قصائد مقطعات (١) ، موضوعها الأساسي مدح جعفر البرمكي الذي أطفأ نار الفتنة ، وهو يعبر فيها عن صلاح الحال بعد فساد ، وعودة الحق وزعوق الباطل ، وإخماد نيران الطغاة مشيرين بالفتنة كقولهم (٢) :-

أتى الله أرض الشام بالأمن فأنجلت	ضباية خوفٍ ، قد أرتت غياطله (٣)
ولم يبق سهل في قرى الشام كلها	ولا جبل إلا اطمانت زلازله
نظرت لأهل الشام لما تعاظمت	ظلامتهم حتى علا الحق باطله

ويلفت النظر في قصائد أشجع ترد يد لفظ "الطغاة" وصفا لزعماء الفتنة "كانت طغاة الشام . . . . . كانوا أرقا" الطغاة . . . . . " وأورد عنها نموذجاً آخر من شعره ، قصيدة أغفلها جامع ذلك الشعر ، يقول فيها (٤) :-

كانت طغاة الشام قد أكتورت	إنتاجها الحرب والقاحها (٥)
مبيلة في غيبها حقبلة	غامسة في الموت أرماحها
قد غرما جلم الإمام السدي	لوعزمت كفاها لأجتاحها
فلم يزل حتى إذا مبرأ رأى	إطنابها الحرب (٦) والأحاحها
ولى ابن يحيى جعفرأ أمرها	حين أراد الله إصلاحها

وقد أصبحت الجهود التي بذلها جعفر في إخماد الفتنة ، وإصلاح ذات البين هي "التمية" التي يرددها الشاعر في مدوحه ، سواً أكان ما يقوله قريب عهد بالفتنة أم بعيداً عنها . وقد تميز السلمي في هذه المدائح بالتنوع على الرغم من تكرار الموضوع ، بأسلوب قوي تفوق فيه على سائر شعراء الفتنة من الفريقين . ومن الواضح في شعر الشعراء الذين يمثلون السلطة تسويتهم - بإرسال أوصاف الظلم والطغيان - بين الفئتين المتحاربتين في الشام ، وذلك شيء طبيعي ، فهم دعاة

(١) أشجع السلمي ، حياته وشعره ، وأرقام القصائد والمقطعات : ٦٦ ، ٤٧ ، ٦٧ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ١٠٥ .

(٢) القصيدة رقم ٨٥ في المصدر السابق .

(٣) أرتت : دامت . والغياطل جمع الغيظلة وهي الظلمة المتراكمة .

(٤) الأزدي : تاريخ الموصل : ٢٨٩ .

(٥) في تاريخ الموصل وأكفاحها ولا معنى له ، ولذلك صوبته .

(٦) في تاريخ الموصل "إطنابها في الحرب" وذلك يكسر الوزن .

صلح ، ولا يتسع شعرهم للبحث عن المصيب وعن المخطئ ، والتوسل بالحكم الموضوعي ، على أهميته ، لا يستطيعه القائد الذي أصلح بين الحيين ، بل عليه أن يستعمل الرفق - كما قال أشجع - لرأب الصدع الشامي . " فقد كان كل فريق قبلي يدعي أن الفريق الآخر هو الظالم ، كما يقول أبو الهيثام في الينبيين <sup>(١)</sup> : -

لَمَّا رَأَيْتُ غَدَاةَ الْمَرْجِ ظَلَمَهُمْ سُمُّ  
أَنْهَضْتُ مِنْ جَانِبِ الْقَصْبِ أَشْيَالاً <sup>(٢)</sup>  
رِيضًا بِهَالِيلٍ مِنْ تَيْسٍ إِذَا رَكِبُوا  
لِلرُّقُوعِ زُلْزَلَتِ الْأَرْضُونَ زَلْزَالاً

لقد تلونت الفتنة ألواناً ، ولبست أنواعاً من لبوس الحرب ، وفي كل صعود أو هبوط كان الشعر مواكباً لها ، ضروراً لمراحلها ، ولكن على ما يتمتع به الشعر هنا من قيمة تاريخية ، فإن استمداد الصدق التاريخي منه ليس بالأمر السهل ، فحين يتهم الشاعر اليمني قيساً بأنها ألبت عليهم " أنبساط حوران " <sup>(٣)</sup> ، كما يقول محرز بن مدرك النخاسي في مخاطبة زعيم تيبس : -

جَمَعَتْ لَنَا أَوْيَاتِ كُلِّ قَبِيلَةٍ  
وَأَنْبَاطَ حُورَانَ وَجَاءَ الْمَسَالِمِ

أي أشركت في الحرب عناصر غير عربية ، فذلك أمر غير مستبعد ، ولكن لا يؤخذ به إذا لم تؤكده المصادر التاريخية ، لأنه قد يكون من باب السخرية . وحين يقول شاعر يمني إن قبيلتي القسبيين وكلب هما اللتان هيجتا الحرب ، فتلك شهادة ليس من السهل دفعها ، لأنها تصدر عن شاعر من الصف نفسه الذي لم يكن راضياً عن مسببي الفتنة <sup>(٤)</sup> : -

أَلْوَمُ عَلَى الْخِذِّ لِأَنَّ قَوْمِي وَإِنَّمَا  
أَخْصُ بِلَوِيِّ الْقَيْنِ وَالْحَيِّ مِنْ كُلِّ سَبْرِ  
عَمَّا هَيَّجَا الْحَرْبَ الَّتِي أَوْقَدَتْ بِهَا  
سَبَا لَهَبٍ مَا مَثَلُهَا خَلَّتْ مِنْ حَرْبِ

- (١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم حرف العين المتلوة بالألف) : ٤١٨ .
- (٢) القصبا : جماعة القصب الكثير النبات في مقبته . والمراد مكان كان كبير القصب في موضع من دمشق ، ولا ذكر له في كتب البلدانيين .
- (٣) مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٦ : ٢٧٨ .
- (٤) مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٦ : ١٢٦ .

(و) الشعر في نورات الجزيريين : وقد شهدت منطقة الجزيرة أحداثاً جساماً في العصر العباسي تركت بصماتها واضحة في شعر هذه الفترة .

١- وأول نص شعري يقف عليه الدارس يعكس شيئاً من هذه القلاقل هو النص الذي قاله منصور النمرى في الرشيد مستشفعاً إليه أن يرفع السيف عن ربيعة بنصيبين<sup>(١)</sup> وما يليها . أما لماذا كان الرشيد قد أعمل السيف بالرميين فلا تسعف المصادر التاريخية على استجلاء حقيقة الأمر . وغاية ما يقال هو أن منصوراً النمرى نظم قصيدته التي مطلعها<sup>(٢)</sup> : -

أتسلو وقد بان الشبابُ المزاييلُ

ووجهها إلى الرشيد الذي كان قد جرد السيف في ربيعة ، فراقت القصيدة الخليفة ، وأمر برفع السيف عن الربعيين .

أما الأبيات ذات العلاقة بهذا الحدث فإن استقرأ ما ينبيء عن سخط شديد على جنود السلطة وقادتها الذين آذوا الناس وأذلوه م :

يَجْرِدُ فِينَا السَيْفَ مِنْ بَيْنِ مَارِقٍ      وَعَانَ بِجُودٍ كُلَّهُمْ مِتْحَامٍ سَلُ<sup>(٣)</sup>  
 وَقَدْ عَلِمَ الْعُدُوَّ وَأَنَّ الْجُورُ وَالْخَنَسَا      بَأَنَّكَ عِيَافٌ لِمَنْ مَزَايِيلُ<sup>(٤)</sup>  
 وَلَوْ عَلِمُوا فِينَا بِأَمْرِكَ لَمْ يَكُنُن      يَنَالُ بَرِيًّا بِالْأُدَى مَتَسَاوِلُ

ولكي ينجح الشاعر في مسعاه عند الخليفة فقد حمل مسؤولية الجرائم التي ارتكبت بحق الربعيين جماعةً ظالمة من المسؤولين ما كان الرشيد ليرضى عن فعلتهم المنكرة ، ولذلك أمتعن الشاعر في التودد والتلطّف إلى الخليفة فقال فيما قال أيضاً في القصيدة نفسها عن المخاوف والآسي التي حلت بهم م :

(١) نصيبين من ديار ربيعة التي هي جزء من الجزيرة ، معجم البلدان : (نصيبين) .

(٢) انظر تفصيل رواية خبر هذه القصيدة في : الأغاني ١٣ : ١٥١ - ١٥٢ .

(٣) بجود جمع وجد وهم الجماعة من الناس .

(٤) العياف : الشديد الكراهة . المزاييل : الفاروق .

جعلناك فأمذنا ، معاذاً ومفزعمًا  
لنا حين عضتنا الخطوب الجلاجل  
وأنت ، إذا عذت بوجهك عؤود  
تظامن خوف ، واستقرت بلابل (١)

فاستجاب الرشيد لهذا التضرع قائلاً : "يرفع السيف عن ربيعة" ويحسن إليهم (٢) .

وليس في القصيدة أدنى ما يعين على معرفة الأسباب التي أدت إلى تفرق النصيبين ، غير أن نصيبين ذاتها كانت مركز حركة الوليد بن طريف الشاري ، مما قد يعني أن سبب الحركتين واحد ، وعوانضام النصيبين إلى حركة الخوارج .

٢- وكان أثر حركة الوليد بن طريف في الشعر كبيراً ، وذلك بيد وفي شعر أخته الباكي الحزين ، وفي شعر الشعراء الموالين للعباسيين من مجدوا بطولة يزيد بن يزيد الشيباني الذي كسر شوكة الخوارج ، وقتل زعيمهم الوليد . ويغلب على الظن أن للوليد شعراً أيضاً ، ولكن لم يصل منه غير مقاطع من ذلك قوله بلسان فارس من فرسان الخوارج بعد أن فتك بأمر نصيبين العباسي (٣) : -

أنا الوليدُ بنُ طريفِ الشارِي      ظلمكمُ أخرجني من داري

وقوله أيضاً مخاطباً يزيد بن يزيد مشهداً بعد أن كان قتل من أهل نصيبين في سنة ١٧٩هـ / ٧٩٥م ، خمسة آلاف مقاتل (٤) : -

ستملمُ يا يزيدُ إذا التقيتُنا      بشطِّ الزَّابِ أَيِّ فتى تكسونُ

كما يغلب على الظن أن يكون لغیره من الشراة شعر غير يسير ، ولكنه ضاع لأسباب أبرزها ما تعرض له الخوارج أنفسهم من عدا الناس لهم من حاكمين ومحكومين .

أما كيف وصل شعر ليلي بنت طريف ، فالجواب هو لأن لشعرها رنة حزن أنثوية عميقة تجعله لائطاً بالقلوب ، عالماً بالنفوس ، صالحاً لأن يوظف في مواقف مشابهة ، ولأنه أيضاً ليس شعراً

(١) البلابل : الهواجر والوساوس .

(٢) الأغانبي ١٣ : ١٥٣ .

(٣) الأزدي : تاريخ الموصل : ٢٧٩ ، المقدسي : البدء والتاريخ ٥ : ١٠٢ .

(٤) الأزدي : ٢٧٩ .



مذهبياً قد يجد معارضة من الاتجاهات الأخرى المعادية للخوارج . ولما كان أكثر شعرها في الرثاء ، فإنه سيدرس في الفصل الخاص بهذا الموضوع ، غير أن في قصيدتها الذائعة المشهورة <sup>(١)</sup> بيتاً استوقف ابن أبي الحديد وهو قولها في أخيها المقتول : -

فستى لا يُحِبُّ الزادَ إلا من التَّقَى ولا المالَ إلا من قنأ وسُيوفٍ

فقال ابن أبي الحديد معلقاً من منظور شيعي حاقد على الخوارج <sup>(٢)</sup> : "وقالت أخته ترثيه ، وتذكر أنه كان من أهل التقى والدين على قاعدة شعراء الخوارج ، ولم يكن الوليد كما زعمت " .

وإذا كانت حركة الوليد بن طريف الشاري لم تترك صدى في أوساط شعراء الخوارج ، فإن ظفر يزيد الشيباني عليه ، وقتله إياه أمدناً بشعر رائق للشعراء الموالين لبني العباس ، وتعد قصيدة مسلم بن الوليد في يزيد من أجمل ما نظم من شعر في مدحه ، ومنها قوله في هذه المناسبة <sup>(٣)</sup> :

يفترُّ عند انقِطارِ الحَرْبِ مُتَسِمِماً      إذا تَغَيَّرَ وَجْهُ الفَارِسِ البِطْـمِـلِ  
مَوْفٍ على مُبْجٍ في يومِ ذِي رَهَـجٍ      كأنه أَجَلٌ يَسْعَى إلى أَمـمِـلِ  
ينالُ بالرَّقَى ما تَعَيَّا الرِّجَالُ بِهِ      كالْمَوْتِ مُسْتَعْجِلاً يَأْتِي على مَهـمِـلِ

إلى أن يقول في الوليد صوراً وجهة النظر العباسية في حركته وأنها ضرب من المـرورق : -

والمارقُ ابنُ طَريفٍ قد دَلَفَتْ لـه      بِمَراضٍ لِلنَّيَا مُسَبِّلِ عَطـمِـلِ  
ما كان جَمْعَهُمَ لَمَّا دَلَفَتْ لـهـم      إِلا كَعَمَلِ الجِرادِ رِيعِ مُنْجَفِـلِ

ولدى رجوع النظر في نعت ليلي لأخيها بأنه : "فتى لا يحب الزاد إلا من التقى" مقابلاً بنعت مسلم ابن الوليد بأنه مارق ، على ما في لفظة "المروق" من ظلال دينية ، يدرك أن الشاعرين يسيـران

(١) هي القصيدة التي مطلعها : -

بتل نباتي رسم قبر كأنبياءه      على علم فوق الجبال منيف  
وقد وردت هذه القصيدة أو أبيات منها في مصادر كثيرة نذكر منها : أبو تمام : الوحشيات ، تحقيق عبد العزيز السني الرأجكوتي ومحمود محمد شاكرك ، ط ٢ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٣ م ، ١٥٠ ، البحري ، حماسة البحري ، تحقيق كمال مصطفى ، المكتبة التجارية ، القاهرة ، ١٩٢٩ م ، ٤٣٥ ، الطبري ، ٨ : ٢٥٦ ، البدو والتاريخ ، ٥ : ١٠٠ ، الأغاني ، ١٢ : ١٢ ، ابن الشجري : حماسة ابن الشجري ، تحقيق عبد المعين الملوحي وأسماء الحمصي ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٧٠ م ، ١٦ : ٤٣٢٧ ، ابن الأثير : الكامل ، ٥ : ١٢٧ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ٢١ : ٤٢١ ، معاهد التنصيص ، ٣ : ١٦٠ .

(٢) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٩ م ، ٥ : ٧٣ .

(٣) ديوان صريع النوناني ، تحقيق سامي الدهان ، دار المعارف بمصر ، القصيدة الأولى .

في خطين متوازيين ، فكان هذا الافتراق في رؤية كل منهما إليه منسجماً مع موقعه وزاوية رؤيتهـــــــــــــــــ  
للأحداث .

٣- وكانت قبيلة تغلب<sup>(١)</sup> التي قال فيها عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : لو تأخر  
الإسلام لأكلت العرب ، تشكل شوكة في خاصرة الدولة العباسية . فقد شهرت السيف على ثلاثة  
من الخلفاء العباسيين هم الرشيد والمعتمد والمتوكل . أما عن أسباب ذلك فإن كتب التاريخ المعتمدة  
في هذه الدراسة لا تسعف على تبينها . غير أن الذي يبدو أن هذه القبيلة الضخمة العدد ، القوية  
الشوكة كانت تربي في قوتها ، وفي تعدادها ، وفي تحصنها في مواقع نائية عن سلطة الخلافة المركزية  
مرشحات مغرية لها تدفعها إلى تكوين ملكة خاصة بها . وقد تحقق لنا حلُّها هذا في القرن  
الرابع الهجري على أيدي بني حمدان . وكأن ثوراتها على الخلفاء العباسيين كانت إرهابـــــــــــــــــات  
لما تحقق بالفعل في القرن الرابع .

ولعل الرشيد بحسه السياسي كان على دراية بمطامح التغلبيين ، فأراد أن يكبح جماحهم  
وأن يتووددهم في آن ، فعمد لأحد زعمائهم ، وهو مالك بن طوق ، أن يتولى أمرهم ، بعد أن أنطعه  
أرضاً على شاطئ الفرات بنى فيها الرحبة<sup>(٢)</sup> .

غير أن مالكا ، وفي نفسه ما في نفوس التغلبيين من طموح ، سرعان ما خرج على الرشيد ، فرفض  
أن يرسل الأموال إلى بغداد ، فسير إليه الرشيد عسكرياً طالت بينهما الوقائع ، ثم ظفر جيش الرشيد

(١) انظر في تغلب وبطونها : جبهة أنساب العرب : ٣٠٣ ، وما بعدها ، القلقشندي : قلائد  
الجمان ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، ط ٢ ، دار الكتب الإسلامية ، القاهرة ، بيروت ١٩٨٢ :  
١٢٩-١٣٢ ، السلطان عمر بن يوسف بن رسول : طرفة الأصحاب ، تحقيق ك . و . سترستين ،  
مطبوعات المجمع العلمي العربي ، دمشق ١٩٤٩ : ١٦ ، دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة  
أحمد الشنتاوي وزملائه ٥ : ٣٢٤ - ٣٣٧ ، عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب ، المطبعة  
الهاشمية ، دمشق ١٩٤٩ : ١٥ : ١٢٠ - ١٢٣ .

(٢) انظر في ترجمة مالك بن طوق الذي كان أحد أجواد العرب ومدحيهم ، والذي ولي أمر  
دمشق والأردن في خلافة الواثق والمتوكل (ت سنة ٢٦٠هـ) : مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٦ :  
٢١٣ ، معجم البلدان / مادة الرحبة ، محمد بن شاعر الكتبي : نوات الوفيات ، تحقيق  
إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ٣ : ٢٢١ ، وذكر البلاذري أن مالكا بنى الرحبة فسي  
عهد المأمون . انظر : فتح البلدان : ٢٤٧ - ٢٤٨ .

في نهاية المطاف بمالك ، فأُرْسِلَ إلى الرشيد ليُعَاصِمَهُ ، فاستعطف مالك الرشيد بقصيدة فيها نغمة فارس ، وتسليم موء من ، وضعف أب يخشى على بنيه بعد مقتلته الغيـاع (١) : -

أرى الموتَ بين السيفِ والنَّطعِ كإنباءٍ	يُلاحِظُنِي من حيثُ ما أتلفَتُّ
وأكرُّ ظنِّي أنكَ اليومَ قاتلِي	وأَيُّ أمرِي ما قضَى اللهُ يُغَلِّبُ
وما بيَّ خوفٌ أنْ أموتَ وإنَّشِي	لأعلمُ أنَّ الموتَ شَيءٌ مِمَّ قَتَّ
ولكنَّ خلفي صبيةٌ قد تركتُهُم	وأكبَادُهُم من خشيةٍ تَنفَتَّت
كأنِّي أراهم حين أنعمى إليهِم	وقد خمشوا تلكَ الوجوهَ وصوتوا

ومن غير شك أن هذه القصيدة بما فيها من عوامل إثارة لمواطن الشفقة والكبرياء والرجولة والإيمان في آن قد أسهمت في حمل الرشيد على الصفح عن مالك . غير أن سياسة الرشيد بالعفو التي نجحت في ائتلاف قلب مالك نفسه وموقفه من العباسيين ، فظل مخلصاً لهم بعد أن أعيد إلى مركز كان يشغله من قبل ، لم تنجح في ائتلاف التغلبيين الذين خرجوا بعد مدة لا على العباسيين وحسب ، بل على مالك نفسه أيضاً . وكأنهم لم يعودوا يرون فيه الزعيم الذي يحقق للقبيلة طموحها ، وقد كشفت عن هذا كله قصائد نظمها الطائيان الكبيران . ويلقى الدارس في هذه القصائد مدحاً لمالك ، وهجوماً شديداً على تغلب ونعتاً لها بالغدر والتخريب والبغي والجهل والإفساد . يقول أبو تمام ذاماً تغلب ، مبيناً فضل مالك عليها ، واضطراره ، وهو التخلي ، إلى قتل الخارجين منهم على السلطنة (٢) : -

قد جرتُه تغلبُ ابنةُ وائل	لا خاتراً غُدراً ولا نكاشاً (٣)
ضَحَّ القذى عنها وشذَّب سيفُهُ	عن عيصها الخراب والخبائث (٤)
هم مزقوا عنه سبابَ جلمِيه	وإذا أبو الأشبال أخرج عائثاً (٥)

- (١) معجم البلدان / مادة الرحبة ، وقد نسب ابن حزم هذه القصيدة إلى تميم بن جميل التغلبي الذي خرج على المتوكل . انظر جمهرة أنساب العرب : ٣٠٣ .
- (٢) ديوان أبي تمام ، القصيدة ٢٩ ( بشرح الخطيب التبريزي ) .
- (٣) الخاترمثل الغادر إلا أنه أشد مبالغة . وغدر أي غادر / شرح الخطيب التبريزي .
- (٤) ضح القذى : أزاله . العيص : الشجر الملتف . والخراب : جمع خارب وهو الذي يسرق الإبل ، ثم استعير في كل سارق وصاحب غدر / شرح الخطيب التبريزي .
- (٥) السباب : جمع سببية وهي شقة مستطيلة . وأخرج : ضيق عليه . يذكر قتله لما ولي نصيبين جماعة من بني تغلب .



وقد واجه الشاعر في هذه القصيدة ، أو في الأحداث التي ساقته سوقاً إلى نظم هذه القصيدة مشكلة خاصة ، فالمدح تغليبي ، والتعبير والتأنيب الشديد فيها لتغلب ، غير أن أبا تمام بقدراته العقلية والفنية البارة نفذ من هذا المشكل بإقامة تناظر لطيف مستوحياً فيه من عناصر الطبيعة براهين أسعفته على حسن التأني لحله ، يقول : -

لم يَأْلُكُمْ مَالِكٌ صَفْحًا وَمَغْفِرَةً      لو كان يَنْفِخُ قَيْنَ الْحَيِّ فِي فَحْصِمِ (١)  
أَخْرَجْتُمُوهُ بِكُرْهٍ مِنْ سَجِينِهِ      والنارُ قد تُنْتَضَى مِنْ نَاضِرِ السَّلَمِ (٢)  
أوطأتموه على جَمْرِ الْعُقُوقِ ولو      لم يُحْرَجِ اللَّيْثُ لَمْ يَبْرَحْ مِنَ الْأَجَمِ

ثم يعاتب الشاعر أولئك الخارجين الذين حرضهم على الخروج الأعمى ، ولعله يقول ذلك عمن ذكاه ، ليستشير فيهم النخوة العربية فيكفوا عن الإفساد ويعيدوا التفاهم حول قائد هم العربي :

تَنْبُونَ عَنْهُ وَتُعْطُونَ الْقِيَادَ إِذَا      كَلَبَّ عَوَى وَسَطَكُمْ مِنْ أَكْلَبِ الْعَجَسِ

ويعنُّ باسم مالك عليهم أن لم يُفْنِهِمْ ، وهو القادر ، ويصور اضطراع الفرح والأسى في نفس الممدوح في قالب من "تنافر الأضداد" (٣) فريــــــــــــد :-

جَدُّ لَانَ مِنْ ظَفَرِ حِرَّانٍ إِنْ رَجَعَتْ      مخضوبةً مِنْكُمْ أَظْفَارُهُ بِبِيَدِمِ (٤)  
لولا مناشدةُ القُرَيْنِ لغادركم      حصائدُ المُرْهَقَيْنِ : السيفِ والقلمِ  
لأصبحت كالأنثى السَّمْعِ أَوْجُهَكُمْ      سَوْدًا مِنَ الْعَارِ لَا سَوْدًا مِنَ الْحَمِّ (٥)  
لا تجعلوا البعِيَّ ظهراً إنه جمل      من القطيمة يري وادي النَّعَمِ

غير أنه لا توسلات أبي تمام لبني تغلب أن يكفوا عن أذى ابنهم الأمير عليهم أجدت ، ولا تحذيراتهم إليهم ونصائحهم لهم بزوال النعم عنهم ، وبحلول شرور الظلم عليهم أتمرت ، بل ظل التمرد مظهرًا عامًا شائعاً فيهم فلم يجد العباسيون بدءاً من عزل مالك ، فألم هذا العزل أبا تمام ، فشعر بالكآبة

- (١) الشطر الثاني من البيت مثل لمن يعمل أمراً منجزاً لأن الفحم إذا نفخ فيه أوقد / التبريزي .
- (٢) السلم نوع من الشجر .
- (٣) تعبير درج على استعماله شوقي ضيف في : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ط ٤ ، دار المعارف بصر ١٩٦٠ : ٢٥٠٠ .
- (٤) يسر بالظفر إلا أنه يسووه أن يقتل أحد منكم لأنكم أهله / التبريزي .
- (٥) الأنثى السمع : حجارة الموقد السود المشربة بحمـــــرة .

وعلت نفسه غبرة ظلل بها أرض الجزيرة ، وألبسها من تمام نفسه تماما . يقول في مقابلة معجبيته بين حال الجزيرة الذي كان في عهد الأمير ، ومآلها الذي صارت إليه بعد عزله ، مكرراً المعنى نفسه في ألوان متعددة من التصوير البارع ، فعناصر الحياة : الغيث والنور والعُرس الكاعب في مقابل الجدب والظلمة والتكلى الأيسم : -

تلك الجزيرة مذ تحمّل ماليسك	أست وباب الغيث عنها مبهم
وعلت قراها غبرة ولقد تُسرى	في ظلّه وكأنّما هسي أنجُم
الجو أكلف والجناب لفقده	محلّ ، وذاك الشق شقّ مظلّم
ولقد أراها وهي عرس كاعب	فاليوم أضحت وهي تكلى أيسم

ثم يتوجه الشاعر إلى من كانوا السبب في تنحية مالك وزوال نعم الحياة عن الجزيرة فيعنفهم ، ويحتج لإجرات مالِك فيهم بأن الغاية منها كانت صلاحتهم ، وأنهم كانوا الخاسرين في كلتا الحالين : -

مُلاً بني عمرو بن غنم <sup>(١)</sup> إنكم	هدفُ الأسنّة والقنا يتحطّم
كانت لكم أخلاقه معسولة	فتركتموها وهي ملح علقم
فقسا لتزدجروا ومن يك حازماً	فليس أحياناً وحيناً يرحم

٤ - وفي إبان ولاية محمد بن يوسف الثغري<sup>(٢)</sup> على الجزيرة يعاود بعض بني تغلب الخروج على الحكم العباسي . ويتبدى من بعض مصادر التاريخ ومن شعر البحري في هذه الأحداث أن الخارجين كانوا هذه المرة سُـرارة .

ويجب التنبيه ابتداءً إلى أن اختلافاً بيناً يظهر في كلام بعض المؤرخين حول حركة الخوارج من حيث حجمها ، ومن كان زعيمها ، والقائد الذي تولى إخمادها ، واسم الخليفة الذي تمت في عهده . فحجمها لدى العقّلي لا يتجاوز أربعة عشر رجلاً ، ولدى المكثر أنهم عدد كبير لكن لم يحدد .

(١) عمرو بن غنم أبو حي متفرع من قبيلة تغلب . انظر جمهرة ابن حنبل : ٣٠٣ - ٣٠٤ .

(٢) طائي من أهل مرو ، كان أحد أبطال الثغور الإسلامية في عهود الخلفاء المعتصم والواثق والمتوكل ، ولذلك عرف بالثغري . ولا يتمام والبحري فيه أشعار كثيرة صوراً فيها بطولاته في مقارعة الخرمية والروم . انظر : فازيليف : العرب والروم : ٢٤٧ ، نجيب البهيتي : أبو تمام الطائي ، حياته وحياة شعـره : ١٠٥ - ١٠٧ .

وزعيمها محمد بن عمرو أو ابن عبد الله ، وهو تغلبي أو خثعمي (١) ، وقد أسر مرتين ( سنة ٢٢١هـ / ٨٤٥م ، ٨٦٢م ) وقتل سنة ٢٥٢هـ / ٨٦٦م مع نفر من أصحابه . والقائد الذي تولى القضاء على الثورة هو غانم بن محمد الطوسي أو محمد بن يوسف الثفري . وقد حدثت تلك الأحداث في عهد الواثق ثم المتوكل عند الطبري وابن الأثير (٢) ، أو حدثت في عهد المتوكل فقط عند أبيه أبي الحديـد (٣) .

لكن الاحتكام إلى قصيدتين للبحثري (رقم ٦١ ، ٥٧١) ومطلع الأولى :

هَبِيهِ لِنُهْلِ الدُّمُوعِ السَّوَاكِبِ      وَهَبَاتِ شَوْقِي فِي حَشَاهُ لَوَاعِيِبِ  
ومطلع الثانية :

أَفَاقُ صَبٍّ مِنْ هَوَىِّ فَأَفِيْقَا      أَمْ خَانَ عَهْدًا أَمْ أَطَاعَ شَفِيْقَا

يضع بين يدي الدارس نتائج كثيرة أهمها : -

- أ - أن القصيدتين في مدح الثفري ، وأن الشاعر هو محمد بن عمرو الشساري .
- ب - تعرض القصيدتان أحدهما جسماً ما شملت بقاعاً واسعة من أرض الجزيرة ، وهذا لا يمكن أن يقسم به عدد قليل جداً من الثائريين .
- ج - كان القائمون بالثورة شراً ، ولهذا بايعوا محمد بن عمرو بالخلافة .

ومن خلال السخرية التي يصور بها البحثري بيعة الخليفة الخارجي نتيين مدى سيطرة

هذا الشاعر على الجزيرة : -

جاءوا براعيهم ليَتَّخِذُوا بِهِ      عَمْدًا إِلَى تَطْعِ الطَّرِيقِ طَرِيقَا  
طَرَحُوا عِبَائَهُ وَأَلْقَوْا فَوْقَهُ      ثُوبَ الْخِلَافَةِ مُشْرَكًا رَاوِقَا (٤)

- (١) انظر في خثعم ونسبه وبنياه : جمهرة ابن حزم : ٢٨٧ ، ٢٩٠ .
- (٢) انظر في تفصيل ذلك : الطبري ٩ : ٢٤٨ ، ٢٥٥ ، ٣٧٢ ، ابن الأثير ٥ : ٢٧٤ ، ٣٣٥ .
- (٣) انظر شرح نهج البلاغة ٥ : ٧٤ .
- (٤) الراووق : وأنا تصفى فيه الخمر والمقصود به هنا الشراب نفسه .

عَقَدُوا عِمَامَتَهُ بِرَأْسِ قَنَايَتِهِ      وَرَأَوْهُ بَرًّا فَاسْتَحَالَ عُقُوقًا  
وَأَقَامَ يُنْفِذُ فِي الْجَزِيرَةِ حُكْمَهُ      وَيظنُّ وَعْدَ الكاذِبِ بَيْنَ صَدُوقًا

ويقول البحري في القصيدة نفسها: ما أشد تغير الأيام لقد طمح إلى الخلافة راع ذو عباءة، طرح عباءته ولبس ثوب الخلافة "الأرجواني"، ولما لم يجد أنصاره راية ترمز لسلطته، أخذوا عمامته وعقدوها برأس رمحه، فعملوا كل ذلك بعد أن كان المسلمون يرون في بني أمية أنهم مستأثرون بالخلافة، وبعد أن كان محبوب علي يرون أن أبا بكر وعمر قد استأثرا بنصيب علي، وبعد أن كان فريق يلومون طلحة والزبير - على الرغم من انتائهما لقرش - حين طلبا الخلافة. فما الذي يسوغ ذلك لجشتم ابن بكير؟ (١)

لكن الشغري - ذلك الحية الذكور - لم يدعمهم ينعمون بخلافتهم طويلاً :-

حتى إذا ما الحية الذكر أنكفأ      مِنْ "أَرْزَنِ" حِنَقًا يُمِجُ حَرِيقًا (٢)  
غضبان يلقى الشمس منه بهامية      تُعْشِي العيونُ تَالِقًا وَبَرِيقًا  
أوفى عليه فظن من دهن به      البِرُّ بِحُرًّا ، وَالْفَضَاءُ مَضِيقًا  
غدرت أمانيه به ، وتمزقت      عنه غِيَابَةُ سُكْرِهِ تَمْزِيقًا  
طلعت جياذك من ربا الجودي قد      حُمِّلَنَ مِنْ دَفْعِ العُنُونِ وَسُوقًا (٣)  
يظلمن نار الله عند عصا بية      خَلَعُوا الإِمَامَ وَخَالَفُوا التَّوْفِيقًا

فهذا التصوير لاندفاع الشغري المشحون بالحنق والغضب يمج ناراً، ويقذف به منوناً على الخواج، مؤثر واضح على جسامه أحداث حركة الخواج، إن لا يعقل أن تسيّر كل هذه القوة إلى ثلاثة عشر رجلاً، لأنه لن يكون عندئذ معنى للإشادة ببطولة الشغري، ولا يكون معنى كذلك لتصوير زعيم الخواج بأنه محبوب بالرعب، وبأن الخوف قد تلبسه حتى غدا البرضيقاً لا انفساح فيه للنجاة ولا مهرباً.

(١) الأبيات من ١٨ - ٢٣ من القصيدة نفسها .

(٢) أرزن مدينة في أرمينية .

(٣) السوق : جمع الوسق وهو ستون صاعاً وقيل حمل بعير . والجودي : جبل مطل على جزيرة ابن عمر في شرق دجلة من أعمال الموصل ، وقيل : هو الذي استوت عليه سفينة نوح عليه السلام .



وقد ورد في هذه القصيدة سخرة البحري من قبيلة تغلب لأنها لا تنفأ تطمح إلى الخلافة دون حـق :-

ولقد نظرنا في الكتاب فلم نجد  
خلوا الخلافة إن دون منالها  
لمقالكم في آية تحقيقها  
قدراً بأخذ الظالمين خليتها

وذلك يدل على أن تغلب حاولت غير مرة نقض خلافة العباسيين . وقد نصب الشاعر نفسه في موقف الحريص عليهم فهو يخشى عليهم الهلكة إن ظلوا يسرعون في استجابتهم إلى دعوات المارقين . وذلك هو أيضاً ما أفصحته بعض أبيات القصيدة البائية التي يعده فيها البحري فضل الشغري على تغلب ومنه صفحه عنهم ، يقول :-

ألم تسكنوا في ظلّه فتصادفوا  
ألم تردوه - وهو جم - فلم تكن  
أسأل لكم عفواً رأيتم ذنوبكم  
وفي عفوه - لو تعلمون - عقوبة  
إجازة مطلوب ورغبة طالسب  
غروبكم في بحره بغرائب (١)  
غناً عليه وهي ملء المذانسب (٢)  
تعمق في الأعراس إن لم يعاقب

وفي هذه البائية أيضاً ما يشير إلى أن الشغري صفح عن ابن عمرو الشاري . ومن غير شك أن المصفح تم على تراخ من الزمان ، يقول في ذلك :-

مننت عليه إذ تقلبت الطبسب  
وتعمت عنه السيف فارتد نصله  
عليه ، وزيد من قتيل وعسارب (٣)  
كليل الشدا عنه ، حرون المسارب (٤)

وعلى ذلك يمكن الاستنتاج من سياق الأحداث التي تعرضها القصيدتان أن القصيدة القافية نظمت أولاً ، ثم تلتها بعد زمن القصيدة البائية ، وإذا ضمنا هذه النتيجة إلى روايات الطبري

- (١) الغروب : الدلاء العظيمة جمع غروب .
- (٢) المذانسب : جمع المذنب وهو مسيل الماء إلى الأرض .
- (٣) زيد المذكور هو زيد بن عمرو بن تغلب . جمهرة ابن حزم : ٤٠٤ . يريد الشاعر أن يقول : إنك وهبت لهذا الخارج الظلم الحياة ، وكانت حياته تحت طائلة السيوف في حين تفرق قوم زيد وناصره بين قتيل وعسارب .
- (٤) تعتم : حرك بعنق . والشدا : الأذى .

والصولي والمريزاني وابن أبي الحديد<sup>(١)</sup> عن أجوا القصيدتين وأخبار شراة تغلب، ترجح أن تكون  
الثافية قد نظمت في زمن الومائق، والبائية في زمن المتوكل، وأن إغفال الشاعر لذكر الخليقتين فسي  
القصيدتين مرده إلى عدم ارتباط أسبابه بأسبابهما حتى هذا التاريخ، وهو سنة ٢٣١هـ، وقد ورد في  
"أخبار البحري" ما يدل على أنه لم يتصل بالمتوكل إلا في سنة ٢٣٣هـ<sup>(٢)</sup> / ٨٤٧م، كما أن محمد  
ابن عمرو الشاري لم يقتل في هذه الأحداث، وإنما قتل حسب رواية الطبري وابن الأثير  
سنة ٢٥٢هـ / ٨٦٦م .

٥- وتعرض قصائد أخرى للبحري نظمها في مدح المتوكل صوراً أخرى للفتن التي استشررت  
في الجزيرة، وفي اثنتين منها ذكر الشاعر أمر ربيعة مستشفعاً في إحداها (القصيدة رقم ٨٤٣) للربيعين .  
ويستفاد من هذه القصيدة أن ربيعة ببطنها : بني النمر بن قاسط، وبني تغلب، وبني بكر قد خرجت  
على العباسيين، فسير المتوكل إليهم جيشاً ضخماً مدرناً أحسن تدريب، فاضطر هو، لا، الخارجيون  
إلى طلب الأمان . يقول البحري في الربيعين وبخاصة بنو شيان منهم الذين كانوا هذه المرة هم  
محور المشكلة : -

لما رأوا رجعَ الكئاب ساطِعاً	قالوا: الأمان، ولاتَ حينَ أمانٍ
أيدتَ بالنصر الوشيكَ وأتبعوا	في ساعةِ البيجا، بالخـُـدْ لـانِ
راموا النجاة، وكيفَ تَنجُو عَصَبَةٌ	مُطْلُوبَةٌ بِاللَّهِ وَالسُّلْطـانِ
فأنكك جوامعهم بمنك إنهما	سُـرِـتْ على أيدي ندى وطِعـانِ <sup>(٣)</sup>
لك في بني غنم بن تغلب نعمة	فهلُم أخرى في بني شِيـان

ولا تقدم القصيدة شيئاً آخر عن طبيعة هذه الحركة وأهدافها، غير أن الذي يبدو أن الربيعين كانوا  
مصدر رعب لمن حولهم من القبائل، وأن الخليفة كان مضطراً إلى أن يسير إليهم جيشاً مرعباً، وقد  
تمكّن من إيقاع هزيمة شنيعة بهم، ووقعت أعداد كبيرة من رجالهم أسرى في أيدي العباسيين<sup>(٤)</sup>،

- (١) انظر: الطبري ٩: ٣٧٢، أخبار أبي تمام: ١٥٠، أخبار البحري: ٦٣، المريزاني: الموشح،  
تحقيق علي محمد الجاوي، دار نهضة مصر ١٩٦٥، ٣٤١، نهج البلاغة ٥: ٧٤ .
- (٢) انظر: الصولي: أخبار البحري ٨٣ - ٨٤ .
- (٣) الجوامع: الأغلال سميت كذلك لأنها تجمع الأيدي إلى الأعناق . سرت: أوثقت . وبني  
شيان فهم من بكر وهم ربيعون . انظر جمهرة ابن حزم: ٣٠٣ .
- (٤) انظر الأبيات من ٨ - ٢١ من هذه القصيدة .

فانبرى الشاعر يلتمس من الخليفة بأن يفك سراح أسراهم أسوة بفكاه لسراح أسرى بني غنم بن تغلب وعفوه عنه .

وقصيدة الشاعر الثانية ( القصيدة رقم ٥١٦ ) في مدح المتوكل قد احتوت أبياتاً يستفاد منها أن الربيعين اقتتلوا قتالاً فيما بينهم طلباً للتأثر ، ولم يكونوا شراة نائرين على الدولة ، وأن الخليفة سوى مشكلتهم ، وألف بين قلوبهم ، وفي ذلك يقول البحترى معبراً عن أساء لاحتراب أخواله :

أَسَيْتَ لِأَخْوَالِي رَيْبَةً إِذْ عَفَّيْتُ      مَصَانِعُهَا مِنْهَا ، وَأَقْوَتْ رُبُوعُهَا  
بُكْرَهَيْيَ أَنْ بَاتَ خِلاَءَ دِيَارِهَا      وَوَحْشًا مَغَانِيهَا ، وَشَتَّى جَمِيعُهَا

ويصف البحترى هذا الاحتراب على الرغم من لحمة القرى بين المعتقلين ، وهو لا يخفي اعترازه بتلك الروح الكليية الممزوجة وإن قطعت الصلات :-

إِذَا انْتَرَقُوا عَنْ وَتَعَةٍ جَمَعَتْهُمْ      لِأُخْرَى دِمَاءٌ مَا يُطَّلُ نَجِيعُهَا  
تَدُمُّ الْفَتَاةُ الرُّودَ شَيْمَةً بَعْلِيهَا      إِذَا بَاتَ دُونَ النَّارِ وَهُوَ ضَجِيعُهَا  
حَمِيَّةٌ شَغَبَ جَاهِلِيَّيَ وَعَرِيَّةٌ      كَلَيْبِيَّةٌ أَعْيَا الرَّجَالَ خُضُوعُهَا  
شَوَاجِرُ أَرْمَاحٍ تُقَطِّعُ بَيْنَهُمْ      شَوَاجِرَ أَرْحَامٍ مَلُومٍ قَطُوعُهَا (١)

ثم يقول مثنياً على جهود المتوكل في التأليف بين قلوبهم ، وإحلاله للأمن والطمأنينة بعد الفزع الذي كان :-

تَأَلَّفَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا شَرَّدَتْ بِهِمْ      حَفَائِظُ أَخْلَاقٍ بَطِيٍّ رُجُوعُهَا  
فَأَبْصَرَ غَاوِيَهَا الْمَحْجَةَ فَاهْتَدَى      وَأَقْصَرَ غَالِيَهَا ، وَبَانَ شِسُوعُهَا (٢)  
فَقَدَّرُكَ سُرَّ الرِّمَاحِ وَأَغْمِيَّ سُدَّتْ      رِقَاقُ الظُّبَا مَجْفُوعَهَا وَصَنِيعُهَا  
رَبَطَتْ بَصْلِحِ الْقَوْمِ نَافِرَ جَاشِيهَا      فَقَرَّتْ حَشَاهَا ، وَاطْمَأْنَنْتْ ضُلُوعُهَا (٣)

- 
- (١) الشواجير : المشابكة .  
(٢) المحجة : معظم الطريق ووسطه . الشسوع : البعید .  
(٣) الجاش : القلب والصدر . بمعنى أذهب عن قلوبهم الفزع .

ويلاحظ أن الشاعر قد حشد في هذه القصيدة ضرورياً من التعبير المتشاكل المعنى مما كان منه في وصف التأمز والتناحر ، أو ما كان في وصف الانفراج ، وحلول الوثام . وإن هذا الحشد لم يكن ليرد في قصيدة مشحونة بالتوتر إلا لأن القائل كان متوتراً بهم القبيلة فضلاً عن هم الإبداع وولادة الشعر . ومثلما تشاكلت عبارات الشاعر في وصف الاحتراب في الصف القبلي الواحد ، تشاكلت عباراته في وصف الانفراج ، والتهمل بزوال مظاهر المخاوف والرهبة .

٦- ويبدو من قصيدة أخرى<sup>(١)</sup> نظمها الشاعر في فترة تالية في مدح الهيثم بن عبد الله الذي تقلد أعمال الموصل في سنة ٢٦١هـ / ٨٧٤م أن الربيعين عادوا إلى الاقتتال ، يقول في تعبيره دال على تحكم الفتن والحروب فيهم : -

أما لربيعةِ الفرسِ أنتِهـِـاءُ  
لكنَّ قبيلةً حرباً تداعى  
عن الزلزالِ فيما والحروبِ<sup>(٢)</sup>  
إلى خيلٍ معاودةِ الركوبِ

ومع ما في هذين البيتين من إشارة واضحة إلى استئناف القتال بين تلك القبائل الربعية ، فإن نسي قول الشاعر التالي تصريحاً بأن هذا القتال الجديد جاء في أعقاب مصالحة غير مجدية لم تحسم فيها أسباب النزاع : -

وكانوا رقعوا أياماً سيئاً  
إذا ما الجرحُ رمَّ على فسأدِ  
على تلك القوادح والنسودِ<sup>(٣)</sup>  
تبين فيه إفساد الطيب

ويألم الشاعر أشد الألم إذ يرى الإخوة يقتل بعضهم بعضاً ، ويدعوهم إلى التعتل حقناً للدماء ، وخشية من الفناء : -

فهل لأبني عديٍّ من رشيـد  
أخافُ عليهما إمرارَ مرعى  
يردُّ شريدَ جلمهما العزيبِ<sup>(٤)</sup>  
من الكلاء الذي علقاه مويبي

- (١) هي القصيدة ٣٣ من ديوانه ، وذكر الطبري أن الهيثم كان من أهل الجزيرة ، انظر : الطبري : ١٢ : ١٥٠ .
- (٢) ربيعة الفرس قبيلة تنسب إلى ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، وقد سمي كذلك لأنه كان وهب الخيل من مال أبيه ، وأخوه هو مضر . انظر جمهرة الأنساب : ٤٦٩ .
- (٣) القوادح : جمع قادح وهو السوس الذي ينخر في الخشب والأسنان .
- (٤) العزيب : البعيد .

وقد بلغ من معاناة الشاعر بهذا الهم القبلي أن تصر مدحه لمدوحه هذا على بيان فضله في ايقاف  
نزيف الدم الجاري من جسم القبيلة الأم ، بل جعل فضل هذا المدوح رهيناً بنجاحه في مسعاه  
في تسوية هذا النزاع .

٧- وتعرض قصيدة أخرى للبحثري ( الرقم ٥٦٥ ) صورة عن أحداث جسام شهدتها منطقة  
الجزيرة في إبان ولاية محمد بن صفوان العقيلي<sup>(١)</sup> عليها ، يقول في مدح هذا الوالي : -

لولا ابنُ صفوانٍ وأنعمُــــه      ما لَانَ ما لَانَ من أيامنا وصَفَا  
سائلٌ سُلَيْمًا بهِ إذْ ماقَ جاهِلُهُــــا      حِينًا فادْرَكَهُ مَكْرُهُ ما اقْتَرَفَــــا<sup>(٢)</sup>  
مِنْ حِينِهِمْ أَنْ غَلَّوْا بِنُغْيَا فنادَرَهُم      فَرَطُ العُلَسُوِّ لاطْرَافِ القِنا عَدَفَا

ويلاحظ أن الشاعر نعت أولئك الخارجين بنعوت تدل كلبنا على أن طبيعة الفتن كانت ضرباً من  
التعرد القبلي على السلطنة : -

أَتَوْكَ يُزْجِيهِمْ لِلْحَيْنِ جاهِلُهُــــم      مُسْتَعْدِمًا بِهِمُ للْبُغْيِ مُزْدَلِفَــــا<sup>(٣)</sup>

وكان العقيلي محمولاً حمللاً على القضاء على أسباب الاضطراب ليشيع الأمن والاستقرار في ولايته  
وقد راعت الشاعر صورة أدوات القتال من رماح وسيوف وهي تفعل فعلها في رؤوس الخصوم وجسومهم  
تقطيعاً وإدماً ، يقول : -

فِي كَـ يَوْمِ صُدُورِ السُّمْرِ مُشْرَعَةً      تُمَرِّي نَجِيعًا على أعْجَازِهم نُطْفَــــا<sup>(٤)</sup>  
أَمْطَرَتْ أَرْوُسَهُمْ ضَرْبًا تَرَكَّتْ بِهِ      مَأْثُورَةَ السُّمْرِ مُنَادَاً وَمُنْقَصَــــا<sup>(٥)</sup>  
يَسْتَنْزِلُ القَوْسَ المَحْبُوكَ مُنْبَتِرًا      مِنْ وَقْعِهِ وَيَخُوضُ النُّثْرَةَ الزَّعْفَــــا<sup>(٦)</sup>

- (١) كان صفوان العقيلي قد وثب بديار مصر في أيام المستعنيين ودعا للمعتز ، ثم وجه إليه المعتز  
من قتله بعد أن وثب فيما بعد بالرافقة على أميرها . انظر تفصيل ذلك في : اليعقوبي ٢ : ٥٠١ .
- (٢) ماق : حلق في غبارة . سُلَيْمٍ : قبيلة تنسب إلى سليم بن فهم بن غنم بن دوس ، انظر جمهرة ابن  
حزم : ٢٨١-٢٨٢ ، وانظر أيضا فيه : ٢٦١-٢٦٤ ، ٤٠٨ .
- (٣) مزدلف : متقدم .
- (٤) تمرى : تستدر .
- (٥) مُنَادَاً : معوج منحسن .
- (٦) القوس من السلاح : مقدمته . النثرة : الدرع السلسلة الملبس . الزعف : الدرع الواسعة  
المحكمتة الصنع .

كأن وقع سيف الهنود ساجحةً في هامهم حننار تحتمها سعفاً  
كم مقعص منهم تدمى ترائبه ولا حج في وثاق الأشر قد رسفاً (١)

وهكذا يتضح أن ثورات الجزيريين اتخذت طابعين :-

- الأول : طابع الثورة المذهبية في أوساط الشراة من بني تفلح .  
الثاني : طابع الفتن والاحتراب القبلي الذي تطول شروره وآثاره الأمن العام في المنطقة كلها .

وأياً ما كانت الحال ، فإن منطقة الجزيرة بقباثلها المتعددة ظلت منطقة ثورات متتالية ، فلا تكاد تخبو ثورة أو فتنة حتى تتبعها أخرى . وكانت تلك المشكلات باعثاً قوياً حفز شاعراً كبيراً هو البحترى إلى أن ينظم فيها شعراً كثيراً ، وشعراً متقدماً في بنيته الفنية ، وإلى أن ينظم أبو تمام في مالك بن طوق وصراعه مع قومه أربع قصائد . غير أن الشاعرين جميعاً لم يكونا يورخان ، بل كانا يصوران تصويراً فيه مقدار صادق من التاريخ ، وفيه كذلك مقدار كبير من الفن ، وفيه أخيراً مقدار من مصانعة المدوحين .

ولو أننا أجرينا مقابلة بين الأشعار في الفتن والثورات التي حدثت في الشام ، والأشعار التي نظمت في ثورات الجزيريين وفتنهم لتبين لنا بون كبير بينهما في المستوى الفني ، وفي ما يلسي مجمل لأبرز تلك الفروع :-

أ - جل ما نظم في أحداث الفتن والثورات الشامية مقطوعات ، وكل ما نظم في أحداث الجزيرة قصائد .

ب - غلبة الصبغة التقريرية والنبذة الخطابية على أشعار الفتن الشامية ، وغلبة النزعة التصويرية على قصائد الثورات الجزيرية . ولعل مرد ذلك إلى احتياج شعراء الفتن والثورات الشامية إلى تحميس الأنصار ، وتهديد الخصوم . والوصول إلى هاتين الغايتين يستدعي أيسر سبل الخطاب ، أما شعراء فتن الجزيرة فقد كانوا ينظرون إلى تلك الأحداث من زاوية رؤيوية المدوحين ، ويتوخون إرضاءهم فحرصوا على تجويد شعرهم ، وهذا فضلاً عن الافتراق في

(١) المقعص: الذي قتل مكانه . اللاحج : الذي لن مكانه .

القدرات الفنية لدى الفريقين « فالأخرون احترقوا صناعة الشعر، والأولون نفتوا انفجاراتهم النفسية نَفْثًا من غير عناء كبير .

من المؤلف أن نسمع في شعر الخوارج نعمة دينية إسلامية في طلب مرضاة الله « والرغبة في الاستشهاد » ولكن هذه النعمة محجوبة عن أسماعنا « لأنه لم يصلنا شعر لأولئك الخوارج بل غطت سخرية الباحثي - من الجانب المناوي - على الشعارات المثالية التي كان يرفعها الشراة « ويختلف موقف الباحثي اختلافًا واضحًا بين مقت للخوارج « وتعاطف مع القبائل المتنازعة « وفي التمازج بين الموقفين يبدو طغيان اللحمة القبلية على كل ما عداها سوى الحرص على « الحماة » المتكلمين بالموارد الاقتصادية للشاعر .

### ٣ - الصراع بين العباسيين وال طولونيين :-

اتخذ الشعر الشامي في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ميداناً قد يعد جديداً بفعل التطورات السياسية التي شهدتها بلاد الشام في هذه الفترة . فقد غدت الشام موطناً للصراع بين العباسيين وال طولونيين ، وتوزعت تبعاً لذلك أعراق الشعراء وميولهم السياسية في ثلاثة اتجاهات هي :-

**الأول :** الشعر الذي أيد أصحابه الخليفة المعتمد والحركة الطولونية بوصف أحمد بن طولون نصيراً للخليفة الشرعي ، ووصف أخيه الموفق ظالماً يسلب أخاه حقه الشرعي في الخلافة ، وقد مثل هذا الاتجاه عدد من الشعراء منهم قعدان بن عمرو<sup>(١)</sup> ، وصالح بن محمد بن إسماعيل بن علي الهاشمي الحلبي<sup>(٢)</sup> ، ومُصَيِّف بن خليفة الهذلي<sup>(٣)</sup> ، والبالسي الضرير<sup>(٤)</sup> ، وإسحاق بن سنان طريف المخزومي<sup>(٥)</sup> ، وعبد الرحمن بن سلامة الشيباني<sup>(٦)</sup> ، ومحمد بن بشر العنسي<sup>(٧)</sup> ، وهؤلاء كلهم شعراء شاميون ، وشاركهم في موقفهم هذا من هذه القضية بعض شعراء مصر منهم القاسم بن يحيى المزيّني<sup>(٨)</sup> .

**الثاني :** الشعر المعادي لابن طولون وال طولونية ، ويمثله الشاعران محمد بن داود<sup>(٩)</sup> وأحمد ابن محمد الواسطي كاتب أحمد بن طولون<sup>(١٠)</sup> . وهذان غير شاميين ، ولهذا فهما يقعان في خارج هذه الدراسة .

- (١) في البلوي : ٢٥٤ : قعدان بن عمرو ، وفي مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٤ : ٢٢٧ : قعدان بن عمرو وهو شاعر كان بدمشق حين قدمها أحمد بن طولون لخلع الموفق في سنة ٢٦٩ هـ .
- (٢) ورد ذكره في زبدة الحلبي ١ : ٧٧ .
- (٣) كان منصف بصحبة أحمد بن طولون في دمشق . انظر : مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٧ : ٢١٠ هـ . وقال البلوي في سيرة ابن طولون : له شعر طويل . ولم يورد له غير قطعة . انظر : البلوي : ٣٠٠ .
- (٤) كذا في بغية الطلب ٨ : ورقة : ٢٦١ هـ ، وفي البلوي : ٣٠١ هـ ، النابلسي الضرير .
- (٥) ذكره البلوي وقال : له شعر طويل . انظر : ٣٠٠ .
- (٦) ذكره البلوي : ٣٠٠ . وأورد له قطعة شعريّة .
- (٧) ذكره البلوي : ٣٠١ . وأورد له قطعة شعريّة .
- (٨) ورد ذكره في الكندي : ولاية مصر : ٢٦٠ - ٢٦١ هـ ، وانظر المغرب / قسم مصر : ٢٧١ .
- (٩) ذكره الكندي في ولاية مصر : ٢٤٥ ، ٢٥٥ .
- (١٠) كتب الواسطي لأحمد بن طولون ، فلما استولى خمارويه على الإمرة وقعت بينهما وحشة ، فنكّب الواسطي إلى أحمد بن الموفق اشعاراً يحرضه على قتال خمارويه . انظر : مصورة تاريخ مدينة دمشق ٢ : ٢٣١ هـ ، البلوي : ٢٣٥ ، ٢٣٩ ، ٣٩١ ، ٤٢٥ ، ٤٤٤ هـ .



الثالث : الاتجاه المتأرجح الذي بدأ بمناصرة بعض ولاة الموفق على الشام ، وبمعاداة أحمد ابن طولون ، ثم انقلب صاحبه معادياً لأولئك الولاة ، مناصراً لأحمد بن طولون ، ويمثل هذا الاتجاه البحثري في بعض شعوره .

ومن الواضح أن شعراء الاتجاه الأول مغمورون ، وأن ما وصلنا من أشعارهم قليل ، ولكن مرة أخرى نواجه كثرة نسبية في عدد شعراء الشام ، كما نواجه اجتماعهم على موضوع بعينه ، أو ظاهرة بعينها ، فكما كان شعراء الفتن يحتشدون معاً في وقت واحد ، فإن شعراء الصراع العباسي - الطولوني يقفون معاً يرددون مقولات مشتركة .

وسياق الأحداث يدل على أنه بعد أن بلغت القطيعة مداها بين أبي أحمد الموفق وأحمد بن طولون بملاعنة أحدهما للآخر على المنابر<sup>(١)</sup> ، وبعد أن أشاع ابن طولون في الناس أن الموفق خلع أخاه الخليفة نظم شعراء الشام الموالون لابن طولون قصائد أيدها بوصفه مدافعاً عن شرعية الخليفة ، وعن بيعة الأمة له ، مقررین أن الموفق ارتكب مخالفة دينية فلا يجوز السكوت عنها البتة ، ولذلك فهم يحثون الناس على ضرورة الانتصار للخليفة بالقوة ، فالموفق قد نكث العهد ، ولسم يبرح حرمة الأجداد ، ومن العار على الناس أن يخذلوا إمامهم ، وأن يتركوه تحت ضائقة واضطهاد<sup>(٢)</sup> . ومنهم فريق يشير نخوة الناس حين يصور الخليفة مستسلماً ذليلاً متوقفاً للقتل بيكي على أولاده وعياله<sup>(٣)</sup> .

فمحمد بن بشر العنسي يقون حائناً للناس من عدنانيين وقحطانيين على ضرورة معاضدة الخليفة ، معتبراً التقاعس عن مناصرته سبة وعساراً<sup>(٤)</sup> : -

يا بني الدّين من مرادٍ وقحطـ	إن	وأكفائهم من الاقـ	وام
ضارِبُوا عن خليفة اللسـ	بالبيـ	ض وقوموا به قيامـ	الكرام
حسبكم سبة عليكم وعساراً		دائماً عيئه مدى الأيـ	السام

(١) انظر تفصيل ذلك في البلوي ٢٩٨ - ٣٠٠ .

(٢) ذلك ما يقوله إسحاق بن طريف المخزومي ، انظر البلوي : ٣٠٠ .

(٣) انظر ما يقوله عبد الرحمن بن سلامة الشيباني ومحمد بن بشر العنسي في البلوي : ٣٠٠ - ٣٠١ .

(٤) البلوي : ٣٠٠ - ٣٠١ .

وعبد الرحمن بن سلامة الشيباني يندج نهجاً آخر في الدعوة إلى مناصرة الخليفة، لا بطريق التحريض المباشر كما هي الحال عند محمد بن بشر العنسي، وإنما بتصوير سوء الحال التي صار فيها الخليفة إذ يقول (١) :-

متدللُّ لهم أخواستسئلام	هذا الخليفةُ في فناء أعدائِهِ
وصباحِ يوم غدٍ من الأيَّامِ	متوقِّعٌ للقتلِ كليلٍ عشيَّتهِ
كبكاءِ ذاتِ التُّكلِ والأيَّامِ	بيكي على أولادِهِ وعيالِهِ

والملاحظ أن كلِّ هؤلاء الشعراء يضرب على وتر الدين والانتصار للخلافة الشرعية باعتباره عنصر التأثير الأقوى في الدفاع عن الخليفة، وكأن القضية تتعلق بمبدأ الخلافة وجوهرها، وأن حقها مقدس، وجماعاً لا يجوز بحال انتهاكه أو اختراقه .

وإذا كانت هذه الأشعار لم تبعِّج بوحاً مباشراً بمعاوضة أصحابها لأحمد بن طولون، فإن اجتماع هذا الفريق الكبير من الشعراء على مبدأ واحد، وترديدهم لشعارات واحدة، يدل على أن أحمد ابن طولون ربما كان هو نفسه الذي جمعهم وأغراهم بإثارة الشعب لتبني قضية الخليفة، وهي قضية ابن طولون نفسه . وعنا نلمح تغيراً حاسماً في نفسية الشاميين، فبعد التردد في اتجاهاه الخلافة العباسية والخليفة العباسي نجد حرصاً عليهما معاً، وهذا يعني أن القرن الثالث الهجري حمل معه تغيراً واضحاً بالنسبة لما كانت الحال عليه في القرن السابق .

غير أن فريقاً آخر من الشعراء الشاميين صرح باسم أحمد بن طولون ولم يلمِّح . فحين قدم أحمد بن طولون إلى دمشق في سنة ٢٦٩هـ / ٨٨٢م لخلع أبي أحمد الموفق قال قعدان بن عمرو الدمشقي يمدح أحمد بن طولون، ويدعو الناس إلى مناصرة الخليفة، ومناصرة ابن طولون فسي دفاعه عن حق المسلمين في مبايعتهم لـ (٢) :

يزهؤ به الدينُ عن دينِ وإسلام	طال الهدى بابنِ طولونِ الأميرِ كما
منه على الهولِ ماضٍ غيرِ محجَّام	قاد الجيوشَ من القُسطاطِ يقدِّمها

(١) البلوي : ٣٠٠ .

(٢) الكندي : ٢٥٤ ، مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٤ : ٤٢٧ .

في جَحْفَلٍ لِلْعَنَايَا فِي مَنَاقِبِهِ  
حَاطَ الْخِلَافَةَ وَالْدُنْيَا خَلِيفَتُنَا  
يَا أَيُّهَا النَّاسُ هُمُّبُوا نَاصِرِينَ لِنَسْه  
مَكَانَ بَيْنَ رَايَاتٍ وَأَعْوَالِمْ  
بَصَارِمٍ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ صَمَّصَامِ  
مَعَ الْأَمِيرِ يُدْهِمُ الْخَيْلَ فِي اللَّامِ (١)

ويربط قعدان قبول الصلاة والصيام من الناس برواية ابن طولون لهم وهم يذبون عن الإمام فيقول :-

لَيْسَتْ صَلَاةٌ مَصْلِيكُمْ بِجَائِزَةً  
حَتَّى يَرَى السَّيِّدُ الْمُيْمُونَ ذَبَّكُمْ  
وَلَا الصِّيَامُ بِمَقْبُولٍ لَصَمَّصَامِ  
عَنِ الْإِمَامِ بِأَطْرَافِ الْقَنَا الدَّامِي

ولم تقتصر دعوة قعدان لعرب الشام إلى الدفاع عن شرعية الخليفة حسب ، بل تجاوزت ذلك حين دعا المسلمين جميعاً إلى ذلك فقال من قميدة أخرى (٢) :-

مَنْ مَبْلَغُ مَضَرِ الشَّامِ وَمَا حَاوَتْ  
بِرَاقِي « وَكَيْفَ يَطِيبُ - لَا أَدْرِي - لَكُمْ  
مَضَرٌ وَمِنْ عَوْمَتِهِمْ أَوْ مِنْ جِيدِ  
خَفَضِ الْمَعِيشَةِ وَالْإِمَامِ مَقِيدِ

وعلى هذا النحو يجري مُصَنَّفُ بْنُ خَلِيفَةَ الْمَهْدَلِي فِيبَايِعُ أَحْمَدَ بْنَ طَوْلُونَ، مَدَافِعاً عَنِ الْخِلَافَةِ وَالْخِلَافَةَ فِي أَبِيَاتِ ذَاتِ حِظٍّ مُمَيِّزٍ مِنَ الْجَزَالِيسَةِ (٣) :-

يَا غُرَّةَ الدُّنْيَا الَّذِي أُنْعَالُكُمْ  
أَنْتَ الْأَمِيرُ عَلَى الشَّامِ وَشَرْعِيْنَا  
وَالْيَاكُ مَضْرُوبُ رِقَّةٍ وَحِجَازُكُمْ  
هَتَاكَ الْخِلَافَةَ صَاعِدُ وَخَلِيلُكُمْ  
أَسْيَافُنَا بِيضُ الْمُتَمُونَ فَلَيْتَهُمَا  
يُعْسِي وَيُصَيِّحُ ضَارِبًا مِنْ دُونِكُمْ  
عُزْرٌ بَيْنَا بَيْنَ الْوَرَى يَتَمَلَّقُكُمْ  
وَالرَّقَّتَيْنِ وَمَا حَوَاهُ الْمَشْرِقُ  
كُلُّ الْيَسْكَ فَوَادُهُ مُتَشَوِّقُ  
إِسْحَاقُ « بِفِيَا وَالْحَسُودُ الْأَخْرَقُ (٤)  
بَنْجِيْعٍ مَنْ خَذَلَ الْإِمَامَ تَخَلَّقُكُمْ  
بِمَهْنِدٍ فِيهِ الْحُتُوفُ تُفَرِّقُكُمْ

(١) اللام: اللامة ، أداة الحرب كلها من رمح وبيضة ومنفرود جمع لام ولؤوم .

(٢) مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٤ : ٤٢٧ .

(٣) مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٧ : ١٠٦ ، وبعض أبياتها في " النجوم الزاهرة " معزوة لمصري انظر ٣ : ٢٠٠ .

(٤) صاعد المذكور هو وزير الموفق ، والحسود عنى به الموفق ، وإسحاق هو إسحاق بن كُنداج

صاحب الجزيرة والموصل وهو الذي اعترض الخليفة المعتمد لما علم بخروجه إلى ابن طولون ملتجئاً ، فكافأ الموفق إسحاق بأن عينه على مصر بدل ابن طولون . انظر : ولاة مصر : ٢٥٢ ،

ابن كثير ١١ : ٤٣ .

وعلى غرار هذين الشاعرين جرى الباليسي الضمير في أبيات له يقول فيها (١) :-

يا سعي النبي لا نسي اللـــــ	ك الذب عن حريم النبي
دولة الدين والخلافة عــــزت	بك لا بالطريد عنها النفـــــي (٢)
أ يزال اسمه على الرغم من كــــل	ل مقام امري كرم سنـــــي
دام ما لا ينالـــــه فلقد خــــا	ب وخــــاب اعــــدادــــه بالخــــصـــــي

ويحتاج موقف البحري المتردد بين هذين القطبين ، الموفق وابن طولون ، إلى توضيح ، فقد مدح البحري أولا الموفق وسيدا الطويل ، وهجا أحمد بن طولون ، ثم عاد فمجا سيدا الطويل ، ومدح ابن طولون وابنه خمارويه ، وقد لاحظ المرزباني ( المتوفى سنة ٣٨٤هـ / ٩٩٤م ) هذا التقلب عند البحري فقال في "الموشح" (٣) : كان "البحري قد هجا نحوًا من أربعين رئيساً ممن مدحه" منهم خليفتان وهما المنتصر والمستعين (٤) ، وساق بعدهما الوزراء ورؤساء القواد ومن جرى مجراهم من جلة الكتاب والعمال ٠٠٠٠ بعد أن مدحهم ، وأخذ جوائزهم ، وحاله في ذلك تنبؤ عن سوء العمد ، وخبت الطريقة ٠٠٠٠٠٠ .

فبئس ينسحب حكم المرزباني هذا على مدائح البحري وأهاجيه لابن طولون وسيدا الطويل ؟

لقد هجا البحري أحمد بن طولون في القصيدة ذات الرقم ٥٩٣ لأنه استولى على أمواله في الشام ، وفيها يقول :-

وما زلت أخشى مذ تبتدى ابن يلبـــــخ	على سعة من أن تُدال بضيق (٥)
وما كان مالي غير حسوّة طائــــر	أضيف إلى بحر بصـــــر عميـــــق

- (١) البلوي : ٣٠١ ، بغية الطلب ٨ : ورقة ٢٦١ ، والباليسي نسبة إلى بلدة بالس الواقعة بين حلب والرقية ، انظر معجم البلدان / بالس .
- (٢) الطريد هو أبو أحمد الموفق لأن المهتدي كان نفاه ثم رده المعتمد ، والخصي هو يا زمان الخادم صاحب طرسوس .
- (٣) الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء ١ : ٥١٤ .
- (٤) المنتصر بن المتوكل الخليفة العباسي ( ٢٤٧ - ٢٤٨هـ / ٨٦١ - ٨٦٢م ) والمستعين هو أحمد بن محمد بن الخليفة المعتمد ( ٢٤٨ - ٢٥٢هـ / ٨٦٢ - ٨٦٦م ) .
- (٥) يلبخ قيل فيه إن أحمد بن طولون هو ابنه غير الشرعي ، وكان يلبخ تركيا يعيش في قصور العباسيين ، انظر في تفصيل ذلك : سيدة إسماعيل كاشف : أحمد بن طولون ، سلسلة أعلام العرب ، الدار المصرية العامة للتأليف والترجمة ١٧ - ١٨ .

لكن فأت وفري في اللثام فلم أطبق  
فلسك ألوم النفس في فوت بعمية  
إذا ما طلبنا خطة النصف ردها  
تلافيه مسترجعاً بلحسون  
إذا لم يكن عصري لها يخليق  
علينا ابن خبث ناحت وفوق

وكرر البحري هجاءه لابن طولون للسبب نفسه في قصيدة أخرى جاء فيها (١) :-

أرقت جنایات المضلل ثروتی  
وتد زعموا مضمعان من الرنسی  
فلا تشب بعد العبيسر ولا وفر (٢)  
كفیف أسفت بي إلى عدم حصر (٣)

ومدح سيما الطويل في القصيدة ذات الرقم ٦٥٩ ، وفيها مدح الموفق لحسن اختياره لسيما والياً على حلب والعواصم (وكان ذلك في سنة ٥٢٦٤هـ / ٨٧٧م) ، وعاد يهجو فيها أحمد بن طولون بسبب مخالفته للموفق فقصصه :-

لقد وفق الله الموفق للذي  
أضاف إلى سيما الطويل أمورنا  
فأهلاً وسهلاً بالإمام وقبادم  
فكم قد مددنا من رجاء إلى أبي  
فكم فتنه أخرجتنا من ظلالها  
وظاغية حاکمت بالسيف مصلتنا  
أنى سادراً بالبنی مستحقباً لله  
أناه ، وأعطى الشام ما كان يامله  
وسيما الرضا في كل أمر يحارلوه  
أتت بالسرور كئبه ورسائله  
علي فلقتنا النجاح مخايله (٤)  
وخطب تجلى عن حسانك هائله  
إلى أن وعى من دون حقك باطله  
وحاول نصر الله ، والله خازله (٥)

ثم يبدأ التحول في موقف البحري من سيما الطويل في القصيدة ذات الرقم ٢١٧ . وقد قالها في رثاء القاضي أبي علي الحسين بن عبد الرحمن قاضي أنطاكية الذي قتله سيما الطويل (وتاريخها هو ٥٢٦٥هـ / ٨٧٨م) لأن فيها إشارة واضحة إلى مقتل سيما في هذه السنة (٦) ، وفيها يقول :-

- (١) القصيدة : ٥٢٤٦ .
- (٢) أرقت : قلت . النسب : العبقار والمال . الوفرة : الغنى . والعبيد - على ما يقول محقق الديوان - اسم أطلقه البحري على أرضه وبيته في الشام .
- (٣) المعان : المباءة والمنزل .
- (٤) أبو علي هي كنية سيما الطويل ، والمخايل جمع المخيلة ، وهي الدلائل والمظان .
- (٥) السادر : الذي لا يبالي بما يصنع ، والمستحقب : المدخـر .
- (٦) انظر : الطبري ٩ : ٥٤٣ ، الكندي : ولاية مصر : ٢٤٦ ، وقد ذكر محقق ديوان البحري أن تاريخ هذه القصيدة هو سنة ٥٢٦٤هـ . انظر ديوان البحري ١ : ٥١٨ .

وما بَرِحَتْ صُرُوفُ الدَّهْرِ حَسْتِي      أَرْتَنَا الأَسَدُ قَتْلَى للْقُـرُودِ  
وليس دُمُ اللّٰعِينِ وَإِنْ شَفَانَا      كِهْيَا عِنْدَنَا لِدَمِ الشَّهِيدِ (١)  
سَمَا بِالْخَيْلِ أَرْسَالًا لِسَيْمَا      فَمِنْ شُؤْسٍ إِلَى الدَّاعِي وَتُـرُودِ (٢)  
فَمَا انْفَكَّتْ تَجُولُ عَلَيْهِ حَسْتِي      تَدَهْدَأُ رَأْسَ جِبَارِ عَنِيـدِ (٣)

ولعل هذا التحول إنما تمَّ لِمَا شهِرَ من ظلم سيماء، فالبحثري يجاري الناس في موقفهم من رجل ظالم، ثم إن سيماء الطويل كان قد قتل، فالتحول عنه لا يسبب أي أذى للبحثري .

ويبدأ التحول في موقف البحثري من أحمد بن طولون في القصيدة ذات الرقم ٢٩ ، فقد مدحه فيها ، وعرض بأمر طرسوس من قبل الموفق عليها ، وهو يومئذ يا زمان الخادم ، وأكبر الظن أنه نظمها في حدود سنة ٥٢٦٩هـ / ٨٨٢م بعد حصار ابن طولون ليازمان في طرسوس ، إذ تُجمع مصادر الدراسة التاريخية على أن ذلك الحصار كان في تلك السنة (٤) .

ويبدو أن سبب مدح البحثري لأحمد بن طولون وتعمريته بيازمان مع ما عرف عنه من عدل وجهاد في سبيل الله فأحبه الناس ، كان نابعاً من مضايقة ما كان البحثري قد تعرض لها في أثناء إقامته في ذلك الوقت ببغداد ، وهذا ما عبرت عنه الأبيات التالية من القصيدة : -

لَقَدْ قَطَعَ الوَاسِي بِتَلْفِيقِ مَا وَشَسِي      مِنْ القَوْلِ مَا لَا يَقْطَعُ الصَّارِمُ العُضْبُ  
فَأَصْبَحْتُ فِي بَغْدَادِ لَا الظِّلَّ وَاسِيعُ      وَلَا العَيْشُ غَشِيَّ فِي غَضَارَتِهِ رَطْبُ  
أَأْمَدُحُ عَمَّانَ الطَّسَاسِيحِ رَاغِبًا      إِلَيْهِمْ ، وَلِي بِالشَّامِ مُسْتَمْتِعٌ رَغْبُ (٥)

وأما مصدر هذا الضيق فلأن كبار رجال الدولة من العباسيين كانوا في شغل عنه بمحاربة صاحب الزنج بالبصرة ، وإذن فلماذا لا يوطع البحثري لرحيله عن العراق إلى الشام بإبداً حسن النوايا تجاه المتغلب عليها ، وبالطعن على خصومه فيها ؟

- (١) عن الشاعر باللعين سيماء الطويل وبالشهيد القاضي ابن الصابوني .
- (٢) الشوس جمع للأشوس وهو المتكبر والجري ، الشجاع .
- (٣) في هذا البيت إشارة إلى الطريقة التي قتل فيها سيماء الطويل إذ لما حاصر ابن طولون سيماء بأنطاكية ، وكان الناس له كارهين ، ألقته عليه امرأة حجراً حطم رأسه .
- (٤) انظر: الطبرسي ١ : ٦١٤ ، ولاة مصر : ٢٥٥ .
- (٥) الطساسيح جمع طسوج فارسية وأكثر ما تستعمل في سواد العراق . الرغب: المتسع .

ثم يقول البحترى بعُدُ ساخرًا من يا زمان الخادم ، ومدكّرًا بنغلبة أحمد بن طولون على سيما الطويل - :

ولو حَضَرْتَهُ أُشْيَاءُ اسْتَقَلَّتْ -  
وما شكَّ قومٌ أوتدوا نارَ فِتْنَةٍ  
إلى كُليتيه حينَ أزعجَه الرَّعبُ (١)  
وسرَّتَ إليهم أن نارَهُمُ تخبِئُو  
وما فعَلتَ فيه وفي جمعه الحَرْبُ  
كأن لم يروا سيما الطويلِ وجمعه

ويلفت النظر في هذه القصيدة شي آخر هو هجاء الشاعر لـ "لؤلؤ" غلام ابن طولون ، وكان لؤلؤ قد خالف ابن طولون في سنة ٢٦٨هـ / ٨٨١م ، وكانت في يده آنذاك حصن وقنشرين وحلب وديار مصر التي فوضه أمرها ابن طولون، وفي أثناء عودته من الشام إلى مصر بعد أن جاءته الأخبار بخروج ابنه العباس عليه فيها . وفي أثناء ذلك كاتب لؤلؤ الموفق معلناً أنه راغب في متابعتها ، فأعاط ذلك أحمد بن طولون (٢) ، واستغل البحترى هذه المناسبة ليعلي من شأن ابن طولون ، فشنع على خصمه الجديد لؤلؤ تمهيداً لعودته إلى الشام ، واعتدراً عن جرم سلف ، يقول - :

ولو لم يُحارجز لؤلؤ يفِراره  
تخطأ عرش الأرض ركب وجهه  
لكن لصدور الرمح في لؤلؤ تثب (٣)  
ليمتع منه البعد ما يبذل القُسر (٤)  
ويذعر منها وهي من فوقه غرب (٥)  
وكان الصديق غدوةً ذلك السهب (٦)  
يحب البلادَ وهي شرقٌ لشخصه  
إذا سار سهباً عادَ ظهرًا عدوه

- (١) يقول الشاعر : لولم يُخصَّ يا زمان لانتقلت خصيتاه إلى مكان كليتيه خوفاً ورعباً .  
(٢) انظر: البلوي ٢٤٤ - ٢٧٧ .  
(٣) معنى البيت : نجى الفرار لؤلؤاً من أن تثقب جسده رماح ابن طولون كما يتثقب اللؤلؤ .  
(٤) يريد الشاعر : كان لؤلؤ فزعاً طول الطريق خشية أن تدركه رماح ابن طولون ، إذ كلما أوغل في الأرض هارباً مبتعداً أدرك النجاة ، فكانت قدماه تخطوان في مواقع مرمى بصره .  
(٥) يريد الشاعر : يحب البلاد الشرقية لأنه كلما أوغل فيها ابتعد عن موطن الخطر ، ويخشى ما خلفه منها غرباً .  
(٦) قال ابن الأثير في المثل السائر بتحقيق أحمد الحوفي وبدوى طبانة ، ط ١ ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها : " المراد أن هذا المنهن يرى ما بين يديه محبوباً إليه ، وما خلفه مكروهاً عنده ، لأنه يطلب النجاة فيؤثر البعد ما خلفه والقرب مما أمامه ، فإذا قطع سهباً وخلفه وراءه صار عنده كالعدو ، وقبل أن يقطعه كان له صديقاً ، أي يطلب لقاءه ويحب الدنس منه .

وهكذا جمعت هذه التصيدة مواطن ثلاثة كان كل واحد منها كفيلاً بأن يرضي أحمد بن مسن طولون ، وهذه المواطن هي : الإعلاء من شأن ابن طولون ذي الشجاعة الفائقة ، ثم السخرية مسن خصوم ابن طولون الثلاثة في الشام وعم : يازمان البخادم ، وسيما الطويل ، ولؤلؤ ، وأخيراً الاعتذار بكياسة عن جرم سلف : -

وما كان لي ذنباً فأخشى جَزَاءَهُ      وَعَفْوُكَ مُرْجُوٌّ وَإِنْ كَانَ لِي ذَنْبٌ

ومما تجب ملاحظته أن البحري لم يشر بأدنى إشارة إلى الموفق ، وهو خصم ابن طولون الأكبر ، فالأيام تتحول فليحفظ البحري غيبة رجل قد تضطره الأيام إلى أن يلجأ إلى ظله ، ولذلك حرمه على أن تظل أسبابه بأسباب الموفق متيناً .

وللبحري ثلاث قصائد مدح أخرى في الطولونيين ، وهي في أبي الجيش خمارويه بن أحمد ابن طولون ، ومولاه طنج بن جف (١) . ومواطن التمذح فيها ثلاثة : انتصار خمارويه في موقعة ثنية العقاب على جيش ابن أبي الساج أمير الجيش العباسي ، وذلك في سنة ٢٧٥هـ / ٨٨٨ م ، وانتصاره في بعض المعارك على الروم ، وحسن اختياره لأحد عمال الخراج على الشام (٢) . ففي القصيدتين (١٩ ، ٢٦ ، ٨٢٦) تصوير لأهوال يوم الثنية إذ كان فيه البطش والطعن والضرب والقتل والأسرى والجثث المترامية فرادى وجماعات ، يخالط ذلك كله صخب كثر الخيل ، وضجيج اللقا ، بكثرة الفرسان . وفيها أيضاً إلى جانب هذه الصورة الكلية لقطعة للممدوح وقد جلس في سرادق وأمامه صفان من الرجال : صف من مضيري خوف ، وآخر من الراجين العفو والصفح .

والحق أن جلي الشعر الذي قيل في الصراع الطولوني العباسي شعر قليل الغناء لأنه قليل الحظ من الإبداع ، ولولا قصائد البحري في وصف جوانب من هذا الصراع ، ولولا أنا نوح لحركة الشعر في بلاد الشام ، لكان الوقوف على أشعار أولئك الشعراء الذين سردنا أسماءهم في مفتتح هذه الفصلة نافلة وتكرراً لِمَا لا طائل تحته ، ولا نفع فيه . غير أنه من الإنصاف أن يقال أيضاً إن نهاية الطولونية أثمرت شعراً حسناً قاله شعراء لم نتحقق من هويتهم لأن المصادر لم تسعفنا على ذلك وهم

(١) كان طنج بن جف قد ولي ديار مصر من قبل لؤلؤ غلام أحمد بن طولون ، وولاه خمارويه دمشق وطبرية وظل كذلك إلى أن قتل خمارويه ، ثم حبسه المكشفي فمات في حبسه سنة ٢٩٤هـ / ١٠٤٤ م . انظر: وفيات الأعيان ٥ : ٥٧ .

(٢) انظر هذه الأمور في قصائده : (١٩ ، ٢٢٢ ، ٨٢٦) .



أحمد بن محمد الحبيشي (١) ، وأحمد بن أبي يعقوب (٢) وسعيد القاص (٣) ، وإسماعيل ابن أبي هاشم (٤) . ويغلب على الظن أن أولهم شامي والآخريين مصريون . فقد عبر أحمد بن محمد الحبيشي عن فرحه العامر بالتثام شمل الشام ومصر بالخلافة عندما سير الخليفة العباسي محمد بن سليمان الكاتب والياً على مصر بعد زوال الطولونية فقال : -

الحمد لله إقراراً بما وهبنا  
الله أصدق هذا الفتح لا كذِبْ  
قد لم بالأمن شعب الحق فانشعبنا  
فسوء عاقبة المشوى لمن كذبنا  
وفتح به فتح الدنيا محمدها  
وفتح الظلم والإظلام والكربنا

إلى أن يقول مستترفاً بعض آي الذكر الحكيم : -

فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم  
وكم ترى تركوا من جنة أنسيف  
كانهم من زمان غابير ذهبنا  
ومن نعيم جنى من غدريم غضبنا

أما الآخرون فيبدو من خلال الشعر الذي وصفوا فيه بعض مظاهر العمارة التي أحدثها الطولونيون في مصر أنهم مصريون . وكان سعيد القاص أكثر عمولا الشعراء حزناً على اندثار دولتهم . وتصيدته فيهم تعدد من القصائد الطريفة ، ففيها وصف مدقق لمظاهر العمران التي كان الطولونيون قسدا أحدثوها ، فاتخذ من وصفها مدخلاً لإبراز فضائل ابن طولون وإظهار مدى حرته عليه وعلى ملكه الذي اندثر ، يقول فيمينا : -

يدلُّ على فضل ابن طولون عمسة  
فإن كنت تبغي شاهداً ذا عدلية  
محلقة بين السماكين والغفر  
فبالجبل الغربي خطمة يشكُر  
يدلُّ ذوى الأبواب أن بنينا  
وبناه بأجر وآس وعمرنا  
وبالعزير المسنون والجص والصخر

- (١) الكندي : الولاة وكتاب القضاة ، هذبه وصححه رفن كست ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٠٨ م : ٢٤٨ - ٢٤٩ .  
(٢) المصدر السابق : ٢٥٠ .  
(٣) المصدر نفسه : ٢٥٣ .  
(٤) المصدر نفسه : ٢٥٢ .

وثيقُ المباني من عُقُودٍ ومنِ جُذُرِ  
ويهدِي به في الليلِ إن ضلَّ من يَسْرِي  
سُهَيْلاً إذا ما لاح في الليلِ للسُّفْرِ  
وغيرُ أجاجٍ للسُّرُوةِ وللظُهُرِ

بعيدُ مدى الاقطارِ سامٍ بنسـاؤه  
بنى مسجداً فيه يفسوقُ بنسـاؤه  
تخالُ سنا قنديلِهِ وضيئـاءه  
وعينٌ معينٌ الشربِ غيرُ ركيـءه

إلى أن يقول مصوراً الخسارة الكبرى التي منيت بها مصرٌ لذهابهم :-

لقد همُّ نلبيك حُزناً على مصـرِ  
فبورك من دُعُرٍ وبورك من عصـرِ

فمن ييك شيئاً ضاع من بعد أهليـه  
لييك بني طولون إذ بان عصـرهم

## الفصل الثاني

### الشعر والصراع الخارجي في القرنين الثاني والثالث الهجريين

شغل الصراع بين المسلمين والروم في القرنين الثاني والثالث الهجريين بعض كبار شعراء الشام . ولكن ما نظم من شعر في هذا الصراع في أثناء القرن الثاني الهجري كان قليلاً وغير متميز بالقياس إلى كثرته في القرن الثالث وتميزه فيه ، ولعل مرد ذلك إلى أمرين : أولهما غياب الطاقات الإبداعية التي تعمق الأحداث وتجليها ، وثانيهما ندرة الأحداث العسكرية نفسها في القرون الثاني بالقياس إلى كثرتها وشدتها في القرن الثالث .

وفاية ما وصلنا من شعر شامي نظم في القرن الثاني ، صوراً معارك الثغور ينحصر في بعض شعر الشعراء الجزيين أشجع السلي ومنصور النري . ثم إن ما جاء في أشعار هذين الشعراء عن تلك المعارك ينحصر في قصائد معدودة ، وفي أبيات قليلة جاءت في ثنايا قصائد مدح هذين الشعراء للخليفة العباسي هارون الرشيد وأحد قادته . والنريب ألا تكون لشعراء الشام الآخرين من أمثال عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي ، وديك الجن الحمصي ، وربيعة الرقي ، والعنابي وغيرهم ممن ظهوروا في هذا القرن أدنى مشاركة في وصف معارك المسلمين مع الروم ، مع أن هؤلاء الشعراء جميعاً كانوا من عاصر الرشيد صاحب الجهاد الطويل في الثغور . فهل يعتقد أن يكون هؤلاء الشعراء وأضرابهم منسلخين عن اهتمامات الجماعة الإسلامية المقاتلة ، منحصرين في عمومهم الذاتية؟ لعل الأمر كان كذلك ، أو لعل لهم شعراً آخر قد فقد ، أو لعل انشغال هؤلاء الشعراء بهموم الشام الداخلية ، وفتنها القبلية كان أقوى تأثيراً في نفوسهم من الأحداث الجارية على الحدود البعيدة .

فإذا ما انتقلنا إلى القرن الثالث الهجري وجدنا شاعرين شاميين أصلاً هما أبو تمام والبحري يتخصصان تخصصاً فريداً في وصف هذا الصراع الذي احتدم بقوة في عهد المأمون والمعتصم والمتوكل . كما برز في زمانهما قادة مسلمون أمصوا حياتهم في مقارعة البيزنطيين ، فاستوقفت بطولاتهم هذين الشعراء فنظمو فيها القصائد الغرر .

## شعر الهجري :-

شعر الصراع مع الروم في القرن الثاني الهجري أهم القضايا التالية :-

توطيد أركان الأمن في الثغور (وبذلك مدح أشجع السلمي محمد بن منصور بن زياد الملقب بفتى العسكر<sup>(١)</sup>) . ويبدو أن قضية استتباب الأمن في الثغور كانت قضية ملحة دائمة الحضور في أذهان الخلفاء وأمراء الثغور ، وذلك أمر يدهي اقتضته طبيعة العلاقات الساخنة دوماً بين المسلمين والروم ، ثم إن في استتباب الأمن في الثغور فرصة لاستتباب الأمن في الداخل الذي كان يشهد بين الفينة والفينة انتفاضاً هنا ، وتمرداً هناك حسبما لاحظنا من ثورات شهدتها بلاد الشام طوال القرن الثاني الهجري .

٢- التهنئة بالفتوح ، من ذلك أنه لما انصرف الرشيد من غزاة هرقله قدم الرقة في آخر شهر رمضان ، فلما عيّد جلس للشعراء ، فدخلوا عليه وفيهم أشجع ، فبدرهم وأنشأ يقول :-

لا زلتَ تنشرُ أعياداً وتطويها	تضي بها لك أيامٌ وتثنيها
وليُهنِكَ الفتحُ والأيامُ مُقبلُةٌ	إليك بالنصرِ معقوداً نواصيها
أمتٌ هرقلُةٌ تهوي من جوانبها	وناصرُ الله والإسلام يُزيمها <sup>(٢)</sup>

٣- تمجيد البطولة تمجيداً فيه مقدار غير قليل من السرف في إضفاء صفات مثلى على الممدوح ، فهو ينفو كل من عداه ذكاً ودعاً وسعة حيلة وحسن تدبير وحكمة في القيادة . ومع التسليم بأهمية دور القائد في إحراز الانتصارات فإن المرء قد يقدر أن الثناء على الممدوح يجب ألا يكون على حساب تضحيات الجنود فتغبط جهودهم ، وتنسى دماؤهم وتضحياتهم . وعلى أية حال ، فليست هذه الظاهرة وفقاً على هذه الحقبة ، فأمثالها كثيرة قبل ذلك وبعده . يقول منصور النمرى في تمجيد بطولة الرشيد في تصوير لأهوال معركة خاضها وانتصر فيها<sup>(٣)</sup> :-

- (١) محمد بن منصور ندمه الرشيد لحسم فتنة بالشام بين قيس واليمن في سنة ١٨٧ هـ ، وكان مقرباً من الرشيد حتى لقبه بفتى العسكر . وانظر القصيدة رقم ٤٩ في مجموع شعر أشجع ، والصولي : الأوراق : ١٢١ .
- (٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ٢ : ٨٨٤ ، الأغاني ١٨ : ٢٤٦ ، وهرقله - على ما يقول ياقوت - مدينة ببلاد السروم ، انظر : معجم البلدان (هرقله) .
- (٣) شعر منصور النمرى ، القصيدة رقم ٢٤ .

يَا رَبِّ قَرْنٍ تَخَطَّيْتَ الْحُتُوفَ السَّيِّ  
كَمْ شِدَّةٌ لَكَ لَوْ كَانَتْ عَلَى جَبَلٍ  
لَيْلٌ مِنَ النَّعَمِ لَا نَجْمٌ وَلَا قَمَرٌ  
أَلْقَى بَنُو الْأَصْفَرِ الْأَذْقَانَ وَاشْتَلَسُوا  
خَاضَتْ إِلَيْهِمْ خَلِيجَ الْبَحْرِ هَمِيئُهُ

حَوْبَاكِ وَعَجَاجُ الْمَوْحِ يَرْتَفِعُ  
لَا تُهَدُّ مِنْ وَزْنِهَا أَوْ كَادَ يَنْقَلِبُ  
إِلَّا جَبِينُكَ وَالْمَذْرُوبَةُ الشَّرْعُ (١)  
ذُلُّ الْخُنُوعِ وَكَانُوا قَطُّ مَا خَنَعُوا  
فَأَذَعُوا بِأَدَاةِ الْخَرْجِ وَأَنْتَجَعُوا

غير أن ما يميز أشجع في تمجيد البطولة أنه فطن إلى صناع النصر الحقيقيين من الجنود، وإن ظل هذا التفتن مشدوداً إلى المدوح نفسه إذ يقول (٢) :-

بَشَّتْ عَلَى الْأَعْدَاءِ أَبْنَاءُ دُرَيْسَةَ  
وَمَا زَلَّتْ تَرْمِيهِمْ بِهِمْ مُتَقَرِّدًا  
فَلَمْ يَقِيمْ مِنْهُمْ حُصُونٌ وَلَا دَرْبُ  
أَنْيَسَاكَ حَزْمُ الرَّأْيِ وَالصَّارِمُ الْعَضْبُ (٣)

ويلاحظ على شعر الشاميين في صراع المسلمين مع الروم في هذا القرن ما يلي :-

١ - غياب الصورة التفسيرية للمعركة بحدتها واحتدامها، وما فيها من مشاي وجرحى وأسرى وتلى وتدمير، واقتصارها على إبراز بطولة القائد، لا نستثنى من ذلك غير الأبيات العينية التي قالها منصور النعماني في الرشيد، ولعل مرد ذلك إلى أمرين :-

أ - إن هذه القصائد نظمت بغرض التكسب، فكان الشاعر يعرِّج على موضوعات شتى يرضي كل موضوع منها جانباً من جوانب نفسية المدوح .

ب - عدم مشاركة ناظمي هذه القصائد المقاتلين في القتال، فهم يصفون المعارك من الخارج، دون أن يحسوا بحقيقتها .

- ٢ - التصوير الخاطف لهزائم الروم، وإغفال الحديث عن عزائم المسلمين تماماً .
- ٣ - اعتبار المحرك لهذه الحروب إما الإسلام أو الدفاع عن ثرى المسلمين وأمنهم .

(١) المذروبة من آلات القتال كالسيف ونحوه، ومعى الحادة الشديدة الضأ  
(٢) الأغناسي ١٨ : ٢١٣ .  
(٣) العضب : القاطع .



ويقول في أخرى (١) :-

ولصليبُ القنساءِ والرأيِ والإسـ  
لامٍ سائلٌ بذاك عنهُ الصليبا

ويقول في ثالثة (٢) :-

هو كوكبُ الإسلامِ أيسَّةٌ ظلمةٍ  
يخرقُ فمخُّ الكُفرِ فيها رار (٣)

وقال في فتح عمورية مخاطباً المعتصم (٤) :-

أبقيتَ جدَّ بني الإسلامِ في صَعَدٍ  
حتى تركتَ عمودَ الشُّركِ مُنقَعِراً  
والمشركين ودارَ الشُّركِ في صَبَبٍ  
ولم تعرِّجْ على الأوتادِ والطنب (٥)

بل عدَّ الشاعر الجهاد في سبيل الله السبب في إحراز النصر إذ يقول :-  
ربي بك الله برحمتها فهدمها  
ومن أمثلة ذلك أيضاً قول البيهقي في تعبير مشاكل مخاطباً يوسف الشغري (٦) :-

أنزلتَ بالإنجيلِ ثم بأعليه  
ذلاً أراهم عزَّ أهلِ المصحفِ

وقوله في آخر مخاطباً المتوكسل (٧) :-

وما زالت الأعداءُ تعلمُ أنَّهُ  
ولما طمعتْ في دارها الرُّومُ واعتدَّتْ  
يُجاهدُها في الله حتى جهادها  
سفاهاً ، وماها جعفرٌ بحصادها  
وما جلتوى الله أكثرُ زادها  
كثائبُ نصرِ الله أمضى سلاحها

ويلاحظ أن أبا تمام قد حوّر مفهوم "الأخذ بالنار" فألبسه لبوساً دينياً ، ونحى عنه توبسه  
الفردى أو القبلي المقيت عندما قال "أدركتَ فيه دم الشهيد وناره" ، وإن يقول في معرض وصف

(١) القصيدة رقم ١٢ وخبرها في الطبري ٩ : ٥٥ - ٥٦ .

(٢) القصيدة رقم ٦٨ .

(٣) رار بمعنى ذائب .

(٤) القصيدة رقم ٣ في الديوان .

(٥) عنى بعمود الشرك عمورية ، وبالأوتاد والطنب ما حول عمورية من القرى والمدن الرومية الصغيرة .  
(٦) القصيدة رقم ٥٥٥ ، ويوسف الشغري هو ابن محمد بن أبي سعيد الشغري ، وكان قد اشترك  
مع أبيه بغزو الروم . قتل سنة ٢٣٧هـ / ٨٥١م في أرمينية ، انظر : الطبري ٩ : ١٨٧ ، فزلييف

العرب والروم : ٣٥٤ .

(٧) القصيدة رقم ٢٨٢ .

ملاحقة أبي سعيد الثغري لفلول الروم (١) :-

حتى يئوبَ الحقُّ وهُوَ المُتَغْفِي منكم ، وما للذَّيْنِ فيكم شَار

٢- المشكلات التي تعرقل من حركة الجيوش الإسلامية :-

كانت وعورة الأرض من أكبر المعوقات للمحاربين إذ يقصدون الثغور والدروب للغزو . فهي قد تكون سبباً يحول دون التوغل في أرض الروم ، بل قد تكون سبباً ملحاً يثني من عزيمة القائد عن الاستمرار في الهجوم نزولاً عند رغبات جنوده ، أو شعوراً منه معهم بثقل المسير . وكان البحر همماً آخر مقيماً يحد من رغبات المسلمين في السيطرة على مدن الروم البحرية ، وحصناً يحتمون بسببه . يقول أبو تمام معبراً عن هذين الهمين في مدح أبي سعيد الثغري (٢) :-

أوقدت من دون الخليج لأهلها نارا لها خلف الخليج شراراً  
إلا تكن حصرت فقد أضحى لها من خوف قارة الحصار حصاراً  
لو طاعتك الخيل لم تقفل بها والقفل فيه شبا ولا مسماراً (٣)

تعبير الشاعر عن تأبي الخيل وحرونها عن مطاوعة الثغري هو في حقيقة الأمر تعبیر عن شكاة الفرسان أنفسهم من مخاطر المجازفة ، وإحساس لطيف أحس به الشاعر ، أو صرح به الجند ، ثم نقل إلينا في صورة شعرية صادقة .

ويعرج أبو تمام أيضاً في قصيدة أخرى في مدح أبي سعيد على هذه القضية نفسها (٤) . ومثل هذه الوقفات تتيج للشاعر أن يذهب الى أقصى طرف من المبالغة في تصوير عزم المدوح ، ومسمى طموحه معتمداً على " لو " أو " لولا " (٥) ، وهي صيغة تسمح للشاعر بأن يلجأ إلى القسم لارتباطه بشئ لم يتحقق .

(١) القصيدة ٦٨ .

(٢) القصيدة ٦٨ .

(٣) القفل : موضع ببلاد الروم . وأراد : لو طاعتك الخيل يا أبا سعيد لقلت راجعاً من هذا الموضوع غير مبق فيه شيئاً من أدوات أهله . والشبا هو حد السيف ونحوه .

(٤) هي القصيدة رقم : ١٠٥ .

(٥) يقول في ذلك من القصيدة ١٠٥ :

ولو إن الجياد لم تعصيه كما  
روحق القنا عليه يميناً  
أن لو إن الذراع شدت قواها  
ما رأى قفلها كما زعموا قفلاً  
ن لديه غير البعيد السحيق  
هي أمضي من الحسام القتيق  
عضد أو أعين سهم بفوق  
ولا البحر دونها بعميق



وعلى هذه الشاكلة من الشكوى المبطنة من وعورة الدروب التي كان المسلمون يجتازونها  
في صراعهم مع الروم، يقول البحترى في قصيدة يمدح بها أبا سعيد الشفري (١) :-

مفازةٌ صدرٍ لو تُطَرَّقُ لِمَ يَكُنْ — لِيَسْلُكَهَا فَرْدًا سَلِيكُ الْمَقَانِبِ (٢)  
تَلَبَّتْ فَمَا الدَرْبُ الْأَصَمُّ بِمُسْهِمِ — إِلَيْهَا ، وَلَا مَا الْخَلِيجِ بِنَاضِبِ

فقد أسى الشاعر الدروب من أرض الروم بالمفازة ، وذلك دليل على أن اجتيازها لم يكن أمراً سهلاً  
ولا ميسوراً حتى ولو على شخص غدا مضرب المثل في سرعة العدو "سليك المقانب" ، وألفه العيش  
في البراري والقفار .

وحين يصف البحترى الفرس والبغل في إحدى قصائده - رقم ١٦٢ - يصرح بالهموم المواقبة  
لشأتى النزوى في الجبال . ومن أجل ذلك تطلب الأمر أن يحظى كلُّ خارج غازیاً عبر تلك المسالك  
الوعرة بحصان ذي مزايا فريدة ، أو بخل ذي قدرة متفوقة ، وقد أتاح هذا للشاعر أن يمدح في ذكر  
مزايا الحصان، فنعتته بخفة الجسم ، فأحشأه طيُّ الكتاب المَدْرَج ، وبالسرعة الفائقة، فمواقع وطئه لخفته  
لا تكاد تترك أثراً ولا تشير عجاجاً ، وبالدرية والمراس في خوض غمار الحروب ، فما تلقاه غير مضمح . ولا شك  
أن إلحاح الشاعر على هذه الصفات وسواها من نعمات التميز والتفوق في ركوبته تحقق له تصويراً  
الحصان النموذج ، لكن تلك الصفات نفسها تسير حاجة البحترى الذي لم يألف الخروج إلى النزوى،  
ولذا قال بعدد : "إما بأشقر" أو أدهم" ، "أو أشهب" ، "أو أبلق" ليرمي به "شوك القنسا"  
ثم عطف بعدد فقال :-

وَأَقَبَّ نَهْدٍ لِلصَّوَاهِلِ شَطْرُهُ — يَوْمَ الْفَخَّارِ ، وَشَطْرُهُ لِلشَّحْحِجِ (٣)

أي فرساً بعضه للفراهة وبعضه لحمل الأثقال ، وهو في الناحية الثانية يشبه البغال .

ولم تكن وعورة المسالك وحدها باعثة على الشكاة من صعوبة الغزو ، بل يضاف إليها الشكاة من  
بُعد الشُّقَّة ، كما يقول البحترى من قصيدة يمدح بها يوسف الشفري (٤) :-

- (١) القصيدة رقم ٦١ .  
(٢) سليك المقانب هو سليك بن السلكة أحد صعاليك العرب في الجاهلية ومشهور بهم بسرعة العدو .  
والمقانب جماعة الخيل من الفرسان . انظر في التعريف به : الشعر والشعراء ٢ : ٢٨١ ، الأغاني  
١٣٢ : ١٨ .  
(٣) الأقب من الخيل : الدقيق الخصر الضامر البطن . والنهد : المرتفع الطويل القوائم ، والشحج : البغال .  
(٤) القصيدة رقم ٥٥٥ وفيها إشارة صريحة إلى هذه الشكاة .

صَبَحْنَ مِنْ حَرْسُوسَ حَرْشَنَةَ السُّبُحِي بِعُدَّتْ عَلَى الْأَمْلِ الْبَعِيدِ الْمَوْجِفِ (١)

وكما يقول في القصيدة التي مدح بها أحمد بن دينار (٢) :

أَتَى دُونَهَا نَأْيُ الْبِلَادِ وَنَصَنَّا سَوَاهِمَ خَيْلٍ كَالْأَغْنَةِ ضَمَّرِ (٣)  
وَلَمَّا خَطُونَا دِجْلَةَ أَنْصَرَمَ الْهَسْوَى فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا لَفْتَةُ الْمُتَذَكَّرِ  
وَخَاطِرُهُ شَوْتِي مَا يَنْزَالُ يَهْيِي جُنْسَنَا لِبَادِيْنَ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ وَحَضَّرِ

وهذا الحديث عن النأي ونص السواهم يصور المشقة من مفارقة الأحبة ، وفقدان الاطمئنان في أكساف البيوت . وتغطن الشاعر إلى هذه القضية ، وإن لم يعن في تفصيلات لحظات الوداع ، لفئة ذات بعد إنساني صادق .

وصور أبو تمام في بيت طريف في هذا السياق المسلمين في الثغور بين حقيقتين : الرغبة في الدنو من الأهل ، والوفاء بالالتزامات المترتبة على كل جندي تجاه ذويه وأتاربه ، وهو لذلك مشدود إليهم ، يستشعر شيئاً من التقصير نحوهم بهذا البعد في الدروب والثغور ، والواجب الديني الذي يدفع المقاتل إلى القتال والاستشهاد ، وقد غلب أبو تمام الحقيقة الثانية في قوله (٤) :

بَرَّحْتُ عَقَّ الْأَقْرَابِ إِنْ السُّبُحِي بِرَّ بِالْدَّيْنِ تَحْتَ ذَاكَ الْعَقْوَقِ

وقد يكون الأمر خلاف ذلك ، إذ لعل أبا تمام استبطن بحسه الشعري والإنساني معاً ما كان يمسور في نفوس الجند من تذمر وطول انقطاعهم في أرض المرابطة والغزو بعيداً عن أهلهم ، فوجههم هذا التوجيه الديني والعسكري في آن واحداً .

- (١) خرشنة بلد قرب ملطية من بلاد الروم (معجم البلدان : خرشنة) والموجف هو المسرع خوفاً .  
(٢) أحمد بن دينار بن عبد الله وال من ولاية البحر ، غزا الروم في أول خلافة المتوكل على ما يقول ماريوس كانار - أما فازيليف فيؤرخ لها سنة ٨٤٢ / ٢٢٨ هـ ، وذلك يعني أنها وقعت في خلافة الواثق . وقد انتهت تلك الغزاة بكارثة بسبب عاصفة ضربت المراكب الإسلامية ولم ينج إلا مراكب قليلة . انظر الأقوال في ذلك : العرب والروم ٣٥٥ - ٣٥٦ ، غير أن قصيدة البحسري هذه تثبت أن معركة بحرية عنيفة وقعت وأن المسلمين انتصروا انتصاراً باهراً الجأ ابن قيسر إلى الهرب . وذلك دليل كاف على أن هذه المعركة التي سكت عن ذكرها المصادر التاريخية العربية ، واضطرب بشأنها المؤرخون الغربيون هي غير الغزوة التي كان قائدها أبو دينار والتي انتهت بكارثة . انظر هذه القصيدة في ديوان البحسري ورقمها ٢٨٧ .
- (٣) الضمير في دونها عائداً إلى علوة الحلبية صاحبة الشاعر التي ورد ذكرها في بيت سابق . النص : حث الراكب ما يركبه . السواهم : الضواهر .
- (٤) من القصيدة رقم ١٠٥ .

وقد تجلّت هذه الحقيقة لدى الباحثي على نحو أوضح ، ولعل اشتراكه في المعركة هو السبب في ذلك ، فقد وجد نفسه في أرض هو غريب عنها ، وفيها ما فيها من ألوان التّصّب والمخاطر ، فعادت إلى نفسه صورة بلده ومن فيه من أصحابه غير أنه ذهب مع دافع المكابرة إلى القول : إن الحق فسي قرب الأحبة باطل . ولكن ما يفضح هذه المكابرة مقارنته بين ليله الطويل في " طَمِين " (١) ، وليله القصير في " بابل " ، كما أن فيها برّاً خفياً من إلحاح الشغري على مواصلة النزو في فصول السنة كلها دون أن يفسح للجند فرصة من راحة ، يفتول (٢) :-

السبيلُ إلى الليلِ القصيرِ بيا بيا	أَلَيْتَنَا الْأَوْلَى بِطَمِينٍ هَلْ لَنَا
إلى الجانِبِ الغريبِ يَمُتُ وأغيباً	سَلَامٌ عَلَى الْفَتَيَانِ بِالشَّرْفِ إِنْسِي
وقد صدّ عنها تُوفَلُ "بِنُ" مخايلاً (٣)	نَزُورُ بِلَا شَوْقٍ "تَدُورَةُ" وَأَبْنَهُنَا
يَرِ الْحَقِّ فِي قُرْبِ الْأَحْبَةِ بِاطِبَالاً (٤)	وَمَنْ يَتَقَلَّبُ فِي سَرَايَا ابْنِ يُوسُفٍ
على العامِ حتى جددَ النَّزْوُ قايلاً	غَزَاهُمْ فَأَنْفَاهُمْ وَلَمْ يَقْتَصِرْ لَهُمْ
منورَةً أَوْ تَحْلِبَ الْخَلْفَ حَافِئاً (٥)	لَكَ الْخَيْرُ أَنْظِرْهُمْ لِيَتَجَجَعَ الرَّسَا
وَلِيّاً وَوَسِيماً رَدّاً وَوَايلاً (٦)	فَقَدَّ غُرَّتْ بِالْغَارَاتِ فِي وَهْدَاتِهِمْ

ولعل الوفوف على تصوير الصعوبات هذه في أشعار الطائيين قد حقق شيئين : أحدهما معنوي وهو إكبار حقيقة الجهاد بإكبار التغلب على كل تلك الصعاب ، وإكبار دور الجندي والقائد في ذلك المجال على حد سواء . والثاني فني وهو الإمعان في رسم الصور والتخلغل في دقائقها . ولنا في صورة الشتاء عند أبي تمام نموذج واضح على هذه الناحية ، فهو قد عرض للشتاء صورة قبيحة منقّرة ، فهو عدوّ جهم مقطب الوجه لا ترتاح النفس إلا بطعنه في منحره ، فقال (٧) في تعبير لم يعجب بعض النقاد القدامى ، لأنهم لم يألفوا مثل هذا التصوير (٨) :-

- (١) طمين بلد ببلاد الروم (معجم البلدان : طمين) .
- (٢) من القصيدة ٦٣٠ ، وهي في مدح محمد بن أبي سعيد الشغري .
- (٣) تدورة هي تيودورا زوجة امبراطور الروم تيوفيل بن ميخائيل الذي كان لخروجه إلى زبطرة واغارته على ملطية سبب في معركة عمورية . وكان تيوفيل قد مات سنة ١٢٢٧هـ / ٨٤١م ، وهي السنة التي مات فيها المعتصم ، فتولت زوجته هذه الحكم من بعده لصغر سن ابنه ميشيل الثاني . انظر فازيليف : العرب والروم : ١٧ .
- (٤) يتقلّب في الأرض : يضرب فيها .
- (٥) الخلف : الضرع . الحافل : المستل .
- (٦) الوسمي : أول المطر . الولي : ما كان من مطر بعد الوسمي حتى تنقضي السنة .
- (٧) من القصيدة رقم ١٢ .
- (٨) انظر : الموازنة ١ : ٢٥٥ ، الوساطة : ٧٠ .

لقد انصممت والشتاءُ له وجُـــــــهه يراه الكَمَاةُ جَهْمًا قَطُوبِيَا  
 طَاعِنًا مَنَحَرَ الشَّمَالِ مُتِيحًا      لِبِلَادِ العَدُوِّ مَوْتًا جَنُوبِيَا  
 في لِيَالٍ تَكَادُ تُبْقِي بِحَدِّ الشَّمْسِ      من رِيحِهَا البَلِيلِ شُحُوبِيَا  
 فَضَرَبَتِ الشَّنَاءُ في أَخْدَعِيَّـــــــه      ضَرْبَةً غَادَرَتْهُ عَسُودًا رُكُوبِيَا (١)

إن تصوير الشاعر للشتاء على هذا النحو من الاكفيرار والقطوب وتجسيده إياه في هذه الصورة التي يتأذى المرء من مشاهدتها حيناً ، وفي صورة البعير الشرس الذي يتأذى على الركوب حيناً آخر؛ يدلان على مدى المعاناة الحادة التي كانت تواجه المسلمين في شواطئهم ، وأن قهر هذه المشكلة لم يكن أمراً ميسوراً ، بل إن أبا تمام يصرح في قصيدة أخرى بأن المسلمين كانوا يحرصون على مغادرة أرض الروم قبل أن يهجم الشتاء ، وأن ضرره ، وعمو النافع المنيث في غير هذه المواقع ، يفوق ضرر العسود وينبئ به (٢) :

ثم آبت وأنت خوت النمساءِ الـ      غسّطت ذو فكرة وقلب خفوق (٣)  
 لا تبالي بوارق البيض والسَّمْـــــــ      ر ، ولكن باليمنت لمع البروق  
 تشنأ الخيث وهو حق حبيبـــــــ      رب حزم في بغضة المومسوق (٤)  
 لم تخوف ضر العسود ولا بنفســـــــ      يا ، ولكن تخاف ضر الصديق

وقد عرض الشاعر أبا سعيد الشغري في موقف حرج عبر عنه قوله "ذو فكرة وقلب خفوق" : أي مسك ما بيده من أرض الروم أم ينسحب منها ؟ ولكن الشاعر لم يتلبث طويلاً في وصف تيار الوعي عند الشغري ، فحسه لهالج القوة العقلية وغلبتها بقوله : "رب حزم في بغضة الموموق" إذ رأى من أمارات المطر ونذره ما دفعه دفعا إلى اتخاذ قرار الانسحاب .

- (١) الأخدعان : عرقان في جانبي العنق . العود : البعير ، أراد : إن الشغري ذلل الصعاب كما يدل البعير فيسهل ركوبه .
- (٢) من القصيدة رقم ١٠٥ .
- (٣) الغط : الغمس في الماء والخصوف فيه ، كناية عن غزارة المطر ، ومعنى البيت : ثم قللت غزوتك خوفاً من أن يدركك الثلج وشدة الشتاء . ( شرح التبرسي ) .
- (٤) المومسوق : المحبوب . أراد أن من الحزم أحياناً كراهية المحبوب وهو المطر .

ووقت البحري عند قضية الشتاء وقفة طائفة في القصيدة الثانية من ديوانه، فنور فيها صدر الشغري  
ممثلًا بنيران الحقد التي أذابت ثلوج الجبال، يقول :-

حين أبدت إليك خرسنة العليِّ  
ما نهاك الشتاء عنها وفي صدد  
من الثلج هامة شطبا  
رك نار للحقد تنهي الشتاء

### ٣- حماية الثغور :-

يعرض الطائيان حاجة المسلمين إلى الاستقرار في شعورهم وتحسينها، واستشعار الأمن  
ومعايشته عندما يصورانها صدرًا مكشوفًا، وثلمة منفرجة ومراتع مخوفة، وأرضًا مضاعة، أو يصوران المسلمين  
فيها مستضعفين محرومين فقراء، أذلة، ومن أجل ذلك وهذا أعلى الشاعران من شأن قادة الجيوش  
وعمال الثغور، وخلفاء بني العباس من كان لهم ولا، وأولئك يد في تحقيق تلك المطالب.

يقول أبو تمام في خالد بن يزيد بن يزيد الشيباني (١) :-

أقول لأهل الثغر قد ريب الثألي  
فسيحوا بأطراف الفضا وأرتبوا  
وأسيغت النعما والتأم الشعب (٢)  
فنا خالد من غير درب لكم درب

ويقول في قصيدة أخرى في أبي سعيد الثغري (٣) :

أصبحت مفتاح الثغور وقفله  
وسداد ثلمتها التي لم تسدد

ويقول في ثالثة فيه أيضًا (٤) :-

- (١) هو أحد الأمراء الأجواد في العصر العباسي . كان المأمون ولاء مصر، ثم ولاء الموصل وديار  
ربيعة . مات في خلافة الواثق في حدود سنة ٢٣٠ هـ . ويقول فازيليف : لا يذكر المؤرخون  
أنه قام بدور هام في حرب الروم ، وهو في شعر أبي تمام بارز ، فقد هرب منه امبراطور الروم  
ولعل ذلك كان في سنة ٢١٢ هـ . انظر : أخبار أبي تمام . ١٥٨ ، العرب والروم : ٣٥٢ ، والقصيدة  
رقم ١٤ من ديوان أبي تمام .
- (٢) الثألي والثألي : الخرم والضعف . راب : أصلح ورتق . الشعب : الانفراج . بين  
جبلين .
- (٣) القصيدة رقم ٦١ .
- (٤) القصيدة رقم ٦٨ .

لولا جِلَادُ أَبِي سَعِيدٍ لَمْ يَكُنْ لِمَنْ يَنْزِلُ لِلشُّغْرِ صَدْرٌ مَا عَلَيْهِ صِدَار

إن ورود الألفاظ "الثأى" ، "الشعب" ، "الثلمة التي لم تسدد" ، "صدر ما عليه صدار" يدل على ما كانت الشغور الإسلامية تعانيه وفتقر إليه ، كما أن ورود ألفاظ "الرأب" ، "إسباغ النعما" ، "والالتشام" ، "والقفل والسداد" ، "والصدار" يدل على إحساس الشاعر بمشكلات أهل الشغور ، وهو يعرضها على المسؤولين باسمهم ليبادروا إلى حلها . وقد عبر البحثري عن هذه المشكلات ، وأثنى على صنيع القادة الذين تولوها باهتمام ، وهو في ذلك كأبي تمام ، يذكر بها لتكون دائمة الحضور في اهتمامات أولئك القادة . يقول مخاطباً محمد بن يوسف الشغري (١) :

أَحْسَنَ اللَّهُ ثَوَابَكَ عَنْ شُغْرٍ	رُضَاعٍ أَحْسَنَتْ فِيهِ الْبَلَاءُ
كَانَ مُسْتَضْعَفًا فَعَزَّ وَمَحْسُورًا	مَا فَأَجْدَى ، وَمُظْلِمًا فَأَضَاءُ
قَدْ تَوَلَّيْتَهُ فَكُنْتَ لِأَهْلِيهِ	عَنِ مَقْنَعًا ، وَعَنْهُمْ غَنَاءُ
لَمْ تَنْمَ عَنْ دُعَائِهِمْ حِينَ تَسَادُوا	وَالْقَنَا قَدْ أَسْأَلُ مِنْهُمْ قَنَاءُ (٢)
إِنْ تَغَدَّى الْعُلُوجُ مِنْهُمْ غَدَاً	فَتَعَشَّتْهُمْ بِسِدَاكِ عِشَاءُ

وكانت الإدارة الحكيمة ، والقيادة الراشدة سبباً من أسباب اطمئنان أهل الشغور ، ومن دلائل بُعد النظر في القيادة أن تتحول الشغور إلى مواقع حصينة ، وعواصم تحمي من غوائل العدوان الرومي لسنوات عدة ، وبذلك مدح البحثري يوسف الشغري ، فقال (٣) :

أَمَا الشُّغُورُ فَقَدْ غَسَدُونَ عَوَاصِمًا	لشُّغُورِ رَأْيٍ كَالجِبَالِ الشُّرَعِ
مَدَّتْ وِلَايَةُ يَوْسُفَ بْنِ مُحَمَّدٍ	سُورًا عَلَى ذَاكَ الْفَضَاءِ الْبَلْقَعِ
لَا يَرْهَبُ الطَّرْفُ الْبَعِيدُ تَطَرُّفًا	عَادَ الْمُضَيِّعُ وَعَوَّغِيرُ مَضِيَّعِ
وَأَعْنَتُ الْإِسْلَامِ فِي يَدِ حَسَانِ	قَدْ تَادَهَا زَمْنَا وَلَمْ يَتَزَعِ

(١) القصيدة رقم ٢ .  
(٢) تناء : هي القنائة الجارية ، وقد مدحا الشاعر ، وهو سائغ ، قاله أبو العلاء المعري في "عبث الوليد" تحقيق ناديا علي الدولة ، دمشق ، ١٩٧٨ ، ص ٢٠ .  
(٣) القصيدة رقم ٥١٢ .

٤- الإعلاء من شأن القيادات وتصوير المعارك :-

ويقترن بالحديث عن أمن الشعوب الحديث عن بطولات المسلمين جنوداً وقادة مخططين ومشاركين . وإذا كانت الانتصارات صنيعاً مشتركاً بين القادة والجنود ، فإن الإشارة بالقادة كانت هي الأبرز في قصائد الطائيين ، ويعود ذلك إلى جملة أسباب منها : ارتباط أسباب هذين الشعريين بأسباب مدحهم قديماً أو نفعياً ، أو هما معاً ، ثم إعجابهم ببطولات أولئك القادة الذين ظلوا يقاتلون الروم سنين متطوالة .

لقد كان المأمون والمعتصم وخالد بن يزيد الشيباني ومحمد بن يوسف الثغري وابنه يوسف ، وأحمد بن دينار ، وعلي بن يحيى الأرمي أبرز من عرف عنه حسن البلاء في معارك المسلمين مع الروم في القرن الثالث الهجري ، غير أن أبرز من تكرر مدحهم في قصائد الطائيين هما محمد بن يوسف الثغري ، وقد مدحه الشاعران جميعاً ، ويوسف الثغري ، وقد مدحه البحري .

وإذا كانت كتب التاريخ قد سكتت عن بيان دور هذين القائدين في حروب الروم ، فإن الشعريين تلافياً هذا النقص بما سجلاه في قصائدهم من وقائع حربية كثيرة قاداتها ، ومواقع رومية عديدة اقتحماها<sup>(١)</sup> . ولأن المصادر التاريخية المعتمدة سكتت عن ذكر وقائع الثغريين ، فإن التحديد التاريخي لها يبدو أمراً عسيراً<sup>(٢)</sup> . وعلى أية حال فإن الذي يعيننا هو بسط صورة القيسادة الإسلامية من خلال منظور هذين الشعريين لهـ

وأول ما يستوقفنا البحري عنده ، وهو ما لم يقله المؤرخون العرب ، هو أن محمد بن يوسف الثغري كان والياً على الشام والجزيرة ، وأن الشاميين والجزيريين كانوا يتعمون بعيشهم في أكفاه ، وذلك يستشف من قول البحري فيـه<sup>(٣)</sup> :-

ما للجزيرة والشام تبيدلاً بك يا بن يوسف ظلمة بضياء

- (١) انظر في ذلك مثلاً القصائد ذات الأرقام ١٢ ، ٦١ ، ٦٨ ، ١٠٥ ، ١٤٥ ، من ديوان أبي تمام ، والقصائد ذات الأرقام ١ ، ٢ ، ٦١ ، ٢٣١ ، ٦١٢ ، ٦٧٢ ، ٧٥٤ ، ٧٧٧ ، ٨١٥ ، ٢٢٦ ، ٣٤٧ ، ٥١٢ ، ٥٥٥ ، من ديوان البحري ، وهي جميعاً في الثغريين .
- (٢) حاول ذلك نجيب البهبيتي في كتابه : أبو تمام حياته وحياة شعره ، وحين كامل الصيرفي في تحقيقه ديوان البحري .
- (٣) القصيدة رقم ١ .

نَضَبَ الْفَرَاتُ وَكَانَ بَحْرًا زَاخِرًا      وَأَسْوَدَ وَجْهُ الرِّقَّةِ الْبَيْضَاءُ  
رَحَلَ الْأَمِيرَ مُحَمَّدٌ فَنَحَلَتْ      عَنْهَا غَضَارَةٌ هَذِهِ النِّعْمَاءُ

وثاني ما يستوقفنا الشاعران عنده هو أن محمد بن يوسف كان طائياً ، والتدليل على ذلك من أشعارهما كثير ، وحسبنا من ذلك قول البحري في — :

أَغْنَى جَمَاعَةَ طَيْبٍ عَمَّا ابْتَنَتْ      آبَاؤُهَا الْقُدَمَاءُ لِلْأَبْنَاءِ

وثالث ما يستوقفنا ، وهو الأهم ، تعجيد الشاعرين لبطولات الثغريين ، وبيانها لكثير من المواقع الرومية التي اقتحمها ، والوقائع التي انتصرا فيها ، مشفوعة بذكر أسماء عدد من قادة الجيوش الرومية الذين هزمهم المسلمون ، وقبل بيان ذلك كله يحسن التنبيه هنا إلى أن قصائد البحري في أبي سعيد كانت أكثر عدداً من قصائد أبي تمام فيه ، وذلك لأن فترة معاصرة البحري له كانت أطول من فترة معاصرة أبي تمام ، وبيان ذلك أن أمر الثغري برز بقوة بعد مقتل محمد بن حميد الطوسي في سنة ٨٢١٤هـ / ٨٢١م <sup>(١)</sup> ، وتوفي أبو تمام في حدود سنة ٨٢٣١هـ / ٨٤٥م ، في حين مسات الثغري محمد في سنة ٨٢٣٦هـ / ٨٥٠م <sup>(٢)</sup> . أما البحري فكانت وفاته سنة ٨٢٨٤هـ / ٨٩٧م .

أما المدن والحصون الرومية التي اقتحمها جيش المسلمين بقيادة محمد وابنه يوسف فهني كثيرة نجدها مبثوثة في ثنايا قصائد الطائين فيما ، ويكفي للتدليل على حجم تلك المعارك وكثرتها أن نذكر منها المواقع التالية: خَرْشَنَةُ <sup>(٣)</sup> ، مَرَعَش <sup>(٤)</sup> ، مَآوَةَ <sup>(٥)</sup> ، اللَّكَّام <sup>(٦)</sup> ، أَكْشُونَا <sup>(٧)</sup> ، أَوْقَصَى <sup>(٨)</sup> ، السَّفَصَاف <sup>(٩)</sup> ، صَاغِرَةَ ، طَمِّينَ ، قَرْيَ دَرُولِيَةَ ، قَسْطَنْطِينَةَ ، الْقُنْلَ ، الْحَمَّةَ الْبَيْضَاءَ ، عَقْرَسَ ، جِيحَانَ ، الْخَلِيجَ . وإذا كانت الكثرة الكاثرة من هذه المواقع رومية فإن طبيعة المعارك كانت تقتضي أن تمتد دوائرها وتتسع دون أن تقف في أرض الثغور . وعليه فإن الحديث عن هذه

- (١) كان الطوسي من قواد جيش العباسيين في خلافة المأمون . تولى مقاتلة الخرمية حتى قتل بادريجان . انظر الطبري ٨ : ٦٢٢ ، الصغدي : الوافي بالوفيات نشر باعتماد س. ديدرنغ ، المطبعة الهاشمية بدمشق ١٩٥٣م ، ٣ : ٢٩ .
- (٢) الطبري ٩ : ١٨٥ .
- (٣) بلد قرب ملطية من بلاد الروم .
- (٤) مدينة بالشغور بين الشام وبلاد الروم .
- (٥) مائة من ثغور خرشنة ( البكري : معجم ما استعجم / مائة ) .
- (٦) جبل مشرف على أنطاكية والمصيصة وطرسوس .
- (٧) حصن بارمينيية .
- (٨) كورة بشمر المصيصة .
- (٩) بلد في بلاد الروم وكذلك أكثر ما تلاها من مواطن .



المعارك في الشعر الشامي ليس خروجاً عن الإطار المكنسي  
للدراسة .

ومن أبرز قادة الروم الذين ترددت أسماؤهم في هذه المعارك منويل<sup>(١)</sup> ، وتيوفيل<sup>(٢)</sup> ،  
والمسنيوس<sup>(٣)</sup> ، والملكة ثيودورا .

وقد استعفى الشاعران لمدوحيهن من قادة الجيوش الإسلامية أرفع الغزايا التي يكن  
أن يحظى بها قائد عسكري لا في ذلك العصر فحسب ، بل في سائر العصور ، فهم عندهما أذكياء ،  
دهاة حازمون متيقظون ، مجربون بأمور السياسة وفنون الحرب ، مخوفون مهابون ، متدينون شجعان ،  
أسخياء على أعدائهم بضريراتهم السديدة ، أسخياء على أتباعهم ببذل الخير لهم . غير أن شمس  
صفة نلهاها كثيرة الدوران بارزة هي صفة رجاحة الرأي ، ومن غير شك أن الرأي خصيصة فريدة لا يمكن  
لقائد أن يحقق انتصارات بدونها . ثم إن "الرأي" اسم جامع لما سواه من صفات التميز ، وهو  
مقدم بالمقاييس المنطقية على الشجاعة ، ولذلك كثر الإلحاح على ذكره في قصائدهما ، يقول أبو  
تمام في ذلك مثلاً ناعثاً أبا سعيد الثغري<sup>(٤)</sup> :-

وَصَلِبُ الْقَنَاةِ وَالرَّأْيِ وَالْإِسْلَامُ سَائِلُ بَذَاكَ عَنْهُ الصَّلِيَا  
سَكَنَ الْكَيْدَ فِيهِمْ إِنَّ مِنْ أَعْدَاءِ ظَمِ إِرْبِ أَلَا يُسَمَّى أَرِيَا  
مَكْرَهُمْ عِنْدَهُ فَصِيحٌ وَإِنْ هَمَّ خَاطَبُوا فِكْرَهُ رَأَوْهُ جَلِيَا

فالكيد والمكر والإرب تفرجات للرأي ، ومتى اجتمع لقائد رأي راجح ، وسلاح جيد ، وهدف ساسم  
تحقق له النصر ، وكتبت لأعدائه الهزيمة والتشتت :-

- 
- (١) منويل رومي لجأ إلى العرب وخرج معهم في بعض غزواتهم لبلاد الروم في خلافة المأمون ،  
ثم هرب والتحق بتيوفيل . انظر: العرب والروم ، حاشية ص ٩٣ ، ٢٦١ وما بعدهما .
- (٢) تيوفيل أحد أباطرة القسطنطينية ، تولى الحكم بين عامي ٨٢٩ - ٨٤٢ م / ٢١٤ - ٢٢٨ هـ  
وعو الذي سير الحملة على زيطرة فكانت على إثرها معركة عمورية . مات قهراً بسبب الهزيمة  
التي ألحقها به المعتصم . انظر: العرب والروم : ٨٥ - ١١٢ .
- (٣) المسنيوس هو أحد قادة الروم كان أسرف في معركة عمورية . انظر حاشية ديوان البحسري ،  
القصيدة رقم ٢ .
- (٤) القصيدة رقم ١٢ .

وفضاً الإسلام يُدعى دروباً

تَضِي الأُمُورُ وَبِحُرِّهَا لَمْ يُنْسَـزَفِ  
كَهَلِّ التَّجَارِبِ فِي ضَجَّاجِ المَوْقِفِ

نِكَ جُنْدًا لَا يَأْخُذُونَ عَطَـيَا  
فَأَ ، وَطَعُنَ يَفْسُجُ العَمَـيَا  
شَ عَلَيْهِمُ وَتَضَّ رِفُ الآرَا

ونعت القادة المسلمون بنعت آخر خاص هو الحقد الشديد على الروم ، وقد ذكرت كلمة الحقد تصريحاً في مواضع ، وتلميحاً من خلال صورة كلية في مواضع أخرى . يقول البحري في ذلك وهو يمسح يوسف الثغري (٣) :-

أَنْ سَوْفَ يَضَعُ فِيهِ مَا لَمْ يُمَنَّعِ  
يُسْقَى جَمِيعَ دِمَائِهِمْ لَمْ يَنْفَقِعِ

وَلِوَاوِءِ العَقُودِ يُقَسِّمُ فِي غَسَدِ  
صَدْيَانٍ مِنْ ظَمَأِ الحُقُودِ لَوَانِشِ

أما التلميح بالتشفي النابع من الحقد فيبدو من خلال حرص الطائيين على تصوير نتائج معارك المسلمين مع الروم ، وأكبر الظن أن الغاية من تصوير نتائج هذه المعارك لم تكن إخبارية بقدر ما كان الغرض منها إحداث الراحة النفسية للمسلمين عموماً ، بإزجاء أخبار هذه الانتصارات إليهم ، ويقدر التشفي بمقاتل الروم وجراحاتهم وأسراهم ، والتدمير الذي حلَّ بديارهم . ومثل هذا واضح في قول أبي تمام فسي أحد الانتصارات التي حققها أبو سعيد الثغري (٤) :-

(٥) فِي يَوْمِ بَدْرِ وَالْعَتَاةِ الشَّهَادِ

ضَجِكَتْ لَهُ أَكْبَادُ مَكَّةَ ضَحَكَهَا

وَقَوْلِهِ فِيهِ (٦) :-

وَاسْتَبَشَّرَتْ بِفُتُوحِكَ الأَمْصَارُ

إِذْ لَاحَ أَنَّ الصَّدُوقَ مِنْهُ نَهَارُ

هَرَبًا فَلَمْ يَنْفَعَهُمُ الإِعْذَارُ

سَوْقَ مَوْتٍ طَمَّتْ عَلَى كُلِّ سَوْقِ

قَدْ صرَحَتْ عَنْ مُحْضِهَا الأَخْبَارُ

خَبَرَ جَلَى صَدَأَ القُلُوبِ ضِيَاؤُهُ

لَمَّا لَقَوْكَ تَوَاكُلُوكَ وَأَعْسَ ذُرُورَا

وَقَوْلِهِ فِي أُخْرَى فِيهِ (٧) :-

فَحَوَى سَوْقَهَا وَغَادَرَ فِيهَا

(١) القصيدة رقم ٥٥٥ .

(٢) القصيدة رقم ٢ .

(٣) القصيدة رقم ٥١٢ .

(٤) العتاة الشهيد هم كفار قريش في يوم بدر .

(٥) القصيدة رقم ٦٨ .

(٦) القصيدة رقم ١٠٥ .

(١) القصيدة رقم ٦ .

فهم عارون بين حريق السيوف صلتاً وبين نثار الحريق  
 وقعة زعزعت مدينة قسطنطين حتى ارتجت بسور قسطنطين (١)  
 كم أسير من سرهم وقتيل رادع الثوب من دم كاخلوق (٢)  
 أطعم السيوف نصفهم ورعى النصف برأي صافي التجار عريق  
 إن أيامك الحسان من السور لخمير الصبح حصر الغبوق  
 معلّات كاتها بالدم المهـ راق أيام النحر والتشريق

فإن تكون دما الروم عند الشاعر نارة كالخلوق ، ونارة كالصبح والغبوق ، ونارة نالفة كدما التشريق ، وهي جميعاً مظاهر ابتهاج وفرح ، يدل على مدى تغلغل الحقد في نفس الشاعر على الخصوم . وقد كرر أبو تمام هذا المشهد فقال في قصيدة أخرى أيضاً (٣) :-

وما ذكر الدهر العبوس بأنه له ابن كيوم السبت إلا تبسماً (٤)  
 ولم يبق في أرض البقلا رطائر ولا سبيح إلا وقد بات مولماً  
 ولا رفعوا في ذلك اليوم إبلين ولا حجوا إلا رأوا تحت دما (٥)  
 رُموا بابين حرب سل فيهم سؤفـ فكانت لنا عرساً وللشرك ماتماً

وهناك أقوال مشابهة للبحري ، ومن ذلك قوله في أبي سعيد الثخري مصوراً هروب منوئل

في معركة دارت بين المسلمين والروم عام ٢٢٤هـ / ٨٢٨م (٦) :-

- (١) سور فروق مكان قرب القسطنطينية .
- (٢) رادع : ملون ملطخ . وسرهـم : خالصهم . شرح التبريزي . الخلق : ضرب من الطيب أعظم أجزاءه من الزعفران .
- (٣) القصيدة رقم ١٤٥ . وعلق فازيليف على هذه القصيدة ومناسبتها فقال : "لأبي تمام قصيدة كلها في حملات أبي سعيد على نصر - أحد قادة بابك ، انضم إلى الروم وتسعى ثيوفوب - والخرمية بيدأها الشاعر بذكر وقعة وادي عفرقس ، وأنها الرد المنطقي على معركة ٢١٨هـ : / ٨٢٢م وهي المعركة التي ألجأت فلول الخرمية إلى أرض الروم . . . وأن وقعة سنة ٢١٨ هي وقعة ميعد التي هُزم فيها بابك والخرمية . انظر : العرب والروم : ٢٤٩ - ٢٥٠ .
- (٤) كان المسلمون قد انتصروا في معركة وادي عفرقس في يوم سبست .
- (٥) الإثلب : التراب والحجارة .
- (٦) القصيدة رقم ١ .

أشلى على \*مُؤيلَ\* أطرافَ الفَناءِ  
فنجاً عتيقَ عتيقةٍ جرداءِ (١)  
فلقد عمّت جنوده بِنفساءِ  
للموت مُرتقباً صباحَ مساءِ  
حتى لو ارتشفت الحديدَ أذابسه  
بالوقدِ من أنفاسه الصَّعداءِ

وقوله فيه في قصيدة أخرى ساخراً من الروم ومن ملكهم وقادتهم وجنودهم ، ومعلياً من شأن  
الثنوي (٢) :-

إذ مَضَّ مُجَلِباً يُقَعِّعُ فِي السِّدْرِ  
بِزَيْبِراً أَنَسَى الكِلَابَ العُؤَاءِ  
حِينَ حَاضَتْ مِنْ خَوْفِهِ رَبَّةُ السُّرورِ  
مُصْبَاحاً ، وَرَاسَلْتَهُ مَسَاءِ  
شَمَّ أَلْقَى صَلْبِيكَه المَلْسِيَّ  
سُ ، وَوَالَى خَلْفَ النَّجَاءِ النَّجَاءِ

وأثلة هذا في ديواني الشاعرين كثيرة ، وقد تكررنا من الاستشهاد بهذه الأبيات المختارة لأنها  
ناطقة بذاتها عن تصوير مدى الحقد الذي كان يملأ نفوس المسلمين على الروم . ومن أجل ذلك  
انتشى الشعراء وتلذذوا بتصوير عزائم الروم ، وتدمير مواقعهم ، واقتحام حصونهم ، وتحرير مواقعهم  
منهم كانوا احتلوها ، وضعنا هذا التصوير سخرية فنية لاذعة من القيادة الرومية التي كانت تفرط  
بجنودها ليذوقوا الموت ، ولتظل جثث قتلاهم طعاماً للسباع . ولوضعنا صور الفرح الإسلامي فسي  
النماذج الشعرية المختارة المتمثلة في أقوال الشعراء وهي "البشرى ، والضحك ، والضياء ، وحسن  
الأيام ، وأيام النحر والتشريق ، وتبسم الدعر ، والعرس . . ." في مقابل صور الهزائم الرومية المتمثلة  
في أقوالها وهي "الهروب الرومي ، وسوق الموت ، وحريق السيف ، ونار الحريق ، وزعزعة المسدود  
الرومية وارتجاجها ، والأسرى والقتلى الملتخبين بالدم ، والدم المهرق ، والدم الذي تحت الحجارة ،  
والمأتم ، والغناء ، وشكل الأشياء ، وارتقاب الموت ، والأنفاس الصعداء ، وحيض ربة الروم ، والقضاء  
الصليب ، والذل والخضوع . . . ." أقول : لو فعلنا ذلك لظهر من هذه المقايسة أن حظ التشفي  
من اعتماد الشعراء كان أكبر من حظ الفرح . وذلك مع أن الفرح في الصف الإسلامي يكافئ السرح  
في الصف الرومي من زاوية الرؤية الإسلامية ، وهذه المعادلة جاء تعبير الباحثري المؤكد (٣) :-

(١) أشلى : أغرى . العتيقة الجرداء : الفرس الأصيلة الرقيقة الشعراء .

(٢) القصيدة رقم ٢ .

(٣) القصيدة رقم ٨١٥ .

وَلَعَمْرِي مَا مَا زُمْنَمَ أَحْلَسِي      عنده من دمِ بزارميننا (١)

ومع ما أسلفنا قوله من أن جل اهتمام الشعراء في قصائد عما الرومية كان منصباً على  
تجديد القادة ، فإنهما لم يغفلا عن الإشادة ببطولات الجنود المسلمين ، حتى لقد غدا كل مقاتل  
مسلم بطلاً مجرباً مقداماً حريصاً على نيل الشهادة ، محتملاً لمشقات السفره ونصب الجهاد المتواصل ،  
مدججاً بالسلاح ، يقول أبو تمسّام (٢) :

بِكَلِّ نَتَى غَرْبٍ يَعْرِضُ لِلْقَنَاسَا      رَحِيًا مَحَلِي حَلِيصَه الطَّعْنُ وَالضَّرْبُ (٣)  
كَمَا إِذَا تُدْعَى نَزَالِ لَدَى الْوَعْيَا      رَأَيْتَهُمْ رَجُلَى كَأَنَّهُمْ رَكْبُ  
وَمَا اجْتَلَيْتَ بِكُرْمِ الْحَرْبِ نَاهِيًا      وَلَا شَيْبًا إِلَّا وَمِنْهُمْ لَهَا خِطْبُ (٤)

وقوله في أخرى مصوراً إقدامهم حياً في الشهادة دون أكثر بالمسوت (٥) :

يَتَسَاوُونَ فِي الْوَعْيَا كَأَسْ مَسَوْت      وَهِيَ مَوْصُولَةٌ بِكَأْسِ رَحِيحِي

ويتكرر هذا المعنى في بعض شعر البحري ، ومن ذلك قوله (٦) :

بِالْخَيْلِ تَحْمَلُ كُلُّ أَسْعَسَاتِ دَارِعِ      وَتَوَاصِلُ الْإِدْلَاجَ بِالْإِسْتِزَارِ (٧)  
وَعَصَائِبُ يَتَهَامَتُونَ إِذَا ارْتَمَسَا      بِهِمُ الْوَعْيَا فِي غَمْرَةِ الْهَيْجَانِ  
أَبْنَاؤُ مَوْتٍ يَطْرَحُونَ نَفْسَهُمْ      تَحْتَ الْمَنَائِي كُلِّ يَوْمٍ لِقَانِ

ويبدو من بعض قصائد الطائيين أنهما كانا يخرجان مع الجيوش الإسلامية (٨) ، وأنهما

(١) زارميناموضع ببلاد الروم لم يرد له ذكر في معاجم البلدان ، والذي في معجم ما استعجم :

(٢) القصيدة رقم ١٤ وهي في مدح خالد بن يزيد الشيباني .

(٣) ضرب الأولي بمعنى خفيف اللحم مشوق القصيد .

(٤) أراد أن يقول هم يرغبون في الحرب على جميع الصفات .

(٥) القصيدة رقم ١٠٥ .

(٦) القصيدة رقم ١٠١ . السير لبلاد . الإسرار : السير لبلاد .

(٧) ومن أمثلة ذلك قول البحري في القصيدة ذات الرقم ٣٥٢ مخاطباً أبا سعيد الثغري : -

ولولاك ما أسخطت غي وروضها      ونهر دجيل بالذي رضي الثغر

ولا كان غزو الروم بعض ماضي      وعي ، ولا ما أطلبه الأجر

وقوله في القصيدة ٢٢٦ :

وأنا الشجاع وقد بدا لك موقفسي      بعقرقس والمشرقية شهيد

ورأيتني فرأيت أعجب منظر      رب القوائد في القنا المتقصد

لذلك كانا يصفان الممارك وصف المشاهد فكشفنا عن كثير من دقائقها ، وصوّرا خلجات النفوس الغزومة أو المترتبة أو المهيضة بالجراح ، ونفقد الأصدقاء بالموت أو بالأسر ، ونقلنا للقارى صوراً حية مسن اصطكاك السيوف ، وكر الجنود وفرارهم ، وميادين القتال وغبار الممارك (١) ، ومن أطرف ما أتاحتها مشاركة البحري للجيش الإسلامي في غزواتها ملاحظته لأبناء الجنود الروم وهم ينظرون من شرفات منازلهم إلى مذابح آبائهم فقال في بيت مفرد لطيف (٢) :-

طالعتك الأيتام في شرف الأبى راج زرقاً إذ تدبج الأبى

وكان من الممكن لهذا المشهد المؤثر أن تتوسع أبعاده وتتعمق، لو أتيح لها شاعرية متأنيصة لا تتعجل المدح باعتباره الغاية من نظم مثل هذا الشعر .

كذلك اعتم الشاعران برسم صور الروم وهم يعانقون الهزيمة . وكان أبو تمام ما عمراً في التقاط بعض المواقف الحرجة في تلك الوقائع من مثل تصويره متممًا شخصية "منويل" الذي تلبسه الفزع (٣) :-

فلقد تمنى أن كل مدينة جبل أصم ، وكل حصن غسار

ثم لما جاءته فلول جنده بكى ، وأخذ يعزّي نفسه ويعزّيهم بقوله :-

الصبر أجمل ، والقضاء مسلط فارضوا به ، والشرفه خير (٤)

فحسد الشاعر لما يمكن أن يكون قد دار بين "منويل" وجيشه يدل على تمثله لمثل هذا الموقف الرهيب المصيب ، إذ مما لا شك فيه أن حواراً حاداً دار في الصفوف الرومية لتدارس أسباب الهزيمة ، وتوزيع تبعات التفصيل .

ويقدم أبو تمام لدارس أدب الحروب الإسلامية الرومية في القرن الثالث الهجري لوحة فنيصة ناطقة تتمازج فيها الألوان والظلال وتتوزع وتتعارض هي لوحة "عمورية تحترق" ، وفيها يبرى

- (١) انظر أمثلة على ذلك الأبيات من ٢٩ - ٣٤ من القصيدة ٢٢٩ ، والأبيات من ١٣ - ١٧ من القصيدة ٥٥٥ ، والأبيات من ٤٢ - ٥١ من القصيدة الأولى (ديوان البحري) .
- (٢) من القصيدة رقم ٢ من ديوان البحري .
- (٣) من القصيدة رقم ٢ من ديوان أبي تمام .
- (٤) قال النبريزي في شرح هذا البيت : لم يكن عندك ما تعينهم به إلا ضرب هذه الأمثال: الصبر أجمل ، والمقدور كائن ، وبعض الشرايعون من بعض .

الناظر حيطاناً مدمرة تتناثر بينهما جثث الفرسان ، وهي تنزف دماً حاراً ، وأخشاب دورها وحجارتها تلتهب . ومع أن الوقت ليل فإن الناظر يبصر حينها التفت كتلاً هائلة من النيران ، تعلوها سحب من الدخان كثيفة (١) . وأكبر وقعاً من ذلك أن تُصور أرض الروم وقد علا فيها صوت مقرئ القرآن ، ثم هي تعج بحركات المصلين ، ويرتفع فيها التكبير للصلاة ، فتنتهي هذه الأصوات إلى مسامع الروم الذين يقفون غير بعيد ، فيظنون أن ما يسمعون ليس سوى غناء (٢) : -

بَتَّهَا وَالْقُرْآنُ يَحْدَعُ فِيهَا الْهَضْبُ      بَ حَتَّى كَادَتْ تَكُونُ حِجْرًا  
وَأَقَمَتِ الصَّلَاةَ فِي مَعْشَرٍ لَا      يَعْرِفُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا مَكْنًا (٣)  
فِي نَوَاحِي بُرْجَانَ إِذْ أَنْكَرُوا التَّكْبِيرَ حَتَّى تَوَهَّمُوا غِنَاءً (٤)

لقد كانت المعارك بين المسلمين والروم سجالاتاً ومع ذلك فإن أبا تمام والبحري لم يسجلا فسي تصائد عما أي صورة من صور الهزائم الإسلامية ، غير أن في بعض أشعارهما أبياتاً طائفة تدل على بعض تلك الهزائم ، فمن ذلك قول أبي تمام في إشارة واضحة إلى انهزام المسلمين في منطقة نهر آلس (٥) : -

فَإِنْ يَكُ نَضْرَانِيَا النَّهْرُ آلسٌ      فَقَدْ وَجَدُوا وَاوِيَّ عَقْرَقَسٍ مُسْلِمًا  
وقول البحري في قصيدة مدح بها المتوكل (٦) : -

وَلَمَّا طَفَعَتْ فِي دَارِهَا الرُّومُ وَأَعْتَدَتْ      سَفَاعًا ، رَمَاهَا جَعْفَرٌ بِحِصَادِهَا  
وقوله في أخرى بعد أن أوقع الروم في أهل الثغور ، فسارع أبو سعيد الثغري لإغاثنهم (٧) : -

لَمْ تَنْمَ عَنْ دُعَائِهِمْ حِينَ نَكَادُوا      وَالقَنَا قَدْ أَسَالَ فِيهِمْ قَنَاءُ  
إِذْ تَغَدَّى الْعُلُوجُ مِنْهُمْ غُذْوًا      فَتَعَشَّتْهُمْ يَسْدَاكِ عِشَاءُ

- (١) الأبيات ٢٢ - ٢٦ من القصيدة رقم ٣ في عمورية .
- (٢) من القصيدة الثانية .
- (٣) المكناء : الصغير بالضم .
- (٤) برجان : بلد بنو نواحي الخيزر (معجم البلدان : برجنان) .
- (٥) من القصيدة رقم ١٤٥ ، وآلس بكسر اللام اسم نهر في بلاد الروم وهو نهر سلوقية قريب من البحر ، بينه وبين طرسوس مسيرة يوم ، وعليه كان الفداء بين المسلمين والروم ، وذكره في الغزوات في أيام المعتصم كثير . (معجم البلدان : آلس) .
- (٦) من القصيدة رقم ٢٨٢ .
- (٧) من القصيدة الثانية في الديوان .

فلماذا لم يصف أيُّ من الشعراء عزيمة إسلامية حدثت ، أو حصناً لهم أو شُغراً مُدَمَّراً؟ لعل النفس الشاعرة التي دأبت على تصوير البطولة يعز عليها أن تصف السقوط أو بعض مظاهره ، ولعل مستلزمات الجهاد ألا يشيع الفزع في النفوس بالوقوف على الهزيمة .

وأمدنا شعر الصراع مع الروم في القرن الثالث الهجري بأول قصيدة عربية - القصيدة ٢٨٧ من ديوان البحري - صوّرت معركة بحرية بين المسلمين والروم ، وهي المعركة التي كان قائد المسلمين فيها أحمد بن دينار . والغريب أن أيّاً من مصادر التاريخ الإسلامي لم يذكر شيئاً عن هذه المعركة ، في حين ذكر مؤرخو الروم أن المسلمين بعد أن دحروا الروم في عمورية شغلوا بيننا أسطول لغزو القسطنطينية، فما كادت سنة ٨٤٢ م / ٢٢٨ هـ تهل حتى بلغ أسطولهم أربع مائة سفينة، سيروها لهذا الغزو بقيادة أبي دينار ، ولكن هذه الحملة باءت بخيبة ذريعة إذ ضربت عاصفة هذا الأسطول فدمرته ، ولم ينج إلا بضعة سفن (١) .

غير أن قصيدة البحري في أحمد بن دينار تصور المسلمين منتصرين، إذ تمكوا من قذف سفن الروم بالنيران فأحرقت "سُهب العثانين" ، وأذاقت الرماح الإسلامية جنود الروم الموت ، فولى قائدهم دُبره ، وقد أعانته الريح على النجاة :

جَدَحَتْ لَهُ الْمَوْتَ الذُّعَافَ فَعَافَهُ	وطار على ألواح شَطْبٍ مَسْمُورٍ (٢)
مَضَى وَعَمَّ مَوْلَى الرِّيحِ يَشْكُرُ فَضْلَهَا	عليه ، ومن يُؤلِّقُ المنيعةَ يَشْكُرُ
تَعَلَّقَ بِالْأَرْضِ الكَبِيرَةِ بَعْدَ مَا	تَقَنَصَهُ جَوِّي السَّرْدَى الْمُتَطَطَّرِ (٣)

وإذن فإن أحمد بن دينار قائد هذه الحملة الإسلامية المنتصرة هو غير أبي دينار قائد ذلك الأسطول المنكوب بالعواصف ، وإذن فإن محاولة "ماريوس كانار" "التقريب بين هذه الغزوة التي يذكرها البحري ، وغزوة يذكرها مؤرخو الروم ، ويذكرون اسم رئيسها" أبو دينار " - وهو تحريف من ابن دينار (٤) - محاولة لحل إشكالية التشابه في الأسماء ليس غيبس .

- (١) انظر الأقوال في ذلك: العرب والروم ٣٥٥ - ٣٥٦ ، فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية ٢: ١٨٦ - ١٨٧ .
- (٢) جدحت : خلطت . الذعاف: القاتل . الشطب: الأخضر الرطب من جريد النخل .
- (٣) المتططر : المسرع في عسده .
- (٤) العرب والروم: ٢٥٥-٣٥٦ ، وقارن ذلك بما قاله فازيليف في الكتاب نفسه: ١٧٠ - ١٧١ .



وتقدم قصيدة البحترى هذه في أحمد بن دينار جملة أخرى من المعلومات التفصيلية عن  
وعن المعركة ، فأحمد بن دينار كان أميراً للبحر : -

ولما تولّى البحرَ والجودَ صنوهُ  
غدا البحرُ من أخلاقه بين أبْحُرِ  
وأنه كان له مركب يدعى " الميمون " : -

غدوت على الميمون صبحاً وإتسا  
غدا المركبُ الميمونُ تحت المظنر

وكان يقوم على الخدمة في هذا المركب وتسييره ريانٌ متخصصون " النوتي والاشتيايم " (١) ، وأن المسلمين  
استعملوا في هذه المعركة - فضلا عن السيوف والرماح - النار الإغريقية يقذفونها على  
أعدائهم : -

إذا رشقوا بالنار لم يك رثقهم  
لئلق إلا عن شياؤٍ مقسّتر  
صدمت بهم صهب العنانيين دونهم  
ضراب كإيقاد اللظى المتسّتر (٢)

وأصول ابن دينار فارسية : -

وكنت ابن كسرى قبل ذاك وبعسده  
ملياً بأن توحي صفاة ابن قيصر (٣)

وأطرف ما في هذه القصيدة كلام البحترى على حركة مركب ابن دينار ، وصورة المعركة البحرية التي  
خاضها ، إذ يعرض البحترى " الميمون " وقد تصدر أحمد بن دينار مكاناً سنياً فيه ليراقب من حوله ،  
وما حوله ، ثم يعلو صوت النوتي سائحاً من برج المركب يلقي الأوامر على أتباعه ، فينصاعون له  
انصياعاً ، وعندما تهب ريح الجنوب العاتية يطفو المركب فوق الموج كأنه طير عقاب ، ثم يعود مناسباً  
بين الأمواج فتلفه لفاً صانعة له بزبدها وخطوطها لفاً موشى .

ثم يعرض البحترى صورة المعركة ، وفيها يرى الناظر جند المسلمين المدربين على فنون  
القتال البحري ، يضربون أعداءهم بكل ما في أيديهم من أدوات القتال الفتاكة ، وبين الفينة والفينة

(١) النوتي : الملاح الذي يدير السفينة في البحر . الاشتيايم : رئيس المركب ، وهي لفظة رومية تعني  
- فيما يقول زكي المحاسني في شعر الحرب في أدب العرب : ١١٠ - ١١١ ، الأمر الناغي .

(٢) صهب العنانيين : حمر اللحي ، كناية عن جنود الروم .

(٣) الصفاة : الحجر الصلد الضخم .

تنطلق تذاثف النيران من مراكب المسلمين لتسيب أهدافها ، فتنتطلق على إثرها روائح حرائق الأجساد واللحى الرومية ، ويصحب ذلك كله ضجيج مبعثه موج البحر ، وتضارب الرماح والسيوف ، وأحمد بن دينار يحث جنوده حثاً على الاقتراب من سفائن الأعداء ، وينجلي اللقاء أخيراً عن هزيمة ساحقة يمنى بها الروم بعد أن قطعت منهم الأعناق ، وطيرت الهامات ، وهذا كله يحدث دون أن يرى غبار ، أو تشاهد جثث ملقاة على تراب ، وبعد هذه النوازل بالجيش الرومي يرى ابن قيسراً على مركبته طلباً للنجاة ، وتسعفه الريح المواتية على تحقيق غايته حتى يدرك اليابسة ، وبها يحتسي .

إن هذه الدقائق اللطيفة ، وهذا التتبع المتأنى لأحداث تلك المعركة يدل دلالة راجحة على أن البحري كان شاهد عيان عليها ، ولولا ذلك لما قدم مثل هذه اللوحة الجميلة التي راققت القدماء حتى قال النويري في الثناء عليها : " لم يصف أحد المتقدمين والمتأخرين القتال في المراكب إلا البحري " (١) ، وعدما أبو عمالان العسكري إحدى روايات البحري الثلاث مع السنية في إيوان كسرى ، وقصيدته في بركة المتوكسل (٢) .

#### ٥ - مفاداة الأسرى وتبادل الرسائل :-

فرضت طبيعة الحرب بين المسلمين والبيزنطيين أن يتبادلا الرسائل ، وأن يرسلوا الوفود إما لإعلان عدنة ، أو للإعداد لمفاداة الأسرى ، وقد دأب الطائيان على تصوير الروم في موقف المستضعفين الذين يلحون في طلب السلم فراراً من الهلكة ، في حين يصوران المسلمين في موقف القوي الذي يطلي شروطه على خصمه ، يقول أبو تمام عن تيوفيل (٣) :-

غدا خائفاً يستجدُّ الكُتْبُ مَدْعِيناً      عليك ، فلا رُسُلٌ تُنتك ولا كُتُب  
وما الأسدُ الضرغامُ يوماً بعاكِسٍ      صرِيتهُ إنَّ أن أو بَصْبَصَ الكَلْبِ (٤)

- (١) النويري : نهاية الأرب ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، القاهرة ٦ : ١٩٧ .
- (٢) أبو هلال العسكري : ديوان المعاني ، نشر مكتبة القدسي ، القاهرة ، ١٣٥٢ هـ ، ٢ : ٦٣-٦٤ وفيه أن قائد الحملة هو دينار بن عبد الله .
- (٣) من القصيدة رقم ١٤ وهي في مدح خالد بن يزيد ، ولعل هذه القصيدة تشير إلى كتاب تيوفيل ملك الروم إلى المأمون وفيه طلب الصلح وعرض الفدية ، وذلك في سنة ٢١٧ هـ انظر هذا الكتاب ورد المأمون عليه في : الطبري ٨ : ٦٢٧ - ٦٢٩ .
- (٤) عاكس بمعنى تارك ، الصريمة : الفريسة التي يصرمها ، بصبص : حرك ذنبه طمعاً ، والمقصود ملك الروم .

ويقول البحري في يوسف الثغري (١) :-

أَعْطُوا رَسُولَكَ مَا سَأَلَتْ فَكَيْفَ لَوْ  
شَافَهُتَهُمْ بِصَدُورِهِنَّ اللَّسْعُ (٢)

ويقول في أخرى مخاطباً يوسف الثغري كذلك (٣) :-

وَكَأَنِّي بَكَ قَدْ أَتَيْتَ بَعْرَشَهَا  
لَوْ كَانَ يُطَلَّبُ نَائِلٌ مِنْ مُسْعِفِ  
وَالسَيْفُ أُسْرِعُ هَبَّةً مِنْ أَصْفِ (٤)

ويعرض البحري في مجموعة أبيات صورة من صور الزيارات الرسمية التي قام بها وفد رومي إلى قصر الخليفة المتوكل بخراسان، مفارقات لعفادات الأسي، وفيها نرى الوفد يدخل قصر الخليفة فتتملكهم رهبة الموقف من جلال الخليفة، ثم يحيونه على طريقتهم في تحية ملوكهم، ويُسَاطَ لهم سماء الطعام فيتناولون منه وجلين مذمولين إذ تخطى أيديهم أنفوسهم، وقد بدأ البحري الأبيات بما هو أعم بالنسبة إلى المسلمين، وهو شكر الخليفة على ما بسذل لهم من فضل الدفاع عنهم، وتخليص أسراعهم من قيود الأعداء، يقول (٥) :-

لَا يُعَدِمُنَّكَ الْمُسْلِمُونَ فَإِنَّهُمْ  
فِي ظِلِّ مُلْكِكَ أَدْرَكُوا مَا أَمَلُوا

- (١) من القصيدة رقم ٥١٢ .
- (٢) شافه: داني، وذكر الصيرفي سنة ٢٣١ هـ تاريخاً لهذه القصيدة مع أن يوسف الثغري تولى أمر الثغور بعد وفاة أبيه سنة ٢٣٦ هـ .
- (٣) من القصيدة ٥٥٥ .
- (٤) آصف هو الرجل الذي كانت له القصة مع سليمان بن داود - عليهما السلام - في عرش بلقيس . انظر: الطبري: تفسير الطبري، طبعة المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، مصر ١٢٦٩ هـ، ١٩: ١٠٣ . وورد في هذه القصيدة البيت :-  
فَتَجَّ سَبَقَتْ بِهِ الْفَتْوحُ فَجَاءَ نَفِي  
مِيلَادُ مُلْكِ الْعَاشِرِ الْمُسْتَخْلِفِ  
وهو يدل على أن القصيدة قيلت في المتوكل فهو عاشر الخلفاء العباسيين، وذلك يعني أيضاً أن ملكة الروم كانت ما تزال على العرش وصية على ابنها ميخائيل بن تيوفيل، فقد ذكر الطبري أن ابنها وثب عليها في سنة ٢٣٣ هـ، ومعنى ذلك أن أحداث هذه القصيدة والمكاتبة بين الخليفة وبينها كانت في سنة ٢٣٢ هـ . انظر الطبري ١: ١٢٣ .
- (٥) من القصيدة ٦٢٩، وفي الطبري والمسعودي أنه وقم في زمن المتوكل فداً أن أحدهما في سنة ٢٤١ هـ / والآخر في سنة ٢٤٦ هـ . انظر الطبري ١: ٢٠٢، ٢١٩ هـ، التنبيه والإشراف: ١٦٢، ١٦٣ .

حَصَنَتْ بِيضَتَهُمْ وَحَطَّتْ حَرِيمَهُمْ  
فَادَيْتَ بِالْأَسْرَى وَقَدْ غَلِقُوا فَالَا  
وَرَأَيْتَ وَقَدْ الرُّومُ بَعْدَ عِنَادِهِمْ  
نظروا إليك فقد سوا ولو انهم  
حَضَرُوا السَّمَاطَ فَكَلَّمَا رَامُوا الْقِسْرَى  
تَمَوَّى أَكْثُهُمْ إِلَى أَنْوَاعِهِمْ  
مُتَحَيِّرُونَ فَبَاهَيْتَ مُتَعَجِّبًا

وَحَمَلْتَ مِنْ أَعْبَائِهِمْ مَا حَمَلْتُمْ  
مَنْ يُنَالُ وَلَا فِدَاءٌ يُقْبَلُ  
عَرَفُوا فِضَائِلَكَ الَّتِي لَا تُجْهَلُ  
نَطَقُوا الْفَصِيحَ لِكَبْرِهِمْ وَلِهَلْ لَمَلُوا  
مَالَتْ بِأَيْدِيهِمْ عُقُولُ ذَهَبُ  
فَتَجَوَّرُ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ وَتَعْدِلُ  
مِمَّا يَرَى أَوْ نَاطِرُ مَتَأَمَّلُ

وجمال هذه الأبيات بيدو في عذوبتها وفي بساطة تعبيرها، كما بيدو في مصداقية ما فيها من مخاوف المسلمين على أسراهم بالنظر إلى رواية الطبري عن خبر الفداء الأول في عهد المتوكل، وملخصه أن "تذرة صاحبة الروم أم ميخائيل "وجهت وفداً " يطلب الفداء " لمن في أيدي الروم من المسلمين " وكان المسلمون قد قاربوا عشرين ألفاً ٠٠٠: فذكر أن تذرة أمرت ٠٠٠٠ بعرض من في إسارها من المسلمين على النصرانية فمن تنصر منهم كان أسوة من تنصر قبل ذلك " ومن أبي قتلته. فذكر أنها قتلت من الأسرى اثني عشر ألفاً ٠٠٠. وأن الفداء وقع من بلاد الروم على نهر اللامس ٠٠. فكان أسرى المسلمين سبعمائة وخمسة وثمانين إنساناً " ومن النساء مائة وخمسة وعشرين امرأة ٠٠٠. (١)

ويذكر البحري في قصيدة أخرى أن المعتز دفع أموالاً للروم ليفك أسارى المسلمين (٢). وهذه سابقة لها دلالتها على تبدل ميزان القوة بين المسلمين والروم، إذ تعني أنه لم يكن بيد المسلمين أسرى للروم، أو أن عدد أسرى المسلمين يفوق عدد أسرى الروم " فدفع المال مقابل هذا العدد الزائد، وأياً ما كانت الحال فهي تظل مظهرًا من مظاهر ضعف الخلافة " يقول البحري في تلك الحادثة: -

لكن تَمَّ الْفِدَاءُ كَمَا رَجَوْنَا  
فَمِنْ أَرْكَى خِلَالِكَ أَنْ تُفَادِيَ  
بِذَلَّتِ الْعَالُ فِيهِمْ كَيْ يَعْزُبُوا  
بِيَمِينِكَ بَعْدَ مَكِّهِ وَانْتَظَرْنَا  
أَسَارَى الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْإِسَارِ  
إِلَى الْأَهْلِيْنَ مِنْهُمْ وَالذِّيَارِ

(١) الطبري ٢٠٢: ٩ - ٢٠٣.

(٢) القصيدة رقم ٣٧١، وليس في الطبري ولا في التنبية والإشراف أدنى إشارة إلى هذا الفداء.

وإذا كان الشعر الشاهي قد التفت إلى ظاهرة المفاداة فإنه ركز على دور القيادية الإسلامية ، وعد ذلك فضيلة من فضائل الخلفاء يتمدح بها وحسب ، ولم ينظر هذا الشعر فسي أثر الأشر والفكاك منه في العلاقات الاجتماعية والروابط الأسرية ، مما كان من الممكن لو تم أن يحدث تغييراً كبيراً في نمطية القصيدة العربية وبعدها في المكان .

## ٦- السبايا : -

ومن لطيف ما يستوقف دارس شعر الصراع مع الروم في القرن الثالث أيضاً، اعتماد الطائيين بالحديث عن سبايا الروم اللواتي أثار جمالهن الغتان، بعيونهن " النجل الحور القوائل " غيرة النساء المسلمات ، فشغلن المقاتلين المسلمين بسوقهن لسحر عن . يقول البحري في قطعة يختلط فيها - في مفارقة أخاذة - نجيع الفرسان بقتلى مقل الولدان ولحظ العيون النجل (١) : -

كم في بني الروم من أعجوبة مـ	وفي بني العرب من ذي نجدة بطل
إنا بأسياننا نعلو أكابرهم	تسراً ، وتقتلنا الولدان بالقتل
وإذا أنصرفنا بقتلى من سراتهم	نالوا السرات بلحظ الأعين النجل

ويبدو أن هذا المشهد القائم على التناظر المعجب قد راق البحري ، فكرره في قطعة أخرى ، ولكنه أضاف إليه بعداً آخر عندما أظهر المسلمين حريصين على أخذ السبايا ، وأظهر الروم حريصين على القتال دونهن ، يقول (٢) : -

لعمرك ما ينفك يخطر بيننا	مع الروم حرباً بالقنا والناسل
نقارعهم بالموت دون بناتهم	مقارعة الأسد الغضاب البواسل
فلم ترعيني كاتنضاً بناتهم	لوتر لدينا أو طلاب الطوائل
وإذا ما قتلنا بالسيوف رجالهم	تقاضين منا بالعيون القوائل

ويعيد البحري الحديث عن اعتماد المسلمين بسوق النساء الروميات باعتبار ذلك مغنماً أكبر، لا تضاهيه أية غنية أخرى يحوزونها من أرض الروم ، يقول (٣) : -

- (١) القطعة رقم ٧٤٥ .
- (٢) القطعة رقم ٧٤٦ .
- (٣) من القصيدة الثانية في ديوانه .

وأزرت الخيول ثبر امرئ القيس سراً قعدن منه بطساً<sup>(١)</sup>  
وجلبت النساء حُسواً وحُوراً آتساتٍ حتى أغرت التّساً  
لم تدعك المها التي شغلت جيشك بالسوق أن تسوق الشّساء

ومن غير شك أن البحترى في حديثه عن السبايا الروميات والغزل بهن إنما يكشف عن افتتاح جنود المسلمين بحسناوات الروم اللواتي لم يشاعدوا مثلهم ، ويكشف عن مسلك عام يسلكه الجند في ديار الأعداء لابتعادهم عن زوجاتهم ، وهذا المسلك يبدو بهورة أوضح في قول أبي تمام عن نساء عمورية اللواتي تمتع بهن المسلمون :-

تصرّح الدهر تصرّح الغنم لها عن يوم عيهاً منها طاهر جنب<sup>(٢)</sup>  
لم تطلّع الشمع فيه يوم ذاك على بان بأهلٍ ، ولم تغرب على عزب<sup>(٣)</sup>

وفي قوله في قصيدة أخرى مذكوراً فرحة الجنود المسلمين العائدين بالسبايا المعجبات الرائقات<sup>(٤)</sup> :-

كم أفاءت من أرض قرة من قسرة  
ة عيين ورئرب مرهوت

وأكبر الظن أن من أسباب اهتمام الطائيين بالنزول بحسناوات الروم ، والحديث عن التمتع بهن أنه كان انعكاساً لظنور الشعراء الإسلاميين العربيين، الذي يرى العرش أعلى ما يجب الدفاع عنه ، والموت دونه ، فعدّ الشاعران وتوع السبايا الروميات في أيدي المسلمين مثلبة كبرى تنضاف إلى مثالب الروم وهزائمهم ، لأنه انتهاك لأعراضهم .

وحين نذكر السبايا نتذكر أمر الغنائم الأخرى التي أشار إليها البحترى لمحا في قوله "تسوق الشاء" ، ولم يخصص لا هو ولا أبو تمام لهذه القضية التفاتة كافية ، ولعل ذلك راجع إلى أن الغنائم كانت شيئاً مألوفاً في قانون الحرب، فهي لا تتطلب وقفة إذ ذكّر النصر يغني عن ذكرها ، أو لعل الشعراء كانوا راغبين في تصوير النزاهة الإسلامية في الجهاد بعيداً عن غرض الدنياس .

(١) عن بقبر امرئ القيس القسطنطينية ، ففيها - على ما يقال - قبره . بطا : كناية عن الغنائم الكثيرة التي تحملها الخيول .

(٢) يعني بالظهر جهاد العدو ، وبالجنابة ما كان فيه من سبي . وتصرّح بمعنى انكشف .

(٣) قصد أن رجال الروم قتلوا جميعاً ، وأن القتالين المسلمين تمتعوا بالروميات .

(٤) من القصيدة رقم ١٠٥ .

وعلى الرغم من كل هذه المحاور التي برزت في شعر الصراع مع الروم في القرن الثالث الهجري فإن دارس هذا الشعر تستوقفه جملة من القضايا هي : -

١- غياب صورة الجيش الرومي المنتصر ، وغياب الحديث عن دقائق مهمة في تكوينه وتسليحه وتعداده . فقد كان الروم انتحموا زبطرة وطلطية في خلافة المعتصم بجيش ضخم يربو على المائة ألف مقاتل ، وارتكب هذا الجيش فظائع مرعبة ، وكان صدى ذلك كبيراً في الأوساط الإسلامية . فضج الناس في الأمصار ، واستخاثوا في المساجد والديار <sup>(١)</sup> . فلماذا لم يصور أي من الطائيين هذا الحدث ، ولم يستصرخا المسلمين كما استصرخهم إبراهيم بن المهدي <sup>(٢)</sup> ؟ ليس من جواب شاف غير قولنا ، إن الشعراء كانوا حريصين على إرضاء أذواق ومدوحهم ، فإن النظم في تصوير مآسي المسلمين كسان سيغضب هؤلاء المدوحين ، أو يكدر صفوهم ، أو كأن الشعراء كانوا يأنفون من تصوير مظاع السقوط .

٢- غياب صورة ترحال الجيش الإسلامي وحلته في مناطق الشغور الإسلامية والدروب الرومية ، فلم يقدم أي من الشعراء صورة عن حركة الجيش وهو يتأعب للقتال ، أو وهو يرباط في الشغور ، أو وهو يرسل الطلائع والعيون .

٣- القفز السريع المباشر إلى وصف المعركة وتمجيد القيادة دون الولوع في نفوس المقاتلين ، فأبعد هذا الوصف الخارجي عن القوائد "الدينامية" والحيوية ، وذلك لسببين : تعجل المدح ، وعدم مشاركة الشعراء - إلا في أحيان قليلة - في صناعة أحداث هذه المعارك مشاركة حقيقية فاعلة . أما المدح فقد كان وبالاً على الشعر العربي ، ومنه شعر الصراع مع الروم ، فقد ظل الطائيان حريصين على تقديم ما يروق المدوحين ، ولهذا انحصرت اهتمامهما في هذه الناية . ونحن نقول هذا عن جريرة المدح على الشعر مع خشيتنا أنه لولاه لما نظم الكثير من القوائد العربية الجميلة .

وأما عن عدم مشاركة الشعراء في أحداث هذه المعارك فتبدو في جل هذه القوائد . وأكبر دليل على أن المشاركة تغني الشعر قصيدة أبي تمام في عمورية ، وقصيدة البحري في أحمد بن دينار .

(١) السعدي : مروج الذهب ، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ٣ : ٤٧٢ .

(٢) مر ذلك في الحديث عن الحياة السياسية .

٤- كانت قصائد كثيرة في ديواني الطائيين رديفاً جيداً لمصادر التاريخ عن معارك المسلمين مع الروم . كما كان بعضها الآخر تعويضاً عن نواقص في تلك المصادر ، وقد ظهر ذلك بخاصة في أبي سعيد الثغري وابنه يوسف وفي أحمد بن دينار ومعاركهم جميعاً مع الروم ، فلدى النظر في القصيدة ٦١٢ من ديوان البحري مثلاً التي نظمها في يوسف بن محمد الثغري سيتضح شيء من يقله المؤرخون عنه ، وهو أنه كان صُرف عن حرب الثغور فألم ذلك الشاعر ، وهو إجراء لم يؤلم الشاعر حسب ، بل ألم أهل الثغور الذين كان يوسف مدافعاً عنهم ، وسر الروم الذين طالما أقتضت هجمات الثغري مضاجعهم ، وقيمة يوسف ليست في شخصه ، بل في رمزته للأمان والظفر جميعاً : -

عَرَفوكَ يَا بَنَ مُحَمَّدٍ بِسِوَاكِـ	بِرَفوكَ عَن حَرْبِ الثُّغُورِ بِقَدْرِ مِـ
لَمَّا جَعَلتَ أَمَانَكِ الْإِشْرَاكِـ	فَوَرَاكِ الْإِسْلَامُ مَحْرُوسَ الْقُـ
حَقًّا لِيَصِيدَ مُلُوكِهَا وَهَلَاكِـ	الرُّومُ تَعْلَمُ أَنَّ سَيْفَكَ لَمْ يَكُنْ

٥- أما من الناحية الفنية فإن قصائد أبي تمام والبحتري قد رفعت المستوى الملحمي للقصيدة العربية ، حتى إن قصيدة مثل قصيدة عمورية - ولها مثيلات - قد احتوت أكثر العناصر التي تتطلبها الروح الملحمية في القصيدة ، من وصف للبطولات الفردية والجماعية ، ووصف للمعارك الدامية ، ووصف للخيال والسفن ، وتصوير لتفصيلات أخرى في إطار الحروب .



## اللمصل الثالث

### مبادئ شعر الوجداني

#### أولاً: الوصف والحنين :-

يلقى دارس الشعر الشامي في هذه الفترة خمسين من شعر الوصف: أولهما الهيام بجمال الطبيعة الشامية بأنهارها وجبالها وطيورها ومناخها وبخاصة فصل الشتاء فيها ، وندرو وصف مظاهر الحضارة والعمران على غنى الشام الكبير بتلك المظاهر ما كان منه إسلامي أو غير إسلامي . وثانيهما الوصف الملتحم بالحنين إلى الشام ، والنبتق من الشوق إليها ، والاحتراق بالبعيد عنها .

وقد برز البحترى في النوعين جميعاً ، فنظم قصائد كثيرة تنمى فيها بالطبيعة الشامية ، بل يكاد يكون ارتباط البحترى بأرض الشام ارتباطاً لا يعدله فيه أي شاعر آخر من شعراء الشام في القرنين الثاني والثالث الهجريين . وسبب ذلك يعود إلى أن البحترى كان يملك ضياعاً واسعاً في بلدته منبج<sup>(١)</sup> ، فقد ظلت أسرته في تلك الضيعة حتى بعد رحيله عنها إلى العراق طلباً للشراء الواسع ، والجاه العريض ، ولأن البحترى قضى سنوات طويلاً من عمره في الشام ، فعرف لذلك كثيراً من قراء ومدنه وجباله ودياراته ، فنظم شعراً رائعاً ، يقول مثلاً في وصف الرقة وطبيعتها الخلابة<sup>(٢)</sup> :-

والرقة البيضاء كالخود التي	تختال بين نواجم أفسران <sup>(٣)</sup>
ضحك البهار بأرضها فتشققت	فيها عيون شقائق النعمان <sup>(٤)</sup>
وتنفست أنفاس كل قارورة	وتنعت الأطياف في الأفسان

(١) انظر: الصولي : أخبار البحترى ١١٩ .

(٢) القصيدة ٩٠٣ .

(٣) الخود : الشابة الناعمة الحسنة الخلق .

(٤) البهار : نبت أنبوبي الزهر طيب الرائحة ينبت في الربيع ويقال له العرار وشقائق النعمان :

نبت زهره أحمر مبهم ينقسط سوداً .

فَكُنَّا قَطَرَ السَّحَابِ عَلَى الشَّرَى      عَطْرًا فَأَذْكَاهُ ذَكَاءَ بَيَّيَانِ  
وَتَدَجَّرَتْ أَنْهَارُهَا بِمِياهِهَا      مَوْصُولَةً بِفَوَاهِي الْفُؤَادَانِ (١)

فهو قد فطن إلى عناصر الإثارة في الطبيعة فرسم صورة تمازجت فيها الألوان الرائقة ، وأنفاس الزهر ، وأصوات سح الماء ودفقه ، يخالطها غناء الطيور على المنصون المائة ، وقد كمل ذلك كله بأن أضفى على عناصر الجمال المنبتة من الطبيعة الحية لبوس الحسن من بني الإنسان ، عيوناً وقدوداً وأنفاس عاشقين .

ويبدو والبحري في شعره الذي يصف فيه الطبيعة الشامية في أثناء إقامته فيها رضي البسال ، مرتاح النفس ، خالياً من التوتر ، ويمثل ذلك فضلاً عن القصيدة السابقة الذكر ، قصيدته المشهورة في وصف الربيع ، فقد قالها في مدح أحد قادة الجزيرة هو الهيثم بن عثمان النموي (٢) ، ومما جاء فيها قوله (٣) :-

أَتَاكَ الرَّبِيعُ التَّلْقُ يُخْتَالُ ضَاكِكًا      مِنَ الْحُسْنِ حَتَّى كَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ  
وَقَدْ نَبَّهَ النَّوْرُوزُ فِي غَلَسِ الدُّجَى      أَوَائِلَ وَرْدٍ كُنَّ بِالْأَمْسِ نُومًا  
يُفْتَقِهَا بَرْدُ النَّدَى فَكَأَنَّتْ      بَيْتٌ حَدِيثًا كَانَ أَمْسٌ مَكْمَمًا  
وَرَقَّ نَسِيمُ الْبَحْرِ حَتَّى حَبَبَتْ      يَجِيءُ بِأَنْفَاسِ الْأَحْبَةِ نَعْمًا

فالقصيدتان جميعاً تجريان على نمط واحد من الهيام بالطبيعة ، والتحديد في مظاهر الفتنة فيها ، وقد تألفت ألفاظ الشاعر فيما تألفاً معجباً في رقة وحسن تصوير ، إلا أن الثانية أدق من الأولى في روعة التشخيص النابع على وجه الخصوص من استعمال الفعل المضارع بقدرته المتميزة على بعث نبض الحياة والحركة في العمل الأدبي ، وقد قال الشاعر القصيدتين في أثناء إقامته في الشام .

وكان وصف الطبيعة الشامية لدى أبي تمام والبحري يتحول أحياناً إلى لون من الحسنين الحاد ، بل قد يغدو مظهرًا من مظاهر التأنيب للنفس على ترك الشام ، وتقريعها بحدة بسبب

(١) الفواهيق : المتلثة حتى صار ما فيها يتصبب .  
(٢) ذكره الطبري في حوادث سنة ٢٢٠ هـ ، وكان قد اشترك في حرب بابك الخرمي ، وذكر المرزبان في معجم الشعراء أن اسمه عثمان بن الهيثم وأن المعتصم ولاءه ديار مصر ، وأورد له شعراً يسرد به على أبي الأصبح الحصني المسلمي . انظر الطبري ٩ : ١٢ - ١٥ ، معجم الشعراء : ٢٥٧ (طبعة كرنكسو) .

(٣) هي القصيدة ٧٩١ .

التحول عن مواطن الفتنة الخلافة فيها إلى ديار لم يجدا فيها غير الأذى والضيق . وقد أفصحنا  
عن هذا كله ثلاث قصائد لأبي تمام نزلها في مصر ونيسابور والعراق ، وقصائد عديدة للبحثري نظمها  
وعوفي العراق (١) . ويبدو أبو تمام في هذه القصائد الثلاث رجلاً مهجوماً بالاعتراب ، معدباً فيه ،  
فلام نفسه لوماً شديداً على تفریطه بموطنه الشام ، وشكا من خيبة مسعاه في البحث عن العلم  
والمال خارج الديار الشامية ، فقال وعوفي مصر (٢) :-

لقد طَلَعَتْ في وَجْهِهِ وَشَرَّ بَوَاجِهِسِهِ  
وساوسُ آمالٍ ومدَّ هَمْبُ هِمَمِهِ  
وسُورَةُ عِلْمٍ لم تُسَدِّدْ فأصبحَ حَسْبُ  
نَأَيْتُ فلا مَالاً حَوَيْتُ ولم أَقْبِمُ

وقال وعوفي نيسابور (٣) :-

يَمُدُّ زِمَامَهُ طَمَعُ مَقِيمٍ  
رجاءٌ ما يَقَابِلُهُ رَجْسٌ

وقال وعوفي العراق (٤) :-

أرؤمُ حتى العسراتِ فتدريسي  
فأضيقُ حيثُ لا نفعٌ ليريبادِ

رُماةُ جَوَى ليشجِبوا ما تُصَيِّبُ (٥)  
ولا نَشَبٌ يَلُونُ به حَرِييبُ (٦)

فألهم المقيم ، والشكوى المرة ، وجلد النفس في القاسم المشترك بين هذه القصائد ، فهو لم يجسِّن  
من هذه الرحلات الثلاث غير الفجيرة بالمال والأهل ، وغير اليأس والشوْم ، مع أنه كان يحدث نفسه  
عن آمال عراض ، ومطامح كبار سيحققها له اغترابه ، فكان حجم الخيبة لذلك كبيراً . ولكي يخفف أبو

- (١) قصائد أبي تمام هي القصائد ٤٦٨ ، ٤٧٢ ، ٤٧٨ ، ٤٧٨ ، ٤٧٨ ، من ديوانه بشرح الخطيب  
التبريزي ، وذلك عدا ما في القصيدة ١٦٣ من تصريح عن توزع نفسه بين هذه الأقطار ، ومن  
قصائد البحثري نذكر تمثيلاً : ١٣١ ، ٢٦٩ ، ٢٧٩ ، ٤٧٠ ، ٧٨٤ ، ٨٢٨ .
- (٢) القصيدة ٤٦٨ .
- (٣) القصيدة ٤٧٢ .
- (٤) القصيدة ٤٧٨ .
- (٥) تدريسي : تختلني .
- (٦) نغم الصادي : ري الظمان ، النشب : المال ، الحريب : المسلوب .



وقوله :-

سقى الله البقاعَ فحيثُ راقَتِ      جبالُ الثلجِ رَحْبًا والرَّحيبُ (١)  
وصاب الغوطةَ الخضراءَ أعْبَدِي      وأغزرُ ما يجودُ وما يصُوبُ (٢)

وكذلك كان شعر البحترى أيضاً في وصف الطبيعة الشامية في أثناء إقامته في أرض العراق بعيداً عن أهله وأرضه . وقد عبر عن هذا في مقابلة دالة بين أمه الرخي المطمئن في أحضان الشام، ويوم العائر في العراق بقوله في أبيات من جملة قصائده (٣) :-

- فتالله أَرْضِي بالعراقِ إقامَةً      وفي الأرضِ للسفرِ المُعذَّ شَآمُ  
- واشترائي العراقِ خُطَّةً غَيِّبِي      بعد بيعي الشامِ بَيْعَةً وَكُوسِي  
- عصيتي للشامِ نُضْرَمٌ لَوَعْتِي      وتزِيدُ في كَلْفِي ، وفي أشجانِي

وكان البحترى قد وجد في العراق ألواناً من الضيق السياسي ، فضلاً عن مُناخها "النكد" ، مما كان يحفزه حفزاً إلى البحث عن المعادل النفسي المهدى ، وقد وجدته في استرجاع صور الطبيعة الشامية الفاتنة ، فكان يفتن إليها كلما ضيق عليه ، وأضاق بنا ذرعه ، فيقول مثلاً من قصيدة "يمسح صالح بن عفيف" ويتشوق بلده (٤) :-

وكم بالجزيرةِ مِنْ رَوْضَةٍ      تُضاحِكُ دجلةٌ تُغبانها (٥)  
تُرِيكَ البواقيتَ منثورَةً      وقد جَلَّسَ النَّورُ ظُهرانها  
إذا غردَ الطيرُ فيها نَسَبَتْ      إليك الأغاني أغانها  
كانَّ العذارى تمسُّسُ بها      إذا هزَّتْ الريحُ أفنانها  
تعاثقُ للقربِ شجراًؤها      عناقَ الأحيَّةِ أسكانها (٦)

- (١) رحبا والرحيب موضعان في البقاع من لبنان . (ديوان أبي تمام ٤ : ٥٥٤) .
- (٢) صاب المطر : انصب ، وصاب المطر الأرض : أمطرها وجادها .
- (٣) هي القصائد : ٧٨٤ ، ٤٧٠ ، ٤٢٨ على التوالي .
- (٤) القصيدة ٨١٨ ، وصالح بن عفيف مولى كانت له يد في قتل المعتز ، ثم قتل صالح نفسه في سنة ٢٥٦هـ / ٨٦٩م انظر الطبري ٩ : ٣٨١ ، ٤٥١ .
- (٥) الثغبان جمع ثغب وهو الغدير في ظل الجبيل .
- (٦) الشجرا : الأرض ذات الشجر . والأسكان جمع السكن وهو كل ما يسكن إليه وفيه .

فهذه الصورة البهية البهيجة للطبيعة الشامية مبعثها الهروب من المعاناة التي وجدها الشاعر، والتي كانت المحور الحقيقي للقصيدة ، فهو يقول فيها بعهد :-

ألا ليت شعري هل أطرفن  
وعمل أطلعن على الرقتين  
مشوقٌ تذكر الأقسه  
تصور البليخ وأقدانهما (١)  
بخييل أخايل سرعانهما (٢)  
ونفس تتبع أوطانهما

ويتول في أخرى مشوقاً إلى حمص (٣) :-

وفي كبدى نارُ اشتياقي كأنهـ  
لذكرن زمانٍ بانٍ منا بنضرة  
خُداني على مياسٍ حمصٍ فأنسي  
إذا أضريت للبعد نارُ حريق  
وعيشٍ مضى بالرتقين رقيق  
إلى خلي الحمصي جسدٍ مشوق (٤)

فأكبر الظن أن شوقه إلى حمص، وهي رمز من رموز الشام ، كان أكبر من شوقه إلى صاحبه الحمصي الذي أنشأ له هذه المدححة .

والملاحظ أنه كلما تأزمت نفس البحري بهوم الاغتراب والمضايقات توهدجت الطبيعة الشامية، وبدا التعلن بالشام شغل الشاعر الأول ، ففي القصيدة ١٣١ يقيم البحري حواراً بينه وبين إحدى اللاتعات على إقامته " بسر من رأى " ، وأكبر الظن أن هذه اللاتعة لم تكن غير نفسه التي تنزع إلى الرحيل عن موطن متعصب :-

قالت : أراك بسر من رأناويكاً  
في حيث لا يُلغي الشريفُ منايباً  
فأعيد لظلم من نزارٍ فإنهم  
قلت : أربعي ، في " سر من رأسيك  
في مرتعٍ جيبٍ ، وعيشٍ منصيبٍ (٥)  
يحنو عليه برأفةٍ وتحديبٍ  
أعملُ النسي ، أو جانبٍ من "عرب"  
كرمتُ ضرائبه عظيمُ المنصيبِ

وغير خاف ما في البيت الأخير من مكابرة تفضحها الآيات التي قبله ، فشكواه فيها أصدق من رضاه عن العيش في ظل مدوحه ، لأن البحري يمس على هذا الممدوح أن قبل العيش في هذه الديار الجافية .

- (١) البليخ : نهر بالرقه يصب في الفرات تحت الرقة/ ياقوت(البليخ ) والأندان : القصور .  
(٢) أخايل : أباري وأماخبر .  
(٣) القصيدة ٥٨٤ .  
(٤) مياس عونهر الرستن المعروف اليوم بالعاصمي .  
(٥) الجشيب : الفليظ .

وكرر البحتري هذا الموقف نفسه فلام نفسه لوماً شديداً على ترك منبج والشام ، والتحول  
عنهما إلى العراق . وسلك في هذا مسلك أبي تمام في قصائده الثلاث السابقات ، فهو يصرح تصريحاً  
بأنه قصد العراق طمعاً فكانت النتيجة الخيبة (١) :

عجبتُ لحيرتي وضلال رأسي	وكتُّ أُرَادُ للرأي الرشيد
غُلبتُ على الصواب وصُفدتني	ضرورات المطامع والجُود (٢)
وما تزكي لمنبج واختياري	لرأس العينِ فِعْلٌ من مريد
لئن أكدى الشامُ نلتُ يوماً	لاجداء العراق بمستزيد

وما هو جدير بالملاحظة عن قصائد البحتري في هذا الباب متارنة مع قصائد أبي تمام  
فيه أن البحتري لم يخصص لا للوصف ولا للحنين ولا لهما معاً قصيدة مفردة ، بل جاء تعبيره عن  
ذلك كله في ثنايا قصائد المدح ، في حين كانت قصائد حبيب مصروفة جميعاً في قضية محورية  
واحدة هي الحب الدافق للشام ، وتعنيف النفس على مفارقتها ، وهذه ميزة لأبي تمام على صنوه الوليد ،  
غير أن الكم الشعري الذي نظمه البحتري في الطبيعة الشامية كبير ، وهو يفوق بكثير ما نظمه أبو  
تمام فيها ، ولعل ذلك راجع إلى سببين : الأول أن البحتري كان كثيراً ما يعود إلى الشام ، فضلاً  
عن طول إقامته فيها في أول عمره وأخريات ، فكان حنينه يطنأ ، في حين كان أبو تمام قد رحل عن  
الشام صغيراً ، وكان قليلاً ما يعاود زيارتها ، والثاني أن أبا تمام مات وعوفي العقد الثالث من  
عمره ، في حين مات البحتري وعوفي العقد السابع فأتاح له امتداد عمره أن ينظم أكثر .

وانفرد البحتري بلون خاص من ألوان وصف الطبيعة الشامية وهو لون يمكن أن نصطلح على  
تسميته "شعر التحبيب والتزين" ، لسكنى دمشق . فقد نظم البحتري خمس قصائد (٣) بمناسبة  
زيارة المتوكل لها ، وعزمه على الإقامة فيها ، وكان يهدف إلى تحقيق مطلبين : تحبيب صورة الشام

(١) القصيدة ٢٦٦ .

(٢) الجدود : الحظوظ .

(٣) عي القصائد ذوات الأرقام ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٧٤ .

في نظر الخليفة فتصيح دمشق حاضرة الخلافة العباسية ، ثم خلاصه هو من معاناة العيش فسي قيط العراق ، وحره النكد ، ومنغصاته الكثيرة ، مع ما يحقق له ذلك من اقتراب من أهله وأرضه ، وقد عبرت أولى تلك القصائد عن فرحه الطفولي بالخروج من العراق إلى دمشق فقال : -

قد رحلنا عن العراق  
حيث العيشُ نسي دمشق إذا ليلها ببرد

وقوله في الثانية وهي تجوي مجرى سابقتهما من التنفي بجمال الطبيعة الآسرة ، والمناخ الجميل : -

العيشُ في ليل دارياً إذا بَرَدَا      والراح نَمَزَجُهَا بالماء من بَرَدَى (١)  
أما دمشق فقد أبدت محاسنها      وقد وقى لك مطربها بما وَعَدَا  
فلست تبصر إلا وكفاً خِصْلاً      أو يانعاً خِضْراً أو طائراً غَرَدَا (٢)

وقوله في الرابعة داعياً الخليفة إلى أن يحدد في دمشق مقارناً بمناخ العراق : -

عواؤها الفصفاض غَضُّ الندى      وماؤها السلسال عَذْبُ المذاق  
وكيف لا توترها بالهنوى      وصيفها مثل شتاء العراق

وكان قد سبق البحرني إلى التنفي بجمال دمشق لناية تزيينية شاعر دمشق في زمن المأمون . فقد روى ابن شداد صاحب الأعلاق النفيسة أن المأمون نظر من بناء كان فيه إلى أشجار غوطة دمشق وبنائها ، فأقسم أنها خير منى على وجه الأرض ، فاندفع شامي هزه إطراء الخليفة لمدينته قائلاً (٣) : -

نظّر المأمون يوماً      من دمشق من أبان (٤)  
في رياضٍ موقفاتٍ      بسين أشجار حسان

(١) داريا: قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق بالنبوة والنسب إليها داراني على غير قياس .

معجم البلدان / داريا .

(٢) الواكف : المطر المنهل .

(٣) انظر: ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، قسم تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق سامي الدهان ، دمشق ١٩٥٦ : ٣٣٣ - ٣٣٤ .

(٤) أبان : قرية من قرى الغوطة كما يقول محمد كرد علي منسوبة إلى أبان بن مروان أخي عبيد

الملك بن مروان ، وهي من القرى الدايرة اليوم ، انظر: غوطة دمشق : ١٩ .



فمَشَى شَوْقًا إِلَيْهَا      ضاحِكًا بَيْنَ غَسَّوَانِ  
ثُمَّ آلَى بِيَمِينِ      إِنَّهَا خَيْرُ الْمَغَانِي  
فَرَشَّتْ بِالنُّورِ فَرَشَّتَا      تَحُتْ ظِلَّ وَسَّوَانِ (١)  
أخضَرَّتْ رَفِيفَاتَا      جَارَهُ أَحْمَرُ تَانِ

والأبيات منسجمة مع الموقف الذي قيلت فيه « فهي غنائية راتمة » وهي تسجيل لحدث يعد دليلاً على توجه عام مستكن في أعماق الشاميين لأن تصيح « هذه الجنة الأرضية » مقر الخلفاء بدليلاً عن « العراق وقيظه وحره النكد » .

وحظي وصف فصل الشتاء وأطواره المنزيرة باهتمام عدد من الشعراء الشاميين « وقد جسا وصفهم له ضرباً من التعبير عن الإعجاب بهذه الظاهرة الطبيعية » أو تعبيراً عن الضيق منه « والسخط عليه » . ويلاحظ أن الشعر الذي نظم في هذا الميدان جاء وصفاً خالصاً مجرداً من الحنين أو المديح . ومن الأمثلة الحية على الإعجاب بالمطر أبيات الشاعر الحلبي أبي عبد الرحمن القرشي (٢) التي أوردها ابن العديم « فهي مصوغة في وصف يوم ماطر مخطت فيه الرياح السحب فسالت الأرض نسي كل اتجاه » وأزنت وتعمت بأزهار مختلف ألوانها « وتدانت تلك الأزهار يقبل بعضها بعضاً فعملت العاشقين » . ولأن قضية الشاعر واحدة في هذه القصيدة جاءت أبياتها وقد تواتر لنا حفظ كبير من الوحدة المتنامية « يقول (٣) :

ويوم حَجَبَ النَّيْتُ      به الصَّحْرَ عَنِ الْأَرْضِ  
بنوعَيْنِ مِنَ الْقَطْرِ      بمَعْقُودٍ وَمَرْقَسِ  
وحضِّ الرِّعْدِ وَالْبُرْقِ السَّ      عوالي أَيَّمَا حَضِّ  
فسدَّ الجَوَّ بِالطُّوْلِ      وسدَّ الْأَرْضَ بِالْعَرْضِ

- (١) السواني : جمع سانية وهي السحابية .  
(٢) قال ابن العديم في التعريف به : « شاعر مجيد قديم العصر في زمن ابن المعتز أو قبله » هاشمي النسب . « بغية الطلب » : ٨ ورقة ١٣٢/ب/ ١٣٣ أ .  
(٣) المصدر السابق « وذكر ابن العديم أنه قرأ هذه الأبيات في كتاب الأنوار للشمشاطي « غير أنني لم أجدها في النسخة المطبوعة التي حققها محمد يوسف » ونشرتها وزارة الإعلام الكويتية سنة ١٩٧٧ .

رت الرِّسْوَةَ كَالْخَفْضِ	وسحَّ الماءُ حتى صا
تباري الخيل في الرِّكْضِ	فباتت تتباري كـ
نَ لِلأَعْرَاضِ بِالنَّبْضِ	وكالأسهُمِ إِذْ فُوقَ
بِزَهْرِنَا عِيْمِ غَضِّ	فوجَّه الأَرْضِ مُعْتَمِ
وَمُخَضِّرِ وَبَيْضِ	بُضْفَرِ وَمُحَمَّرِ
تدانسى البعْضُ من بعْضِ	إِذَا هَبَّتْ لَهُ الرِّيحُ
بَيْنَ الشَّمِّ وَالْعَضِّ	كَمَا التَفَّتْ بِهِ الأَهْمَا

وعبر شاعر شامي آخر هو ديك الجن عن ابتهاجه وحبوره بالخير العميم ، والرزق المنبجس من الأرض بسببه ، يقول متورِّاً احتفاً الأرض بالمطر ، وهو يعبر في الواقع عن فرحة الناس به (١) :-

غراءً جاءت وأنواه الثرى ييس	لكنها أنصرفت والنور منعم
تسري وللريح في حافاتيها زجل	يريك ذمك أن الرزق ينبجس
في مأتم للحيا ما أتمل عارضه	إلا وفيه لأبكار الثرى عرس

وقد تبدو الصورة الكلية في هذه الأبيات مبنية على التضاد الظاهري : بين منظر حزين ترسل فيه الطبيعة دموعها بصورة مطر ، ومنظر عرس لأبكار الثرى متولد من ذلك المأم . ولكن التعمق في الصورة يتجاوز حدود المشاهد المحسوسة ، ليلج على دورة الحياة الكبرى بتعاقب الفصول .

ومع أن الابتهاج بالمطر قد يكون قاسماً مشتركاً عاماً بين شعراء العربية ، فإن فئة قليلة من الشعراء الشاميين عبرت عن ضيقها وضجرها منه . وقد عرض لهذا شاعر حلبي آخر (٢) عندما أظهر سخطه على المطر ، وضجره منه ومن مدينته التي أضحت "مدينة من ما" ، وغدا هو "من سمك البحار" . يقول هذا الحلبي في تصوير فكِّ مستمذَّب :-

ما الدار في حَلَسِ بِيْدَارِ شِوَاءِ      هذا الشتاءُ بيا كألفِ شِتَاءِ

(١) لم ترد هذه القطعة في ديوان الشاعر المطبوع ، وهي في الحماسة البصرية ٢ : ٢٤٩ .  
 (٢) جاء في بغية الطلب ٨ : ورقة ٢٦٢ - ٢٦٣ ، ما يلي عنه : "الحلبي غير مسمى ولا مكنى" ورثى في بعض شعره أبياتاً مـ .

ألقى عليها الزمهرير مُـلَاةً      نِسَجَتْ من الأرواح والأندادِ  
حَفَّتْ بها ظلمُ النُيُومِ وأصْبَحَتْ      ونهارُها كالليلِة اللئيلةِ  
كم قَطْرَةٌ في إثْرِ أُخْرَى خِلْتُهَا      بحرًا أمامي زاخرًا وورائي  
ما كَتُّ من سَمَكِ البحارِ أَظُنُّني      حتى سَكْتُ مدينَةَ من ماءِ

فعلى ما في هذا الشعر من دعاية ، فإن فيه ملمحًا اجتماعيًا يدل على ضيق فئة من الناس فقيسرة كانت قسوة الشتاء تمنّيها في مسكنها ومأكلها بمحاصرته إياها عن السعي في طلب الرزق . كما يدل على مداعمته لئنازلهم التي كانت - في أكبر الظن - غير صالحة لتدراً عنهم غائلي البرد والوكف .

وتفصح أبيات محمد بن سلامة الدمشقي <sup>(١)</sup> عن هذا الهم الذي كان يتلبس هذه الفئة من الشاميين التي لا تعرف البهجة بحلول الشتاء حتى غدا حلوله في نظر الشاعر مكافئًا لحلول الغريم ، كما تفصح عن شعور بالأسى الحاد يحس به الفقراء ويستشعرونه في هذا الفصل ، وبالصدق الذي يملأ قلوبهم على الأغنياء ، فيقول في صورة جديدة تعرض مظهرًا من مظاهر التفاوت الطبقي <sup>(٢)</sup> : -

إذا كَتَّتْ في بَلَدَةٍ راجِحًا      وحلَّ الشتاء حُلُولَ الغريمِ  
فلا تُذْكَرُ الرزقُ حتى تُسرى      من الصحو يومًا نقي الأديمِ  
فكم غِذْوَةٌ في هُبوبِ الجَنُوبِ      تُزويّ الوجوه بِبَرْدِ صميمِ  
وكم زَلْفَةٌ عن حواشي الطرِيقِ      تُردُّ الشيابَ بِخِزْيِ عَظْمِ  
ووغدٍ لثيمٍ غدارا كِباسًا      خبيكٍ أضرَّ بما بين كَريمِ  
إذا ما رأيتُ سحابَ الشتاءِ      تغشّتْ فؤادي سحابَ الهمومِ  
أَظَلُّ نهارِي مُقاسي الهمومِ      حبيسَ النعمومِ أَسيرَ الغيومِ

(١) قيل اسمه المعلن ، وقيل محمد بن سلامة بن أبي زرعة الكثاني الدمشقي ، كان معاصرا لديك الجن . انظر ترجمته في : معجم الشعراء : ٤٢٨ ، سبط اللآلي : ٥١٧ . وقال ابن عساكر " قال ابن الجراح في الورقة : هو والدك شاعرا الشام " . وليس له في نسخة الورقة المحققة ترجمة ، وانظر صورة تاريخ مدينة دمشق ١٥ : ٤١٥-٤١٧ . وانظر أيضا : المحمدون من الشعراء : ٢٤٨ ، وقد وهم محقق هذا الكتاب عندما ظن أن أبا زرعة هذا هو لديك الجن نفسه ، فقد علق بعد القطع الثلاث التي وردت لابي زرعة في الكتاب بقوله : " هذه المقطوعات ليست في ديوان لديك الجن " .  
(٢) صورة تاريخ دمشق ١٥ : ٤١٥ .

ولدى رجوع النظر في الشعر الشامي في الشتاء ومطره يتضح أن الشعراء الشاميين قد وقفوا منه مواقف ثلاثة متباينة : موقف الفنانين الذين راقموا جمال الصورة فيه مجرداً عن أي غرض نفعي، ويمثلهم البحري وأبو عبد الرحمن القرشي الحلبي ؛ وموقف المعجبين به باعتباره دلالة خير، ويشير نعمة، ويمثل هذا الاتجاه ديك الجن الحمصي ؛ وموقف الضجرين منه باعتباره مصدر ضيق وحائلاً بينهم وبين السعي في طلب الرزق، ويمثل هذا الاتجاه الشاعر الحلبي ومحمد بن سلام الدمشقي .

ولم يكن وصف الطبيعة الشامية ومناخها عما المادتين الوحيدتين للوصف في الشعر الشامي، فقد وُصفت بعض مغطيات البيئة الشامية الأخرى كالقلم والسفن . ففي وصف القلم قال محمد ابن عبد الملك بن صالح الهاشمي (١) :-

وأبيض طاري الكشح أخرس ناطيقي	له ذملان في بطون المهاريقي (٢)
إذا استطرته الكف جاد سحابه	بلا صوت إرعايد، ولا ضوء باريقي
كان اللالي والزرجد نظمه	ونور الأفاحي في بطون الحدائق
كان عليه من دجى الليل حلبة	إذا ما استهلكت مزنه بالصواعيق
إذا ما امتطى غر القواني رأيتها	مجللة تضي أمام السوابيقي

وغير خاف ما في هذا الموضوع من طرافة غير معهودة في الشعر العربي حتى هذا العصر، وغيّر خاف كذلك أن مادة تشبيهاته منتزعة من بيئة حضارية راقية مترفة تتعامل باللالتي والزرجد، وهي في الوقت نفسه بيئة ذات شوات صاخبة .

أما وصف السفن في الشعر الشامي فقد كان استجابة لدواعي الحياة في الشغور البحرية الشامية، ومع أنه يفترض أن يكون مقدار ما نظم من شعر في وصف البحر أو وصف مراكبه كثيراً، فإن النظم فيه كان قليلاً، ومن رويت له أشعار في هذا الباب شاعر أنطاكي يدعى الحسين بن علي (٣) .

- (١) شاعر مشهور أديب قسريني، «عاصر المأمون والمتوكل»، له مخاطبات مع أبي تمام والبحري، قال ذلك المرزباني في معجم الشعراء: ٤٢٤، وانظر: الوافي بالوفيات ٤: ٣٥ .
- (٢) الذملان: السير السريع اللين . المهاريقي جمع المهرقي وهو الصحيفة البيضاء يكتب عليها .
- (٣) هو الحسين بن علي أبو طالب التميمي النقاش، قال فيه ابن العديم: شاعر محسن متقدم على عصر سيف الدولة، ذكر له الشمشاطي مقاطيع من شعرة في كتبه: النزه والابتهاج، والانسوار والديرة . انظر بغية الطلب: ٨، ورقة ٢٥٩، غير أن كثيراً مما أورده ابن العديم ذكرنا أنه في الانوار لا وجود له في نسخة الانوار المطبوعة .

وهو يبدو في وصفه للبحر والسفن خبيراً بشؤونهما ، يقول في ذلك مثلاً (١) :-

وللما من حولنا ضجّة	إذا الماء كافح تلك العروبا (٢)
حبال تولفها حكمة	فتمحو البحار بها لا السهوبا
حيازيمها الدمّر مطوية	تعانق للماء وقد أغريبا (٣)
عجبت لها شاحبات الخدود	لم يدعبر الرى عنها الشحوبا

ولهذا الشاعر قصائد ومقطعات أخرى (٤) في وصف السفن والبحر، مما يدل على التصاقه ببيئته وصدوره عنها ، غير أنه لم يصف سفن الحرب ، بل كانت السفن عنده ملهى يختلف إليه ليقصف ويمجسن بعيداً عن الرقباء ، يقول في صورة جميلة عابثة معاً (٥) :-

وزنجية عرفت بالإبـاق	فليست لنا راحة في الرثاق
إذا اضطرب الماء من حولها	رأيت الجبال بها في تلاق
يشور بها قسطل أبيـس	على القوم غير كيف السراق
وأبنائها المرء شيب الروس	وأبنائها السود بيض التراقي
ركبنا إلينا غداة الصبح	مطايا تخب كد عم العتاق
فظننا نمت لديها الرثاق	إلى أن حيينا بموت الرثاق

وعذا النصر ودلالة اجتماعية مهمة ، فملاحو السفينة بيض ، لعلهم من جوارحة لبنان ، ثابت رؤوسهم من أحوال البحر وطول الإبحار فيه ، أما القائمون على الخدمة في السفن فهم زنج ابينت تراقيهم من شد الحبال ، وأما العرفهون المترفون من أبناء أنطاكية ، ويبدو أن الشاعر كان منهم ، فكانوا يقصدون السفن للعبث والمجون ، كأن السفن نفسها غدت مواطن لهم لهذه الفئة المترفة .

- 
- (١) الأنوار ٢ : ١٣ ، بغية الطلب ٨ ورقة ٢٥٩ .  
 (٢) العروب : السفينة .  
 (٣) الحيازيم : جمع الجمع لحيزوم وهو الصدر .  
 (٤) الأنوار ٢ : ١٠ - ١١ ، بغية الطلب ٨ ورقة ٢٥٩ .  
 (٥) الأنوار ٢ : ١٤ .

ومن غني بوصف السفن من شعراء الشام أيضاً الشاعر الحلبي ، فله قطعة أجاد فيها نسي وصف السفن وهي تعلق أمواه نهر الفرات ، غير أن الشاعر في وصفه ظل رعين صورة "المطي والنجائب والكتبان" التقليدية ، يقول (١) :-

إنها فرقة تذيب القلوبا      وترد الشبان لا شك شيبا  
سلبت قلبي العزاة فقد أضحى      وأمسى من العزاة سليبا  
ما ترى السفن كيف تعلو      حباب الماء مثل المطي تعلو الكيبا  
وكان العلاج إذ حست أو لا      هن حاد غدا يحث نجيبا

ومني فرين من الشعراء بوصف الطرد و كلاب الصيد المعدة لهذه الغاية ، وللحلبى تصيدة لطيفة إذ هولم يهجم فيها على وصف الطرد ، بل رسم لوحة تشكلت أرضيتها من روضة ملأه نباتات وأزهار مختلف ألوانها ، فوجد الوحش فيها ضالته ، وقد قصد ما الشاعر لذلك في ساعات الصباح الباكرة فإذا هذه الوحوش المظمنة تتفرع راکضة ، وإذا كلاب الصيد تعدو في إثرها ، وإذا كل كلب مطبق على عنق وحش كأنه بيته سرا ، يقول (٢) في وزن قصير خاطف :-

وروضه آزره      وطباقيها وشبهها (٣)  
واختال في زعر الربيع      عسلها ووعثها  
للوحش فيها موسي      طال لديمها لبثها  
تبدى عيوننا تستبى      خنت العيون خنتها (٤)  
جئت وقد غودرت من      قميص الدجسي أرضها  
إثر سحاب قد تلا      مرذعها ملثها  
فالزهر صرع فيسه كالأمو      أبكار حرم طمها  
أرجسي كأشال الأيسو      م نهسها ونفثها (٥)  
أبعثها تدرك م      يدرك لحظي بعثها

- (١) الأثوار ومحاسن الأشعار ١ : ٣٨٨ .  
(٢) الجيدر نفسه ٢ : ١٢٩ - ١٤٠ .  
(٣) الطباقي : نبات عشبي معمر من الفصيلة المركبة الأنثوية الزعر والشث: ضرب من الشجر ، وقيل هو طيب الريح مر الطعم يدبغ به .  
(٤) تستبى : تأمير .  
(٥) النهس : العنق .

كأنما أذنا بهما      سيأطها تحنُّها  
كأنها قد أتممت      فما يجوز حنُّها  
حتى إذا ما طال عسبن      أرواحهنَّ بحنُّها  
اعتنقت أعتاقها      اعتناقاً تَجْتُمُّها  
كأنما جاءت بأسسُّرار لها      تبتُّها  
فانقسمت أشلاؤها      سميناً وغنُّها  
لنا اللحومُ ولها      دماؤها وقُرُشُّها

ولهذا الشاعر قصيدة أخرى في هذا الباب، وهي تجرى مجرى هذه القصيدة وتتطابق معها (١).

وارتبط بوصف الظرد أيضاً وصف الخيل التي كانت تُتخذ أداة لهذه الغاية. وقد جسَّد الوصفون في إبراز مزايا خيولهم، ودققوا فيها، يقول في ذلك الشاعر الأنطاكي عاصم ابن محمد (٢):

أدعهم كاللَّيْلِ إِذَا      أردية الليل ارتدى  
كأنما يرّمي الدجسى      بقطعة من الدجسى  
كأنما أرتعبه      إذا تناهبن الشَّسرى  
ريحُ الجنوب والذبور      والشَّمال والصبى  
إذا امتطى راكبُه      مطاه فالريح امتطسى (٣)  
وهو يرى ما لا يرى      راكبُه حيث أنتسأى  
الوعرُ سئلَ عنده      وما نأى كما دنسأى

- (١) انظر: الأنوار ومحاسن الأشعار ٢: ١٤٠ - ١٤٢.
- (٢) هو شاعر من شعراء الشام وهو - على ما يقول المرزباني - مكثر مطيل، انظر: معجم الشعراء: ٢٧٣. وذكره أبو الفرج الأصبهاني في غير موضع من كتاب الأغاني كقوله: "أخبرني أبو المعتمص عاصم بن محمد الشاعر بأنطاكية، وبها أنشدني قصيدة البحترى ٠٠٠٠ وأنشدني لديك الجن ٠٠٠٠ الأغاني ١٤: ٦٣، ٦٥، ٦٥. وقد وردت هذه الأبيات في الأنوار ومحاسن الأشعار ١: ٣٤١ - ٣٤٣.
- (٣) مطاه: ظهره.

ويبدو أن هذا التوجه في وصف هذه المعطيات كان استجابة لدواعي البيئة الشامية ولظروف الترف التي حظي بها بعض أبناء الشام ، وبخاصة أولئك الشعراء الذين نشأوا وعاشوا في شمال الشام ذي الطبيعة الخلابة . كما يبدو أن ظاهرة اقتناء الخيل لغرض الصيد كانت شائعة ، فحسان ديك الجن الأحمر الذي يستقبل به أعلى الذرى كان لههدف مقارعة الوحش (١) :-

قارعتُ فيه الوحشَ عن مُجارتِهِ      وجعلته بنفوسِهِ زعيمًا

وحسان أبي تمام الذي استمداه من مالك بن طوق (٢) يقتل به النعام :-

تَقْتُلُ عَشْرًا مِنَ النَّعَامِ بِسَهْوِهِ      بواحد الشَّدِّ واحدِ النَّفْسِ

وعلى الرغم من إحاطة شعراء الشام بوصف هذه النواد كلها فقد ندر في شعرهم وصف مظاهر العمران . وأقدم نصوصنا عليه لشاعر شامي فيه وصف لبعض مظاهر العمران هو أبيات قيلت في وصف تصور كان بناها صالح بن علي العباسي ، وقد نسبت هذه الأبيات إلى أشجع السلمي في بعض المصادر ، وعزيت إلى منصور النعري في بعضها الآخر ، وهي (٣) :-

تصوّرُ الصالحية كالعَدَايِ      ليسن ثيابهنَّ ليومِ عُرْسِ  
مُطَلَّاتٍ عَلَى بَطْنِ كَسْتِهِ      أيادي الماءِ نَسْجًا وشيَّ عُرْسِ  
إِذَا مَا الطَّلُّ أَثْرَفَ فِي نَوْرِهِ      تنفسُ نَوْرِهِ مِنْ غَيْرِ نَفْسِ  
تَغَبَّقَهُ السَّمَاءُ بِحَبَبِ وَرْسِ      وتصبحُه كَوْسٌ غَيْرُ شَمْسِ

وواضح أن الشاعر لم يتلثب طويلًا عند وصف القصور وفننها المعماري ، بل مد نظره إلى الطبيعة من حولها فأمعن في الهيام بمائها وألوان زهرها .

ولأشجع السلمي إشارة أخرى طائفة إلى قصر الرشيد بالرقعة ليس فيها أدنى غناء لمن

- 
- (١) هذا البيت من جملة ستة أبيات وردت في " الأثوار ومحاسن الأشعار " ١ : ٣١٧ ، ولم ترد هذه الأبيات في نسختي ديوان الشاعر المطبوعتين .
- (٢) البيت من القصيدة ٨٠ في ديوانه .
- (٣) انظرني ذلك : الصولي : الأوراق : ٧٨ ، الأغاني : ١٨ : ٢١٧ ، معاهد التنصيص : ٤ : ٦٤ ، ثم انظر معجم البلدان ( الصالحية ) وفيه أنها لمنصور .



يبحث عن أثر العمارة في الشعر الشامي ، وغاية ما فيها قوله في معرض مدحه للرشيد (١) : -

قَصْرٌ عَلَيْهِ تَحِيَّةٌ وَسَلَامٌ      أَلْقَتْ عَلَيْهِ جَمَالَهَا الْإِيَّامُ  
قَصْرٌ سُقُوفُ الْعُزْنِ دُونَ سُقُوفِهِ      فِيهِ لِأَعْلَامِ الْهُدَى أَعْلَامُ

فهو لم يره من هذا المبنى غير ذهابه في السماء ولا شيء آخر بعد ذلك من خصائصه المعمارية .

ووصف ربيعة الرقي بلذته الرقة في أبيات معدودات ، وجاء وصفها مسطحاً لا ينبئ عن التحامه بها ، وتوحده فيها ، واقتصر على ذكر بعض مزاياها في الموضع ، وعلى تعداد بعض أصناف طيورها النادرة فقال (٢) : -

حَبْذا الرِّقَّةُ داراً وبَلَدٌ      بَلَدٌ سَاكِنٌ مَمَّنَّ تَسْوَدُ  
ما رأينا بَلَدَةً تَعَدُّ لَهَا      لا ، ولا أَخْبِرنا عَها أَحْسَدُ  
إِنها بَرِيَّةٌ بِحَرِيَّةٍ      سورُعا بِحَرٍّ ، وسورُ في الجَدَدِ (٣)  
تَسْمَعُ التُّلُصَّ في أَشجارِها      عُدَّ عُدَّ البَرِّ وَمَكَّاءُ غَرِيدُ (٤)

وعنك سؤال لا بد من انبعاته في الذعن بعد هذا الفيز من شعر الوصف في الشعر الشامي والجزري وعمو : لماذا أعمل الشعراء الشاميون والجزريون الوقوف على بعض مظاهر العمران وقوفاً مجلياً كما وقف البحري على إيوان كسرى في السنية المشهورة (٥) ، وكما وقف على بركة المتوكل في الهائية (٦) ؟ أوليس في عمارة الجامع الأموي في دمشق والمسجد الأقصى في القدس ، ونسي ما سواهما من فن معماري حاد وقديم حافظ إلى إثارة فرائحهم ؟ ثم لماذا ظلت أنظارهم مصوبة إلى الطبيعة محدقة في زعرها وغيشها وطيورها حسب ؟ إن الإجابة عن مثل هذه التساؤلات تتشعب

- (١) الأوراق : ٧٦ ، الأغاني : ١٨ : ٢١٤ ، تهذيب ابن عساكر : ٣ : ٦٢ .  
(٢) معجم البلدان / مادة الرقة ، خزنة الأدب : ٢ : ٥٦ ، شعر ربيعة الرقي : ٩٧ .  
(٣) الجدد : الأرض المستوية .  
(٤) التلصل : نوع من الطيور صغير ، والمكاء : طائر ذو وصفيير جناحه أبلق .  
(٥) عبي القصيد : ٤٧٠ في ديوانه ومطلعها :      وترقعتُ عن جدا كل جبس  
صنت نفسي عما يدنس نفسي  
(٦) عبي القصيد : ٩١٥ ومطلعها :      ميلوا إلى الدار من ليلي تحييه  
نعم ، ونسألها عن بعض أهلها

فقد تكون ألفة هو'لا' الشعراء' لما نتمتع عليه أنظارهم باستمرار مُتتلاً لمواطن الإثارة في تلك المباني والعمائر' وقد يكون لنزرة الإحداثيات المعمارية العباسية في أرض الشام والجزيرة سبب في ذلك (١) ' إن إن معظم ما في بلاد الشام من فنون العمارة كان أمويًا' وكان العباسيون لا يعتدون بمنشآت الأمويين' ولا يحترمونها حتى ما كان منها منشأة دينية . وأما الإعجاب بالطبيعة الشامية فهو نابسج من الإعجاب البشري العام بكل طبيعة جميلة سخيصة .

غير أنه لا بد من احتراز في إطلاق هذا الحكم' فقد روى ابن عساكر قصيدة لشاعر يدعى محمد بن سعد العامري المكي بأبي المنذر (٢) في وصف دمشق وطبيعة وعمرائها وزهرًا وطيرًا وماء' ووحشًا وثمارًا' وهي قصيدة طويلة بلغت عدة أبياتها واحدًا وثمانين بيتًا . وما جاء فيها في وصف عمارة الجامع الأموي وما كان يجري في أروقته من تدريسي - :

والمسجدُ الجامعُ العنيفُ بِبِيا	شبرها بالتقى وشهـ
تبارك الله كيـفَ دبـره	بانيه واختطه مدبـره
يضاحك الشمس في جوانبـه	جوهر أركانه ومزمـره
ويملأ العين حين تبصره	مخراجه بهجة ومنبـره
وحيثما مال من تأملـه	مال إلى صورة تحيـره

والى أن يقول في وصف دروس الإقراء والفتحة والتفسير فيه - :

من قارىء لا يبور مصحفـه	وعالم لا يضيق مذعبـه
وعالم جالس يبصره	وعابد قائم يذكـره

وجاء فيها أيضًا وصف لقنوات الماء المنشأة من المرمـر - :

(١) سبق أن تبينا أن الإحداثيات المعمارية العباسية في الشام والجزيرة كانت بوجه عام ذات صبغة عسكريصة .

(٢) روى ابن عساكر هذه القصيدة في سند متصل عن أبي الحسين محمد بن عبد الله بن جعفر ابن الجنيد الرازي المتوفى سنة ٢٤٧هـ / ٩٥٨م الذي رواها عن هذا الشاعر' ولذلك رجحنا أن يكون هذا الشاعر من فترة الدراسة . انظر هذه القصيدة بتمامها في : مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٥ : ٣٥٢ . وانظر في ترجمة أبي الحسين الرازي : مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٥ : ٥١١ - ٥١٣ . سير الأعلام ١٦ : ١٧ .

والنهرُ بِالْمَرْزَةِ التي جَعَلْتِ  
مَتَّيْلُ الجِيدِ بِالْقَنْسَاءِ وَاللَّيْلِ  
يَجْرِي فيجْرِي إلى المدينة يَنْبُ  
بالحقِّ ساعاتُهُ تَمَيُّزُهُ  
أَمْوَاهُ نَصَلٌ عَلَيْهِ يَغْمُزُهُ  
بوعًا على مَرْمَرٍ يَسِيْرُهُ

ومع أن القيمة الفنية لهذا النثر تبدو متواضعة إذ لا يعدو تعداد المظاهر دون تصويره، فإن له قيمة فريدة لأنه منفرد في باب وصف مظاهر المعمار الإسلامي في دمشق.

ومن الشعر اللطيف في وصف مظاهر العمارة قصيدة للشاعر الحلبي، وقد قالها في وصف قبة أبنوس فذكر سموخها وتألقها وفن معماريتها وطلاءها، يقول (١) :-

بَنِيَتْ عَلَيْكَ قَبَّةَ آبِنُوسِ	بَنِيَتْ عَلَيْكَ قَبَّةَ آبِنُوسِ
تَطُولُ بِرَأْسِهَا كَبْرًا فَتُنْجَحِي	تَطُولُ بِرَأْسِهَا كَبْرًا فَتُنْجَحِي
كَأَنَّ الْعِجَاجَ مُبْتَسِمًا عَلَيْهِمَا	كَأَنَّ الْعِجَاجَ مُبْتَسِمًا عَلَيْهِمَا
كَأَنَّ سَمَاءَهُمَا رَوْحُ الْأَقْحَاسِي	كَأَنَّ سَمَاءَهُمَا رَوْحُ الْأَقْحَاسِي
كَأَنَّ غَشَاءَهُمَا الْمُلَقَى تَنْسَاعٌ	كَأَنَّ غَشَاءَهُمَا الْمُلَقَى تَنْسَاعٌ
مَعْضَفَرَةُ اللَّبُوسِ وَالْحَسَامِ	مَعْضَفَرَةُ اللَّبُوسِ وَالْحَسَامِ
كَثَيِّنَةٌ مَجْلِسٍ حَسَنًا تَعْلُو	كَثَيِّنَةٌ مَجْلِسٍ حَسَنًا تَعْلُو
تُكْفَرُ فِي جَوَانِبِهَا الْحَنَائِي	تُكْفَرُ فِي جَوَانِبِهَا الْحَنَائِي
بَنِيَتْ عَلَيْكَ قَبَّةَ آبِنُوسِ	بَنِيَتْ عَلَيْكَ قَبَّةَ آبِنُوسِ
قَبَابُ النَّاسِ خَاضِعَةٌ السَّرُوسِ	قَبَابُ النَّاسِ خَاضِعَةٌ السَّرُوسِ
شِيْمُوسٌ يَبْتَسِمُ إِلَى شِيْمُوسِ	شِيْمُوسٌ يَبْتَسِمُ إِلَى شِيْمُوسِ
تُفَصِّلُ بِالْعُقُودِ وَيَالِ السُّوسِ (٢)	تُفَصِّلُ بِالْعُقُودِ وَيَالِ السُّوسِ (٢)
عَلَى عَيْطَاءٍ بِكْرٍ عَيْطُمُوسِ (٣)	عَلَى عَيْطَاءٍ بِكْرٍ عَيْطُمُوسِ (٣)
نِسَاؤُهُمْ مَعْضَفَرَةُ اللَّبُوسِ	نِسَاؤُهُمْ مَعْضَفَرَةُ اللَّبُوسِ
عَلَى الْفَتَيَاتِ فِي حُسْنِ الْجُلُوسِ	عَلَى الْفَتَيَاتِ فِي حُسْنِ الْجُلُوسِ
كَتْكَفِيرِ الشَّمَامِ وَالْقُسُوسِ (٤)	كَتْكَفِيرِ الشَّمَامِ وَالْقُسُوسِ (٤)

أما وصف مواد البداوة كوصف البيد والأظعان والثور الوحشي والإبل وما سواها من مواد الوصف في الشعر الجاهلي والإسلامي فلم يعد يُعنى بها شعراء الشام، ولم تعد تظهر إلا فسي مطالع قصائد المدح ذات المنحى التقليدي وبخاصة لدى أبي تمام والبحري (٥). وهذا التحول

- (١) الأنوار ومحاسن الإشعار ٢: ٨٦ - ٨٧.
- (٢) السلوس جمع السلوس وهو الخيط الذي ينظم فيه الخرز، والخرز الأبيض ينظم في القلائد.
- (٣) العيطة: الطويلة العنق. العيطموس الجميلة من النساء التامة الخلق وكذلك من الإبل.
- (٤) تكفر: تنحني من تكفر لسيدته إذا انحني ووضع يده على صدره وطأ رأسه كالركوع تعظيمًا له. والحنايا جمع الحنية وهي القوس. أراد أن يقول: إن استدارة هذه القبة تبرز استدارة القوس. انظر في ذلك مثلاً القصائد ١٤، ١٥، ٢٧، من ديوان أبي تمام والقصائد ٧٩، ٨١٥.
- (٥) ٨٨٠، من ديوان البحري.

نحو الاعتمام بمعطيات الشام ظاهرة حسنة تسجّل للشعر  
الشامي .

وإذا كانت دمشق وحلب ومنبج والبقاع وأنطاكية قد برزت في أشعار الشاميين ، فتغنّوا  
بطبيعتها وطيرها ومائها وشواتبها فإن أياً من مدن جنديّ الأردن وفلسطين وشغورها لم يظهر  
في الشعر الذي وقفت عليه ، وهو أمر لانت للنظر حقاً ، فهل يعود ذلك إلى انزوائهما عن بسوارة  
الاعتمام السياسي فانسحب هذا على الشعراء أيضاً ؟ قد يكون ذلك .

على الرغم مما شهدته بلاد الشام من تدمير لكثير من قرأها ومدنها بفعل الفتن والحروب  
الداخلية ، والزلازل العاتية فإننا لم نظفر بقصيدة واحدة تصف شيئاً من ذلك . فلماذا أغفل الشعراء  
الشاميون هذه الظاهرة ؟ لعل ذلك راجع إلى ارتباط الشعراء بالنظم في ما يروق الممدوحين ، أو  
لعلهم نظموا في شيء من ذلك ، ولكنه لم يصل إلينا .

## ثانياً: الرثاء :-

كان طبيعياً أن يكون الرثاء من أبرز الأغراض الشعرية في بلاد الشام في هذه الحقبة ، فضلاً عن الموتى في الظروف الطبيعية فإن كثرة الفتن القبلية والصراعات المذهبية أدت إلى ارتفاع نسبة عدد الموتى والقتلى . ومن المسلم به أن الشعر لا ينظم في كل من يموتون أو يقتلون ، وإنما تنحصر دائرته في ذوى قرى الشاعر أو أصدقائه الأذنين . ودارس شعر الرثاء الشامي بنا على ذلك يجد نفسه أمام ضربين منه : الأول الرثاء في من يموتون ميتة طبيعية ، والثاني الرثاء في قتلى الحروب والفتن القبليّة .

١- أما الرثاء في اللون الأول فهو نمط من تنجع الشعراء الشاميين على أبنائهم وأزواجهم وإخوانهم ، وتندب لأغزائهم ، وتمزية لأصدقائهم ولرؤسائهم . والقاسم المشترك بين مراتبهم أنهم جميعاً كانوا مستسلمين لسلطان الموت ، مستنيمين لقضاءه ، مؤمنين بأنه النهاية الحتمية لكل حي ، كما أنهم يشتركون في تقريريتهم المباشرة في التعبير عن أحزانهم ولوعتهم ، وفي تعدادهم لمناقب موتاهم . ثم تبقى بعد ذلك لكل شاعر منهم خصوصية ذات لون متفرد ، ومذاق متميز ، وهذا المذاق ، وتلك الخصوصية نابعة بطبيعة الحال من ذاتية الشاعر واتقناده على فنّه ، ومن مستوى العلاقة التي تربطه بشخص المرثى . فهذا أبو تمام يرى ابنه يصارع الموت الذي تحكمت يده الجسارة به فتكسرت أجنانه ، وضعفت أنفاسه ، فلا يملك الشاعر إلا أن يعبر عن هول ما يرى بالقسول<sup>(١)</sup> :-

لم يَبِّنْ من بدني جُزءٌ عَلِمْتُ بسـه  
كان اللّحاقُ به أولى وأحسنَ بي  
والأ وقد حلّه جُزءٌ من الحَسَنِ  
من أن أعيشَ سقيمَ الروحِ والبَدَنِ

وقد يجد الأب المفجوع بابنه عزاءه في العقيدة فيستريح إلى فكرها الذي يعد الآباء الذين يموت صفارهم بأن يكونوا شفعا لهم يوم المعاد ، ويمثل ذلك قول ديك الجن في ابنه المتوفى<sup>(٢)</sup> :-

(١) من القصيدة ٢٠٩ ، من ديوانه بشرح الخطيب التبريزي .  
(٢) أبيات من قطعة في خمسة أبيات وردت في الحماسة البصرية برقم ١٦٦ ، ولم ترد في ديوان الشاعر المطبوع .

فَلذَّةٌ من صميم قلبي وجُـزْزٍ  
من فؤادي وقطعةٌ من ضلوعي  
إن تكن في التراب خيرٌ ضجيجٍ  
كنت لي في المعاد خيرٌ شفيح

وقد يتأني الشاعرُ المفجوعُ بابنه فيصوّرُ مأسأتهُ به ، وحزنته الكبير عليه ، وتوزّع نفسه ، واضطراب حياته وخيبة آماله بعده ، ويمثّل ذلك قصيدة محمد بن يزيد المسلمي الأُموي في رثاء ابنه السّذي مات صغيراً ، قال فيها (١) :

وَجَدَّتْ أُمُّ قَطَامٍ مَثَلَ وَجْدِي بِقَطَامٍ  
وَكَلَانَا مُوجِعُ الْحُرْقَةِ مِنْ آدِ الْعِظَامِ  
كَلَّمَا أُنْفَرْتُ سَجَلًا عَارَضْتُهُ بِسِجَامِ

ويفرغ المسلمي بعد تموير لوعته ولوعة زوجته بفقيد عما إلى تبيان مناقب ابنيهما ومناقب محتده ، وإلى الآمال العرائس التي كانا يأملان أن تتحقّق به ، غير أن الموت يعاجله : -

لو تَوَأَّقَى رَيْشُهُ جَلًّا عَنِ الطَّيْرِ الْعِظَامِ  
غَالَهُ صَرْفٌ مِنَ الدَّهْرِ غَسَوُؤٌ وَلِلْأَنْكَامِ  
فَنَقَلْنَاهُ بِأَيْدِينَا إِلَى دَارِ الْمَقَامِ

ولا يئأس هذا الشاعرُ في موقفه من الموت عن مواقف الشعراء العرب عموماً منه ، فهو مضمحّقده عليه ، واستعداداً له لصارحته لأنه يسلب البهجة من الناس ، ويحطم آمالهم ، يلقي سلاحه ، ويعلن عن عجزه ، لأن الموت لا يناطح : -

غَيْرَ أَنَّ الْمَوْتَ خَطْبٌ لَا يُسَامِيهِ مُسَامِ  
كُلُّ حَيٍّ فَلَهُ مِنْ حَوْضِهِ كَأْسٌ حِمَامِ

وهذه اللازمة تتكرر دائماً في شعر الرثاء الشامي ، ومن أمثلتها أيضاً قولُ الخريبي يرثي أحد أصحابه (٢) :

(١) مصورة تاريخ دمشق ١٦ : ١٢١ .  
(٢) مصورة تاريخ دمشق ١٧ : ٢٠٢ - ٢٠٣ في رثاء أبي سلمة الينذرين خالد .

بَطْلٌ يَزْفُهُمْ وَيُزْفُونُهُ      وَالْمَوْتُ لَا يَنْفَعُ مِنْهُ الرَّقَا  
فَكَنَ مِنَ الدَّعْرِ عَلَى رِقَبَتِهِ      وَاسْعَ مِنَ الدَّعْرِ إِلَى مَا سَعَى

ومن أجل ذلك اتَّجَهَ بعضُ شعراءِ الرثاءِ إلى مَنْحَى الزهدِ في الحياة ، أو إلى نزعةِ التشاؤمِ .  
وليس شعراءُ الشامِ في هذين المنحيين بدعاً في الشعراءِ العربِ . والأمثلة على ذلك شهيرة  
العنال لمن يطلبها في شعراءِ أبي العتاعية وأبي العلاء المعري وغيرهم .

أما في الشعراءِ الشامي في هذه الفترة فإننا نلغاها في مثل قول الخريبي في قصيدته  
السابقة :

أليس في الموتِ وما بعْدَهُ      موعظةٌ تنفعُ أهلَ النهْـسِ  
خُلَّ عن الدنيا ولذاتِهمَا      وأسلكُ إلى الله سبيلَ الهدى

ويجد الدارس في الشعر الشامي لوناً جديداً من الرثاءِ يقع عليه في شعر ديك الجن الحصي .  
وموطن الجدة فيه يظهر في تراوح قصائده بين الغزل والرثاءِ . ففي القصيدة التي مطلعها :

يا طلعةً طلَعَ الحِمَامُ عليها      وجنى لها ثمرَ الردى بيديها

والتي يقول فيها إنه قتل زوجته بيديه « تلقى شاعراً عاشقاً باكياً محترقاً بالندم . ولأن المشهد  
الذي يصفه الشاعر يختلط فيه الدم بلعاب القبل كان لهذه الأبيات حضور مذكور في مصادر  
الدرس الأدبي حتى قال صاحب العمدة في مقابلة دالة بين مرثي ديك الجن ومرثي أبي تمام :  
" وأبو تمام من المعدودين في إجادة الرثاءِ " ، ومثله عبد السلام بن رغبان ديك الجن ، وهو أشهر في  
هذا من حبيب ، وله فيه طريق انفراد بها .<sup>(\*)</sup> وما قاله فيها في صورة من التناقض المعجب بين الحقد  
والحب والغيرة :

رَوَيْتُ مِنْ دَمِهَا الثَّرَى وَلَطَّالَمَا      رَوَى الْهَوَى شَفَتِي مِنْ شَفَتِيهَا  
قَد بَاتَ سَيْفِي فِي مَجَالِ وَشَاحِيهَا      وَمَدَامَعِي تَجْرِي عَلَى خَدِّيهَا

(\*) العمدة ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط ٥ ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨١ : ٢٦١ .  
١٤٩ ، وانظر في أسباب قتل الشاعر لزوجته : الأغاني ١٤ : ٥٥ ، داود الأنطاكي : تزيين  
الأسواق في أخبار العشاق ، ط ١ ، منشورات جند ومحيبو ، بيروت ، ١٩٦٢ : ١٠٢ .

بل لقد غدا نعلًا زوجته التي قتلنا بيديه أعز عليه ما على الأرض فأقسم بهمنا :-

فوحق نعلها وما وطئ الحصنا شي أعز علي من نعلها  
ما كان قتلها لاني لم أكسن أبكي إذا سقط الغبار عليها  
لكن ضننت على العيون بحسبنا وأنفت من نظر الحسود اليها

ومن غير شك أن تجربة هذه القصيدة متميزة ، فجا التعبير عنها متميزاً أيضاً وهو لذلك يعاني غصصاً لا غصة واحدة ، هي غصص الحب والندم والحزن ، عبر عنها بوضوح في قصيدة أخرى بقوله (١) :-

غصص تكاد تفيض منها نفسه وتكاد تخرج قلبه من صدره

ومن قصائد الرثاء الشامية ذات الدفق الخاص في هذه الفترة من تاريخ بلاد الشام مطولسة عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي المينية في أخيه سعيد ، فقد بلغت عدة أبياتها واحداً وتسعين بيتاً ، أورد منها ابن المعتز في طبقاته أربعة عشر بيتاً (٢) ، واعتذر عن عدم إيرادها كاملة بقوله (٣) : " وإنما نشبت منها ما لم يكن موجوداً عند أكثر الناس ، وأما الموجود المشهور فلا نورد ما طال منه . " ويترجح لدينا أن القصيدة تزيد على الواحد والتسعين بيتاً التي أوردها الشيرازي في مخطوطة " جمهرة الإسلام ذات النشر والنظام " (٤) ، لأن أول بيت مما أورد الشيرازي منها هو قول الحارثي :-

فما أم سقّب أودعته قـرارة من الأرض وأساحت لترعى وتجععا

فلا يعقل أن يكون مفتتح القصيدة بمثل هذا التعبير " فما أم سقّب " ثم إن هذا البيت غير مصرع ، والمألوف أن يكون مفتتح جل قصائد الشعر العربي ذات البناء التقليدي مصرعاً . وقبل الوقوف على الخصوصيات الساطعة في هذه القصيدة الشامية ، لا بد من الإشارة إلى أن للحارثي مرثي أخرى في أخيه سعيد ، ويبدو سعيد في هذا الشعر سنداً قوياً لأخيه المفجوع به ، وهو لذلك يغبط أهل القبور أن كان سعيد بينهم ، وما قاله في إحداها (٥) :-

(١) الأغاني ١٤ : ٥٩ ، المعمدة ٢ : ١٥٠ .

(٢) طبقات ابن المعتز ٢٧٧ - ٢٧٨ .

(٣) المصدر نفسه ٢٧٨ .

(٤) الشيرازي : جمهرة الإسلام ، طبع بالتصوير عن المخطوطة رقم ٢٨٧ بمكتبة جامعة ليدن بهولندا منشورات معهد تاريخ العلوم العربية الإسلامية ، جامعة فرانكفورت ، جمهورية ألمانيا الاتحادية : ١٢٥ .

(٥) الشيرازي : شرح ديوان الحماسة ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة حجازي ، القاهرة ٢ : ٢٤٤ ، الحماسة البصرية ، القصيدة رقم ٩٣ .



إِنِّي لِأَرْيَابِ الْقُبُورِ لَغَابِيْطٌ  
وَإِنِّي لَفَجُوعٌ بِهِ إِذْ تَكَثَّرَتْ  
أُتَيْنَاهُ زُرَّارًا فَأَمَجَدْنَا قِيْسِي  
وَأُبْنَا بَزْعٍ قَدْ نَمَّا فِي صَدْرِنَا

بُسُكْنِي سَعِيدٍ بَيْنَ أَهْلِ الْمَنَابِيْرِ  
عُدَاتِي ، وَلَمْ أَهْتَفْ سِوَاهُ بِنَاصِرِ  
مِنَ الْبَيْتِ وَالسَّدَائِ الدَّخِيْلِ الْمُخَامِرِ  
مِنَ الْوَجْدِ يُسْقَى بِالدَّمِوعِ الْبَوَادِرِ

والطريف في هذه الأبيات أن التعبير عن الحزن الفردي بدأ أولاً ، وذلك بحكم خصوصية العلاقة بين الشاعر والفقيد ، وهو ظاهر بضمير المتكلم ، ثم جاء التعبير عن الفقد الجمعي وفقاً لذلك ثانياً : -

ولمَّا حَضَرْنَا لِأَقْتِسَامِ تَرَائِيهِ  
أَصْبْنَا عَظِيْمَاتِ اللَّهْمَى وَالْمَأْتِيْرِ (١)

أما العينية (٢) المطولة التي أعجبت ابن المعتز كما أعجبت الأصمعي حتى فضل صاحبها على جرير والنزدي والأخطل وابن منذر (٣) ، فقد صاغها عبد الملك على نبط القصيدة العينية المفتوحة التي قالها متمم بن نويرة في أخيه مالك (٤) . وأول عينية الحارثي كما أوردها الشيزري : -

فَمَا أَمْ سَقَبٍ أَوْ دَعَمَتْهُ قَسْرَارَةٌ  
مِنَ الْأَرْضِ وَأَسَاحَتْ لِتَرْعَى وَتَهَجَّعَسَا

ومطلع عينية متمم : -

لِعَمْرِي وَمَا دَعَمْرِي بِتَأْبِيْنِ مَعَالِيْكَ  
وَلَا جَزَعًا مَّا أَصَابَ فَأَوْجَعَسَا (٥)

وعلى الرغم من التناهي القصيدتين في الموضوع وتماثلهما في الوزن والقافية وحرف الروي وحركته فإن الحارثي فاق متمم بن نويرة في تصوير حدة المعاناة حين خصص واحداً وعشرين بيتاً لوصف معاناة الناقة التي هي في الواقع صورة عن معاناته .

- (١) اللهمي : جمع ليهوة وهي أفضل العطايا وأجزلهما .
- (٢) الشيزري : جمهرة الاسس - ٢٥ .
- (٣) ابن منذر شاعر بصري عباسي خليع ، كان فصيحا مقدما في العلم باللغة ، عاصر الرشيد . انظر ترجمته في الاغانسي ١٨ : ١٦١ - ٢١٠ .
- (٤) رثي متمم بن نويرة - وهو مخضرم - أخاه مالكا الذي قتل في حروب الردة لامتناعه عن أداء الزكاة . انظر جو قصيدة متمم في : المفضل الضبي : المفضليات ، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد حارون ، ط ٢ ، دار المعارف بصر ١٩٦٤ : ٢٦٣ ، والقصيد - في المصدر نفسه : ٢٦٥ - ٢٧٠ .
- (٥) ما دعمرى بتأبين : أي هي وإرادتي وعادتي . وجزع بالجوع عطف على " تأبين " وبالنصب على أن الباء زائفة .

في حين نجد متمماً يذجاناً منذ البيت الأول في قصيدته بأنه تجلّد وصبر، وبأنه لم يقصد بشعره النوح، وإنما قصده تعداد مناقب أخيه، غير أن هذه المكابرة لم تدم طويلاً فبكى أخاه بحرقه في البيت الحادي عشر، ثم ضرب مثلاً لشدة وجده بثلاث من النوح فقدت كل منهن حُوارها الذي تعطف عليه، في أبيات أربعة قال فيها (الأبيات ٤١ - ٤٤) :-

وما وَجَدَ أَظَارَ ثَلَاثَ رَوَائِبِمْ      أَمِينٌ مَجْرَأً مِنْ حُورٍ وَمُضْرَعًا (١)  
 يَذْكُرُنَّ ذَا الْبَيْتِ الْحَزِينِ بَيْنَهُ      إِذَا حَبَّتِ الْأُولَى سَجَعْنَ لَهَا مَعَا  
 إِذَا شَارَفَتْ مِنْهُنَّ قَامَتْ فَرَجَعَتْ حَنِينًا فَأَبْتَكِي شَجْوَهَا الْبِرَكَّ أَجْمَعًا (٢)  
 بِأَوْجَدَ مِنِّي يَوْمَ قَامَ بِمَالِيكَ      مُنَادٍ بُصِيرٌ بِالْفِرَاقِ فَأَسْمَعًا

أما في عينية الحارثي فتصدر القصيدة لوحة يرن المدقق فيها ظبية أو ناقة - وأرجح الثانية لأنها أقرب إلى منطق الحدث - انساحت في الأرض بحثاً عن المرعى وقد تركت صديريها في قسرة من الأرض يبتز في مشيته لحدائث ولادته، وإذا ما أحست أمه بنبأه رفعت صوتها، حتى إذا ما تسلسل إليه بعد حين صياد أخذ الجوع منه كل مأخذه، ومزق لحمه ونهل منه وعل، وقفت أمه على أشملاء جسمه المعزق فولولت ورجعت حزناً، وضربت الأرض بقوائمها، وما قدر مالكوها على إسكاتنا إلا بشد الحبال على عينيها، ومع أن ظاهراً الأبيات يبرز الشاعر يتحدث عن مأساة هذه الناقة وحكايتها مع ابنها والصياد، فإنه لم يستطع أن يخفي مراده حتى نهاية الشوط، فقد تحولت هذه الناقة فسي أبيات نالية ملتحمة باللوحه نفسها إلى امرأة تندب فقيدها وتنوح عليه نوحاً تظفرت له قلوب نسساء، الحي، فتجمعن من حولها ليشاركنها في العميل، يقول في هذه الأبيات المشحونة بالحياة والحركة، المتدفقة بالوداعة واللطافة والبدو، في مبتدأها، المتوترة المتوفزة القلقة في منتهاها، وهي تعكس في هدوئها رخاء الحياة وعنائها أولاً، والصخب فيها بالصخب بالفجعية والممسات ثانياً :-

فَمَا أُمُّ سَقْبٍ أَوْ دَعْتَهُ قَسْرَارَةً      مِنَ الْأَرْضِ وَأَنْسَاحَتْ لِتَرْعَى وَتَهَجَعًا (٣)  
 لِحَيْسٍ كَمَثَلِ الْأَيْهَقَانِ ابْنِ لَيْلَةَ      أَمْدُ قُوَاهُ أَنْ يَبُوءَ فَيَرْكَعًا (٤)

- (١) الأظار: جمع ظفر وهي العاطفة على غير والدها المرصعة له من الناس والأبل، والروائم: جمع رائم وهي المنخات اللاتي يعطفن على الرضيع. والحوار: ولد الناقة. والمجر والمصرع: مضموران من الجر والصرع (حاشية المفضل: ٢٧٠).  
 (٢) الشارف: المسنه من الأبل وإنما خصها لأنها أرق من الفتية لبعده الشارف من الولد البرك.  
 (٣) الجماعة الباركة من الأبل. وفي طبقات ابن المعتز: أخشف والخشف ولد الظبي، ورواية الشيزري اصح السبق: ولد الناقة، وفي طبقات ابن المعتز: أخشف والخشف ولد الظبي، ورواية الشيزري اصح بدلالة الأبيات يعلم.  
 (٤) لحيس: أي لا تزال أمه تلحسه لقرب عبده بالولادة. الأيهقان: عشب طويل عريض الورق زهره كزهرة الكرنب إلا أنه أصغر وفي طعمه حراققة.

ويبتزني المشير القريب كأنثه  
نظلت بؤستن الصبا من أمامه  
إذا غفلت نادى وإن نأت نبأه  
قضيبت من ألبان ارتوى فترفعنا  
تبغم في المرعى إليه ليسمعنا (١)  
على سمعها تذكره طلاها فترفعنا

فهذه صورة للحياة بكل آمالها وطموحاتها ، والنبأة فيها رمز لناقوس الخطر ، ومظهر من مظاهر الرعبية الخفية من الموت الذي يترص بالناس والأحياء جميعاً . وإن "عاري التراقي الشاسب المَجُوع" هو صورة قبيحة للموت الذي يلص الحياة ، ويكدر الصفو ، وينهي السعادة :-

فخالقها عاري التراقي ابن قفرة  
فأنهل منه بعد علي ولم يمدع  
أخو قفرة أضحى وأمسى مجوعنا (٢)  
للمتيس إلا وشيقاً مددعنا (٣)

وماذا يملك الإنسان بعد أن يفقد أعزاه غير الوجد وعمق الجراح والذكرى الممضة التي يحيا عليها بعد رحيله :-

فجاء برياء نسيم من التنبنا  
مولبة لم يترك الوجد عند هنا  
فطانت بلمقاء ومضغ جنبه  
وندت على وحشيتها تركب الرئسي  
فلاياً بيلاي ما تنوما عشيقة  
فقامت لشير البرك يدعو حنينها  
إليها ورزء جسر تكلاً فأوجعنا  
بواحدتها إلا فوا إذا مروعنا  
فسانت دماً منه وشلوا مقطعنا (٤)  
وتنفي الحصا أخفافها قد تمدعنا (٥)  
وسدوا يقينيتها الحبان لتربعنا (٦)  
حينئذ المواليه الشكالي المرجعنا (٧)

فبمثل يعقل أن يكون هذا كله وصف حال لناقة ذبح وليدها ؟ إن نفس الشاعر المكلومة بفقد الأخ الحبيب هي الناقة ، وإن في دعوتها الصريحة لنساء الحي أن يشاركه ألمه أكبر شاهد على صحة هذا التوجيه الرمزي لهذه الأبيات ، فهو يقول :-

وقمن بجنبتيها فأسعدن شجوعها  
كما أسعدت الحي المصاب الفجعنا (٨)

- (١) المستن : المضطرب والمذهب . تبغم : تصوت بألين صوت .
- (٢) خالفها : أي قصد ولدها وهي مولية عنه . الشاسب : الضامر المنزول .
- (٣) الوشيق : اللحم يقدر حتى يببس . المددع : المبيد .
- (٤) سانت : شمت ، الشلو : المضمون من أعضاء اللحم وكل مسلخ أكل منه شيء ، وبقيت منه بقية .
- (٥) الأخفاف للناقة كالحوافر للفرس (٦) القينان : موضع التقيد من وطئ يدي البعير
- (٧) المواليه : هي الشديدة الحزن والجزع على ولدها . وفي الأصل : أخير البرك ، وداعى لها . والبرك : جماعة الإبل
- (٨) أسعدن : أسعفن

فَحَنَّ نِسَاءُ الْحَيِّ مِنْ بَعْدِ هَمْجَعِيَّةٍ      لَصَوْتِ دَعَا إِنْكَالِهِنَّ فَأَسْمَعَنَا  
فَمَا شَقَّ ضَوْءُ الْفَجْرِ حَتَّى تَصَدَّعَت      جُيُوبٌ ، وَحَتَّى فَاضَ دُمُوعٌ فَأَسْرَعَنَا

لقد صبَّ الشاعر في هذه الأبيات أحاسيسه كلها ، وشاعريته جميعها ، فجاءت بحق ذوب نفس ، وحرقة قلب ، وإبداع مصور . وقد التحمت أبيات هذه المقدمة في بُنيان نفسيٍّ مدهش يبدأ بالبيت الأول : -

"فما أم سقب . . . . ." وانتهى بالبيت الحادي والعشرين : -

بَأَوْجَعَمَنِي يَا سَعِيدُ تَحْرُقَنَّكَ      عَلَيْكَ ، وَلَكِنْ لَمْ أَجِدْ عَنْكَ مَدْفَعًا

وما تجدر ملاحظته على هذه القصيدة أيضاً أن هذا الدفق العاطفي الذي تبين لنا في أبياتها الأولى أخذ يفتر في أبيات القصيدة التالية ، كما أن التصوير فيها تراجع ، وتغلبت عوضاً عن ذلك الصبغة التقريرية بتعداد مآثر الفتيق ومحاسنه ، وبإظهار الفجعة والحزن على المتوفى ، وما قاله في حزنه : -

فَأُتْسِمُ لَا تُنْفَكْ نَفْسِي سَجِيَّةً      عَلَيْكَ ، وَوَجْهِي حَائِلُ اللَّوْنِ أَسْفَعًا

أما المرثي فقد حشد له الشاعر محاسن الصفات وأنبأها ، وعي في جملتها صفات تعكس القيم المثلى المظوح بتوافرها في كل زعيم ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر قوله : "كان للحسي عصمة" وأبيض وشاح الجبين" "قطيع لسان الكلب عن نبج ضيئه" "يصون ببذل المال نفساً كريمة" "لم يهئم بغير" "لم يعب بعجز" "لم يمدد إلى الذم أعبعاً" "حماً لكل عظيمة" "لا يدعسو إلى الشرنفسه" "إن جاءه الشرايطه" "مقاتل أشوس" "متفضل على نساء الحي يجللهن خيراً وقزاً" "لا يستخس القدر من دون جاره" "حسي" "يلبس فاخر الثياب ويتطيب بالعبير" "يسقي براحته الخير لصديقه والسم لأعدائهم" . ويلاحظ أن أياً من هذه الخصال لم يعكس صفة واحدة من الصفات التي تتعارض مع القيم الإسلامية بخلاف بعض ما ذكره متم بن نويرة في أخيه كقوله نافيًا عنه الفحشا في أثناء مجالسته لشاربي الخمر : -

وَإِنْ تَلَقَّه فِي الشَّرْبِ لَا تَلَقُ فَاحِشًا      عَلَى الْكَأْسِ ذَا قَانُورَةٍ مُتْرَبًا (\*)

(\*) ذو القانورة : الرجل يتبرم بالناس ويتقدر منهم لسوء خلقه ، والمتربع : السبي الخلسق .

وكقوله ذاكراً أن أخاه لم يكن يمنع أن يؤرّع نصيبه من العيسر على الفقراء :-

وإن شَهِدَ الأيسارَ لم يُلَفَّ مالَكَ      على الفَرثِ يحمي اللَحْمَ أن يَهزَعَا (١)  
وسبب ذلك أن متعماً كان لا يزال يذكر تيمناً جاعلية لفتيد جاعليسي .

ويلتقي الشاعران بعد ذلك في تعزية نفسيهما بما تصيب النايا من الملوك والأثيال . أما  
متّم فذكر "رعط كسرى وتبعاً" في قوله :-

وعشنا بخيرٍ في الحياة وقبَلْنَا      أصابَ النايا رَهْطَ كِسْرَى وتَبَعَا

واكتفى بهذا البيت ، وأما الحارثي فبسط ذلك في خمسة أبيات عدد فيها أسماء بعض مشهوري ملوك  
اليمن ، وختم ذلك بقوله :-

وما أَحَدٌ إِلاَّه الموتُ ناصِباً      بموتِهِ مِنْه حَبائِلُ صَرَعَا  
وكلُّ امرئٍ مِنْهَا بِمَنْزِلِ قَلْعَةٍ      وإنْ وُلِدَ الأَوْلَادَ فِيهَا وَجَمَعَا (٢)

وعلى الرغم من التماثل الشعريين في كثير من معانيهما وصورهما في القصيدتين حتى ليكاد  
يكون الحارثي في كثير منها صورة أخرى مماثلة لمتّم فإن بين القصيدتين اختلافاتٍ أبرزها اثنان :-  
الأول : افتخار متّم في قصيدته بنفسه وقدرته على الصبر على ريب الزمان ، في حين كان كل همّ  
الحارثي أن يُظهر مدد فجيعة بأخيه ذي المناقب المتميزة .  
الثاني : دعاء متّم لقبر أخيه بالسُّقيا وهو دعاء اخْتِمْ بقوله :-

فوالله ما أُسقي البلادَ لِجَبِّهَا      ولكنني أُسقي الحبيبَ الموتى

وهذا دعاء يكشف عن أنانية ضيقة ، وذاتية مفرطة ، في حين لم يرد في قصيدة الحارثي شيء من  
ذلك فأبقى ذلك وهذا للقصيدة ومهجها ، وانتقاد الحرفي فيها دون تنمير لمسارها الأول . كأن إحساس  
الحارثي بعظمة خسارة من فقد كيان أكبر من إحساس متّم بيبه .  
وعلى أية حال فإن إحساس الحارثي بالرغبة الدفينة من شبح الموت كان عظيماً . ويشازك

(١) الفرث : حشوة الكرش . يتمنع : يتقطع .

(٢) منزل قلعة : أي الدنيا دار انتقال وارتحال .

الحارثي غيره من شعراء الشام في أن هذا الإحساس النائر في الأعماق لا يطفو على السطح ، ولا يظن إليه إلا إذا دهم الموت عزيزاً عليهم . فبدت ظاهرة الموت في أشعارهم جميعاً جزءاً من المراثي ، ولا تستقل بالنظر في ذاتها والتفلسف حولها .

ومن لَحَّ إليها أيضاً من شعراء الشام والجزيرة ديك الجن الحمصي ، وأبو يعقوب الخُرَيْمي ، وكلثوم بن عمرو العتابي .

أما ديك الجن فيقول من قصيدة رثى بها جعفر بن علي الهاشمي الذي كان صديقه (١) :

نزلنا على حُكْمِ الزمانِ وأُمُورِهِ      وهل يُقْبَلُ النُّصْفُ الألدُ المُشاغِبُ  
ودافعتُ في صَدْرِ الزمانِ ونَحْرِهِ      وأيُّ يدٍ لي والزمانُ مُحْسارِبُ؟

وقوله في المعنى نفسه من قصيدة يعزي فيها هذا الهاشمي عن زوجته (٢) :

نُغْفَلُ والأيامُ لا تُنْفَلُ      ولا لنا من زَمَنِ مَوْتٍ لُـ  
والدُفْرُ لا يَسْلَمُ من صُرْفِيهِ      أُعْصَمُ في القِنَّةِ مُسْتَوْعِرُ لُـ

فالزمان في نظر الشاعر طاقة جبارة ، والإنسان قدرة محدودة ضعيفة ، والصراع محسوم بالبداية لتسالح الزمان .

ولا يئى العتابي عن هذا المعنى العام إلا في تركيزه على عبث الزمان بمسرات الإنسان ، يقول (٣) :

أَيُّنا قَدَّمَ صرُوفَ النايِ      فالذي أَخَرَتْ سَريعَ اللِّحْيِ  
ويَدُ الحادِثاتِ رَهْنٌ بِمِصْرًا      من العَيْشِ مُصْبِراتِ المَذاقِ (٤)  
غَرَّ من ظَنِّ أن تَفُوتَ النايِ      ومُراها قلائِدُ الأَغْنِياقِ (٥)

(١) ديوان ديك الجن بتحقيق أحمد مطلوب وعبد الجبار المعييند : ٥٦٢ .  
(٢) المصدر نفسه : ٥٦٥ .  
(٣) شعر العتابي ، جمع ناصر حلوى ، القصيدة رقم ٥٤ .  
(٤) مصبرات : الصبر عسارة شجر مر واحدتها صبره .  
(٥) العرى : مفردها العروة وهي طوق القلادة .

بينما المرءُ في غَضارةٍ عِيْرٍ  
عَطَفَتْ نِيْدَةَ الزمانِ فــــأد  
ولا يدومُ البقاءُ للخُلُقِ لــــك  
وصلاحٍ من أَمْرِهِ وانْتِــــاقِ  
تَه إلى فائِةٍ وضيْقِ الخِنْسِاقِ  
ن دوامُ البقاءِ للخــــلاقِ

فأشد ما يُقضى مضجع الشاعر هنا فُجاءة الموت التي تفسد غضارة العيش "فعرى النايا تلائد الأعناق"

ويتنقن الخريمي أن لو تسير الحياة بلا رهبة من الموت فيستمتع الإنسان بما يحب وبمن يحب غير أنه لا يتلبث طويلاً عند هذه اللقطة التي لو أتاحت لها شاعرية عميقة خلّاقة لأبدعت شعراً إنسانياً، ولكنه الارتباط بالمناسبة يعجل في التحول عن مثل هذه الرؤية، فيقول من تصيدة رثى بها خُرَيْم ابن أبي المهيدام المُسَوْرِي (١) :-

قضى وطراً منك الحبيبُ المــــودّع  
وعلى للفتى جازٍ يُجَنِّبُه الــــردى  
وأيقنتُ أن الحيَّ لا بــــدَّ مَيِّتٌ  
وحلَّ الذي لا يُسْتَطاعُ فَيَدُفــــعُ  
فيصبحُ منه آمناً لا يــــرُوعُ  
وأن الفتى في أهله لا يُتــــمُّ

أما رثاء العلماء الشاميين البارزين فيلاحظ عليه غلبة النزعة العنقية وخفوت العاطفة فيسهل ومن ذلك أن شاعراً شامياً قال في رثاء الإمام الأوزاعي (٢) :-

جادَ الحياَ بالشامِ كلَّ عَشِيــــةٍ  
قبراً تضمَّنَ فيه طوْدُ كلِّ شريــــةٍ  
عَرْضَتْ له الدنيا فاعْرَضَ مَقْلَمــــًا  
قبراً تضمَّنَ لِحْدَهُ الأوزاعي  
سُقياً له من عالمِ نَفْســــاعِ  
عنها بزُهْدٍ أَيْماَ ائْتــــاعِ

فقصر رثاءه له على الترحم، وذكر بعض المناقب دون أن ينبثق في شعره ما يدل على حزن حقيقي، بل إنه لم يتم بمسافة هذا الشعر فقد نصب "قبراً" ب"جاد"، وهذا على ما قال الياضي، وهو صحيح، لا يجوز إلا بتعسف شديد وإضرار محذوف تقديره: جاد فسقى قبراً، وكذا قوله: تضمّن فيه "وكان يعني" تضمّن "عن" فيسه (٣).

- (١) ديوان الخريمي: ٣٩ - ٤٥.  
(٢) وردت هذه الأبيات غير معزوة في: الياضي، "مرآة الجنان"، تحقيق عبد الله الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٤، ١: ٣٥١.  
(٣) مرآة الجنان ١: ٣٥١.

ويتبدى خفوت العاطفة كذلك في شعر رثاء الشعراء بعضهم لبعض، إذ تبرز في هذا الشعر مزايا المتوفى إبرازاً تقريرياً خالياً من أي استشعار للوعة الفقد ومرارته، فمرثية ديك الجن الحمصي لصديقه الشاعر الأحمس الذفاني العبسي تجري على هذا النحو (١) :-

مضى فارسُ الآدابِ والمجدِ والشُّعْرِ      وقِسْوَرةُ الأبطالِ والورقِ والتَّبْرِ  
فتى ما تراءته الكُماةُ ولو غَسَدَت      ذويَّ عَدَدٍ إلا رأت جَحْفلاً يَسْـُـري  
عُلُوًّا وإسلامًا وبأسًا ونائلاً      غداةَ الندى والدينِ والبأسِ والفخْرِ

فليس لهذا الشعر أدنى قيمة من الوجهة الفنية، وستان بينه وبين مرثي ديك الجن فسي جاريته .

ومن هذا الضرب نفسه رثاء الشاعر الحلبي لأبي تمام، وقد ظهر الحلبي في هذا الرثاء حزناً كاسف البال على النيلم المفقود بموت حبيب، يقول (٢) :-

فما الميتُ أبكي بل جَجًّا ومروءةً      وعُلماً أرى فيه المذلةَ واليتمَّسا  
فيا لحبيبٍ دعوةً لو تفرغَ غَسَرَت      بمَسْمَعِ آجالٍ إذا لَغَدَتْ صَمَّسا  
تشتت رأيي كنت في عينيهِ قَدَدِي      وفي أذنيه وقراً، وفي فيه سُمَّسا  
وما كنت دونَ الناسِ أشرفَ مُصِيبًا      وفَرَعًا، ولكن كنت أشرفَهم عِلْمًا

ورثى بعض الشاميين غلمانهم بشعر هو مزيج من الغزل والرثاء، فجاءوا بضرب غريب من الشعر، ويمثل هذا الضرب من الرثاء الغزل رثاء البحري لفلان قيسر، فقد جاءه وعمير برأس عيسن خبر وفاة هذا الغلام بمنهج، فقد قال (٣) :-

تَضَلَّلني أُمالي لُ الأمانِسي      بعيشٍ بعد قيصَرَ لا يطيبُ سبُّ  
تولَّى العيشُ إذ ولَّى التَّصابِسي      وماتَ الحُبُّ إذ ماتَ الحبيبُ سبُّ  
نصبي كان من دُنْيائِي ولَسِي      فلا الدُّنيا تُحسُّ ولا النَّصيبُ سبُّ  
أرثيه ولو صدقَ الحُتَيْبِسي      لكانَ مكانَ مرثيتي النَّسيبُ سبُّ

- (١) بغية الطلب، ورقة ١٧٩، ولم ترد في نسختي الديوان المطبوعتين .  
(٢) بغية الطلب ٨ ورقة ٢٦٣، وقال ابن العديم : وتروى هذه المرثية لديك الجن في أبيسي تمام وهي ليست في نسختي ديوان الديك .  
(٣) القصيدة ٨٥ من ديوانه .



وأكبر الظن أن هذا الشعر رثاء للنفس، إذ كان عمر الشاعر - كما صرح في هذه القصيدة - ستة وستين عاماً، وكان يعاني الضربة وآلامها، فوجد في وفاة غلامه مذكراً بمصيره الذاتي، بل وإن الإفصاح عن الضيق النفسي في القصيدة كان أقوى من التعبير عن الحزن، وكان مبعث هذا الضيق بعد الشاعر عن داره وأهله، فخشى أن يلقي الموت في دار الاغتراب كما لقيه غلامه هذا الرومي بعيداً عن أهله القاطنين وراء الدروب :-

وما كانت لتبعد عنك عيـنـن  
وأبهم يـمير عليك دمعـنا  
سئوح الدمع لو أتت قريـب  
وآلس دون أهلك والدروب

وتتضح هذه المقايسة بين حال الغلام وحال مولاة بنمورة أجلى حين يقول بعد ذلك :-

لقد سر الأعدى في أنـسي  
وأنت اليوم عن وطنـي شريـد  
برأس العين محزون كـيـب  
بلا جرم ومن مالي حـريـب  
على حين استتم الوهن منـسي  
وأعطي في ما احتكم المشيب

## ٢ - الرثاء في قتل الفتن والحروب :-

إن الطابع العام لقصائد الرثاء في الشعر الشامي واحد، وهو طابع المرثية نفسه فسي الشعر العربي الذي يقوم على تعداد المناقب، وإظهار التفجع واللوعة على الفقد، ومع ذلك فإن في قصائد رثاء القتلى أبعاداً تنضاف إلى سمت العام للمرثية، ففي مرثي قتل الفتن الداخلية نعوت بطولة، ووعود بشارات، وتهديد للخصوم، بل قد يطفئ التهديد والوعيد على رنة الحزن، وبخاصة إذا صدر هذا الشعر عن نفس زعيم قبلي أو فارس معدود، فأبو الهيثم عامر بن عمارة المرثي لا يبكي أخاه عثمان بالدمع بل "بالبيئ الرقاق وبالقنا" لأنه "ليس كمن يبكي أخاه بعبرة يمصرها من ما مقلته عصرا" (\*).

ولكنني أشفي الفؤاد بنفارة  
ألهب في قطري كتابها جمرا

(\*) تاريخ مدينة دمشق (تراجم حروف العين المتلوة بالألف) : ٣٩٣، معاهد التنصيص ١ : ٢٥١ - ٢٥٢، وقد وردت الأبيات معزوة لصادق كامل العبيسي في رثاء أخيه بدر في تهذيب ابن عساكر ٦ : ٣٦١ .

بل يربأ بنفسه ويقومه أن يبكوا قتلاهم بالدموع :-

وإنا أناسٌ ما تغيضُ دموعنا  
على هالكٍ منا ، وإن تصم الظهرا

فكان الرجولة والزعامة تأنفان الاستخذاً بالبكاء . وعلى هذا النسق من الرثاء غير العاجز ولا المستكين وإنما الرثاء الحاد العنيف قول الشاعر صدر بن كامل بن بدر العبسي في رثاء أخيه الذي قتلته قحطان في حرب أبي الهيثم (١) :-

لئن قتلت قحطانُ بدرًا فإنما  
أراها نجومَ الليلِ كارهةً ظهرا  
أقام لها سونَ الجلالِ ابنُ كاملٍ  
فأنفذها قتلاً ، وأوجعها عقرا  
فإن يك بدرٌ قد مضى لسبيله  
فما مات محسوداً ، ولكن شفى صدرا

فالمقتول لم يخل مكانه إلا بعد أن أبلى في ميدان الوغى بلاً عظيماً أفزع فيه الخصوم ، فأراهم نجوم الليل ظهرا " وأوجعهم عقرا " وشفى صدور بني أبيه منهم .

ولم يكن شعرا البين أقل مكايرة من شعرا قيس في تهديدهم ووعيدهم ومحاولتهم الالتفاف على أحزانهم . فحجوة بن مذرث النساني سيكي أسعد النساني بالبيض وبالقنا أيضاً (٢) :-

سأبكي فتى غسان أسعداً ما دعست  
على فتن الأشجار ورن الحمايم  
وأبكي إماماً عشق بالبيض والقنا  
وفتيان صدق كالليوث الضراغيم  
يخوضون نحو الموت خوفاً كأنهم  
مصعب تحت الداميات المناسيم (٣)  
بأشيانهم زار الحتوف ابن كامل  
ومن بعده شواه زار ابن حاتم

وعلى ذلك يتضح أن المراثية قد تحولت إلى فخر بالأحيا ، وتهديد ووعيد علت نبراته دفقات الحزن المستكة أو الظاهرة على استحيا ، كما أن حب الثأر والوعيد به سما على ما عداه ، وتوارت منه تماماً الروح الإسلامية ، ولولا المعرفة بأصحاب هذه النصوص ، وبالظروف التي قيلت فيها لجازت نسبتها إلى أي من شعرا العراشي الجاهليين .

(١) تهذيب ابن عساكر ٦ : ٣٦١ .

(٢) تهذيب ابن عساكر ٤ : ٩٠ ، بغية الطلب ، نسخة فضل الله ، ترجمة حجوة بن مسدرك .

(٣) المصعب : جمع مصعب وهو الفحل من الإبل يعنى من الركوب . والمناسم : جمع منسم وهو طرف خف البعير .

وأوقفنا الفتن الداخلية على مراث لاثنتين من النسوة الشواعر ، الأولى امرأة يمنية ترثي أخاها - أو ابنها - ويدعى عمراً ، كان قتل في حرب أبي الهيثام ، والثانية هي ليلي ، أو الفارعة ، الشيبانية التي رثت أخاها الوليد بن طريف . أما الأولى فتقول في فقيدها (١) :-

عينُ بالدُّمْعِ فاستهَلِّي لعمُرٍ	بدُموعِ غزيرةِ الهَمِّ لآنِ
قتلته قيسٌ ففرت بِقتلتي	قيسَ عيلانَ ، مَنِّي العَيْنَانِ
قتلوه مثلَ الهلالِ جواداً	بالمطايا ييَسَّرُ بالإخوانِ
قتلوه مثلَ القناةِ طريراً	مائِدَ الأضلِّ ، طيِّبَ الأذنانِ
وبعثوه فوجِعَتْ ، لهني عليه	أبداءً ، أو ألفَ في الأَكفَانِ
فقدته عَنَسُ الكرامِ وخسولاً	نُ ، ومن مثلُ عَنَسٍ أو خسولانِ
ليت يعمري فذات أكبرِ همِّي	هل يُقدني الزمانُ من عيِّلانِ (٢)

إن أدنى مقابلة بين مرثية هذه الشاعرة ومراثي الفرسان السابقين يظهر الفرق ساطعاً . ففي هذه الأبيات تبرز العاطفة الأثوية العميقة بروزاً مجلياً ، وفيها استشعار بهول المأساة ، وهو باد في هذا التكرار للفظه بغضبة على النفس في لفظة القتل ، كما يبدو هذا الاستشعار بهول الفاجعة في ألفاظ الفجيعه واللمف والهلم واقتاد الكرم في شخص المقتول ، وفي الدموع الخنزيرة المنهملة . ولم تجد الشاعرة لها عزاءً إلا بأملها أن الزمان سيقيدها بأخذ الثأر لها من تيس عيلان .

أما مراثي ليلي ، أو الفارعة ، الشيبانية في أخيها الوليد ، فقد روت المصادر لها في قصيدة مشهورة كثر دورانها - كما أوضحنا ذلك من قبل - في مصادر الأدب والتاريخ ، ومعظم قصيدتين آخرين . وهذا المقدار الذي وصلنا من شعرها يدل على أن صاحبته شاعرة ذات تمييز واقتدار على قول الشعر الجيد ، فهل يعقل أن يكون هذا عموكل ما نظمته هذه الشاعرة ؟ إن المنطق يفترض أن يكون لها شعر آخر ، ولكنه جرى عليه ما جرى على غيره من أشعار الخوارج . ولنا في قول ابن خلكان ، وتابعه صاحب "معاهد التنصيص" ، خير دليل إذ يقول : "ولليلي أخت الوليد ابن طريف فيه مراث كـ... (٣) ."

(١) تاريخ مدينة دمشق ، تراجم النساء : ٥٨٨ .

(٢) يقدني : يأخذ لي بشأري .

(٣) وفيات الأعيان ٦ : ٢٣ ، معاهد التنصيص ٢ : ١٦٤ .

أما قصيدتها المشهورة فمظلمتها : -

بتلّ نباتي رَسْمُ قَبْرِ كَأَنَّه  
على عَلِيٍّ فَوْقَ الْجِبَالِ مُيَسْفِرُ (١)

وفي القصيدة تودع في عواطف الشاعرة التي فجعت بأخيها، فألقت من ظلال نفسها الحزينة على الكون كآبة مماثلة ، واضطربت فاضطرب رب : -

أيا شَجَرَ الخابورِ مالَكَ مُورِقًا  
كأَنَّكَ لم تُجَزَّعْ على ابْنِ طَرِيفِ  
ألا يا لَقُومِي لِلجَمَامِ وللِبَلْبَلِ  
وللْبَدْرِ من بين الكواكبِ قد هَمَّوِي  
وللشمسِ لما أزمعتْ لِكُسُوفِ

ويلاحظ أن الطبيعة قد انقسمت في الحزن على أخيها إلى قسمين متباينين : -

١- الطبيعة الخضراء (مثلة بشجر الخابور) لم تحزن .

٢- الطبيعة السماوية (مثلة بالبدور والشمس) شديدة الأسى لفقده .

وذلك وهذا مع أنها تقول إن الأرض عمت برجيف . فما سبب هذا الاضطراب في الفكر وفي التعمير عنه ؟ إن مأساة الشاعرة الخاصة مأساة ذات حدين : فالمقتول أخوها ، وقاتله سيد من سادات قبيلتها ، فلعلها إذ ن رمزت بشجر الخابور الذي لم يحزن إلى فريخ بني شيبان المشايخ ليزيد ، وهم قلة معنويًا كثيرون عددًا ، ورمزت بالأرض والسما الحزينة المتفطرة إلى بني شيبان المشايخين للوليد وهم قليلون عددًا كثيرون معنويًا ، وقد أفصحت الشاعرة عن شيء من هذا الترميز في قصيدة أخرى لامت فيها يزيد وأشياعه ، ولكنها لم تتجاوز حدود اللوم ، للسبب نفسه الذي جعلها مضطربة فسـ تصوير الطبيعة منقسمة على نفسها غير حزينة وحزينة في آن واحد . تقول لائمة في هدوء يخفي حزنًا محتقنًا ، وأسى مكبوتًا (٢) : -

يا بني وائلٍ لقد فجعمتكُم  
من يزيدٍ سيوفهُ بالوليدِ  
لو سيوفٌ سوى سيوفِ يزيدِ  
قاتلته لاقَت خِلَاتِ السَّعْودِ  
وائلٌ يعضها يقتل بعضًا  
لا يفلُ الحديدُ غيرَ الحديدِ

(١) اختلف في اسم هذا التل فقيل تبل نباتي أو تل تباثا ، أو تل نهاكي . . . . وقال ابن خلكان :

تل نهاكي أظنه في بلد نصيبين وهو موقع الواقعة المذكورة .

(٢) وفيات الاعيان ٦ : ٣٢٩ .

إن الحزن في قصائد الشاعرة الثلاث - على حدث وقوته - لم يتحول إلى حقد على القاتل « بسبب من إشكالية علاقة الشاعرة بالقاتل والمقتول » وكانت تحاول أن تريح أعصابها حيناً بوجودان معادل منطقي مهدى، فتستنيم إليه مكابرة عندما تقول : « لا يقل الحديد غير الحديد »، وحيناً آخر بتعبيرها عن أن مأساتها في أخيها هي في الواقع مأساة قبيلة فرطت في حق نفسها إذ فرطت فيه (١) :-

أشاعتك قومك فليطلبوا  
إفاداة مثل الذي ضيعوا

غير أن الحزن « والدمعة الحرى » وتمداد مناقب القتيل من تنى وشجاعة وفروسية وندى تظل عسى الأبرز في شعر الشيبانية . فمن مناقب أخيها تذكرني أسى :-

فتى لا يجب الزاد إلا من التقى  
ولا الذخر إلا كل جرداء صلدم  
معاودة للكرب بين صُفوف (٢)  
فإن مات لم يرش الندى بحليف  
ألا قاتل الله الردى حيث أضمرت  
ولا المال إلا من قنا وسُيوف  
فتى كان للمعروف غير عيوف

ومناقب الوليد المذكورة هي مناقب يمجح وجودها في كل قصيدة يُمدح أو يُرثى بها أي قائد مسلم « وليست وفقاً لا على الوليد باعتباره زعيماً في قبيلة » ولا عليه باعتباره رأساً من رؤوس الخوارج « ولعل خلو القصيدة من الفكر الخارجي إنما انضاف إلى جمال القصيدة بدفقها العاطفي الحار، وسبكها الرصين، من أسباب بقائها وكثرة دورانها في المنابر المتعددة الاتجاهات والمناحي المذهبية ».

أما رثاء القادة العسكريين الذين كانت لهم أياد في الدفاع عن الشفور الإسلامية فتبهرز فيه فضائل القائد المسلم « ويظهر الحزن عليه جمعياً، وذلك فضلاً عن تعداد مناقبه » وهي اللازمة المتكررة في أشعار المرثي جميعاً غير أن أخصها به « وأبينها فيه ذكر ما يتناسب ومزايا القائد العسكري وهي : الشجاعة والإقدام وسداد الرأي » ومن أبرز القادة العسكريين الذين رثاهم شعراء الشام محمد بن يوسف الشغري فقد رثاه البحثري في قصيدتين كاملتين عما القصيدتان ٧٥٤ و ٦٧٢ ومطلع الأولسى :-

(١) بيت من قطعة وردت في الأغاني ١٢ : ١٠٠ « أسامة بن منقذ : المنازل والديار » تحقيق مصطفى حجازي « لجنة أحياء التراث » القاهرة ١٩٦٨ : ٤٧٤-٤٧٥ « وفيات الأعيان ٦ : ٢٤٣ » معاهد التنصيص ٣ : ١٦٤ .  
(٢) الصلدم : الصلب المتين ، والدابة القوية الحوافر . الجرداء : الفرس القوية الجسم الأصيلية .

انظُرْ إِلَى الْعَلِيَاءِ كَيْفَ تَضَامُ      وَمَاتِمُ الْأَحْسَابِ كَيْفَ تَقَامُ

ومطلع الثانية : -

بِأَيِّ أَسَى تَتَنَّى الدَّمْعُ الْهَوَامِئِلُ      وَيُرْجَى زِيَالٌ مِنْ جَوَى لَا يُزَايِلُ (\*)

وقد لفت الشاعر نظر القارىء أو السامع منذ البيت الأول إلى عمول قد وقع فابتعد عن التقريرية والإخبار إلى صيغ إنشائية مبهولة ، يقول : -

أَيْنَ السَّحَابِ الْجُودُ وَالْقَمَرُ السُّذِي      يَجْلُو الدَّجَى وَالضُّيُفَمُ الضَّرْعَامُ  
وَلَى وَقَدْ أَوْلَى الْوَرَى مِنْ جُودِهِ      نَعْمًا يَقُومُ بِشُكْرِهَا الْأَقْسَامُ  
لَا تَهْنَى الرُّومُ اسْتِرَاحَتَهُمْ فَقَدْ      هَدَّأُوا بِأَفْوَاهِ الدُّرُوبِ وَنَامُوا  
أَمِنُوا وَمَا أَمِنُوا حَتَّى انْطَسَمُوا      فِي التُّرْبِ ذَاكَ الْكُرَّ وَالْإِقْدَامُ

وعلى ذلك فإن من كانت هذه حاله وصفاته جدير به أن تبيكه عيون المسلمين ، وأن تبيكه المكرمات لعيون النساء وحسب : -

سَتَبْكِي عَيْنٌ لَا تَرَى الْجُودَ بَعْدَهُ      إِذَا فَاغَى مِنْهَا عَائِلٌ عَادَ هَامِلُ  
وَنَارُ بَكْتِهِ الْمُكْرَمَاتُ وَإِنَّمَا      تُبْكِي عَلَى الثَّوَابِ النِّسَاءُ التَّوَاكِلُ  
فَقَدْ نَاكَ فَقْدَانُ الْحَيَاةِ وَأَقْبَلَسَتْ      تُلَاحِظُنَا خُزْرًا إِلَيْنَا الْقَبَائِلُ

ومثل هذا قوله في الأخرى : -

وَرَزِيئَةٌ حَمَلَتْ الْخَلِيفَةَ شَطْرَهُمَا      وَالْمُسْلِمُونَ ، وَشَطْرَهُمَا الْإِسْلَامُ

ويظل البحترى في القصيدتين جميعاً يُبْدِي ويعيد في تعداد مناقب الشفري ، وذلك راجع لسببين : الخصوصية المتميزة في الشفري القائد ، والخصوصية التي تربط الشاعر بالشفري فهما من قبيلة واحدة .

ويلتقي البحترى مع غيره من الكثرة الكاثرة من شعراء العربية في طريقة العزاء ، وهي الإيمان

بحتمية الموت : -

(\*) الزيال : الفراق .

والمعزُّ يومٌ - لا محالة - ما لَه  
عَدُّ وسَطَ عامٍ ما له الدُّعْرُ قابِلٌ  
كفانا اعترافًا بالفناء ورقيَّةً  
لمكروهه أن ليس للخلدِ آمِـلٌ

كما يلتقي مع بعضهم الآخر، على الرغم من تسليمه بهذه الحتمية، بشورته على الموت، وسخطه عليه :-

ما كنتُ أحسبُ أنَّ عَزَّكَ يُرتَقِي  
بالنائبات، ولا جَمَاكَ يُـسْرَمُ  
قد رعدت فيه الحسوات طَوْرَهَا  
وتجاوزت أقدارَهَا الأيـسَامُ

والملاحظ بعد هذا الكلام كله على أشعار الرثاء الشامية أن أياً من شعراء الرثاء لم يتطرق إلى الرثاء الجمعي، ولا إلى رثاء القرى والحصون التي أتت عليها أحداث الفتن الداخلية والحروب الخارجية، فلم تبدع قدرات الشعراء فناً شعرياً سامياً يوازي جسامة الأحداث التي شهدتها أرض الشام وشعورها وظلت قصائدهم تعدد المناقب، وتظهر التفجع واللوعة، كما لم يبدؤ أي من الشعراء الشاميين آفاني تجربته الشعرية إلى فكرة جدلية الموت والحياة، وإن غياب مثل هذه الرؤى من الشعر الشامي يعود في أغلب الظن إلى جملة أسباب أبرزها التصور في الثقافة الفلسفية، والاطمئنان إلى الفكر الديني الذي يرى الموت قدرًا لا مفر منه، ويجب الرضا عنه، أو كما قال ربعة الرقي (١) :-

وكنْ مقلِّ وذي ثـرْوَةٍ  
فإنَّ المنيَّةَ مِنَّ خَلْفِهِ  
وكما قال ديك الجن (٢) :-

على هذه كانت تدور النوايِبُ  
نزلنا على حُكْمِ الزمانِ وأُـسـرِهِ  
وفي كلِّ جَمْعٍ للذَّعَابِ مَذَامِـسِبُ  
وقد يَقْبَلُ النَصْفَ الألدُّ المُشَاغِبُ

وقول العتايي يصور رغبته من الموت الآتِي (٣) :-

أينا قَدَمَتْ صرُوفُ اللَّيَالِي  
كم صَفِيحِينَ مُتَعَاً بِلِقَا  
فالذي أَخْرَتْ سَرِيحُ اللَّحَّاقِ  
ثم صارا لَعْرَبِيَّةٍ وَأفـسـِتراقِ

(١) ربعة الرقي : ١٠٨ .

(٢) الحماسة البصرية ١ : ٢٢٧ (رقم ٨٣) .

(٣) الحماسة البصرية ٢ : ٤٢٥ (رقم ٤٢) .

ولدى رجوع النظر فيما أُوردتُ وما لم أُورد من أشعار الشاميين في الرثاء ، فهل يمكن أن يؤمن المدارس بصحة موقف النقاد القدامى الذين ذهبوا إلى أن الفرق بين المرثية والمدحة هو الحائق الأولى بالماضي ، والثانية بالحاضر ، وأن ذلك فسرق شكلي ؟ (١)

إن قوائد الرثاء التي تمت دراستهما تفيد أن ما جس الخوف من الموت وترقبه في أشعار الرثاء أصدق بعامة من الطمع في عطايا المدوحين . أما شكلية النعوت في العرضين جميعاً فليست تقاس أبداً بما وراءها من عواطف التوجس أو الرغبة . وإذن فاللبؤن بين المديح والرثاء كبير ، بل لا وجه للمقارنة بينهما في بناء القصيدة ، وفي ما فيها من دفق الشعور واختلاف الرؤية وألوان التصوير .

---

(١) انظر: قدامة بن جعفر : نقد الشعر ، تحقيق كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي بمصر ١٩٦٣ : ١١١ ، أبو هلال العسكري : كتاب الصناعتين ، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم ، دار احيا الكتب العربية ، القاهرة ١٩٥٢ : ١٣١ ، العدد ٢ : ١٤٧ .



لا خلاف في أن الغزل من أكثر الأغراض الشعرية دوراناً على ألسنة الشعراء العرب، ومنهم شعراء الشام، للسبب نفسه الذي ذكره ابن قتيبة الدينوري<sup>(١)</sup> : "لَمَّا قَد جَعَلَ اللهُ فِي تَرْكِيْبِ الْعِبَادِ مِنْ مَحَبَّةِ الْغَزْلِ ، وَإِلْفِ النِّسَاءِ ، فَلَيْسَ يَكَادُ أَحَدٌ يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونَ مَتَعَلِّقاً مِنْهُ بِسَبَبٍ ، وَضَارِئاً فِيهِ بِسَهْبٍ ." وقد نظم فيه عدد كبير من شعراء الشام والجزيرة ، غير أن أبرزهم فيه ربعة الرقي ، وديك الجن الحمصي وعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي والبحثري وأبو تمام . وقد تراوحت مذاعب الشاميين فيه بين الغزل العاجن ، والغزل العذري ، والغزل التقليدي . ويعد ديسك الجن الحمصي وربعة الرقي إمامي شعر الغزل العاجن ، في حين يعد من المشهورين بالغزل العذري عبد الملك الحارثي والبطين البجلي الحمصي ، أما إماما الغزل التقليدي فبما أبو تمام والبحثري .

(- الغزل العاجن :-

نتج شعراء الغزل العاجن الشاميون نهج عمر بن أبي ربعة ونهج أبي نواس . أما ربعة الرقي فقد اصطنع منهج عمر في صناعة الحكايات الغزلية ، والمغامرات الغرامية ، وفي الهيام بغير حسنا ، واحدة، فشعاره في الحب قولسه<sup>(٢)</sup> :-

أنا زيرٌ للأفوانِ يــــي          وأخو لنسوةٍ ووراحٍ

وقد ترددت في شعره أسماء ست نساء تغزل بهن جميعاً ، وهو لا يرضى من الحب إلا ما يحقق له الفنة الحسية<sup>(٣)</sup> :-

الحُبُّ داءٌ عيًّا لا دَوَاءَ لَهُ          إلا نسيُّ حبيبٍ طيبِ النَّسَمِ  
أو قُبْلَةٌ مِنْ قَمٍ نَيْلَتْ مُخَالَسَةً          وما حرامٌ قَمِ الصَّقَّةِ بِفَمِ

- (١) الشعر والشعراء ١ : ٢٠ - ٢١ .  
 (٢) من قصيدته في : شعر ربعة الرقي ، جمع وتحقيق يوسف بكار ، ط ٢ ، دار الأندلس ، بيروت ١٩٨٤ : ٨٩ ، طبقات ابن المعتز : ١٦١ - ١٦٢ .  
 (٣) من قصيدته في شعر ربعة الرقي : ٥٤ - ٥٥ ، طبقات ابن المعتز ١٦٦ - ١٦٩ .

كما يصطنع ربيعة منهج عمر بن أبي ربيعة في ما ينشئ من حوار يديره بينه وبين من يحب ، وفي  
تعرضه للنساء في موسم الحج .

أما اصطناع قصص المنزل غيب و جلياً في قصيدتين من قصائده ، وهو في الأولى منهما يعرض  
نفسه مطلوباً من الحسان لا طالباً ، كما يصطنع منهج عمر فيها إذ جعل بينه وبين معشوقته رسولاً  
يأتيه من قبلها ، يقول : -

دَسْتُ سَعَادُ رَسُولًا غَيْرَ مَهْمَسِمِ	وَصِيفَةٌ فَأَنْتَ إِتْيَانُ مَنَكِبِي
جاء الرسولُ بقرطاسٍ بخاتميهِ	وفي الصحيفةِ سحرٌ خطُّ بالقلَمِ
تالت: تعال إذا ما شئتُ مُسْتَكْبِرًا	والحُكْمُ حُكْمُكَ يَا رَبِّي فَأَحْتَكِبِي
فَزُرْتُمَا واقِعًا طُرْفِي على قَدَمِي	وقد تلبستُ جِلْبَابَيْنِ من ظُلَمِ

ويعن ربيعة في القصيدة نفسها بتقفي خطى عمر في معرض لحسنائه في الكعبة ، ويظهرها من  
طبقة اجتماعية سنية فهي تطوف في حشد من القينات يُقمن على تلبية حاجاتها وخدمتها ، كما  
يظهرها متجاهلة شأنه ، ويظهر نفسه متعلقاً بها ، وأنه ما جاء الكعبة إلا ليراعا وللقياها ، لا رغبة  
في أداء الشعائر الدينية ، يقول : -

لا قِيْتُ عند استلام الرُّكْنِ غَانِيَةً	غراءً واضحة الخدَّينِ كالمَنَّانِ
تقول قِيْنَاتُهَا والزُّدْفُ يُقْعِدُ عَـا	من خلفها ، قد أُتِيَتْ الرُّكْنَ فاستلمي
فاستلمت ثم قامت ساعة فدعست	فتمت أدعو ولولا تلك لم أقسم
حتى إذا انصرفت سلمت فالتفتت	فقلت إنك من همي ومن سدَمِي (*)
قالت: ومن أنت؟ تذن التابعات لها	هذا ربيعة هذا نثنت الأُمَمِ
هذا المعنى الذي كانت مناسبه	تأنيك فاستتري بالبردِ والتيممي
قالت: أعوذ بربي منكواستتتت	بنادية رخصة الأطراف كالمَنَّامِ
قلت: الذمام وعهدُ الله خنت به	لا عهد للغادر الختار للذَمِّ
ألم تقولي: نعم؟ قالت: بلى وهمسا	مني ، وهل يؤخذ الإنسان بالوهمِ

(\*) السدم : الولوع بالشيء ، والحرص عليه .

ثُبْنَا وَصُنَا وَصَلَيْنَا لَخَالَتِنَا  
وَلَمْ تَتَّبِ أَنْتَ مِنْ ذَنْبٍ وَلَمْ تَتَّصُرْ

وإذا كانت رحلة الشاعر لم تحقق له شيئاً من المتعة التي يريد في هذه القصيدة لأن صاحبه صدته بتوبتها ، فقد حقق هذه المتعة في القصيدة الثانية إذ أمضى ليلته مختلياً بفناته ذات الخصر الدقيق ، والأرداف الثقيلة الضخمة :-

(١)	ذاتُ لَهُـِـ وَمِـِـ زَاحٍ	وفتاةٌ غِيـِـ رُ دَاحٍ
	عَمُولٌ لِيـِـ وَنُبُـِـ سَاحٍ	قد تَجَشَّمْتُ إِلَيْهِـِـ سَاحٍ
(٢)	غَادِيَةٌ غَرَّتِي الْوَشَاحِ	فَخَلُونَا بَفَتَاةٍ
(٣)	ضَمَّ مِنَ الْخَوْدِ السَّرَاحِ	فَلَبَسْتُ الْعُكْنَ الْبِيـِـ
	لَيْسَ ذَا وَقْتِ الْبَسَاحِ	قُلْتُ : صُحِّ يَا دِيكَ الْفَا
	نَ لَفِي الصَّبْحِ ائْتِضَاحِ	أُرَ أَرَى الصَّبْحِ وَإِنْ كَا

وربيعة في تمائد المنزل الأخرى التي لم ترد في قالب القصة متبادلة على المحاسن المادية في المرأة ، معن في تصوير مظاهر الفتنة والتدقيق فيها ، يقول في إحدى حسناواته ، واسمها عنمة (٤) :-

رَوَادِفُ لَمْ تَدَعِ لِلنَّاسِ دِينَـِـ	بَدَتْ مِنْكَ الرَوَادِفُ مُشْرِفَاتٍ
بِأَحْسَنَ مِنْكَ يَوْمَ تَبَدَّلَ لِينِـِـ	فَمَا الشَّمْسُ الْمَضِيئَةُ يَوْمَ دَجَّ سِينِ
وَإِنْ أَدْبَرْتَ قِيَّدَتِ الْعُيُونِـِـ	إِذَا أَقْبَلْتِ رَعَّتِ النَّاسَ حُسْنِـِـ
لَخَرُّوا مِنْ جَمَالِكَ سَاجِدِينَـِـ	فَلَوْ أَنَّ الْمُلُوكَ رَأَوْكَ يَوْمَـِـ
وَقَدْ حَمَلَتْ مَا لَا تَحْمِلِينَـِـ	لَقَدْ أُعْطِيَتْ أَرْدَانَا نَقْلِـِـ
يُمَانِعُكَ الْقِيَّامُ فَتَقْعُدِينَـِـ	إِذَا رُمْتَ الْقِيَامَ تَخَالُ دِعْصَـِـ
أَلَا يَا لَيْتَهَا سَجَدَتْ سَنِينَـِـ	إِذَا صَلَّيْتَ ثُمَّ سَجَدْتَ قُلْنِـِـ

- (١) داح : اسم إحدى صواحبهنه .
- (٢) غرني الوشاح : خمصة البطن دقيقة الخصر .
- (٣) العكن : الأطوا في البطن من السن ، الخود : الفتاة الشابة ، والعكن : الأطوا في البطن من السن ، والرذاح : ذات العجيزة الثقيلة لضخامتها .
- (٤) شعر ربيعة : ١٢١ - ١٢٢ ، طبقات ابن المعتز : ١٦٢ - ١٦٣ .

وواضح أن هذا الشاعر مغلوب بشبهته الحسية ، فقد كان هائماً بأرداف صواجه ، أما حسنها — فيما سوى ذلك فلم يثر اعتمائه ، ولعل ذلك يعود إلى عماء ، فعماده للحكم على حسن المرأة حاسة اللمس . أما الثغر وأما العينان ، وأما ما سوى ذلك من مواطن الجمال الأخرى التي فتن به — الشعر — فلا وزن لها عنده .

وأما ما ورد في هذه القصيدة من رؤيته لها مقبلة ، ورؤيته لها إذ قامت تتأود ، وعينه بها تتأود بحسنها في ثياب من الخبز ، فإن هذا وغيره يدل على مجرد التعبير بالإحساس بها لا أكثر من ذلك .

وأما اصطناع الشاعر للمواقف الخرامية ، والزيارات الليلية إلى بيوت الحسان ، فلم يكن في أغلب الظن إلا نعتاً من أنماط التعمير عن المعجز عن أدا ، مثل هذه الزيارات في الحقيقة والواقع ، وإن كان يوسف بكار يعد هذه الزيارات دليل إثبات على أن نظم هذه القصائد كان قبل أن يفسد الشاعر بصره ، وأنه لذلك لم يولد أكمه <sup>(١)</sup> . وما يرجح توجهنا بأن الشاعر كان يضمن هذه المواقف النزلة أن معشوقاته جميعاً كن بنائى عنه <sup>(٢)</sup> ، وأنه يصرح تسمية مباشرة في إحدى قصائده بأن طيف إحداهن هو الذي كان يأتيه ويضاجعه ، وأنه كان يتحرق شوقاً لو تتحقق أحلامه ، يقول فيـــــــــــــــــا : —

زارتكَ سَعْدِي وَسُعْدِي مُنْكَ نازِحَةً	فَأَرْتَقِ وَمَا زَارْتِكَ مِنْ أَمَمٍ
أعدلاً بطيفكِ يا سَعْدِي العُلْمَ بنا	طَيْفٌ يسير بلا نَجْمٍ وَلَا عَظْمٍ
أنت الضجيجُ إذا ما نمتُ في حُلُمِي	والنجمُ أنتُ إذا ما العينُ لم تَنَمِ
ما أكَذَبَ العَيْنَ والأحلامَ قاطِبَةً	أصابتُ مرةً في وَصْلِهَا حُلُمِي ؟
قولي : نعم ، إنها ، إن قلت ، نافعة	ليست عسى ، وعسى صبرٌ إلى نَعَمِ

فهذا التحرن الشديد لأن يفندو الحلم حقيقة دليل على حرمان الشاعر ، فكان أن لجأ إلى اصطناع هذه الحكايات والأسماء تعويضاً ، وقد أمدته قريحته الشعرية بسبب من هذا النقص بشعر يجري

(١) شعر ربيعة الرقيسي : ٤٠ .

(٢) نفسه : ٥٤ - ٥٥ .

في رقة وعذوبة ماء وحيوية ، كما أمدّه خياله بحسن التصوير ، وجمال التخيل ، والاصطناع الناجح للمواقف الخرامية وما فيها من حوار خاطف دال على ما يعتل في النفوس المحرومة بخاصة من أحاسيس العاشقين المتلهفين ودعاباتهم . . .

أما مذهب ديك الجن المشاكل لمذهب أبي نواس في الغزل فيبدو في ثورته على المقدمة الطللية ، وفي التحريض على الإقبال - بدلاً منها - على الخمرة والتلذذ بها ، ومن يقدر منها من الساقيات الحسان (١) :-

قُلْتُ : السَّلَامُ عَلَى الْمُحِيلِ مُحَالُ	قَالُوا : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَطْلَالَ
وَمَرَادُ عَيْنِي قُبَّةٌ وَحِجَابٌ	عَاجِ الشَّقِيِّ مَرَادُ مَعْنُ الْبِلَاسِ
وَلَا تُطْرَقَنَّ الْبَيْتَ فِيهِ غَزَالُ	لَا غَارِيَّيْنَ الرَّاحَ وَمَنْ سِي زُلَالُ
حُرُوقٌ ، وَحَسُوفٌ وَأِدْرَةٌ بَلْبَسَالُ	وَلَا تُحَرِّقَنَّ حَلِيلَنَا وَيَقْلِبِيهِ
وَكَلَامَا لِي بَارِكًا سَلَسَالُ	وَلَيْسْتَيْنِ قَلْبِي فَمَنْ وَجَسَى يَكِيدُ

وعو مثل أبي نواس: منبتك قليل التدين ، مجاهر بالفسوق حريص على إمتاع سمعه بصوت المثنائي والمثالث ، حريص على إمتاع ناظره وروحه بالكأس في كف أغيد (٢) :-

يَقُولُونَ : تُبِّهِ وَالْكَأْسُ فِي كَفِّ أَغْيَسِيدِ	وَصَوْتُ الْمَثَانِي وَالْمَثَالِثِ عَالِ
نَقَلْتُ لِمَنْ : لَوْ كُنْتُ أُنْمَرْتُ تَوَسَّيَةً	وَعَايِنْتُ هَذَا فِي الْمَنَامِ بَدَ السِّي

فقد وضع نفسه أمام معادلة حدّاعا متناقضان: التوبة في جانب ، و "الكأس في كف أغيد وصوت المثنائي والمثالث" في الجانب الآخر ، أو بعبارة أخرى : نعيم آجل في مقابل متع عاجلة ، فانثنى أمام الإغراءات المتاحة . ويمثل هذا الانصياع لمفاتيح الحسان قوله ، وهمه الأكبر أن يجتمع بمعشوقته ولا فرق بعد ذلك إن كان مكان اللقيا جهنم أو الجنة (٣) :-

أَلَا لَيْتَنَا كُنَّا جَمِيعِينَ فِي الْهَسْوَى      نُضْمُ عَلَيْنَا جَنَّةً أَوْ جَهَنَّمَ

(١) ديوان ديك الجن بتحقيق أحمد مطلوب ، القصيدة ٢٠ .

(٢) المصدر نفسه ، القطعة ٦٢ .

(٣) المصدر نفسه ، القطعة ٦٦ .

ويبدو أن ديك الجن ظل رجلاً باحثاً عن المتعة الحسية يُشبعها بحسان دور الحانات قبل أن يظفر بحسنائه النصرانية التي تزوجها من بعد ، فهو القائل (١) :-

مولاتنا يا غلامُ مبتكِـرة	فبَاكِـرِ الكَأْسِ لي بلا نَظـيرَه
ما دُفِئتُ منها سوى مَقْبَلِـها	وَضَمَّ تلكَ الفروعِ مَنَحَـدِـرَه
وأنتَهـرتني فَمَتُّ من فَـسـرَقِ	يا حُسْنِها في الرِضا ومُنْتَهـيرَه
ثم انشَدتُ سورَةَ الخُمَارِ بنِـسا	خِلالَ تلكَ العُدائِرِ الخَمِـرَه

فهو يؤمن أن اللذة الحقيقية تكمن في أمرين متلازمين : المرأة والخمرة ، ولا فرق بعد ذلك إن كانت المعشوقة واحدة أو ثلاثاً معاً (٢) :-

بأبـي الثـلاثِ الأتـسـاتِ	سَـاتِ الرائعاتِ الفانيـاتِ
أَقْبَلَنَ والأصـداعُ فـسـي	وَجَناتِهِنَّ مَعْقِرِـاتِ
ألفاظُهِنَّ مَوَسِّسَـا	تُوالجفونُ مَذَكِّـراتِ
جَمَشْتُهُنَّ وَقَلَسْتُ طيـبِـا	بُعْنَاقِكُنَّ هو الحَيـاةِ (٣)

وظل هذا دأب ديك الجن في الاختلاف إلى الحانات بحثاً عن الحُسن والخمر ، حتى إذا ما وقع نظره على ساقية نظم فيها ، وإذا ما وقع على غلام جميل هام به (٤) :-

دع البدرَ فليغربْ فانتَ لنا بـدرُ	إذا ما تَجَلَّى من محاسِنِكَ الفَجـسـرُ
إذا ما انقضى سِحْرُ الذينِ بـبابِـلِ	فَطَرُفُكَ لي سِحْرُ ووريقُكَ لي خـمـر

ويبدو والتشابه بين ديك الجن وأبي نواس كذلك في اعتمادهما الأوزان الخفيفة الغنائية ، وهو ما جعل شعر الديك يسير في العمراق مع ما قيل إن ديك الجن لم يغادر الشام إلى أي من الأمصار الإسلامية الأخرى (٥) ، وقد أظهر أبو نواس غيرته من سريان شعر الديك في العمراق حتى

- 
- (١) الأغاني ١٤ : ٥٢ .  
 (٢) القطعة ١٦ من ديوانه بتحقيق أحمد مطلوب وورنيق .  
 (٣) جمش النساء : غازلهن بالقرص والملاعبنة .  
 (٤) الأغاني ١٤ : ٦٠ - ٦١ " من قطعة في غلام اسمه بكسر " .  
 (٥) انظر الأغاني ١٤ : ٥١ .

قال له لما زاره في حمص في أثناء مروره أبو نواس بها متوجهاً إلى مصر : "فتت أهل العراق بقولك :

موردة من كف ظبي كاتما  
تناولها من خده فأدارها (١)

وهذا البيت من قصيدة تظهر مدى التوافق الكبير بين الشاعرين في المذهب ، فكلاهما قد تغزل بحسناوات الحانات ، ويتساقى الراح من أيديهن ، كما يظهر فيها تماثلهما على الخمرة ، وعلى قلة احترامهما بالقيم الدينية ، وفيها يقول : -

بها غير معذور فد أو خمارها  
فنام تكاد الكأس تحرق كفه  
مشعشة من كف ظبي كاتما  
ظلمنا بأيدينا نتمتع روجها  
ونس من عظيم الويز كل عظمة  
إنا ذكرت خاف الحفيظان نارها  
وصل بعشيات الغيوب ابتكارها  
من الشمس أو من وجنته استعارها  
تناولها من خده فأدارها  
وتأخذ من أقدامنا الراح نارها  
إذا ذكرت خاف الحفيظان نارها

لقد وجد أبو نواس في شعر ديك الجن الحمصي ما يرضي منهجة في الحياة ومنهجة في الشعر، فقال تعليقا على هذه الأبيات : إن ديك الجن بها أشعر الجن والإنس (٢)

وتظهر الأبيات التالية ديك الجن جالسا في حانة وعيناه مصويتان إلى حسن الساقية الجسدي فيقول في تصويرها : - (٣)

فنام مختلفا كالبدر مطلقا  
رفعت غلالة خده فلورميه  
كأن قافا أدبرت فون وجنتيه  
والظبي ملتفتا والغصن منعطفها  
باللحظ أو بالمنى عما بأن يكها  
واختط كاتبها من فوه ألقها

وقاد عيام الشاعر بالحسان وبالخمير إلى ضروب من التصوير ظريفة ، ومعان لطيفة ، وهذا في هذا كله ينطلق مع نفسه انطلاق المقتدر على نظم الشعر بلا تعمل وإجهاد نفسه .

(١) انظر وفيات الأعيان ٢ : ٣٥٦ .

(٢) انظر العمدة ١ : ٢١٩ .

(٣) القطعة ٥١ من ديوانه .

وهذا التشابه الكبير بين غزل أبي نواس وغزل ديك الجن الحمصي قد يشي بأن أحدهما متأثر بالآخر . والواقع أن الحكم على هذا التصور غير متيسر ، فالشاعران متعاصران ، وضروب التراسل الثقافي بين أمصار الإسلام كانت آنذاك سهلة ميسورة . ولا بد أن يكون لبيئة الشعارين قدر من القواسم المشتركة ، فكلاهما فارسي الأصل<sup>(١)</sup> ، وكلاهما نبت في بيئة حضارية منفتحة هي بغداد وحمص ، فجا التشابه بينهما في المنزوع والمذنب طبيعياً . وقد أدنى هذا التشابه بين الشعارين إلى اختلاط أشعارهما ، فالبيتان :-

أَتَرَكَ لَذَّةَ الصَّهْبَاءِ عَمَّسُودًا      لَمَّا وَعَدَّوْهُ مِنْ لَبَنِ وَخَمْسُورِ  
حَيَاةٌ ثُمَّ مَوْتُ ثُمَّ بَعْسُودٌ      حَدِيثٌ خُرَافَةٌ يَا أُمَّ عَمَّسُورِ

ينسبان إلى أبي نواس حيناً ، وإلى ديك الجن حيناً آخر<sup>(٢)</sup> . وأما قولنا إن غزل ديك الجن نواسي المنهج ، فلا يتناقض مع الجمل بأيّ الشعارين كان المتدع له ، وإنما كان ذلك لأن هذا اللسان من الغزل بأبي نواس أعلق ، وهو به أشهسور .

ويبدو أن أمر البيئة في بروز هذه الألوان من الغزل لم يكن محصوراً في ديك الجن وحده ، فقد كانت ظاهراً امتناً الفلمان شائعة بسبب ككرة أسرى الروم في أيدي المسلمين . وكذلك يظن أن الغزل المقرون بالخمر مؤثراً دالاً على وجود الحانات ، وعلى أن الشعراء كانوا يرتادون هذه الحانات ، وينظمون متأثرين بأجوائها شعراً عموماً أشبه بالمقطعات التسجيلية العاجلة ، غير معنيين باستصفاها صور بدعية في الغالب ، لا نستثنى من هذا الحكم إلا الشاعر الذي كان يتوحد في الحانة وما فيها لأنها مذمومة في الحياة . أما الشاعر الذي كان يعرّج على الحانة بين الحين والآخر تعريجاً عاجلاً ، فإن الغالب عليه ألا يحفل بشعره ، وألا يتلبث طويلاً في وصف ما يشهده . ومن هنا شاعت المقطعات الشعرية لدى شعراء عرفوا بنظم قصائد ذات نفس طويل . وفي هذه الأجواء من الانفتاح على معطيات البيئة الحضارية لم يجد حتى كبار الشعراء من عرفوا بالجد في حياتهم العامة حرجاً في أن ينظموا غزلاً ما جناً كأبي تمام وغيره ، فهو من ناحية استجابة لتقليد شعري درج عليه من قبلهم ، ومن ناحية

(١) انظر في نسب ديك الجن وعصبيته على العسرب : الأغانسي ١٤ : ٥١ .

(٢) انظر الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعليه محمد الجبجوي ، ط ٢ ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٥١ : ٦٤ .



ثانية خروج إلى التفكه بالأحماض، ومن ناحية ثالثة خضوع للنواحي المادية في ما يسعى العالم السفلي من الحضارة . وما كت لأجد حرجاً في إيراد أمثلة منه لو كانت له قيمة فنية (١) .

## ٢- الغزل العذري :-

لم يخرج الشعر العذري الشامي في هذه الحقبة عن الإطار العام الذي اختطه شعراء الغزل العذري في العصر الأموي . فهم مولعون بشديدو التعلق بمعشوقاتهم « متعفون لا يصورون مواطن الجمال في من أحبوا إلا قليلاً ، وعم كذلك أوفياً » يقاسون الحرمان ، ويعانون ألم الصدود وتبارج الهوى . أما المعشوقات فهن دائماً حيات صواد ، متنعات لا يزن العاشقين إلا بأطيافهن ، ولذلك فالشاعر العاشق يُحُلُّ جسمه نحولاً شديداً ، ويهزل عزلاً حاداً ، وخير ما يصور هذا المنزع قول عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي (٢) :-

سلبت عظامي لحمها فتركيتها	مجردة تُضحى إليك وتخصر
وأخلتني من مخها فتركيتها	أنايب في أجوائها الريح تصفر
إذا سمعت باسم الفرائي تدغممت	مفاجئها من هول ما تنتظر
فما حيلتي إن لم تكن لك رحمة	علي « ولا لي عنك صبر فأصبر

ويتكرر هذا المعنى في تقرير التلهف وإظهار أثر معاناة المحب في جسد الشاعر وروحه لدى جمل العذريين، ومنهم محمد بن سلامة بن أبي زرة الدمشقي إذ يقول (٣) :-

كيف يخفى نحول من ليس يخفى	هل ترى لي إلا لساناً وطرفاً
إن عيني رمت فوادي بنار	سوف أطفأ وجرها ليس يطفأ
فستى الله كأس كل سُـرور	من سقاني كأس النية صرفاً

كما يلتقي شعراء هذا اللون من الغزل العذري من الشاميين مع نظرائهم الأولين من الغزليين العذريين في مبالغاتهم التي لا تقوم على أصول فنية في التصوير ، وإن كانت أشباه هذه المبالغات

- (١) انظر القطع ٤٥٥٩ ، ٤٥٩٠ ، ٦٢٣ ، ٦٥٨ من ديوان البحترى ، ٢٤٧ ، ٢١٨ من ديوان أبي تمام .
- (٢) حماسة أبي تمام بشرح التبريزي ٣ : ١٩٦ .
- (٣) مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٥ : ٤١٦ .

قد رأت ابن طباطبا العلوي وقدامة بن جعفر<sup>(١)</sup> . كما يلتصقون معهم في تقريرتهم المباشرة فسي نقل عواطفهم ، والحديث عن معاناتهم ، وذلك في مقابل جمال التصوير الملحوظ في أشعار الغزلين الماجنين .

وتتردد في أشعار العذريين الشاميين الشكاوى من العذال ، وهم في هذا أيضاً ليسوا بدءاً ، بل إن ضيقهم بهم كضيق نظرائهم من الغزلين العذريين بعامه ، ويوضح هذا المنحس قطع عديدة لشعراء عديدين منهم محمد بن الحسن بن الحسين الدمشقي<sup>(٢)</sup> ، ومحمد بن أحمد ابن أبي نصر العسقلاني الكنائي<sup>(٣)</sup> ، ومحمد بن أبي ربيع الصوري<sup>(٤)</sup> ، والبطين البجلي الحمصي<sup>(٥)</sup> ، يقول أبو نصر العسقلاني في قطعة تتمازج فيها المبالغة الممجوجة والشكوى من العذال :-

أذاب قدك أوصالي فلو خرّجت نفسي لما علمت بالنفس أوصالي  
قد جاء بمدك عذالي فما برحست حتى يك لي من الباكين عذالي

ويقول الصوري في تقريرية مباشرة مقارناً بين حاله في الإخلاء والوفاء ، وحال المحبوبة المتنعسة الخائنة بظاوتها لعذالهم :-

حبيب تحملت إذ لآله ولم أحب الضيم إلا لآله  
عصيت الموازل في حبتي وخان فطأ وعذال آله  
لئن فاز بالصبر قلب أموري فطوى لقلبي طوى لآله

ويخطو محمد بن الحسن الدمشقي النظامي خطوة أخرى في الحديث عن علاقته بمحبوبته والعذال يحاصرون العاشقين عندما يراهن على سلامة علاقته بها ، واقتدارهما معاً لذلك على

(١) انظر : عيار الشعراء : ٥١ - ٥٢ .

نقد الشعراء : ٦٥ - ٦٧ .

(٢) لم ترد له ترجمة تذكر غير سنة وفاته التي كانت في سنة ٢٨٩ هـ . انظر : مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٥ : ٢٢٧ ، الوافي بالوفيات ٢ : ٣٥٥ ، المحمدون من الشعراء : ٢٣٠ .

(٣) انظر : معجم الشعراء : ٤٥٨ ، الوافي بالوفيات ٢ : ٣٦ ، المحمدون من الشعراء : ٢٢ .

(٤) انظر : معجم الشعراء : ٤٥٦ .

(٥) انظر : الورقة : ١٠ - ١٢ ، طبقات ابن المعتز : ٢٤٨ .

التصدي لأولئك العذال ، يقول : -

وما لهم عندِي وعندَك من شَارٍ  
وقلَّ جنودِي عند ذاك وأنصاري  
وأدْمَعِنَا بالسيف والسيل والنار

فإن عزم العذال عند لقائنا  
وشنوا على أسمعنا وتكاثروا  
لِقِينَا عُم من ناظريك ومهجتي

وقد يصف الشاعر العذري لقاءه بمحبوبته ، غير أنه يظنُّ حياءً عفيفاً ، مترفعاً عن ذكر مشاهد من عبث الماجنين ، أو شيءٍ من نعوت المحبوبة ، ويمثل ذلك أبيات عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي التالية التي يصور فيها بعفة ما دار بينه وبين صاحبه من حديث خاطف في أثناء لقياء بها ، كما يصور خوفها من هذه الزبارة (٦٨) :

وأبي عوى يبتى إذا لم يكن بك سذل  
فلم يبتى باب دون سر ولا قفسل  
جهاراً ، وما عذري إذا شعر الأهل  
فهل عندكم إلا التحفظ والعسذل ؟  
إلى حيث ينون القلب تبوي به الرجل

أنى دون هذا الوعد من تكلم المظل  
فقلت ، وأبدي الوجد ما دون صدرعما  
أشعرت بي أهلي عشية زرتنا  
فقلت : فذا قد كان ما ليس راجعاً  
وما جنتكم عمداً ، ولكن ذاك الهوى

يعلو الرغم مما ألمحنا إليه من مواطن التشابه بين قصائد هؤلاء الغزلين العذريين الشاميين وقصائد الغزل العذري ذات المنحى المعروف في العصر الأموي ، فإننا لم نظفر باسم واحد من أسماء أولئك المعشوقات ، كما أن الغالب على هذا الشعر أنه جاء في مقطوعات حظما من الإبداع لا يقاس بحال إلى مقطوعات الغزل الماجن ، ولا إلى قصائد جميل بن معمر ، وقيس بن الملسوح وأغرابيما من الغزلين العذريين . ويلاحظ على وجه العموم أن لغة الغزل الماجن أرق وأعسذب وحظها من التصوير أوفى . وهذا الفرق بين المدعبين تابع من التباين بين الوسطين الاجتماعيين اللذين يمثلانهما . فالعذريون أغراب أو كالأغراب ، والماجنون أهل مدينة وأهل حضارة .

### ٣- الغزل التقليدي :-

يراد بالغزل التقليدي الغزل الذي يتصدر القمائد المنظومة في أغراض أخرى وبخاصة المدح والفخر . ويلقى الدارس المعين في أبنية هذه القمائد شكلين من أشكال الغزل : شكلاً تنقطع فيه أبيات القصيدة اللاحقة عن هذه المقدمة انقطاعاً تاماً في البناء اللغوي والوشيجة المعنوية أو النفسية ، وهذا الشكل هو العام الغالب في قمائد الطائيين ؛ وشكلاً قد تُلاحظ فيه صلة معنوية ، أو تيار نفسي يصل بين المقدمة وما يليها ، فتكون المقدمة في القليل النادر من هذه القمائد مشحونة بهم القصيدة الأولى . والأمثلة على الضرب الأول كثيرة منها قصيدة أبي تمام<sup>(١)</sup> في مدح أبي المنيث الرافقي التي صور فيها معاني المحبوبة مقويةً وصروف الدهر تفعل فعلها بالتفريق بينهما ، وقد عرض أوصاف تلك المحبوبة ، وهي أوصاف يحج أن تكون في أي حسناء ، بل هي صورة عما نفسي ذه عنه لسفات المرأة المثال ، فهي " مرهقة حسنة القد " ، " لها زفرة تعطي السيادة حقها " و " جيدها جيد غدا " التثني " و " نظرتنا علية " و " مبتسما بسر " :

ومن فاجسٍ جعديٍّ ومن كفيٍّ نهديٍّ      ومن قمرٍ سعيدٍ ومن نائلٍ نعدٍ<sup>(٢)</sup>

وينهج أبو تمام نهجاً أوضح في الدلالة على ترسسه خطى الأقدمين من شعراء العصر الجاهلي في قصيدته التي نظمها في مدح قاضي نصيبين ورأسعين<sup>(٣)</sup> ، إذ توزعت القصيدة في ثلاث وحدات ، جاءت الوحدة الأولى فيها لوماً لصاحبه التي هجرته ورحلت عنه دون أن يظفر منها بتحية الوداع على وفاء لها ، ثم جاءت الوحدة الثانية بوصف الرحلة والراحلة التي حملته إلى مدوحه ، وانتمت القصيدة بالوحدة الثالثة المخصصة للمدوح . وهكذا كان شأن القمائد الكثيرة في ديوانه<sup>(٤)</sup> ، وقد جساها في قصيدته الثانية عشرة مثلاً قوله في مدح أبي سعيد الشفري :-

كلُّ يومٍ تبدى صروفُ الليالي      خلُقاً من أبي سعيدٍ رغييها  
طاب فيه المديحُ والتدحُّ حتى      فاقَ وصفَ الديارِ والتشبيها

(١) عي القصيدة ٥٦ من ديوانه.

(٢) الشد : القليل .

(٣) هي القصيدة ٢٨ من ديوانه.

(٤) انظر أمثلة أخرى: القمائد ١٢ ، ١٤ ، ٥٨ ، ٦٨ .

فقولته : "فأنت وصفَ الديار والتشبيهاً" تعبير صريح بأن المنزل الذي يقترن بوصف الديار هو منهج يألفه الشعراء . وبعبارة أخرى هو منهج تقليدي لا يقوم على حب حقيقي لامرأة بعينها يهيم بها الشاعر ، وتتفجر لذلك طاقته الإبداعية في التعبير عن معاناته الحقة بحبها .

وكان هذا شأن البحري في كثير من قصائده . ففي قصيدته السادسة والأربعين مثلاً التي نظمها في مدح ابن بسطام<sup>(١)</sup> ، الذي كان والياً على الشام، يذكر البحري أنه كان في الخمسين من عمره . ومع ذلك نجده يقول في هذه القصيدة إنه كان مجنوناً في حب امرأتين تدعى إحداهما ليلسى ، وتسمى الأخرى سعدى ، ثم تتوحد المعشوقتان في شخص امرأة ثالثة سماها زينب خشية عليها من الافتضاح :-

جَنُونِي فِي لَيْلَى وَلَيْلَى خَلِيَّةٌ	وصنوي إلى سعدى وسعدى تجنب <sup>(٢)</sup>
وَإِذَا لَيْسَتْ كَانَتْ جَمَالَ لِبَاسِهَا	وتسلب لبّ المجتلي حين تسلب
وَسَمِيَّتْهَا مِنْ خَشْيَةِ النَّاسِ زَيْنَبًا	وكم سترت حباً على الناس زينباً

أما القصائد التي تلحظ فيها الصلة المعنوية بين المقدمة وما يليها فخير مثل عليها قصيدة للبحري مطلعها<sup>(٣)</sup> :-

أرى بين ملتفت الأراك منازلاً  
موائل لو كانت مراها موائلاً

فتشبيب الشاعر بالمنازل والديار وعيون المها ليس سوى مظهر من مظاهر الرفض المستكن في داخله للتحول عنها إلى "التقلد في سرايا ابن يوسف الثغور" ، الذي حمل الشاعر على المشاركة في حرب الثغور كرهاً ، وهو ما أفصح عنه بعض الإفصاح قوله فيها :-

لَكَ الْخَيْرُ أَنْظَرَهُمْ لِنَتْنَجِجِ الرَّبَا	منورة أو تحلب الخلف حافلاً
فَقَدْ غُرَّتْ بِالنَّارَاتِ فِي وَهْدَاتِهِمْ	ولياً ووسعياً ، رذاذاً ووابلاً <sup>(٤)</sup>

- (١) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن بسطام . توفي في خلافة المعتدر سنة ٢٩٧هـ / ١٠٩١م . انظر: الكامل في التاريخ ٦ : ١٣٧ .
- (٢) الصفو : الميل .
- (٣) القصيدة ٦٣٠ من ديوانه .
- (٤) الولي : المطريأتي بعد الوسي . والوسمي : مطر أول الخريف لأنه يسم الأرض بالنبات .

وليس حديث البحري عن الهم الذي تلبسه بفرقة الأحاباب في القسيمة الأولى من الديوان، إلا مدخلاً  
للحديث عن أحزانه بسبب رحيل أبي سعيد الثغري عن أرض الشام والجزيرة، فهو يقول في المقدمة  
المحزونة :-

زَعَمَ الثُّرَابُ مِنِّي، الْأَنْبِيَاءُ	أَنَّ الْأَجِبَةَ آذَنُوا بِتَنَاسُأِ
فَأَتْلِيحُ بِيُرْدِ الدَّمْعِ صَدْرًا وَإِغْرًا	وَجَوَانِحًا مَسْجُورَةَ الرَّمْضِ أَسْأِ (*)
لَا تَأْمُرُنِي بِالْعَزَا، وَقَدْ تَسْرَى	أَثَرَ الْخَلِيطِ وَلَا تَحِينُ عَسْرًا

وعندما وصل إلى الحديث عن الثغري أفصح عن الهم الحقيقي الذي كان يعنيه، وعمورحيل الأمير  
محمد عن الجزيرة والشام :-

مَا لِلْجَزِيرَةِ وَالشَّامِ تَبَسُّدًا	بِكَ يَا بَنَ يُونُسَ ظُلْمَةً بِضِيَاءِ
نَضَبَ الثُّرَاتُ وَكَانَ بَحْرًا زَاخِرًا	وَاسْوَدَّ وَجْهُ الرُّقْمَةِ الْبَيْضِ أَسْأِ
رَحَلَ الْأَمِيرُ مُحَمَّدٌ فَتَرَحَّلَتْ	عَنَّا غَفَارَةٌ هَذِهِ النَّمَمِ أَسْأِ

(\*) المسجورة : المتقدة . الواغرة : المتقدة غيظا .

رابعاً : الفخر :

أسهمت عوامل عدة في شيوع الفخر في الشعر الشامي في هذه الحقبة ، فكان للتناحر القبلي بين القيسية واليمينية أثر كبير في بروز شعر الفخر بالنفس وبالقبيلة . ولما كان أكثر شعراء هذه الفتن القبلية فرساناً فقد غلب لذلك الفخرُ بالنفس على الفخر بالقبيلة .

ومحور مقطعات الفخر وقصائده هو وصف للبطولة الفردية أو الجمعية ، وهو يرد في أثنائها وصف لقطات مختزلة من المعارك التي كانت تحدث بين الطرفين . ومن أمثلة ذلك قول عبد الله ابن سعد بن عتبة الثقفي الذي كان من معدودي فرسان قيس في وصف جانب من معركة خاضها في فتنة أبي الهيثم (١) :-

ما زلتُ أحيِلُ مُهْرِي وَسَطَ حَوَمَتِهِمْ	وَنَحْنُ فِي رَمَجِ الْهَيْجَاءِ نَطْوِينُ (٢)
حَتَّى قَطَعْتُ حُسَامِي فِي رَوْسِهِمْ	وَقَلْتُ : لَا تُدْكَرَنَّ مِنْ بَعْدِهَا يَمَنُ
وَالخَيْلُ عَابَسَةٌ قَدْ سُرِلَتْ بِسَدَمِ	يَغِيبُ فِيهَا لَهَا الْإِرْسَاعُ وَالشَّنَنُ (٣)

وقوله في قطعة أخرى مهدداً متوعداً مقسماً أن يرحل اليمانية من بلاد الشام ليعودوا إلى ديارهم الأولى (٤) :-

أَتَوْنُ إِذْ جَعَلُونِي فِي رِمَاجِهِمْ	وَالسَيْفُ يَأْخُذُ مِنْهُمْ مُشْرِفَ الْهَسَامِ
أَنَا أَصْدُ وَفِي كَفِي ذَوْ شَطَبِ	صَّصَامَةٌ تَتَعَدَّى كَسَلٌ صَمَّصَامِ
وَاللَّهِ لَا أَنْفَكُ فِيكُمْ كَذَا أَبَدًا	بِالْقَتْلِ حَتَّى تُخَلُّوا جَانِبَ الشَّامِ
أَوْ تَلْحَقُوا بِبِلَادِ الشُّحْرِ فِي سَخَطِ	مِنَ الْإِلَهِ ، وَفِي ذُلٍّ وَإِعْسَادِ (٥)

وقد يفخر الشاعر بنفسه مزدهياً بما أمام أفراد قبيلته ، وذاكراً بعضاً من الأيام التي برز فيها في مطاعنة الخصوم ، ومن ذلك قول محمد الكِنَاني اللشبي (٦) :-

- (١) مصورة تاريخ مدينة دمشق ٩ : ٣٦٢ ، تهذيب ابن عساكر ٧ : ٤٢٩ .
- (٢) الرهج : غبار المعركة .
- (٣) الثنن : شعرات في مؤخر الحافر من اليد والرجل .
- (٤) مصورة تاريخ مدينة دمشق ٩ : ٣٦٢ .
- (٥) بلاد الشحر بكسر أوله وسكون ثانيه بين عدن وعمان / معجم البلدان / شحر .
- (٦) مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٦ : ١٥٩ .

قد علمت قيس بن عيلان أنسي  
وأني غداة العرج أول فارس  
وطاعت يوم السكسكين معلماً  
وجالدت بالمصّب الحسام وتلكم  
دعت ويلها فحطان لما جهدت  
حملت على المنسي لم أتحرّف  
حملت على ذي القوس المتخفّف (١)  
فأبت برمج في يدي متخفّف  
خلائق هذا الحي من آل خسدف  
وقلت لعنن قولة لم أعنف

فهو يباهي بنفسه أن قتل سيّداً من سادات عنس «عمو وزيرة بن سيمك العنسي» وهو يجوي فسي فخره هذا على سنن الشعراء العرب في الفخر عندما صور - كما كانوا يصورون - الخصم فارساً معلماً ومقاتلاً شجاعاً، ولذلك فإنه لا يُنازل إلا الأبطال، وإنه إذا تردد فرسان قبيلته عن منازلة هؤلاء الخصوم الشجعان فإنه يسارع إلى المنازلة :-

فإن تنزل الأبطال أنزل، وإن تحمّ  
جدار الردى يا قيس أحمل وأعطي

أما الفخر الجمعي في أحداث فتنة أبي الهيثم فإن ما ورد منه لشعراء قيس في مصادر الدراسة تليل، فهل معنى ذلك أن ذاتية الشعراء كانت أكبر من الاستشعار بالتوحد في القبيلة والحديث بلسانها؟ إن الجواب فيما أرن أن بروز ذاتية الشاعر لم يكن انشعاباً عن القبيلة، وإنما عوراند لها «غير أن الأنا» في مواقف الخطر والمنازلة تتضخم على كل ما عداها، وأن تضخيمها يظل نطقاً من أنماط رنن اللغة الذاتية المهددة بالقتل أو الذوبان في الآخرى.

وكان أبو الهيثم نفسه وابنه خريم قد أكثرا من الفخر بقبيلتهما قيس، فمن فخر خريم قوله في طعنه لأحد فرسان طي، وسادتها ويدعى المعمر بن أيوب الطائي (٢) :-

أنا أخطو طي، غُدوة  
أنتنا قروء يمانية  
ولاقت سويقاً معدية  
فما أب منها ولم يغنم  
فذاقت أمر من العلقم  
يقول خريم لها : خدمي

(١) القوس في اللغة هو مقدم الرأس وأعلى بيضة الحديد.

(٢) تهذيب ابن عساکر ٥ : ١٢٩ .



أَمِنْ حَمَضَ جِئْتُ تَقْرِي الْقَنَا  
تَرْجِي أَبْنُ أَيُّوبَ أَشْلَأُ نَسَا  
إلى مَرْجِ عَذْرَاءَ لَمْ تَخْشِ مَرْجِ (١)  
رُؤَيْدَكَ ، ذُقْ حَسْرَةَ الضَّيْنَمِ

وقد أضاف خريم إلى فخره بقبيلته ونطقه بلسانها سخرية لاذعة من خصومه فهم قرود أذاقتها السيوف المعدية لباس الخوف والحسرة والخيبة جميعاً . وعلى هذه الشاكلة من الفخر المعزج بالسخرية يقول أبو الهيثم نفسه مفتخراً بقبيلته وغلبتها على اليمانية ، معيراً إياها بفرار أحد زعمائها الذي ما كان لينجو من الهلكة لولا حمايته (٢) :-

فلما رآنا صدع الخوف قلبه  
وما رد وجه البجدلي مشرقاً  
ولو يفتقه غمبة مشرقية  
لعاخوه كأساً مرة الطعم لم تكن  
ونجاه سرحوب كرم المناسيب (٣)  
سوى باب بغداد كأسع هبارب (٤)  
غلاظ رقاب الأيام شوس الحواجيب (٥)  
مدامة ندمان ولا كأس شبارب

وهو إلى جانب تعبيره خصمه على فراره ، يعدد مواقع ظفر فيها القيسيون باليمنيين ، وهو إذ يفعل ذلك إنما يقصد إذلالهم بوقائع محسنة ، وأيام مشبودة ، فيقول :-

وسقنا بنا غسان والحي مذججساً  
وجذت رقاب السكسكيين بعدهم  
سأنتيكم يا آل فحطان عنسوة  
عشية داريا بلا تونر ككاذب (٦)  
نأمتوا وعم ما بين عان وهبارب  
إلى الشحر أو أقصى بلاد المغرب

وهذا التهديد بإخراج اليمانية من أرض الشام كأنه غدا مطلباً قيسياً ملجأ ، وكأن السلطة المهيمنة على الشام هي السلطة المضرة لا السلطة العباسية الحاكمة . وفي هذا تحدي صريح للعباسيين ووالهم على الشام الذي كان منحازاً إلى اليمنيين في عهده الفتنية .

- 
- (١) مرج عذرا ، بغوطة دمشق ، معجم البلدان/عذرا . تقري القنا : تطعمها .
  - (٢) تاريخ مدينة دمشق (تراجم حرف العين المتلوة بالألف) : ٨٥ .
  - (٣) السرحوب : الطويل الحسن الجسم ، ومن الخيل العتيق الخفيف .
  - (٤) البجدلي هو عاصم بن بجدل الكلبي .
  - (٥) شوس جمع أشوس وهو ذو الأنفة والكبرياء والعسرة .
  - (٦) مذحج جد ثلاثة بطون من قبائل اليمن أشهرها سعد العشيرة . انظر : جمهرة الأنساب : ٤٧٦-٤٧٧ .

ويتكرر فخر أبي الهيدام بقبيلته ، وذلك نمط لبق من أنماط التأشير في فرسانها إذ يشعرهم فيه بأنه وإياهم متوحدون في همّ القبيلة ومعاناتها ، يقول (١) :-

لَمَّا رَأَيْتُ حُمَاةَ الْقَوْمِ قَدْ دَلُّوا	وَقَدُمُوا رَايَتِي عَنِّي وَخَوْلَانِي
وَجَالَتِ الْخَيْلُ أَمْ كَادَتْ تَجُولُ بِنَا	نَادَيْتُ مُسْتَجِدًّا : يَا قَيْسَ عَيْلَانَا
فَنَابَ جَمْعُهُمْ حَوْلِي كَأَنَّهُمْ	غَلَبُ الْأَسْوَدِ الَّتِي تَعْدُو بِخَفَانَا (٢)
وَقُلْتُ : لَا يَغْلِبُنْكُمْ مَعْشَرُ قَوْمِي	صَفْرُ الْجُلُودِ ، بَنِي الشَّيْطَانِ قَحْطَانَا (٣)
فَخَذُّوهُمْ بِأَسْيَافٍ مَفْلَلَةٍ	وَرَاةً مِنْ أَيْبِنَا الشَّيْخِ عَدْنَانَا
أُرْدَتْ وَزَيْرَةٌ فِي قَتْلَى مَعْدَدَةٍ	أَصْلَاهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْبَعَثِ نِيرَانَا

فأبو الهيدام ، مع استشعاره بمنزلته باعتباره زعيماً يدعو قُيُلَيْي ، لم يُخْبِ حاجته الحقيقية إلى معاضدة قومه له . ثم إن في هذه الأبيات شيئاً آخر عوفي هذا الاستحضار لصور النزال : فرسان اليمانية يتقدمون في مجموعتين ، تتقدم كل مجموعة رايتها ، والخيل تجول في الميدان متحدية ، وقوم الشاعر وقوف ، فناداهم زعيمهم : يا قيس عيلان ، فالتف الجمع من حوله ، وخطبهم حاثاً وإياهم : لا يغلبنكم معشر قن صفر الوجوه ، أبناء الشياطين . فاندفع فرسانهم من حوله مسارعين إلى تقطيع أجسام الخصوم بأسياك مفلة لأتفتها الضرب .

ويرد في إحدى مقطعات أبي الهيدام إشارة خاطفة إلى سبب هذه الفتنة بين القيسيين واليمنيين في معرض افتخاره بنسبه وبرجال قومه الشجعان (٤) :-

لَمَّا رَأَيْتُ عَدَاةَ الْمَرْحِ ظَلَمَهُمْ	أَنْهَضْتُ مِنْ جَانِبِ الْقَصْبَاءِ أَشْبَهَا (٥)
بِيضًا بَمَا لَيْلٍ مِنْ قَيْسٍ إِذَا رَكِبُوا	لِلرَّوْعِ زُلْزَلَتِ الْأَرْضُونَ زَلْزَالَا
أَنَا ابْنُ خَيْرِ بَنِي دُبْيَانَ قَدْ عَلِمُوا	وَحَامِلُ الثَّقَلِ عَنْهُمْ بَعْدَمَا مَالَا
لَوْلَا الْخَلِيفَةُ وَالْإِسْلَامُ مَا تَرَكَتْ	خَيْلِي بِأَرْضِ بَنِي قَحْطَانَ جَوَالَا

- (١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم حروف العين المتلوة بالألف) : ٤١٦ .
- (٢) خفان : مأسدة ترب الكوننة .
- (٣) القزم : اللئيم .
- (٤) تاريخ مدينة دمشق (تراجم حروف العين المتلوة بالألف) : ٤١٨ .
- (٥) القصباء : جماعة القصب النابت الكثير في مقصبه ، ويغلب على الظن أنه أراد موضعاً بعينه كان كبير القصب .

فالشاعر يصرح بأنه لولا الخليفة ولولا حرمة الإسلام لما ترك تحطانياً في الشام حياً ، وأنه لو فعل لكان له عذره فاليمانيون ظلموا قبيلته ، وهذه الأقوال لها قيمتها في كونها مؤشراً مرجحاً إلى أن الصراع في فتنة أبي الهيثم كان صراعاً قبيلاً وحسب ، وإلى أن والي الشام من قبائل العباسيين كان يتصرف في اتجاه مؤيد لليمانيين بمنعزل عن موقف الخليفة في بغداد ، وقد يكون فسي وإجلال الشاعر لشأن الخليفة مقصد آخر ، إذ لعله أراد أن يستميل الخليفة إلى القيسية بعد أن أظهر ولاة الشام في إبان هذه الفتنة وقبلها انحيازاً واضحاً إلى اليمانيين (١) .

ومما تجدر ملاحظته في هذا الفخر أيضاً خفوت الفخر بالأنساب وبالجدود ، وذلك لأن الحرب لم تكن حرباً كلامية كما كان الشأن في فخر شعراء النقائض ، وإنما كانت حرباً حقيقية لاهبة ، وذلك يستدعي الفخر بالبطولة في المقام الأول .

وكان حظ الفخر من البروز في الشعر اليماني في أحداث حرب أبي الهيثم قليلاً ، وذلك يعود إلى كثرة همزائم اليمانيين ، ومن هنا لم تذكر في أشعارهم أسماء المواقع والأيام التي انتصروا فيها ، وغاية ما يرد فيها ذكر لأسماء من قتلوا من القيسيين ، ووعود بأن يلحقوا بخصومهم المسوت في حلقات النزاع القادمة ، كما يرد فيها دُرٌّ عن النفس لثمة التقصير ، وهذه أمور إذا قيست بمفاخر قيس تظهر الفرق بين الطرفين كبيراً . ومن الأمثلة على هذا النهج اليماني في الفخر قول حجوة بن مَدْرِك الغساني (٢) :

قَتَلْنَا أَنَا سَأً فَاسْتَقَلْنَا بِقَتْلِهِ \_\_\_\_\_  
فَلَا تُخَدِّعِي يَا قَيْسَ عَيْلَانَ وَأَصْبِرِي \_\_\_\_\_  
مَمَاتٍ أَضَعْنَاهَا لَنَا أَوَّلَ الْأُمَمِ \_\_\_\_\_  
رُوَيْدِكَ إِنَّا سَوْفَ نَعْقَبُ بِالتَّبَابِ \_\_\_\_\_ (٣)

(١) حلف أخ لأبي الهيثم كان عاملاً للرشد على سجستان مسؤولة أحداث الفتنة على أخيه ، وفي ذلك قال :

أني عامر - لا قدس الله عامراً -  
نما عثر من كانت سجنتم ان داره  
إذا نحن خلينا عن الصلح عامراً  
فما نحن إلا أهل سنع وطاعة  
فأحسين أمير المؤمنين فإنه

(الورقة : ٢٥) غير أن هذا الشعر يجب أن يؤخذ بحذر ، فالشاعر سجين ، وهو لذلك حريص كل الحرص على أن يظهر حسن النوايا ليرضى عنه سجنانه فيفك قيوده .

(٢) تهذيب ابن عساكر ٤ : ٩٠ ، بغية الطلب ، صورة فضل الله ، ترجمة حجوة .

(٣) في تهذيب ابن عساكر : فلا تجزي ، والتصويب من بغية الطلب .

سَأْتِيكُمْ مِنْ الْأَسْوَدِ مُغَيَّرَةً  
فَإِنْ يَكُ فُرْسَانِي نُبُوءًا عَنْ قِتَالِهِمْ  
فَرُبَّ حُسَامٍ قَدْ نَبَأَ وَهُوَ قَاطِطٌ  
عَلَى كَلِّ طَيَّارٍ يَزِيدُ عَلَى الرَّجْمِ  
بِجَانِبِ حَرْلَانَ وَحَامُوا عَلَى النَّصْرِ  
وَيَشْكُلُ أَحْيَانًا لَدَى مِخْلَبِ الصَّقْرِ

فعلى ما في هذه الأبيات من افتخار فإن فيها إقراراً صريحاً بتقصير اليمانيين ، واعتذاراً عن هذا التقصير "فرب حسام قد نبأ وهو قاطط" .

أما الوجوه الأخرى من الفخر اليميني تبرز في صيحات التهديد والوعيد ، كالتي أطلقها الشاعر محرز بن مدرك الغساني ، كما تبرز في ذكر بعض أعلام القيسيين الذين كانت اليمن قتلتهم ، وفي نفي صفة التقصير عن اليمانيين في حروبهم مع قيس ، يقول محرز في ذلك كله (٢) :-

سَأْسُقِي أَبَا الْبَيْدَامِ كَأْسًا مِنَ الرَّدَى  
جَمَعَتْ لَنَا أَوْلِيَاءَ كُلِّ قَبِيلَةٍ  
فَلَا تَعَجَّلْنَ وَأَرْقُبْ جِيَادًا كَانَتْ  
فَنَحْنُ قَتَلْنَا فَارِسِيكَ كُلِّيهِمْ  
يَظِلُّ إِذَا مَا ذَاتَيْهَا وَهُوَ نَائِمٌ  
وَأَنْبَاطُ حَوْرَانَ ، وَجَاءَ الْمَالِمُ  
سَرَّاحِينَ تَعْلُوهُمَا اللَّيْثُ الضَّرَّاعِي  
فَقَامَتْ عَلَى بَدْرِ وَرَزَّ الْمَائِمُ

وقال في قطعة ثانية (٤) :-

لَقَدْ خَدِمْتُ أَسْيَافُنَا وَرَمَاحُنَا  
حَمَلْنَا عَلَيْهِ حَمَلَةً يَمِينِيَّةً  
فَلَسْنَا بِأَنْكَاسٍ إِذَا الْحَرْبُ مَمَّرَتْ  
بِأَسْيَافِنَا اللَّائِي شَهْدَنَ (٥)  
فَآتَرَنَ بِالْأُفْصَالِ بَدْرَ بَنٍ كَامِرٍ  
عَرَكَمَاهُ فِيهَا تَخْتَنَا بِالْكَلاكِ  
وَلَا نَحْنُ فِيهَا بِاللَّسَامِ التَّنَابِلِ  
ذَوَاتِ الْفُلُولِ الْمُخْلِصَاتِ الْمَنَاصِلِ  
نَصَرْنَا بِهَا الْإِسْلَامَ مِنْ كَلِّ فَاجِرٍ  
جَحُودٍ عَنُودٍ مِنْ جَمِيعِ الْقَبَائِلِ

وأكبر الظن أن حديث الشاعر عن نصرته الإسلام في هذا المقام يراد بنا نصرته القائم على أمر المسلمين ، وفي هذا ، إن صح ، دليل على مساندة اليمانيين للخليفة وولائه في الشام .

- (١) حرلان ناحية بدمشق بالغوطة فيها عدة قرى: وفي تهذيب ابن عساكر جولان والتصويب من بغية الطلب لأنه أقرب لمواقع أحداث الفتنة . وانظر: معجم البلدان / حرلان ، وقال محمد كرد علي : هو من القرى الدائرة . انظر : غوطة دمشق : ٢٢٩ ، وحام بمعنى قسار .
- (٢) صورة تاريخ مدينة دمشق ١٦ : ٢٧٨ .
- (٣) السراحين جمع سرحان وهو الذئب .
- (٤) صورة تاريخ مدينة دمشق ١٧ : ٧٦٩ .
- (٥) فراغ في الأصل .

غير أن الفخر بالأنساب على سنن شعراء العصر الأموي والعصر الجاهلي ظل له حضوره المتميز في شعر الطائيين الكبارين أبي تمام والبحتري . أما أبو تمام فقد عني عناية فائقة بتعداد أسماء الأعلام المشهورين من طيبي<sup>١</sup> ، ذاكراً الخصال الحميدة التي اشتهر بها كل منهم ، وقصد أغرق في رسم صور مثلى لهم ، يقول في إحدى قصائده معدداً أعلام قبيلته<sup>(١)</sup> :

أنا ابنُ الذين استرضعَ الجودُ فيهمُ      وسَيَّ فيهم وهو كئيلُ ويا فروعُ  
سمايَ أوسَ في السماءِ وحاتمُ      وزيدُ القنا والأثرمانِ ورافعُ<sup>(٢)</sup>

وقد ظل هاجس التعالي على القبائل الأخرى بارزاً في شعر أبي تمام ، مما يدل على أن رواسب القبلية الجاهلية كانت ما تزال في الصدور ، وهو في تنفج هذا كبير الشبه بالفردق ، يقول في قطعة ملخصاً هذا الشعور القبلي المتعالي (القطعة ٤٨٢) :

عن اجتمعت علياً معكُ ومدحِج      بُلَّتَحَمِ إِلَّا وَمَنَا أميرُهمنا  
بل اليمعُ استعلتْ لدى كنى موطيسين      وعمار لطيُّ تاجها وسريرهمنا

وتنفج البحتري وهو في حداثة سنه بقبيلته فقال في خطابية مباشرة تكشف عن نورة الشباب ، وحمية الصبيبا<sup>(٣)</sup> :

إن قومي قومُ الشريفِ قد يمينا      وحدثنا أبسوةً وجُودا  
ذ هبت طيبيء بسابقة المَجُودا      يد على العالمين بأساً وجُودا  
مُعشراً أمسكتْ حلومهمُ الأره      ض وكادت من عزهم أن تُعيدا  
ملكوا الأرض قبل أن تملك الأره      ض وقادوا في حافتيها الجنودا

- (١) القصيدة ٤٨٢ من ديوانه .  
(٢) أوس المذكور هو أوس بن حارثة بن لأم من سادة طيبيء المشهورين كان لابنه جوير صعبة . انظر جمهرة ابن حزم : ٣٩٩ ديوان أبي تمام ٤ : ٥٨٥ . وزيد القنا هو زيد الخيل ، أدرك الإسلام ووفد على النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم انصرف فمات قبل أن يصل إلى أهله . أثنى عليه الرسول وسماه زيد الخير . انظر جمهرة ابن حزم : ٤٠٣ ، ديوان أبي تمام ٤ : ٥٨٥ . والأثرمان من سادة طيبيء . ورافع هو رافع بن عميرة بن جابر الطائي ، كان دليل خالد بن الوليد من العراق إلى الشام . انظر : جمهرة ابن حزم : ٤٠٢ .  
(٣) القصيدة ٢٤٧ من ديوانه (تحقيق حسن كامل الصيرفي) .

وللبحتري قصيدة أخرى تنضح مغالاة في ذكر فعمال طبي<sup>١</sup> ورجالها ، وفيها فخر بالنفس وتمرد على الزمان الذي أنقره انتقاماً من بذل قومه القديم للمال - على حد قوله - (١) :-

أَنَّ كَانَ قَوْمِي قَوْمًا بِفِعَالِهِمْ .      شديد أعوجاج الدهر في سالف العصر  
وجاروا على الأموال بالجود جورهم      على معشر الأعداء بالقتل والأشر  
أيقنصمتي آخر الدهر ظالمسًا      جرائر أجدادي على أول الدهر

وتستمر القصيدة بعد ذلك في أبياتنا الخمسة والأربعين تذكر كرم الطائيين وشجاعتهم واتتدارعهم على خصومهم وسيادتهم على من سواهم من قبائل عدنان وقحطان ، ويبدو فيها الشاعر شاباً متمكناً زعواً وخيلاً ، يأيام طبي<sup>٢</sup> على القبائل الأخرى والاقوام الآخرين روما وعرباً ، إلى أن يقول :-

وفي يوم صغين انتننا ذرى العسلا      وقد جعل الخطي يعثر بالكسر  
لنا حسب لو كان للشمر لم تفرسب      وللبدر ما استولى المحاق على البدر  
فأبخلنا بالمال نبد لحاتيم      وأجبننا في الروع أشجع من عمرو (٢)

وعلى الرغم من أن الصراع بين المعتدلين العربي والفارسي كان على أشده في هذه الحقبة من التاريخ ، فإننا لم نلاحظ بنير قصيدة واحدة من قصائد الشاميين برزت فيها الشعوبية ، وذلك على الرغم أيضاً من أن الشاميين كانوا أكثر الناس تضرراً بنغلبة المعتدلين الفارسي على العنصر العربي في شؤون السياسة ، ولعل من أسباب اختفاء الشعوبية والفخر بالأصول الفارسية في بلاد الشام يعود إلى قلة العناصر الفارسية التي استوطنت بلاد الشام والجزيرة في مقابل كثرة من سكن منهم في العراق ، وعموم أدى إلى عدم التصادم بين الطرفين في الشام على عكس ما كانت عليه الحال في العراق .

العراق .

أما الشاعر الوحيد الذي افتخر بأصوله الفارسية من الشاميين فهو ديك الجن الحمصي ، فله من قصيدة يستعلي فيها على العرب ، ويعتد بفارسيته (٣) قوله :-

- (١) من القصيدة ٤٢٥ .  
(٢) عمرو المذكور هو عمرو بن معدي كرب الزبيدي فارسي اليمن وصحابي معروف شهد اليرموك والقادسية . انظر الشعر والشعراء ، ١ : ٢٨٩ ، الأغاني ، ١٥ : ٢٠٨ .  
(٣) القصيدة ١٥ من ديوانه .

وإن كان عُرْفُكَ مَدْخُورًا لذي سَبَبٍ      فاضْمُ يَدَيْكَ على حُرِّ أَخِي سَبَبٍ  
أَوْ كُنْتَ وَافِقْتَهُ يَوْمًا على نَسَبٍ      فاضْمُ يَدَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِالْعَرَبِيِّ  
وَإِنِّي أَمْرُؤٌ بَازِلٌ فِي ذِرْوَيْهِ شَرَفٍ      لِقَيْصِرٍ وَلِكُفْرَى مَحْتَبِدِي وَأَبِي (١)

ويعود ذلك الجن في القصيدة نفسها ليفخر بما يفخر به كل عربي ، ولا عجب في ذلك ، فالقيم التي اصطلح عليها شعراء العرب والشعراء الفرس الذين أشربوا الثقافة العربية واحدة تقريباً هي النخوة والكرم والشجاعة ، والصبر على نوائب الدهر . . . . . الخ .

إن مجالات الافتخار متعددة تتجاوز حد الشجاعة والفروسية وكرم المحتد والجود لتشمل الفخر بحماية المرأة وإغاثة الملهوف ، والفخر بالقدرة على تجويد الشعر ، وفي الشعر الشامي نماذج لهذا كله ، ولكي أكتفي من الأمثلة بما قدمت ، لأن العجب الذاتي لا يمكن أن يخضع لمقياس نسبي دقيق ، فكل متحد عن ذاته إنما يشبه من يُجْرِي فرسه في خَلَاةٍ فيظنُّها أَحْسَنَ الخيل ، وهو لا يدخلها في سبائك لئلا يُفْتَضَحَ خداعه الذاتي أمام نفسه (٢) .

---

(١) انظر نسبه في الأغاني ١٤ : ٥١ .  
(٢) انظر في افتخار البحري بشاعريته مثلاً القصيدة ٢٥٦ من ديوانه .

خامساً: النقد الاجتماعي والهجسما: -

سجل الشعر الشامي فيما سجل نوعين من المهدوم التي كانت تعني الناس، وهما همان يصطدم بهما الإنسان ويعتياه على مر العصور، المهم الأول فساد الإدارة والإداريين، والثاني الشكوى من معاندة الحظ، ونكد العيش، وقد تحولت هذه الشكوى إلى سخط على الناس، والزمان، وهجسما لهم .

أما التعبير عن فساد الإدارة ومعجائها فقد استحال إلى لون من الرسائل الشعرية يرفعها الشاعر إلى الخليفة يذكر فيها معائب بعض رجال الإدارة من اختلاس، وظلم، وفساد وسوء تدبير. ويمثل ذلك بعض التشيل قول البحترى في رجل اسمه نهشل كان يتولى بريد الرقعة (١) :-

إلَيْنَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ رَسَالَةً	مِنَ النَّزْبِ تَسْتَقْرِئُ فِجَاحَ الْمُشَارِقِ
أُعِيدُكَ بِالذُّمِّ مَنِ اللَّهُ أَنْ تُرَى	قُدَامِي جَنَاحَ الْمُسْلِمِينَ لِفَاسِقِ
أُعِيرُ بَرِيدَ الرَّقْعَيْنِ غَضَاضَةً	بِمُضْطَرِّبِ الْكَثْمَيْنِ رِخْوِ الْبِنَائِقِ
نَعَى الْعَدْلَ شَرْقِيَّ الْبِلَادِ بِجَوْرِهِ	عَلَيْنَا وَبَاعَ النَّاسَ بِدَانِقِ (٢)
لَهُ فِي الذَّنِّ اسْتَرْعِيهِ رُوحَةٌ فَاجِرٍ	بِسُوءَتِهِ الْآخَرُونَ وَدُلْجَةُ سَارِقِ

وقال في رسالة شعرية أخرى إلى الخليفة، وقد أشت فيها إسفانا شديداً في الطعن برجولة متولي بريد الرقعة نهشل المذكور ومعجائه (٣) :-

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمَا غِيَاكَ	نُؤَمِّلُهُ ، فَقَدْ طَالَ الْقَنُوطُ
أَبِي عَمَّالِنَا إِلَّا فُسُوقَنَا	لَكُلِّ مَنْ أَحْبَبْتِهِمْ سُورُوطُ

كانت مفاسد عمال الإدارة في الشام مصدر قلق للشاميين فكان الشعراء يشكون باسمهم أولئك الإداريين الفاسدين، وهذا ما تبدى بوضوح في هذا الشعر الذي نطق به الشاعر باسم

- (١) القصيدة : ٥٩٩ .
- (٢) الدائق سدس الدرهم .
- (٣) القصيدة ٤٩٤ ، ولم يسلم من الهجاء المقذع المسف فيها غير ما أوردناه .



الجماعة الإسلامية ، وهو يقول أيضاً في الطعن بسوء اختيار رجال الإدارة ، والشروع التي نجمت عن وضع الرجل غير المناسب في المكان الذي لا يستأهله (١) :-

الآن أيقنت أن الرزق أقسام  
لما تقلد أمر البريد حجام  
لو أن أرضاً بكت شجواً لحادثته  
حلت ، إذن لبكت من أجله الشام

وتطبخ القصيدة سخرية من رجل البريد الذي كان في أول أمره حجاماً إذ يعرضه في صورة مزريسة من الاعتماد بأدوات الحجامة وشؤونها والكلف بها ، وما ذلك إلا ليقول : كيف يتولى أمر البريد رجل عذبه حاله ومفتسه ؟

وانتقد الشعراء عمال المدفقات الذين يأتون على أموال الناس بالباطل ، وانتقدوا ظلم القضاة وجورهم على الناس كما انتقدوا الولاة أنفسهم ، وما قيل في انتقاد القضاة تول عمرو بسن هوبر الكلبى في قاضي حلب وجاءه (٢) :-

لا در در زماننا المتكثري  
الجاعل الأذنان نون الأرويس  
ما أنت إلا نعمة في نعمته  
أو أض شوك في حديقة ترجيس  
من ستر أبطح مكة آبواه  
وجدوده وكأنه من قبرس (٣)

ووجهت سهام النقد إلى بعض القادة العسكريين مثل علي بن يحيى الأرمني الذي كان من قادة الشغور المشهورين في زمن المتوكل ، وقد نظم البحترى في هجائه ثلاث قطع (٤) ، غير أنه لم يرد فيها ما يدل على أن هجاءه له كان بسبب تخميره في قيادة الجيوش الإسلامية غير قوله في إحداها (٥) :-

سرفت سهام المسلمين ولم تكن لهم يور زحف المشركين بحاضر

وقد قال البحترى هذا القول مع أن مصادر التاريخ أثبتت على قيادة هذا القائد ، ومع أنه أيضاً قتل في إحدى غزواته في الشغور (٦) ، ويغلب على الظن أن خصومة ما كانت بين الشاعر والقائد ، ولعل

- (١) القصيدة ٨٠٩ .  
(٢) شاعر من معرثا من ضباع معرة النعمان قرب حلب ، كان ولي في أيام المتوكل معرة مصرين وقتل بها ، ذكر ذلك ابن العديم وقال : كان قاضي حلب في أيام الواثق رجل يدعى عبيد بن جناد الكلبى . انظر : زبدة الحلب ١ : ٧٠ .  
(٣) سر النسب : محضه .  
(٤) هي القطع ١٤٢ ، ٢٥٣ ، ٨٥٢ .  
(٥) من القطع ٣٥٣ .  
(٦) قد أشرنا إلى ذلك في الحديث عن الحياة السياسية .

سببها راجع إلى إعمال علي بن يحيى الأرمني للبحتر ، فلم يحظ منه بما كان يحظى به لسدي غيره من القواد والوزراء . ويرشح هذا التوجيه قول البحترى فيه في مقابلة دالة بينه وبين الفتح بن خاقان والمتوكسل (١) :-

أَمِنْ بَعْدِ وَجَدِ الْفَتْحِ بِي وَغَرَامِيهِ	وَمَنْزَلَتِي مِنْ جَعْفَرٍ وَمَكَانِي
أَكَلْتُ مَدْحَ الْأَرْمَنِيِّ عَلَى السُّدِيِّ	لَدَيْهِ مِنَ الْبَغْضَاءِ وَالشَّنَائِي
وَمَنْ خُلِّقَ يَسْتَنْكِتُ الْكَلْبُ أَنْ يُسْرَى	لَهُ جَارَ بَيْتٍ أَوْ رَضِيَ لِبَيْتَانِ

وإذا كان البحترى قد سخط على بعض رجال الإدارة فهجاءه ، فان أبا تمام سخط على الناس عموماً حتى قال (٢) : " جلهم بل كلهم بقر " ثم تحول سخطه على أهل زمانه وهجائه لهم إلى سخطه على الزمان الذي ضيق عليه سبيل الميثر الكريم ، يقول في صورة من التمزق النفسي يكشف عن حدة معاناته وقلقه (٣) :-

كَمْ دُفَّتْ فِي الدَّهْرِ مِنْ عُسْرٍ وَمِنْ يُسْرٍ	وَفِي بَنِي الدَّهْرِ مِنْ رَأْسٍ وَمِنْ ذَنْبٍ
أُغْضِي إِذَا صَرُّهُ لَمْ تُغْضِرْ أَعْيُنُهُ	عَنِي ، وَأَرْضَى إِذَا مَا لَجَّ فِي التَّغْضَبِ
إِذَا قَصَدْتُ لَشَأْرٍ خَلْتُ أَنِّي قَسَدٌ	أَدْرَكْتُهُ ، أَدْرَكْتَنِي جِرْفَةُ الْأَدَبِ

ان زمان الشاعر يمانده ، ويحبط كل مساعيه في أن يظل في يسر ، ولذلك استحن لومه له ، وتعنيفه بإيـاهـ (٤) :-

أَلُمَّاكَ لَا أَلُمُّ سِوَاكَ دَهْرًا	قَضَى لِي بِالَّذِي يُقْضَى سَدُومٌ (٥)
إِذَا أَنَا لَمْ أَلُمَّ عَشْرَاتِ دَهْرٍ	أَصَبْتُ بِهَا الْغَدَاةَ فَمَنْ أَلُومُ
وَفِي الدُّنْيَا غَنَى لَمْ أَنْبُ عَنْهُ	وَلَكِنْ لَيْسَ فِي الدُّنْيَا كَرِيمٌ

وبلغ سوء الظن بالناس حده الأعلى لدى شاعر أنطاكي يدعى ابن طلييب الكوكبي (٦) ، فله

- (١) من القطعة ٨٥٢ من ديوانه .
- (٢) من القصيدة ٧٠ وهي في مدح طائي من أهل حمص .
- (٣) القصيدة ٤٧٧ من ديوانه .
- (٤) القصيدة ٤٧٢ من ديوانه .
- (٥) سدوم إحدى مدائن لوط ، ويذكر أنه كان بها قاض جائر ضرب المثل بجوره ، انظر: معجم البلدان / سدوم .
- (٦) ذكره ابن العديم فقال : شاعر مجيد كان في أيام المأمون وهو من قرية كوكبا من قرى أنطاكية . انظر بغية الطلب ٨ / ورقة ٢٣٠ ب / ٢٣١ أ .

قصيدة مسطحة المعنى تنضح سوداوية وهجاء للناس في زمانه ، وفيها إلى جانب ذلك دعوة صريحة إلى ضرورة تبني هذا النهج من سوء الظن بالناس وعدم الاكتراف بالقيم الدينية والمعايير الخلقية ، مما يبدو غريباً نشازاً في ذلك الزمان ، يقول : -

عَثْرَ بَنِي آدَمَ فَكَلَهُمْ	لِلَّهِ عَامِرٍ وَكَانَ لَهُمْ دُعَاؤُهُ
وَكُلُّ بَضْرُسٍ وَطَا الْأَنْثَامَ بِظُلْمٍ	فِي تَأْتِ حَزْمًا وَتُحَكِّمُ الْأَمَمَاتُ
وَلَا تَقُلْ : أَحْفَظُ الذَّمَّ مَسَامٍ وَلَا	أَنْسَى فَلَانًا وَحُسْنَ مَا فَعَسَا
إِنْ مُسْتَشِيرُ أَتَاكَ مُنْتَصِحِنَا	فَأَمْدُدْ لَهُ كَيْفَ مَا اشْتَمَى الظُّوَلَا
خَلَطًا عَلَى النَّاسِ يُنْسَبُوكَ إِلَى	الظُّرُفِ وَشَتَّتْ عَلَيْهِمُ السُّبُوحَاتُ
قَدَمٌ وَأَخْرَجُوا مِنْكُمْ طُرُقَنَا	يَأْتُونَ فِيهَا الْعِشَارَ وَالزَّلَّالَا
وَأَسْقِيَهُمُ السَّمَّ إِنْ خَفِرَتْ بِهِمُ	وَأَمْرٌ لَهُمْ مِنْ لِسَانِ الْعَسَا
إِنَّ رَجَالَ الْوَفَاءِ قَدْ ذَهَبُوا	لَأَنَّ نَجْمَ الْوَفَاءِ قَدْ أَفَلَا

وهذه القصيدة ما أثبت فيها وما لم أثبت غريبة نادرة في الشعر العربي بمنحائها الفكرة القائلة على الدعوة إلى المخاتلة والخداع والنفاق والندرة ، وإن استندت إلى حجة واهية ، فيها تعميم مطلق بأن كل بني آدم عتاة لله ، وأن رجال الوفاء قد ذهبوا ، ونجم الوفاء قد أفل .

أما الهجاء بين الشعراء الشاميين فقد شاع بين أبي تمام وبعض الشعراء المغمورين بالنسبة إلينا ، ومنهم عتبة بن أبي عاصم <sup>(١)</sup> ، ومحمد بن يزيد الحصني الأموي ، وموسى بن إبراهيم الرافقي ، كما شاع بين البحترين وعدد آخر من الشعراء منهم ذفافة العبسي والخدمسي <sup>(٢)</sup> .

وكان سبب هجاء أبي تمام لعتبة فيما تفصح عن ذلك قصائده فيه ، منافحة أبي تمام عن بني عبد الكريم الطائيين الذين كان عتبة قد هجاهم ، فدومت عصبية أبي تمام لطي ، وإحسان بن أبي عبد الكريم إليه أن يتمدى لخصمهم مشدداً عليه نسبة الوضيع ، وشاعريته الضحلة قال فيها <sup>(٤)</sup> : -

- (١) الدغل : المخاتل الذي يضر الشر لأصحابه ويحسبونه يريد لهم الخير .
- (٢) شاعر من أهل حمص هجاه أبو تمام في ثمانين قصائد ومقطعات هي ٤٣٤٣ ، ٤٣٤٤ ، ٤٣٤٦ ، ٤٣٤٧ ، ٤٣٦٠ ، ٤٣٦٤ ، ٤٣٩٧ ، ٤٣٩٨ .
- (٣) شاعر من أهل الجزيرة اسمه أحمد بن محمد ويكنى أبا عبد الله ، ويقال أبا العباس . وقيل اسمه الحسن . وكان يتشيع . هجاه البحترى في جملة قصائد وقطع هي : ١٠ ، ٤٤ ، ٥٦٢ ، ٦٩٦ . وانظر سبط اللالي ٢ : ٩٢١ .
- (٤) القصيدة : ٤٩٧ .

أرأى بني عبد الكريم تشاورسست  
عيناك ، ويلك خلف من تتنقون؟ (١)  
انظر فحيث ترى السيوف لوامعاً  
أبدأ فتوق رؤوسهم تتألق

وقد راح الشاعر في قصيدته بين الهجاء المقذع ، والهجاء الساخر ، والمدح الذي يعلي من شأن  
بني عبد الكريم إعلالاً ، والترعيب لعتبة إذ يتناول على قوم " شوس لم يحسبوا أن النية تخلق " ؛

إني أراك حلمت أنك ساليهم  
من بطشهم ما كن رؤيا تمسك  
إياك يعني القائلون بقولهم :  
إن الشقي بكن حين يخنس

كما افتخر فيها بشاعريته التي تتطامن دونها شاعرية " لئيم يتشدق " و " غير ينطق " ، فمن قوله  
في شاعريته التي يوجه منها قصائده المرعبة المفزعة إلى خصمه : -

وتسائداً تسري إليك كأنهم  
من منبهضاتك مقعداتك خائفوا  
من شاعر وقت الكلام يبابسه  
قد ثققت منه الشام وسهلست  
أحلام رعب أو خطوب طرق  
مستوهلاً حتى كأنك تطليق (٢)  
واكنن في كنفه ذراه المنطق  
منه الحجاز ورقتك المشرق

وقال من قصيدة أخرى يتنقز من قدر شاعرية عتبة (قصيدة ٢٤٤) : -

نبئت عتبة شاعر الغوغساء  
لما غضبت على القرين هجوتسه  
قد ضج من عودي ومن إبدائي  
وجعلت خلفته هجاء هجائي

ويبدو أن الذي آلم أبا تمام من هجاء عتبة لبني عبد الكريم الطائيين غير إحسانهم إليه ، وعصبية  
الطائية لهم ، استشعاره أيضاً بجرح إحساسه القوي بالعروبة ، وأنه لو كان عتبة من الموالي لكان  
عجاوزه للعرب مثلين في الطائيين أمراً قد يسوغ ، فهو يقول (٣) : -

يا ابن أبي عاصم ولا عاصيهم  
لو كنت من غرة الموالي إذن  
ويلك من سطوتي ومن غضبي  
لم تنت سوءاً في غرة العسرب

- (١) الخلف: ما يأخذه الحالب بكنه من ضرع الشاة ونحوها . ويتغوى : يشرب نواتقاً بعد فواتق ،  
وهو ما ينزل من اللبن بعد الحليب .  
(٢) تطلق من الطلق وهو وجع الولادة .  
(٣) القصيدة ٢٤٧ .

أبي كريم يرضى بشتم بني  
عبد الكريم الجحاجج النجيب<sup>(١)</sup>  
ألاك زهر النجوم ليس كمن  
أمسى دُعياً في الشعر والنسب

وعلى أية حال فإن في تخصيص أبي تمام هذا القدر كله من الشعر في هجاء هذا الشاعر الذي لم تسعنا المصادر في الوقوف على شيء من شعره ، ثم في دفاعه عن شاعريته ، وإزراءه بشاعرية هذا الخصم مرشحات كافية للحكم بأن عتبة بن أبي عاصم كان شاعراً كبيراً .

ويلفت النظر في هجاء أبي تمام لعتبة أنه لم يتيسر في أي من قصائده ، بسرقة شعره ، مع أن ظاهراً اتهام الشعراء بعضهم لبعض بسرقة الشعر أمر شائع معروف حتى عند أبي تمام نفسه ، فهو يقول في هجاء محمد بن يزيد الأموي واصفاً إياه بالسطو على شعره ، وبأنه بفعله هذا قد بزك فرسان العرب في الجراءة والشجاعسة<sup>(٢)</sup> :

إنما الضيفم البصير أبو الأثمة  
من غدت خيلك على سرح شيعمري  
يا عدو الكاذم صرت من بعث  
إن نمتي محمد بن يزيد  
دعه يحض لي الأنام بشيعمري  
بان مناع كل خيس وغسباب<sup>(٣)</sup>  
ومو للخين رافع في كتابسي  
سدي سبايا تبعن في الأعراب  
في الذي ناله لغير صواب  
وقميدي فذات أهون بسباب

أما عجاره لموسى الرافقي فلم يشر إلى شيء من شعر هذا الشاعر الذي سبق له أن مدحه عندما كان يتولى أمر جند دمشق ، وغاية ما جاء في عجزه له نعته إياه باللوم والشح لأن قصائده فيه لم تشر عن مكافأة يكافئه عليها ، يقول نادماً على مدحه له ، نادماً إياه<sup>(٤)</sup> :

أعلمت فيك قصائدي ووسائلسي  
هذا جزائي إذ أدتس عمّتي  
فحرمّتي فليئس أجر العاميل  
بك جاهلاً وكذا جزاء الجاهيل

- (١) الجحاجج : السادة جمع جحججاح .
- (٢) القصيدة ٣٤٨ .
- (٣) الخيس : الشجر الكثير المتلف .
- (٤) هي القصيدة ٤٠٧ ، وانظر القصيدة الأخرى في هجائه رقم ٣٦١ .

لا خذفتُ الرحمنُ عني إنسي  
أرتمتُ ظنِّي في رايخِ الباطلِ  
من أسئلتِ حواءُ أحقَّ لحيَّةً  
من سائلٍ يرجو الرنتى من سائلٍ

فقد انكفأ الشاعر على نفسه متلوماً معتفاً أن كان مدح من لا يستحق المدح ، وقد جرت معظم أبيات القصيدة على هذا النحو من جلد الذات .

أما هجاء البحري لذفاعة العبيسي نسيبه هو - فيما تصرح بذلك القصيدة ٨٧٥ - زواج هذا العبيسي من علوة الحلبية صاحبة البحري ، فهو يقول في شعر مسطوح :-

أبلغ ذفانينا رسالة مشي  
ناق أسرار الشكوى وأعلنه  
رب غداةٍ للقضي في حليب  
يعجني ضحى ورداً عما وسوسنه  
لله أزماننا بعلمسوة ما  
أطيب أيامنا وأحسنه  
نبتنا زوجت أخا خنت  
أغن رطب الأظراب لتيهنا

وليس في هجاء البحري نسي من الطرافة لا في الفكرة ولا في الأسلوب أو التصوير ، لا نستثني من ذلك غير قوله في أبيات هجاء فيما الخثمي ، وفيها يمتد أنف هذا الخثمي جبلاً ضخماً ذاهباً في السماء ، قد شاق الفضاء عن أن يسبحه ، وأنه لولاه لسقطت السماء على الأرض ، يقول (١) :

رأيت الخثمي يقل أنفاساً  
يضيق بعرضه البلد الفضاساً  
سما صعداً فقصر كل ساساً  
لهيئته ، وقصر به الهواساً  
عو الجبل السذي لولادراه  
إذن وقومت على الأرض السماساً

أما هجاءه الآخر في الخثمي فلم يفتق فيه دائرة السباب والطعن في الأنساب والانتهاج بسرقة الشعر ، ووضع المينة ، يقول في إحداهما (٢) :-

قد أهدف النث العمي لو لم يكن  
وغداً ، وليس الوغد من أهدافسي  
وأتى بأبيات له مسروقة  
شئى النجار ، ونسبة أفوان

(١) القصيدة ١٠٠ .

(٢) القصيدة ٥٦٢ ، وانظر القطعتين الأخريين في هجاء الخثمي : ٥٤٤ ، ٦٦٦ .

مَا إِنْ يَزَالُ يُجْرُ مِنْ أَسْعَمَ أَرَاهُ جِيْفَاهُ فَكَيْفَ أَقُولُ فِي الْجِيْفَانِ

وقد تحول بعد اتبامه لهذا الشاعر بسرقه الشعر إلى الطعن في نسبه والإزراء بمهنته " مهنة الإسكاف" يقول في سخرية لطيفة :-

مُتَلَفِّفُ الْعُتْنُونِ مِنْ أَكْبَابِهِه  
فَقَدْ تَكَّ أَتَدَامُ الْعُلُوجِ فُكُلًا مَمْنَنْ  
وَزَعَمْتَ أَنْكَ خُتْمِي بَعْدَ مَسَا  
يَا وَغَدُ ، مَا هَذَا مِنَ الْإِنْتَصَافِ (١)  
لِلخُرْزِ بَيْنَ قَوْلِبِ وَأَشْأَفِ (١)  
بِبِلَادِ "رَأْسِ الْعَيْنِ" بِمَدِّكَ حِصَانِ  
عَرَفُوا أَبَاكَ ، فَبِعَيْنِ زَا الْإِزْجَافِ (٢)  
يَا وَغَدُ ، مَا هَذَا مِنَ الْإِنْتَصَافِ

وإذا كانت بعض مقاييس الجودة في الشعر تقوم على حسن التصوير ، وبراعة ائتلاف اللفظ والمعنى ، وطرافة الفكرة ، وجلال الموسيقى ، فإن حظ أهماجي الباحثن من تلك المقاييس فليلـلـ و هذا ما حدا بالمرزباني إلى القول في مقابلة دالة إلى بعض تلك المقاييس وهو يوازن بين أهماجي الباحثن وأهماجي ابن الرومي (٣) : " ويخبر من أئمن الأدب ينكر خُبَّتْ لسان علي بن العباس الرومي ويظن عليه بكرة عجايبه حتى جعلوه في ذلك أوحدا لا نظير له ، ويشربون عن إنفاة الباحثن إليه وإلحائه به ، مع إحسان ابن الرومي في إساءته ، وتصور الباحثن عن مداه فيه ، وأنه لم ييلفـه في دقة معانيه ، وجودة ألفاظه ، وبدائع اختراعاته ، أعني الهجا ، خاصة " .

أما أن تكون بضاعة الباحثن في الهجا نزره لأنه كان أوتسى ابنه أن يحرف كل شيء قاله في الهجا ، وأن الابن جمع أهماجي أبيه في الناس ثم أحرقها ، فهي رواية لا تستقيم لدى أدنسى استقراء للديوان ، ففيه مقدار كبير من قصائد الهجا ، ومقطعاته ، غير أن الجيد منه قليل بمقياس أبي الفرج الأصفهاني الذي يروقه في الهجا " التهمك باللفظ الطيب الخبيث المعاني " . وإذا كان هذا يقال من الوجهة الفنية في أهماجي الباحثن ، فإن نقده لبعض رجال الإدارة ومخالفاتهم وتحيفهم يعد سابقة تسجل له ، لأنها من المظاهر القليلة الدوران في الشعر العربي حتى عصره .

- (١) العثنون : اللحية الكثة ، الأشافى جمع الإشفى وهو منقب الإسكاف .  
(٢) خشم اسم بطن من بطون العرب ونسبه في جمهرة ابن حزم : خشم بن عمرو بن الخموث ابن نبيت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ . انظر جمهرة الأنساب : ٤٣٣٠ ، ٣٩٠-٣٩٢ .  
(٣) الموشح : ٥١٤ .

## الشمس الرابع

### الشعر في نصرة المذاهب

#### أ - التشيع في الشعر الشامي :

على الرغم من غياب الشعر المذهبي بوجه عام من الشعر الشامي في القرنين الثاني والثالث الهجريين، فإنه تستوقف الدارس ظاهراً تشيع بعض شعراءه، وأبرز من عرف عنه أنه كان يتشيع فسي شعره الشاعران منصور النمري وديك الجن الحمصي .

أما منصور النمري فقد تشعبت الأقوال في مذهبه وتضاربت، فقد قال ابن المعتز<sup>(١)</sup> : " كان يدين بالإمامة سراً، ويدين آل الرسول، ويعرض في شعره بالسلف " و " أن أشعار النمري في آل الرسول - عليه السلام - كثيرة جيدة من أجود ما مدحوا به " . وقال ابن تينية الدينوري<sup>(٢)</sup> : " وكان يظهر أنه عباسي الرأي مناظر لآل علي ولغيرهم . . . وكان مع هذا شيعياً " . وقال الجاحظ فيما نقله عنه الحنري في " زهر الآداب " :<sup>(٣)</sup> " وكان - منصور النمري - يذهب مذهب الشراة، فدخّل الكوفة، وجلس إلى هشام بن الحكم الرافقي، وسمع كلامه فانتقل إلى الرضا . . . وأنه كان يضر غير ما يظهر، ويعتقد الرضا، وله في ذلك شعر كثير لم يظهر إلا بعد موته " .

وقال أبو الفرج الأصفهاني<sup>(٤)</sup> : " عرف النمري مذهب الرشيدي في الشعر، وإرادته أن يمتل مدحه إياه بنبي الإمامة عن ولد علي بن أبي طالب، والظمن عليهم، وعلم منزهه في ذلك ما كان يكبلغه من تقديم مروان بن أبي حفصة وتفضيله إياه على الشعراء في الجوائز، فسلك مذهب مروان في ذلك، ولم يصرح بالهجا، والسب كما كان يفعل مروان، ولكنه حام ولم يقع، وأوماً ولم يحقق، لأنه كان يتشيع " .

- 
- (١) طبقات ابن المعتز: ٢٤٤، ٢٤٨ .  
(٢) الشعر والشعراء ٢: ٧٣٦ - ٧٣٧ .  
(٣) زهر الآداب، تحقيق علي محمد البجاوي، ط ١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٥٣، ٦٥٠: ٢ .  
(٤) الأغاني ١٣: ١٤٠ - ١٤١ .



وقال المرزباني<sup>(١)</sup> : "إنه مدح الخلفاء مع أنه كان يسر التشيع ، فإذا أظهر عليه أسباب مدح بني العباس ، إلا أنه ظهرت أشعاره بعد موته ."

وقال ابن حزم<sup>(٢)</sup> : "وكان أول أمره خارجياً صغرياً ، فدخل مدينة الرقة . . . ثم رجع منصور من حينه إلى مذهب الإمامية من الرافضة " بعد أن سمع كلام داود الرقي الرافضي في الإمامية " .

وقال ابن شهر آشوب<sup>(٣)</sup> : إن النمري من الشيعة أصحاب التقية .

ولدى التأمل في هذه الأقوال جميعاً يتبين أن القاسم المشترك بينها هو أن النمري كان له وجهان : وجه يساير به ولاة أمور المسلمين من العباسيين ، فيظهر لهم في شعره ما يرضيهم بمدحه إياهم ، وينفي الإمامة عن آل علي ، ووجه خفي يسر مذهب الإمامية ، وهو وجه مقبول شائع لدى الشيعة الذين يؤمنون بمذهب التقية .

غير أن اللائحة للنظر أن يقال : إن النمري كان يذم مذهب الشراة ، إذ كيف ينتقل من النقيض إلى نقيضه بمجرد امتناعه إلى داعية من دعاة الشيعة ؟

أكبر الظن ، إذا كان ما قاله الجاحظ وهو المعاصر للنمري ، صحيحاً أن الشاعر كان يعيش لحظات حيرة وتشكك في مذهب الشراة . فجاءت أقوال هذين الداعيتين من دعاة الشيعة في الجلستين اللتين أشار إليهما الجاحظ وابن حزم لتحسم تردده ، ولتثبته بالتحول من مذهب الشراة إلى مذهب التشيع .

أما ما وصلنا من شعر النمري فليس فيه أدنى إشارة إلى مذهب الخوارج ، وهو في بعضه عباسي متشدد منافع عن حق العباسيين في الخلافة ، وأنهم أولى بها من العلويين باعتبار العم أولى من ابن العم ، فيقول في الرشييد<sup>(٤)</sup> :

- (١) أخبار شعراء الشيعة ، تلخيص محسن الأمين العاملي ، تحقيق محمد عماد الأمين ، المطبعة الحيدرية ، النجف ١٩٦٨ : ٧٩ .
- (٢) جمهرة أنساب العرب : ٣٠٢ .
- (٣) انظر : معالم شعراء الشيعة ، المطبعة الحيدرية ، النجف ١٩٦١ : ١٥٠ .
- (٤) هي القصيدة ٢٤ من : شعر منصور النمري ، وانظر تخريج هذه القصيدة ص ١٠٤-١٠٦ من هذا المجموع ، وذكر أبو الفرج الأصفهاني أن هذه القصيدة لمنصور بن بكرة ، وأن منصوراً النمري استحسناً فاستوهبها من منصور بن بكرة ، فوهبها له . انظر ذلك في الأغاني ١٢ : ١٥١ .

يا بَيْنَ الْأَثَمَةِ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ يَا ابْنَ آلِ  
إِنِ الْخِلاَفَةَ كَانَتْ إِزْتًا وَالِدِكُمْ  
لَوْلَا عَدِيٌّ وَتَيْمٌ لَمْ تَكُنْ وَصَلَّيْتُ  
وَمَا لِآلِ عَلِيٍّ فِي إِمَارَتِكُمْ  
الْعَمُّ أَوْلَىٰ مِنْ ابْنِ الْعَمِّ فَاسْتَمِعُوا  
أَوْصِيَاءُ أَقْرَبَ النَّاسِ أَوْ دَفَعُوا  
مِنْ دُونِ تَيْمٍ ، وَعَفُوَ اللَّهُ مَتَّبِعُ  
إِلَىٰ أُمِّيَّةٍ تُعْرِبُهَا وَتَرَضِيَ  
وَمَا لَهُمْ أَبَدًا فِي إِزْتِكُمْ طَمَعُ  
قَوْلِ النَّصِيحَةِ ، إِنَّ الْحَقَّ مُسْتَمَعٌ

فمن لم يكن يثبت حق العباسيين بالخلافة ، وينفيها عن العلويين حسب ، بل تجاوز ذلك إلى السى التعريف بأبي بكر وعمر ، وبالطعن في بني أمية . كما تجاوز منصور النمري هذا الحد في قصيدة ثانية عندما استهجن أن يطالب العلويين بحقهم في الخلافة فقال (١) يحاججهم :-

أَلَا لِلَّهِ دَرْتَنِيَّ عَلِيٌّ  
يَسْمُونَ النَّبِيَّ أَبَا وَيَّابَسِ  
وَمَا لِبَنِي بَنَاتٍ مِنْ تُسْرَاتِ  
وَدَرٍ مِنْ مَقَالَتَيْكُمْ كَثِيرٌ (٢)  
مِنَ الْأَحْزَابِ سَطْرٌ يَسِيلُ سَطُورٌ (٣)  
مَعَ الْأَعْنَامِ فِي وَرَىٰ الزُّبُورِ

ثم يوبخ العلويين توبيخاً يصل إلى حد التفريع والهجاء لخروجهم على العباسيين الذين أحسنوا إليهم ، وجموعهم ، يقول :-

بَنِي حَسَنِ وَرَهْطِ بَنِي حُسَيْنِ  
أَمِيطُوا عَنْكُمْ كَذِبَ الْأَمَانِيِّ  
أَحِينٌ سَخَوَكُمْ مِنْ كَثِّ وَتَوْبِ  
وَجَاءُوكُمْ عَلَىٰ ظُلْمٍ شَدِيدِ  
فَمَا كَانَ الْعُقُوبُ لَهُمْ جَزَاءُ  
عَلَيْكُمْ بِالسَّدَادِ مِنَ الْأُمُورِ  
وَأَحْلَامًا يَعْدَنَ عِيدَاتِ زُرِ  
وَسَمَّوْكُمْ إِلَىٰ كَنْفِ وَثِيْرِ  
سُبَيْتُمْ مِنْ نَوَالِيِّمِ الْغَزِيْرِ  
بِفِعْلِهِمْ وَأَدَىٰ لِلشُّورِ (٤)

وعو في بعض شعره الآخر علوي الهوى يبكي ما حل بالملويين من تشريد وتقتيل وإذلال ، متعاطف معهم ، متحولاً عن مناصرته للعباسيين ، فيقول من تمسيده (٥) :-

- (١) هي القصيدة ٢٠ من : شعر منصور النمري .  
(٢) في : شعر منصور النمري : زور ، وفي الشعر والشعراء : ٢٢٧ : ودر ، وهو الصواب .  
(٣) يريد قول الله تعالى في سورة الأحزاب الآية ٤٠ : " ما كان محمد أباً أحد من رجالكم " .  
(٤) الثور جمع ثور ، أدى للأمر : أخذ أدواته واستعد لـه .

(٥) هي القصيدة ٢١ من : شعر منصور النمري

وَلَيْتَ يَا قَاتِلَ الْحُسَيْنِ لَقُودَ  
بِأَيِّ وَجْهِ تَلْقَى النَّبِيَّ وَمُودَ  
بُوءَتْ بِجَمَلٍ يَنْوُو بِالْحَامِلِ  
دَخَلَتْ فِي قَتْلِهِ مَعَ الدَّاخِرِ لِي

ولا يقف به الحال عند هذا الحد من التعاطف مع بني علي المقتلين ، وتغيير القلوب على قاتليهم ، بل يعتبر العباسيين في صف القتلة لسكوتهم عن الاخذ لهم بالنار ، وأن هؤلاء جميعاً لن ينالوا رضا الرسول - عليه السلام - عنهم :-

هَلُمَّ فَاطْلُبْ غَدًا شَمَاعَتَهُ  
مَا الشُّكُّ عِنْدِي فِي حَالِ قَاتِلِهِ  
أَوْ لَا فَرِدَ حَوْضَهُ مَعَ النَّاعِمِ  
لَكِنِّي قَدْ أَشْكُ فِي الْخَانِزِلِ

ثم يقول بعد هذا كله مبرراً عن حبه للمعلويين إنهم أبناء النبي ، وإنه قد ظفر بحبه لهم بحلوة الاطمان التي لم يحققها له مذمبه الأول في الدفاع عن العباسيين :-

وَعَانِدِي أَنِّي أُحِبُّ بَنِي  
قَدْ دُرْتُ مَا دُرَيْتُمْ عَلَيْهِ فَمَا  
أُحَدِّدُ ، فَالْتَرَبُّ فِي نَمِّ الْعَانِدِلِ  
وَمَلَدْتُ مِنْ دِينِكُمْ إِلَى طَائِرِ  
جَانِي لِأَنَّ النَّبِيَّ كَالْوَاوِصِلِ  
دُرَيْتُمْ جَفْوَةَ النَّبِيِّ وَمَا أَلِي

وينتهي بعد إبداء كل صور التعاطف مع العلويين إلى التحريض المباشر على الانتقام والثورة على العباسيين الذين لم ينصفوا العلويين :-

أَلَا مَسَالِيْتُ يُعْضَبُونَ لَهَا  
يَسْلَةُ الْبَيْتِ وَالْقَنَا الذَّا بِلِ (١)

وقد غاظ هذا البيت الرشيد ، فيروي أنه قال : "أراء يحزن علي ، ابعثوا إليه من يجي برأسه" (٢).

ويبدو أن التمري غاظه إعمال العباسيين لبني علي ، وتجاهلهم إياهم فتحول عنهم ، وذلك يلح من خلال قوله يصف حال العلويين وأنصارهم في ظل بني العباس : إنهم أذلاء يرعقهم الخوف من القتل (٣) ، حتى كان اليهود والنصارى أحسن منهم حالاً ، وأهدأ بسالاً :-

(١) المصاليب : الأشهدا .

(٢) الأغاني ١٣ : ١٤٩ .

(٣) هي القطعة ٣ من شعر منصور النمري .

أَلُ الرُّسُولِ وَمَنْ يُجِيبُهُمْ  
مِنَ النَّمَارِ وَالْيَهُودِ وَعَهُمْ  
يَتَطَامَنُونَ مَخَافَةَ الْقَتْلِ  
مِنَ أُمَّةِ التَّوْحِيدِ فَسِي أَزَلٍ (١)

فلعل واقعا أليما كان يحياء العلويون هو من وراء هذا التحول في موقف النمري ، وإن شاعرا يدعو إلى الثورة على العباسيين بهذه الصورة من الوضوح والصراحة والجراءة هو أحد اثنين : فإما أن يكون قد ضاق صدره بما يحمل من هموم العلويين فجمهور بدعوته هذه ، وإما أن يكون قد أشاع هذا الشعر بين من كان يطمئن إليهم من العلويين ، ثم تسرب هذا الشعر إلى الرشيد عن طريق عيونهم . ولذلك قال من قال : إن أشعار النمري في العلويين ظهرت بعد موته ، أو على رواية من روى قصة بلوغ هذا الشعر التحريضي مسامع الرشيد بصورة من صور المفاجآت القصصية "الميلودرامية" إذ تروي هذه الرواية أنه لما بلغ الرشيد قول النمري :

أَلَا مَسَامِيرَ يَغْضَبُونَ لَهَا  
بِسَلَّةِ الْبَيْضِ وَالْتَنَا الذَّابِرِ

"فغضب من ذلك غضبا شديدا" ، وقال للفضل بن الربيع : أحضره الساعة . فبعث الفضل في ذلك فوجده قد توفي ، فأمر بنبشه ليحرقه ، فلم يزل الفضل يلطف له حتى كف عنه . (٢) .

وقد يكون الأمر على خلاف ذلك ، إذ قد يكون تقرب النمري من الرشيد ابتداء ، إنما كان لغاية قبليّة ، فقد كان الربيعيون ناروا في نصيبين ، فأوقع فيهم جند الرشيد القتل ، وجرّدوا فينسم السيف ، فتقرب النمري من الرشيد مستشفعا لقومه (٣) ، فمدحه بما مدحه به ، وتحدث في شمه عما يروى الخليفة ويعجبه رداً ليد له سلفت عليه وعلى قومه ، ثم جهر بمدحه في التشيع بعد ذلك . وهذا التوجيه الأخير قد يفسر ما قيل إن النمري بدأ صلته بالرشيد بهجاء آل علي وثبهم (٤) .

وكان ديك الجن الحمصي هو الشاعر الثاني من شعراء الشام والجزيرة الذين عرف أنهم تشيعوا لآل علي ، رضي الله عنه .

وفي ديوان ديك الجن ، أو على الصحيح في المجموع من شعره ثمان قصائد في العلويين يكيهم بكا ، حاراً ، ويصوّر مقاتلهم تصويراً يثير الشفقة عليهم ، والحق على خصومهم .

- (١) الأزل : شدة الزمان وضيق العيش .
- (٢) الأغاني ١٣ : ١٤٩ .
- (٣) سبق بيان ذلك في موضع آخر من الدراسة ، وانظر : الأغاني ١٣ : ١٥٢ .
- (٤) انظر قصة ذلك في الأغاني ١٣ : ١٤٤ .

وقارى، هذه القصائد الثماني يلقى نفسه أمام ظاهرتين لاقتتين للنظر:  
الأولى: متانة النسيج وحيويته ورونقه وبهاره في حرارة عاطفة، وصدق تعبير في بعض، وفيها هتسه  
وبرودة عاطفته، واقتراجه من النظم الخالي من مقومات الإبداع، فلا تصوير رائق، ولا عبارة مدهشة  
في بعضها الآخر.

الثاني: التعريض القادح الفارض بأبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، وعدم مس الأئوين والعباسيين  
إلا لماماً. ثم إن هذا التعريض القادح لا يرد إلا في القصائد التي وسمت بأنها نظم، في  
حين خلت القصائد ذات النسيج الشعري، والدفق الشعوري من مثل هذا التعريض، وانتصرت  
على تصوير الفجائع والمآسي التي حلت بالبيت العلوي.

ومن الأمثلة الحية على تعريضه القادح بالشيخين أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، ما لا يصدر  
إلا عن غلاة الشيعة قوله<sup>(\*)</sup> :-

أَصْبَحْتُ جَمَّ بِلَابِلِ الْمَسْدَرِ	وَأَبَيْتُ مُنْطَوِيًّا عَلَى الْجُمْرِ
مَا جَنَاهُ عَلَى أَبِي حَسَّانِ	عَمْرٍ وَصَاحِبِيهِ أَبُو بَكْرٍ
طَلَبَ النَّبِيُّ صَحِيفَةً لَهُمْ	يُعْطِي لِأَيُّمَنَّهُم مِنَ النَّسْدَرِ
فَأَبْرَأَ عَلَيْهِ، وَقَالَ قَائِلُهُمْ :	تُؤَمِّرُوا بِنَا قَدْ فَاهَ بِالْهَجْرِ

إلى أن يقول في القصيدة نفسها مسبقاً على علي بن أبي طالب عمالة من القدرة العجيبة :-

وَمُنَابِئُ الشَّيْرَانِ أَنْتَ لِمَنْ	أَخَذُوا الْعُيُودَ بِعَالِمِ الدَّرِّ
فَنَقُولُ: يَا نَارُ اتْرُكِي لِي	وَلِذَا خُذِي، فَتَدِيئُنُ لِلْأَمْرِ

وجاء في الأرجوزة، وعمي القصيدة السابعة من قصائد ديك الجن في آل البيت :

وَإِنَّ الرَّسُولَ لَمْ يَزَلْ يَقُولُ	وَالْخَيْرُ مَا قَالَ بِهِ الرَّسُولُ
إِنَّكَ مِنِّي يَا عَلِيُّ الأَبِيِّ	بِحَيْثُ مِنْ مُوسَى هَمْرُونَ النَّبِيِّ
وَأَنْتَ مِنِّي الرَّذْمِيُّنُ قَمِيصِي	وَمَا لِمَنْ عَادَاكَ مِنْ مَحِيصِي

(\*) عمي القصيدة الرابعة من ديوانه بتحقيق أحمد مطلوب ورفيقته .

وتستمر هذه الأرجوزة على هذا النحو من السرد الفعّ الجاني إلى أن يقول في آخرها عن العلويين :-

وهم يدعون الذي لهم قَلَى      للنار دَعَا حَيْثُ كَانَ الْمُضْطَلَى  
وهم مُدَاةُ الْخَلْقِ لِلرَّشَادِ      وَالْفُؤْزُ فِي الْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ

ومن هذا الإسراف الشديد في مدح علي بن أبي طالب أيضاً قوله في القصيدة الثالثة :-

غَرَسَتْ يَدُ الْبَارِي لِسِيهِ      رَيْعَ الرَّشَادِ فَأَنْبَتَنَا  
وَأَتَامَهُ صِنَاؤُا لِأَحْمَرَ      دَدَ دَوْحِهِ لَنْ يُنْحَتَنَا  
صِنَاؤَانِ هَذَا مُنْذِرٌ      وَأَنَا ، وَذَا عَسَادِ أَتَى

فتسمية صاحب هذا الشعر بين علي والرسول ، عليه السلام ، لا يصدر إلا عن غلو ، وديك الجن قد رسم بأنه كان يتشيع تشيعاً حسناً<sup>(١)</sup> . بل إن لديك أبياتاً هجوا فيها أهل حمص لأنهم عزلوا خطيبهم لإخماره من الصلاة على محمد ، عليه السلام ، وهذا الموقف نفسه دليل ترجيح على أن ديك الجن لم يكن من غلاة الشيعة . يقول في هذه القطعة<sup>(٢)</sup> :-

سَبَّحُوا الصَّلَاةَ عَلَى النَّبِيِّ تَوَالَى      فَتَفَرَّقُوا بَيْنَنَا ، وَقَسَالُوا : لَا ، لَا  
ثُمَّ اسْتَمَرَّ عَلَى الصَّلَاةِ إِمَامُكُمْ      فَتَحَزَّبُوا ، وَرَى الرَّجَالُ رَجَالَا  
يَا آلَ حَمْصَ تَوَقَّعُوا مِنْ عَارِهِمْ      خِزْيَا يَجِلُّ عَلَيْكُمْ وَوَسَالَا  
شَاهَتْ وَجُوهُكُمْ وَجُوهَا طَالِمَا      رَغِمَتْ مَعَاظِسُكُمْ وَسَاءَتْ حَالَا

أما الشعر الذي يعبر فيه تعبيراً صادقاً عن حبه للعلويين ، وفجيئته بمقاتلهم فيمثل به خير تمثيل بعض أبيات القصيدة الأولى ، والقصيدتان الثانية والثامنة جميعاً .

فالأولى هي القصيدة التي قال عنها أبو الفرج الأصفهاني مكثفاً بإيراد مطلعها : وعسى مشهورة عند الخاص والعام ، ويناح به<sup>(٣)</sup> .

(١) انظر ما قيل في ذلك : الأغانى ١٤ : ٥١ .

(٢) انظر قصة هذه القطعة في : الأغانى ١٤ : ٦٧ ، وهي ذات الرقم ١٩ في ديوانه .

(٣) الأغانى ١٤ : ٥٢ .

وقد بدأها بالبكاء ، وأنهاها بحسن العزاء ، وهو فيها يمكن منذ البداية أنه متعمد على منبج البكائين طرأ على الأطلال ، لأنه قد تلبسه عم أكبر هو الرزايا التي حلت بالعلويين : -

يا عينُ لا لِلدَّفْضَا ولا الكُدُوبِ      بُكَاءُ الرِّزَايا سِوى بَكا الطُّرْبِ  
جُودِي وَجِدِّي بِلُدِّ جَفْنِيكَ نَسَمَ      احْتَبَلِي بِالدُّمُوعِ وَأَسْكِبِي  
يا عينُ في كُؤُولا مَنابِرُ قَسَدِ      تَرَكْنَ قَلْبِي مَنابِرُ الكُـرْبِ

وتنتظم القصيدة في خط واحد من الوجد والنوح ، غير أن تنوعاً يبرز في مسارها يبدو أنه مقم عليها ، إذ بينما الشاعر "يعوم في عجب" من العصاب الذي أصاب البيت العلوي إذا هو يتحول إلى أبي بكر وعمر طاعناً بنما في خمسة أبيات ثقيلة لا حيوية فيها ، ولا جمال : -

تَما بَدَعُونَ في الظُّلَمِ غَالِيَةً      وَحِجَّةً جُزَلَةً مِنَ الكَلْبِ (\*)

ثم لا يفتأ الشاعر يعود إلى شعره بعد أن غيبه عنه مختبئ من غلاة الشيعة بعد أن دس فيها الخمسة الأبيات فإنه يعود ، في أكبر الظن ، من البيئات : -

لا تَلْتَوِي بِحَدِّ الرِّبْكِ      ما أَرَبُ الظَّالِمِينَ مِنْ أَرَسِي

وتجري قصيدة الشاعر الثانية مجرى القصيدة الأولى في الإعلان فيها منذ بيتها الأول عن انشغال الشاعر بثالث مضم ، أركانه الهم والشوق والفكر : -

ما أَنتِ مَتِي ولا رِيَعانِي لِي      وَطَرُّ      الهمُّ أَمَلُكَ بِيءَ والشَّوقُ وَالْفِكرُ

وتفصح أبيات القصيدة بعد وتفصل الكلام على أسباب همه ، ودواعي شوقه وفكره ، وهي لا تخرج في مجموعنا عن مضمون القصيدة الأولى ، بل ومضامين الفصائد الأخرى غير خلوها من القدح في الخليفتين الكبيرين ، إذ غاية ما وقف عليه فيهما وفي عثمان وبني أمية قولهم : -

ما لي قَرَّاعٌ إِلى عُمَمانَ أَندُبُهُ      ولا شَجانِي أِبو بَكرٍ ولا عَمَرُ  
لِكم عِدِّي وَتِيَمٌ بِلِ أَرِيدُكُمْ      أُمِيَّةٌ ، ولِنا الأَعْلَمُ وَالْفُـرُ

(\*) الجزلة : هي القطعة ، وأرى أن الصواب في تحريك جزلة هو الرفع خبر لمبتدأ محذوف تنديره هي جزلة .

وليس في هذا الشعر، كما هو واضح، أية إسائة إلى أي من خصوم العلويين.

وأقرب قصائد ديك الجن إليه في تمثيلها لما وسم به من اعتدال في المذهب وتدفق في الشاعرية هي القصيدة الثامنة التي يقول فيها : -

أَجِدُ النَّسِيمَ مِنَ السَّمَاءِ سُمُومًا	أَصْبَحْتُ مَلَقَى فِي الْغِرَائِرِ سَقِيمًا
ظِلٌّ لَكَانَ الْحَسِيرَ وَالْيَحْمُومًا	وَكُرَى يُرَوِّعُنِي سَرَى لَوْ أَنَّكَ هـ
فَنَسِيْتُ مِنْهَا الرِّيحَ وَالتَّبْهُومًا (١)	مَرَّتْ بَقَلْبِي ذِكْرِيَاتُ بَنِي الْهُسْدَى

ومع كل ما تقدم بيانه عن مرجحات التشكيك والإثبات في قصائد ديك الجن في العلويين، فإنها تجدر الإشارة كذلك إلى أن هذا الشعر لم يرد إلا في مصادر متأخرة، وأكثر تلك المصادر شيعية الميول. أما ورود هذا الشعر في الديوان، فقد ألمحنا إلى أن هذا الديوان صنعة محدثة يتيمة، لا تدفع إلى الاطمئنان بما جاء فيه، ولم تدعم كسواها من قصائد الديوان بتعداد تحقيقه موشق بيانا.

وقد دفع إلى إثارة هذه التساؤلات والشكوك كلنا التباين الواضح بين المستوي الفني في هذه الأشعار العلوية الاتجاه، وقصائد الشاعر الأخرى إن في النزل، أو في الرثاء، فإن أدنى مقارنة بين قصيدة ديك الجن في رثاء جعفر بن علي الهاشمي، وقصائده في رثاء العلويين تظهره سادقا في الأولى أكثر من صدقه في الثانية، إنه يقول في رثاء هذا الهاشمي (٢) :-

علي هذه كانت تدور النوائبُ	وفي كلِّ جَمْعٍ لِلذَّهَابِ مَذَاهِبُ
نزلنا على حُكْمِ الزَّمانِ وَأَمْرِهِ	وعلى يَقْبَلُ النِّصْفُ الألدُّ المُشاعِيبُ (٣)
ويضحك سنُّ المرءِ والقلبُ مُوجَّسٌ	ويرضَى الفتي عن دُعره وهو عاتِيبُ
ترشفتُ أيامي وهنَّ كوالِيبِجِّ	عليك، وغالبتُ الردى وهو غالِيبُ

- (١) الروح : الراحة، والتبھوما: هز الرأس من النعاس، وقصد النوم وراحة البال والجسم.
- (٢) انظر هذه القصيدة كاملة في ديوانه ص ٧٢ - ٧٧، وهي في الأغاني ١٤ : ٦٧.
- (٣) النصف : الإنصاف.



ودافعت في صدر الزمان ونحوره  
وأبي يد لي والزمان محارب

إن قارىء هذا الشعر ليشعر أن قائله عميق الفكر ، مقتدر على النظم الذي يرضي الفكر والشعر —  
كما توافرت له مقومات الإبداع الأخرى من جمال تصوير ، وحسن تأثير .

ومثله قوله في صورة أجلس في رثاء زوجته التي تملأ بيديها (\*) :-

يا ظلمة طالم الجمام عليها	وجئى لنا شر الردى بيد يمسها
رويت من دميها الثرى ولطالما	روى الهوى شفتي من شفتيها
ما كان قتليها لاني لم أكن	أبكي إذا سقط النبار عليها
لكن غننت على العميون بحسبها	وأنفت من نخر الحسود إليها

فنحن أمام شاعر مؤثر باللفظة الرائقة المنظومة في أداء كلي متناسق ، معبر عن تجربة فيها صدق  
الإنسان النسيور ، وتعزته بين حبه وأثرته وندمه .

وقد يقول قائل إن المقايسة بين هذا الشعر الذي يعبر فيه ديك الجن عن تجارب محسنة ،  
ووقائع عايشها معايشة ، والشعر الذي قاله في العلويين ، وهم قد أفتوا منذ زمن بعيد ، لا يستقيم .  
والجواب : مع التسليم بنسبة هذا التوجه ، فإن سكوت المصادر عن الإشارة إلى تلك القصائد التي  
قيل إن ديك الجن أنشأها في العلويين في مقابل تعدد مصادر التحقير للقصائد والقطع الأخرى  
يجعل التشكك في صحة نسبة القصائد العلوية ، إلى ديك الجن أمراً قائماً ، كما يظل التشكك  
في صحة نسبة القصائد التي يقدم فيها بالشيخين إليه أكبر .

وما تقدم بيانه عن الشعر الشيعي الشامي والجزري في فترة الدراسة ، يتضح أن نسبة  
هذا الشعر بالقياس إلى أشعار الفتن الداخلية ، والحروب الخارجية قليل جداً . وذلك قد يعنى  
أن التشيع لم يكن له مؤيدوه في بلاد الشام والجزيرة ، كما قد يعنى أيضاً أن أثر السياسة الأموية  
في تنقية البيئة الشامية من أحزاب المعارضة كان فعالاً . ثم لما جاء العباسيون ساروا على النهج  
نفسه الذي اختطه الأمويون ، فحاربوا التشيع فكراً وسلوكاً .

(\*) انظر هذه الأبيات في الديوان ، ص ١٠ - ١١ .

و لما كثرت على العباسيين الفتن « وتراخى حبل الأمن » ظهر القرامطة في بادية الشام .  
 إذ في أخريات سني حكم الطولونيين تعرضت كثير من مدن الشام - كما سبق أن بينا - لهجمات القرامطة  
 الشرسة . وكان من المتوقع أن ينظم شعر شامي يوازي « على أقل تقدير » جسامه المآسي والهزائم  
 والانتصارات التي صاحبها . غير أننا لم نعث على غير بعض الشعر المنسوب إلى صاحب الشامة . وقد  
 شكك الصولي في صحة نسبة هذا الشعر إليه « فقال - فيما نقله عنه ابن العديم : « ولعلي بن عبد الله  
 وأخيه أحمد بن عبد الله شعر » أظن بعض من يعيل إليهم ، ويكره السلطان عمله « أو أكثره » وحمله  
 عليهما » (١) . وقال ابن العديم في موضع آخر : ويروي ليحيى بن زكريه وأخيه علي بن عبد الله  
 شعر يشك في صحته » (٢) . وقال المرزباني : « وتروى لبما أشعار » وأنا أشك في صحتهما » (٣) .

والشعر الذي روتَه هذه المصادر لعلي بن عبد الله القرمطي ، أو لأخيه أحمد ، يسيّر  
 في طريقتين :-

الأول : يتبدد فيه هذا القرمطي المسلمين بعمامة ، وأهل الشام بخاصة ، كما يعلي فيه  
 من حيوته بتقتيله خنوع علي بن أبي طالب من الأمويين والشاميين والجزيريين . يقول في قطعة (٤) :-

فبشّر رَحْمَتِي طُوقِي بِيَّسْمِي	من الأيام ليركه نَظْمِي
ورافقة الضلالة ليس يُغْنِي	إذا ما جئنا باب وسور (٥)
ويغداد فليس بنا أعتيصاص	على أمرٍ ، وليرلنا نكيسر
أصبحها فأتركها هشيمًا	وأخوي ما حوت بنا القُـسُور (٦)

وقال في ثانية مفتخرًا بثأره من الأمويين والشاميين (٧) :-

تأرت بجدي خير من وطيء الحصار	وأنتاره بالطنن قتل بني همد (٨)
------------------------------	--------------------------------

- (١) سهيل زكار : أخبار القرامطة : ٢٩٥ .
- (٢) العتدر نفسه : ٢٩٣ .
- (٣) معجم الشعراء ، ٢٩٤ ، مصورة تاريخ دمشق ١٢ : ٤٦٣ .
- (٤) المصدران نفساً عمماً .
- (٥) في كتب البلدان بين رحبة مالك بن طوق الواقعة بين الرقة وبيغداد . ولعل الشاعر عناها وعنى  
 رحبة دمشق ، وهي قرية من قرأها ، لأن القرامطة اجتاحوها جميعاً .
- (٦) رافقة الضلالة عنى بها مدينة الرافقة المعروفة .
- (٧) سهيل زكار : أخبار القرامطة : ٢٩٥ .
- (٨) الطائفة أرنس من نحاحية الكوفة كان فيما مقتل الحسين بن علي / معجم البلدان / مادة طف .

## ب - الزهد والتصوف في الشعر الشامي :-

عرفت لبعض زهاد الشام ومتصوفتهم أشعارٌ محورها المواعظ الخلقية والدينية ، والدعوة إلى الزهد في الحياة والتحذير من الناس لأن مخالطتهم قد توقع في الزلل .

ومن أشهر زهاد الشام ومتصوفتهم في القرنين الثاني والثالث الهجريين من رويت لهم أشعار: أحمد بن محمد الحلبي<sup>(١)</sup> ، وأحمد بن عاصم الأنطاكي<sup>(٢)</sup> ، وإبراهيم بن أدهم<sup>(٣)</sup> ، ومحمد ابن المبارك بن يعلى القرشي السوري<sup>(٤)</sup> ، وأبو إسحاق الغزاري المصيبي<sup>(٥)</sup> ، وزرقان بن محمد الصوفي<sup>(٦)</sup> .

وأول ما يلاحظ على هؤلاء الزهاد أنهم كانوا يسكنون في الشور الشامية رغبة منهم في المجاهدة والمرايضة ، وقد استوفى في ذلك من كان منهم شامي المولد والنشأ، والشامي الذي ارتحل إلى الشام واتخذها دار إقامة ، فكانهم جميعاً ترجعوا أقوالهم في الزهد في الحياة والرغبة في آجل

- (١) كان ممن سكن في نواحي حلب ، وقد سمع السرى السقطي (المتوفى سنة ٢٥١هـ / ٨٦٥م) . انظر ترجمته في بنية الطلب ٢ : ٣١-٣٣ (نسخة مصورة عن نسخة مكتبة أحمد الثالث) .
- (٢) كان أحمد من أعلام المتصوفين ومن كبار المشايخ وزهاد عم وعمو من أقران السرى السقطي ورأى الفضيل بن عياض (المتوفى سنة ١٨٧هـ / ٨٠٢م) . انظر ترجمته في : السلمي : طبقات الصوفية : ١٣٧-١٤٠ ، حلية الأولياء ٩ : ٢٨٠ ، ابن الجوزي : صفة الصفة ٤ : ٢٥٢ .
- (٣) كان من أهل بلخ بخراسان ، وسكن الشام ودخل دمشق وبيت المقدس وطبرية . ومات في الشام . وقد حدث عنه بقية بن الوليد الحمصي (المتوفى سنة ١٩٧هـ / ٨١٢م) . انظر في ترجمته : حلية الأولياء ٧ : ٣٦٧ ، طبقات الصوفية : ٢٧ ، صفة الصفة ٤ : ١٢٧ ، البداية والنهاية ١٠ : ١٣٥ .
- (٤) كان من سكان دمشق وصور ، حدث عن مالك بن أنس والوليد بن مسلم الدمشقي ، مولده بدمشق سنة ١٥٣هـ / ٧٧٠م ، وبها مات سنة ٢١٥هـ / ٨٣٠م . انظر ترجمته في : مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٥ : ٩٣٥ .
- (٥) كان ممن اتخذ من ثغر المصيصة مكاناً للمرايضة . توفي سنة ١٨٨هـ / ٨٠٣م . انظر ترجمته في صفة الصفة ٤ : ٢٥٩ .
- (٦) كان زرقان من سكان لبنان وعمو أخوذي النون المصري مؤاخاة . وتوفي ذو النون المصري سنة ٢٤٥هـ / ٨٥٩م . انظر ترجمة زرقان في : مصورة تاريخ دمشق ٦ : ٤١١ .

الثواب الى أعمال . ومن أشعارهم في التزميد في الحياة الدنيا قول أحمد بن محمد الحلبي (١) :-

أنت في دار شتاتٍ      فتألمب لشتاتيك  
واجعل الدنيا كيتومٍ      صمته عن شهواتيك  
واجعل النظم سر إذا ما      صمته يوم ماناتيك

وقد ينهج الصوفي منهج التشاؤم سبيلاً للخلاص من ضغوط الحياة ، ويصور ذلك قول أحمد ابن عاصم الأنطاكي (٢) :-

هون عليك فكل الأمر منتطبع  
وكل عمّ إذا ما خاني يتسرع  
فالموت يقطعه أو سوف ينقطرع  
إن البلاء ، وإن طال الزمان به

ومن شعرهم الذي يرمز سوء الخطن بالناس ، وأنه حزين بالموت من لذلك أن يتنحى عنهم ، قول إبراهيم بن أدهم (٣) :-

إن دهمراً أظنني      قد أراني العجائب  
قلب النار كيف شئت      ت تجد همّ عقاربها

وقوله في قتلعة أخسرى (٤) :-

توحتر من الإخوان لا تبغ مؤنساً  
فقد فسد الإخوان والحب والإخا  
ولا تتخذ خلاً ولا تبغ صاحبها  
فلست ترى إلا مذوقاً وكان بها (٥)

ومن أنضح أشعارهم التي تعبر عن أنظارهم غير مجرد إزجا' النصائح والمواعظ قول أحمد ابن عاصم الأنطاكي في قصيدة (٦) :-

- (١) بغية الطلب ٢: ٢٣ (نسخة مصورة عن نسخة مكتبة أحمد الثالث)
- (٢) بغية الطلب ١: ١٨٦ ، البداية والنهاية ١٠: ٣١٨ .
- (٣) البداية والنهاية ١٠: ١٤٣ .
- (٤) المصدر نفسه ١٠: ١٢٦ .
- (٥) المذوق : المجرب .
- (٦) حلية الأولياء ٩: ٢٩٦ - ٢٩٧ .

وأنت مأخوذٌ بما كنتَ ساعياً  
وعِلماً يزيدُ العقلَ للصدرِ شافياً  
سبيلَ هُدًى أو كنتَ للحقِّ باغياً  
فمنه بإلهامٍ ومنه سماعياً  
وكيف بدا الإسلامُ إذ كان بادياً  
وكيف ذوى إذ صار كالشوبِّ بالياً  
يُفيدُك علماً إن وحيَّت كلامياً  
عن القلبِ حتى يُتركَ القلبَ صافياً  
ووصفِ دلالِ العقولِ زمانياً

ألم تر أن النفسَ يُريدُ شرعاً  
فمن ذا يُريدُ اليومَ للنفسِ حكماً  
علمُ إلي الآن إن كنتَ طالباً  
فَعندي من الأنبياءِ علمٌ مُجربٌ  
أخبرُ أخباراً تقادَمَ عهدُها  
وكيف نما حتى استتمَّ كمالُها  
ومن بعدِ ذا عندي من العلمِ جوهرٌ  
وعِلماً غزيراً جالي الرينِ والصدا  
فأحوجُ ما كنتُ إلى وصفِ دينياً

إن في هذا القدر من الشعر فضل كفاية للتدليل على أن شعراء التصوف الشاميين فسي  
تذنين القرنين لم يزايلوا منهج شعراء الزهد الآخرين (كزهد أبي العتاهية) في المباشرة فسي  
الخطاب، وفي الوضوح الذي يصل إلى درجة التسطيح في المعاني والأفكار، وفي غياب الرموز  
والإشارات الصوفية التي شاعت لدى المتأخرين من شعراء التصوف كابن الفارض. وذلك كله يعنسي  
أن التصوف الشامي في هذه الحقبة كان كأنه في بدايات تشكله باعتباره منهج حياة، وأسلوب تفكير  
وعيش، بن قد لا تعدو الحقيقة إذا قلنا إنه كان أثاراً من آثار النكبات التي كانت تحل بالنسب  
بفعل الفتن الداخلية، والحروب والصراع الخارجي، وأنه لم يكن قد تشكل تشكلاً مذعبياً لـ  
رموزه ومصطلحاته.

## الفصل الخامس

### تعريف بستة شعراء شاميين

#### ١- ديك الجن الحمصي

كان عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن حبيب الملقب بديك الجن<sup>(١)</sup> فارسي الأصل وبذلك اشتهر في شعره . وقال ابن خلكان نقلاً عن كتاب " الورقة " لابن الجراح إنه مولى لطبي<sup>(٢)</sup> ، والراجح أنه مولى لكلب ، فيها اشتهر في غير موضع من شعره ، من ذلك قوله<sup>(٣)</sup> : -

كَلْبٌ قَبِيلِي وَكَلْبٌ خَيْرٌ مِنْ وَلَسَدَتْ      حَوَاءٌ مِنْ عَرَبٍ غَرَّ وَمِنْ عَجَبٍ

وقوله في قطعة أخرى<sup>(٤)</sup> : -

يَا أَسْرَعَ النَّاسِ فِي حَثِّ عَلَى الْكَاسِ      وَأَرْغَمَبَ النَّاسِ فِي زِيَّةٍ وَإِينِاسِ  
أَعَزُّ عَزِّ كَلْبِيَّ حِينَ أُشْرِبُ      وَرَبَّمَا فَتَكَّتْ مِنْ فَتْكِ جَسَّاسِ<sup>(٥)</sup>

أما تلقيه بديك الجن فقد اختلف في سببه ، فقليل لأن عينه خضراوان<sup>(٦)</sup> ، وقيل لأنه ذكر في شعره الديك<sup>(٧)</sup> ، وقيل لأنه كان كثير الخروج إلى البساتين ومعاينة الخمرة ، وقيل :

- (١) انظر في التعريف به : الاغانى ١٤ : ٥١-٦٧ ، الثعالبي : ثمار القلوب في المضاف والمنسوب تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر ١٩٨٥ ، ٦٥ ، ٤٧٠ ، صورة تاريخ مدينة دمشق ١٠ : ٣١٦-٣٢٠ ، وفيات الاعيان ٣ : ١٨٤-١٨٨ ، داود الأنطاكي : تزيين الأسواق في أخبار العشاق ، منشورات حمد ومحيو ، بيروت ١٩٧٢ ، ١٤ : ٢٩٢ .
- (٢) انظر : وفيات الاعيان ٣ : ١٨٤ ، ولم يرد في كتاب " الورقة " المطبوع ، وانظر أيضا : صورة تاريخ مدينة دمشق ١٠ : ٣١٦ .
- (٣) من القصيدة ٢٩ من ديوانه .
- (٤) ورد هذان البيتان في : المختار من قطب السرور في أوصاف الأنبياء والخمور ، اختيار علي نور الدين المسمودي ، تحقيق عبد الحفيظ منصور ، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله المطبعة الرسمية ، تونس ١٩٧٦ : ٣٩٤ ، ولم يرد البيتان في ديوان الشاعر .
- (٥) جساس هو سيد من سادات قبيلة تغلب ، كان قتله سبياً في نشوب حرب البسوس بين بكر وتغلب .
- (٦) انظر : صورة تاريخ مدينة دمشق ١٠ : ٣١٧ .
- (٧) القطعة ٢٧ من ديوانه .

شبه بالديك النجيب الكثير السَّفاد<sup>(١)</sup> ، وأغلب الظن أنه لقب بذلك اللقب للون عينيه ، ولمرثيته في  
ديك ذبحه له أحد أصحابه ، وهذا هو الشائع المشهور في الألقاب التي يخلعها الناس على  
أترانيس ، إذ تكون العلامة الفارقة في الجسم أو في التمييز أو فيهما معاً سبباً في إطلاق  
اللقب .

ولد ديك الجن في حمص سنة ١٦٦١هـ / ٧٧٧م في رواية ، وسنة ١٧١هـ في أخرى<sup>(٢)</sup> .  
وقد وعم الثعالبي في أمر الديك إذ بينما قال في موضع - وهو صحيح - إنه أدرك المتوكل ، قال في  
موضع آخر - وهو غير صحيح - هو أحد شعراء سيف الدولة بن حمدان<sup>(٣)</sup> .

وقد نشأ ديك الجن وشب في بلدته حمص ، وكان يرتاد بعض نواحي الشام الأخرى ، فقصده  
سليمة لما اختلفت حاله ، واتسبب فيها بأحد أعيانها المشهورين أحمد بن علي الباشمي الذي كان  
عم وأخوه جعفر يحسنان إليه . كما قصد دمشق غير مرة كانت إحداها هروباً من السلطان الذي طلبه  
بدم جاريته - أو زوجته وبغلامه اللذين تلتئما في حمص بسبب ما أشيع عن خيانتها له في أثناء  
زيارته لأحمد بن علي الباشمي في سلمية<sup>(٤)</sup> . وتمتدالديك دمشق مرة أخرى في إبان ولاية أحمد  
ابن محمد بن المدبر علينا من قبل ابن طولون<sup>(٥)</sup> ، وقد توطدت علاقة الشاعر بالوالي كما يقول ابن  
عساكر .

أما عن رحلات ديك الجن إلى الأقطار الإسلامية الأخرى فقد اختلف فيما ، فبينما قال أبو  
الفرج الأصبهاني - وتابعه في ذلك ابن خلكان - إن ديك الجن<sup>(٦)</sup> : لم يبرح نواحي الشام  
ولا وفد إلى العراق ، ولا إلى غيره منتجعاً بشعره ، ولا متصدياً لأحد . فإن حمزة الأصبهاني يروي  
خبراً منسوباً إلى الديك أنه قال فيه<sup>(٧)</sup> : دخلت مصر بعد أبي نواس فوجدت له بها أشعراً

- (١) انظر: ثمار القلوب : ٦٩ ، ٤٧٠ .
- (٢) انظر: وفيات الأعيان ٣ : ١٨٧ ، حياة الحيوان الكبير ١ : ٣٤٩ .
- (٣) انظر: ثمار القلوب : ٦٩ ، ٤٧٠ .
- (٤) انظر: الأغاني ١٤ : ٥٥ ، ٥٧ ، تزيين الأسواق ١ : ٢٩٢ - ٢٩٣ .
- (٥) انظر: صورة تاريخ مدينة دمشق ١٠ : ٣١٦ ، وانظر في التعريف بأحمد بن المدبر: النجوم  
الزاهرة ٣ : ٤٣ الذي قال إن أحمد بن المدبر كان حتى سنة ٢٦٧ يتولى خراج دمشق والأرضين  
وفلسطين .
- (٦) الأغاني ١٤ : ٥١ ، وفيات الأعيان ٣ : ١٨٤ .
- (٧) ديوان أبي نواس ، تحقيق إيغالد فاغنر ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٨ : ٤ .

وكان ديك الجن بإجماع من تحدثوا عنه ماجناً خليعاً منكباً على شرب الخمرة ، متلأفاً للمسال في سبيل ذلك ، قليل التدين ، شيعياً حسن المذعب ، وقيل إنه كان حسن الخنا ، بالطنبور (١) .

وقد كان لديك الجن صلات ببعض شعراء عصره من ذلك صلته بأبي تمام ، إذ يُروى في خبر أن ديك الجن كان جالساً يوماً في داره ، فدخل عليه حدث فأنشده من شعره ، فأخرج الديك من تحت مصلاه بعض شعره المكتوب ، وقال للفتى : تكسب بهذا واستعن به على قولك ، وكان ذلك الفتى هو أبا تمام . وقد مات أبو تمام وديك الجن حي فرسأه (٢) .

والتقى ديك الجن أبا نواس في حمص عندما كان أبو نواس متوجهاً إلى مصر وقد قال أبو نواس للديك في ذلك اللقاء : فتنت أهل العراق بقولك : -

موردة من كآ ظبي كأننا تناولنا من خدّء فأدارعنا (٣)

وهذان الخبران يدلان على أن ساعرية ديك الجن كانت قد استلمت أدواتها قبل اتصاله ببذيين الشاعرين .

وروى ديك الجن عن دعبل بن علي الخزاعي . وروى عنه محمد بن حفص المنار الشاعر ، وعلي بن موسى الطرسوسي ، وكان راوية شعره هو سعيد بن يزيد الحمصي (٤) .

وكانت وفاة ديك الجن حسب قول ابن خلكان في حمص سنة خمس أو ست وثلاثين ومائتين في خلافة المتوكل ، وبذلك قال الدُميري أيضاً (٥) . غير أن رواية رواها ابن عساكر تذكر أن ديك الجن كان قصد أحمد بن المدبر وعمو علي الشام من قبل ابن طولون ، وذلك يعني أنه كان حياً بعد سنة ٢٥٤هـ ، كما روى رواية أخرى عن راوية شعر الديك يستفاد منها أن الشاعر كان قد رد إلى أزدل العممر (٦) .

(١) انظر: مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٠: ٣١٦ .

(٢) انظر: وفيات الاعيان ٣: ١٨٤ - ١٨٥ .

(٣) انظر: المصدر نفسه : ١٨٥ .

(٤) انظر: مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٠: ٣١٦ - ٣١٧ .

(٥) انظر: وفيات الاعيان ٣: ١٨٨ ، حياة الحيوان الكبرى ١٥: ٣٤٩ .

(٦) انظر: مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٠: ٣١٦ .



وقد كان عبد المعين الملوحي ومحيى الدين الدرويش الحمصيان أول من فطن من المحدثين إلى ضرورة جمع شعر الديك ، ولم يعرف حتى اليوم أن له ديواناً مروياً ، فجمعا ما قدرا على جمعه ، وكان مقداره تسعاً ومائة قصيدة وقطعة ، وأطلقا على هذا المجموع اسم "ديوان ديك الجن" (١) . ثم تبعهما جامعان آخران هما أحمد مطلوب وعبد الله الجبوري فنشرا مجموعاً جديداً من شعر الديك بلغت عدة قصائد ومقطعات ، بما في ذلك ما سبق أن نشره الحمصيان ، إحدى وثلاثين ومائسة قطعة وقصيدة . واستدركت عليهما دار الثقافة التي نشرت لهما مجموعتهما فأضافت إليه تسع عشرة قطعة ، وصدر ذلك كله في كتاب حمل أيضاً اسم "ديوان ديك الجن" (٢) .

وقد تبين لي في أثناء البحث أن للديك قصائد ومقطعات أخرى كثيرة لم يقع عليها أولئك الباحثون جميعاً . فله في "جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام" قصيدة من ستة وأربعين بيتاً (٣) . وله في "المختار من قطب السرور في أوصاف الأنبذة والخمور" خمس قطع مجموع أبياتها ستة عشر بيتاً (٤) ، وله في "الأنوار ومحاسن الأشعار" قصيدة من ثلاثة عشر بيتاً ، وقطعة من ثلاثة أبيات (٥) ، وله في "صورة تاريخ دمشق" قطعة من ثلاثة أبيات (٦) ، وهذا غير ما أشرت إليه فسي مواضع سابقة من الدراسة .

ويتوزع شعر ديك الجن في أغراض عدة غير أن أبرزها هو النظم في المجون والمرثي والفخره وسيجيء الكلام مفصلاً على كل واحد منها مع إيراد شواهد من شعره لم يسبق إيرادها في مواضع سابقة من هذه الدراسة .

- 
- (١) طبع في مطابع الفجر الحديثة بحمص سنة ١٩٦٠ .
  - (٢) طبع في مطبعة المثنى ونشرته دار الثقافة ببيروت سنة ١٩٦٤ .
  - (٣) انظر: جمهرة الاسـلام : ٧٨ - ٧٩ .
  - (٤) انظر: المختار من قطب السرور : ٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٨٢ ، ٣٩٤ .
  - (٥) انظر : الأنوار ١ : ٣١٧ ، ٢٤٧ .
  - (٦) انظر : صورة تاريخ مدينة دمشق ١٠ : ٣١٩ - ٣٢٠ .

١- المجنون :-

فتن ديك الجن بالخمرة ومجالسها، وساقه افتتانه بنا إلى التدقيق في أوصافها ، ونسبي  
تتبع آثارها في الشاربين ، وإلى التغزل بسقاتها غزلاً مكشوفاً في رقة لفظ ، وعذوبة موهـ يتي ، وجمال  
تصوير ، يقول منــــــــــــــــلاً (١) :-

بها غيرُ معذورٍ فداوِ خمارَها	وصلَ بعشياتِ الغُبوقِ ابتكارَها
وَمَ أُرْتِ فَاحَتْ كَأَنَّهَا غيرَ صاغِرِ	ولا تَسْتِ إلا خمرَها وعقارَها
فقام تكادُ الكأسُ تحرقُ كَنَسَهُ	من الشمسِ أو مِن وِجنتِهِ استعارَها
مُشعَّعةٌ من كَنَ ظبيٍّ كأنَّما	تناولَها من خَدِّه فأدارَها (٢)
ظَلَلْنَا بأيدينا نَتَمَتِعُ رُوحَها	وتأخذُ مِن أقدامِها الراحُ نارَها

فبذا التصوير الدقيق لإقبال جماعة الشاربين على ترشف كؤوس الخمر ، يبرر رخصيم على أن يتساقوا  
عقارها حتى ترتعش منهم الأقدام وتضطرب ، دليل على غرام الشاعر بالخمرة . وقد قاده هذا الغرام  
كذلك إلى أن يعرض صوراً للساقى الذي كان يدور عليه ويثلى محبه كؤوس الخمر ، يقول (٣) :-

نَبَيْتُهُ وَالنَّدَامَى حَانَ مُسَبِّبُهُمْ	فَقُلْتُ : قُمْ وَأَخْبِنَا الِهْمَ انْذِي وَكَفَّسَا (٤)
فقام مَخْتَلِفًا كَالْبَدْرِ مُطَلِعًا	والظبيِّ مُلْتَفِتًا وَالنُّعْنَ مَدْعُفًا
كَأَنَّ قَانًا أُدِيرَتْ فَوْقَ وَجنتِهِ	وَاحْتَطَّ كَاتِبُنَا مِن فَوْقِهَا أَلْفًا
رَقَّتْ غُلَّالَةٌ خَدَّيْهِ فَلَورِ مِيَسَا	بِاللَّحْظِ أَوْ بِالْمَنَى عَمَّا بَانَ يَكْفًا

كما قاده هذا التعلق الشديد بالخمرة إلى أن يرى أن أي مظهر من مظاهر الجمال يظن غير تمام  
ما لم يتوج بالتفني بالخمرة ، يقول (٥) :-

ورؤِيةٌ باتَ طَلُّ الفَيْكِ يُسْجُها	حتى إذا كَمَلَتْ أَضْحَى يَدْبِجُها
يبكي عليها بَكاءُ الصَّبِّ فارقَها	إِلْفٌ فيضِحُها طَوْرًا وَيُبْهِجُها

- (١) القصيدة ١٧ : ص ١٠٧ من ديوانه (بتحقيق أحمد مطلوب وزميليه ) .
- (٢) تمتع الشيء : حركه بعنف .
- (٣) القصيدة ٢٠ ، ص ١١٢ من ديوانه .
- (٤) وكف : سال وقطر قليلاً قليلاً .
- (٥) المختار من قطب السمرور : ٣٧٢ .

إِذَا تَضَاحَكَ فِيهَا وَرُدُّ نَرْجِسِهِمَا  
نَقَلْتُ فِيهَا لِسَاتِنَا وَفِي يَسِيدِهِ  
بَاهَى ذِكِّي خُرَامَاهَا بِنَفْسِجُمَا  
كَأْسُ كُشْعَلَةٍ نَارِيَّاتٍ يُوهِجُمَا  
تَبَخَّلُ بِذَاكَ فِدْمَعِي سَوْفَ يَمْزُجُمَا  
إِذَا سَمْتُ نَحْوَ قَلْبِي كَادَ يُنْضِجُمَا  
أَقْلُ مَا بِي مِنْ جَهِيكَ أَنْ يَسِيدِي

ويبدو أن إقبال ديك الجن على الخمرة كل هذا الإقبال ، وتعلقه بها كل هذا التعلق ، كان صادراً عن مذهب خاص له في الحياة ، فقد رأى الموت يتخطف أحبائه من حوله ، فلماذا لا يسارع إلى انتهاب اللذات قبل الموت ؟ يقول بصورة صريحة لا مواربة فيها في هذا المذهب (١) :-

تَمَعَّ مِنَ الدُّنْيَا فَإِنَّكَ فَسَّانٍ  
وَلَا تُتَخَّرَّنَ الْيَوْمَ لِمَوَا إِلَى غَسَدٍ  
وَإِنَّكَ فِي أَيْدِي الْحَوَادِثِ عَسَانٍ  
فَإِنِّي رَأَيْتُ الدَّمَ هَمَّ يُسْرِعُ بِالْفَتْسِي  
وَمَنْ لِمَدِّ مِنْ حَادِثٍ بِأَمْسَانٍ  
فَأَمَّا الَّذِي يَنْضِي فَأَحْلَامُ نَائِمٍ  
وَيُنْقَلُ حَالِيْنَ يَخْتَلِفُ فَسَّانٍ  
وَأَمَّا الَّذِي يُبْقَى لَهُ فَأَمَانِسِي

ويقول ، وعنه الاستمتاع " بطيب الموجود " المتاح لا " بالمفقود " الموعود (٢) :-

أَشْرَبْتُ عَمِيئًا عَلَى وَرْدٍ وَتَوْرِيْدٍ  
نَحْنُ الشُّهُودُ وَخَفِيُّ الْعُودِ خَاطِبُهَا  
وَلَا تَبِعْ طَيْبَ مَوْجُودٍ بِفَقْدِ مَوْجُودٍ  
كَأَسَاءَ إِذَا أَبْصَرْتَ فِي الْقَوْمِ مُحْتَشِمًا  
نَزَّوْجُ ابْنِ سَحَابٍ بِنْتِ عُنُقُودٍ (٣)  
قَالَ السَّرُورُ لَهُ : قَمَّ غَيْرَ مَطَّرُودٍ

وإذا انضاف إلى هذه الأبيات أقواله في مواضع كثيرة من شعره مبشراً بذهبه هذا في الحياة ، اتضح أن ديك الجن كان من " الأبيقوريين " لا عن ثقافة خاصة استقامها من أنصار هذا المذهب اليوناني ، بل عن نظرة له في الحياة والأحيا ، فهو يقول حينئذ (٤) :-

أَأْتَرُكَ لَذَّةَ الصَّهْبَاءِ عَمْدًا  
حَيَاةً ثُمَّ مَوْتًا ثُمَّ بَعْدًا  
لِمَا وَعَدُوهُ مِنْ لَبَسٍ وَخَمْرٍ  
حَدِيثُ خُرَانَةٍ يَسَاءُ أَمَّ عَمْرٍ

(١) القطعة رقم ٢٤ ص ١١٨ من ديوانه .

(٢) المختار من قطب السرور : ٣٧٥ .

(٣) كفى عن الماء بابت سحاب ، وعن الخمر بينت عنقود .

(٤) القطعة ٣٦ ص ١٧٠ من ديوانه .

ويقول حيناً آخر في معنى مقارب (١) :-

يقولون: تَبُّ والكأسُ في كَفِّ أَغْيَـدٍ  
فَقُلْتُ لَهُمْ: لَوْ كُنْتُ أَضْرَمْتُ تَوْبَةً

وصوتُ المثاني والمثالكِ عـالٍ  
وعاينتُ هذا في المنام ، بدالسي

ويندرج في هذا الاتجاه المعاند كراهيته للصيام في قوله (٢) :-

صَبَّ عَلَيَّ الكَأْسُ إِنَّ وِلَالَـنَا  
مَا زَالَ مِنْ بُنْشِ الصِّيَامِ مُبْفَضًّا

قد صَبَّ نِقْمَتَهُ عَلَى الثَّقَلَيْنِ  
يومُ الخَمِيسِ إِلَيَّ وَإِلَى الثَّقَلَيْنِ

لقد تنازع الشاعر تياران متناقضان: ديني ضعيف ، وديني قوي ، فكان أن انتصر بالبداعة تيار اللذة العاجلة ، فتمزق الشاعر في متع الحياة ، غير أن الإفتتاح عن هذا التوزع النفسي يدل على أن التيار الآخر كان يظل يعمور في اللاشعور، مما يعني أن ديك الجن لم يكن منكراً للبعث والنشور ، وإنما تضخم لديه الإحساس بالرهبة من الموت تضخماً عظيماً ، جعله يعيش في قلق شديد دل عليه قوله (٣) :-

يَرْتَدُّ النَّاسُ آمِنِينَ وَرَيْبُ الدَّهْمِ  
رِيْعَاهُمْ بِمَقْلَةٍ لِيَصَّ

فهرب من هذا اللص المرعب إلى الخمرة، وإلى ما تتيحه له الخبرة ومجالسها من التحديق والاستمتاع بشفور الساقيات وشعورهن وخذودهن ونواحي جمالهن المادي الأخرى ، وشنَّف سعه بالمثاني والمثالك ، ومع هذا كله فإن إحساسه بالرهبة من الموت لم يكد يفارقه .

وأما الأبيات الغائية التالية التي يظهر فيها ديك الجن منكراً للبعث فلا تعدو أن تكون ضرباً من العبت لا صدوراً عن مذهب واعتقاد ، وفيها يقول (٤) :-

- (١) القطعة ٦٢ ص ١٨٥ من ديوانه .
- (٢) القطعة ٨٢ ص ١٩٥ من ديوانه .
- (٣) رقم ٤٧ ، ص ١٧٤ من ديوانه .
- (٤) رقم ٤٩ ، ص ١٧٦-١٧٥ من ديوانه ، وانظر تعليق أبي العلاء المعري على هذه الأبيات في : رسالة الغفران ، تحقيق بنت الشاطي ، ط ٤ ، دار المعارف بمصر : ٤٤٦ ، والسواف بضم السين وفتحها : مرض المواشي وهلاكها ، ويطلق على النفوس بعامة .

في الدنيا وقد نعيموا بأخري  
وتسويك النفوس من السُّوفى  
فإن كذبوا أمنت ، وإن أصابوا  
فإن المبتليك هو المعافى  
وأصدق ما أبنتك أن قلبني  
بتصدق القيامة غير صاف

ويرتبط بشعر المجون عدا الحديث عن الخمرة والسقاة تغزل ديك الجن بالغلطان، وبخاصة غلام له يدعى بكرة ، وفي ديوانه مقطعات عوض في بعضها وصفاً لمحاسن عدا الغلام ، وليس في هذه القطع ما يحسن التمثل به غير قوله في بيتين يصف فيهما دخول هذا الغلام في ماء ، فجاء بتموير فني بارع ومعنى طريف ، حيث يقول (١) :-

دني حتى حسبت وري السور  
د جنياً يرف بين الرياح  
ورد الماء ثم راح وقد أضو  
دره الماء في غلالة راح

أما ما سوى ذلك من غزل الديك بالغلطان فهو ممجوح إذ شعاره في النزل قوله وعويتم به مذ عبه في الحياة (٢) :-

أعنتُ السرد والنكار والشيبة وعندني مثل البنين البنات (٣)  
حد ما يشتهي ويعنتني عندي حيوان تحل فيه الحياة

وللديك قصيدة طويلة رواها الشيزري في جمرة الإسلام ، وهي تتوزع بين غرضين يتم الثاني منهما الأول ويتشعب عنه ، فقد خصص جزءها الأول للنزل الذي يقوم على وصف تباريح البنون والوجد ، وأتى في أثناء ذلك على ذكر محاسن صاحبة التي هام بها ، حتى إذا ما انتس إلى وصف ثناياها النمر، اتخذ من وصفه لها مدخلاً لوصف الراح وزيارة الحانة التي يتوم على الخدمة فيها ، شيخ عدلسي كراعب (٤) . وقد استطرده في وصف الخمرة فوصف رائحتها وزجاجتها ولونها ، ثم التفت ثانية إلى صاحبة التي هام بها في أول الأمر ، فعبّر عن وفائه لها ، وانشغال فكره وقلبه بها ، وكأنه أراد أن يقول : إن من كان عاشقاً لمثل هذه الحسناء الفاتنة حربي به أن يقل كرى عينه ، وأن يظلل

(١) القطعة ٢١ ص ١٦١ من ديوانه .

(٢) القطعة ١٨ ص ١٦٠ من ديوانه .

(٣) النكاديش : لفظة فارسية تعني ذا اللحية .

(٤) العدلسي : المسنن .

مهمومًا . وسأثبت القصيدة كاملة كما رواها الشيزري ، لأنها مذهب يقارب - لولا ذكر الخمر - مذهب الأعراب في النزول العفيف وفي البناء الجزل الرصين وهما مظهران غير مألوفين في غزله : -

نظمن الأسي في القلب من كلِّ جانبٍ  
بأطراف أتلأم الدموع السواكـب  
وتبعضها أجاننا للنوائـب  
حكين ، وما جأ للجسان الكواعب  
بما رمت فيه من فراق الحبايب  
بأحشائه للشوق لدغ العقارب  
قليلًا تشكبه كثير المسائب  
وما بين نايي سبعبها والمخالب  
وقد أحكمت عينا رعي الكواكـب  
تخبر بتسديد عريش المناكـب  
فأعلننا دمي لمقلقة صاحبـي  
على الشوق حتى عنفتني أقاربـي  
وأظهره لطفًا لما في المنايب  
إلى نارها بالرغم من أنثـراغب  
ولو زهقت نفس الغيور المحابـب  
ولم أرض إلا حين عزت مطالبـي  
وأعرضت إعراف البغيض المجانب  
بعهد كريم وأصل غير قاضـب  
إلى من إليها حاجتي ومآربـي  
ومن خضرة الريحان خضرة شارب  
فجاء كيف الصاد من خط كاتبـب  
وأرضي بما ترضين غير محارب  
وبينهم فيها قراع الكنائـب

سهماً لحاظ من قسي الحواجـب  
غداة كتبنا في الخدود رسائـلاً  
تلوح على لباتنا ونحورنا  
والسنننا خرس كأن خلاخـلاً  
كفتك النون عدل المعنى فأقصري  
جناء الهوى بالشوق حتى كأنما  
بيت على فرس الننا متلمـلاً  
فريسة أشجان طريحاً بكفـنا  
خليلي خان العبر وأنقطم الكـرى  
خليلي عن عيني سلاً أنجم الدجـى  
خليلي كم من لوعة قد كتمتـنا  
وعنتنا سترًا في الحشا كان مسـلاً  
فما أفتح الدمع السكوب إذا جرى  
سأكحل عيني من بعيد بنظرـة  
وعلى ينعمني نظرة إن بلفتـنا  
وقل لعيني من بعيد تأمـل  
فعللت نفسي بالذي هو مقنعـي  
صفاً وإخلاصاً ونقياً مسودـة  
وفي النفس مني قد طويت مآربـنا  
لها من مناة الرمل عين كحيلـة  
كان غلاماً حاذقاً خطتـها  
أنا لتني أما أنا فمسالـم  
ولكن لقمي عند قومك بغيـة

فإن تغليني تبعني الحرب جُدعة  
 فإن يخل لي وجه الحبيب فإنني  
 وإلا فإن الشر عندى مكنى  
 لثلا يرى الواشون قررة أعين  
 وقد زعموا أنى بنفيسك مغفم  
 ولا والشايا الدر من فيك إنهما  
 تمج مدا ما عتقت فذفنت  
 على فرد رجل قائم غير قاعيد  
 تمزق عنها الدر من طول لبثها  
 بجلباب قار قد تجسد جسمها  
 وينشاهما ثوب رقيق سداوة  
 طرقت أباها في جيوش من الدجى  
 فقام إلينا مسرعا لسرورنا  
 فقلت له : عات المدام فإننا  
 فشمردني وقام بييادرا  
 فشد على الأقصى فصرخ خصره  
 وأقبل يسعى بالزجاجة ضاحكا  
 كأن سحيق المسك في جنباتها  
 كأن نسيم الكأس عند رداها  
 كأن دموع العاشقين ترقرقت  
 لما كتبت إلا مقيدا بك متمرما  
 إذا فرماني البين عن قوس مجرركم  
 فقل كرى عيني لهم سهد  
 لقد عني الشاعر في هذه القصيدة بتناغم الأصوات كما عني  
 في هذا كله بحتري الصياغة والتشبيه بعيدا عن مذهب أبي تمام في البديع وتوليد المعاني .

عليناه فروي وأنظري في العواقب  
 سأنشر ما أضمرت بين الحقائق  
 دفين على مر الليالي الذواهب  
 ولا يجدوا فينا معابا لعائب  
 وعناك عزوت كالصدوف الموارب  
 لكالغيث أدته أكف السحاب  
 بأحشاء شيخ عذمي كراهيب (١)  
 له برنس يعتده في المناسب  
 ولم يتزق في بلائ جلابب  
 وآخر من طين وليس بلازب (٢)  
 رقيق الحواشي من نسيج العناكب  
 وأيدي الثريا في نواصي المغارب  
 يفتدي ويحمينا كبعض الأقباب  
 عكفيا عليها من صدور الركائب  
 إلى وقف شعك قيام نواصب  
 بمثل جناح من دم الجوف شاخب  
 مد لا بها مستبشرا غير خائب  
 إذا التمتت تغري رداء النياغب  
 تنسم عود في صدور المحارب  
 بأكوسنا تجري على كل شارب  
 ولست إلى شيء سواك براغب  
 بأسهم ذات السحول الصوائب (٣)  
 وفكر طويل الذيل بالقلب لاعب  
 بالإكثار من الصور والتشبيهات ، ولكنه ظل

(١) تمج : تلفظ . تمنست : كناية عن عتق الخمرة .

(٢) اللازب : المتعاسك اللزق .

(٣) ذات السحول : ذات الانصباب .

إذا كانت السمة الغالبة على أشعار ديك الجن في العجون هي نظم المقطعات فإن الغالب على أشعاره في المراثي هو نظم القصائد . وقد رثى الديك في أشعاره آل البيت ، ورثى جعفر بن علي الهاشمي وزوجته كما رثى الديك أيضا زوجته وابنه ، ورثى أبا تمام . وقد سبق أن بينا رأينا في مراثيه في آل البيت عند حديثنا عن غرض الرثاء في الشعر الشامي . أما ما قاله في جعفر بن علي الهاشمي وامرأته فتبدو فيه حرارة العاطفة ، وعدى التأثر بمصابه بينما . وتجري قصيدته التي عزي فيها جعفرًا عن زوجته مجرى قصيدة أبي ذؤيب الهذلي المعروفة في رثاء بنه ، فهو فيها مثله يصور عجز الإنسان عن الإفلات من قبضة الموت العاتية بتمداد بعض أصناف الحيوان النابذة التي يتخطفها الموت مبها حرصت على الحياة سواء أحاولت كالوعل الاعتصام في قنن الجبال ، أم كالحية الاختفأ في رمال الصحراء ، أم كالعقاب التحليق في أجواز الفضاء وبين الغيوم ، أم كالفارس إذ يحتفي بالعامل والمنصل<sup>(١)</sup> . وأما رثاؤه لجعفر نفسه فيبدو الديك في قصيدته فيه محزونًا أشد ما يكون الحسنن ، مستسلمًا كأضعف ما يكون الاستسلام ، يقول في مبتداهـ<sup>(٢)</sup> :-

على هذه كانت تدور النوائبُ	وفي كلِّ جمعٍ للذَّهابِ مذاهبُ
نزلنا على حُكمِ الزمانِ وأمره	وعلى يقينِ النُصفِ الألدِّ المُشاغبِ
ويضحك سن المرءِ والقلب موجع	ويرضى الفتى عن دهره وهو عاتب

وبعد هذا الاستسلام العاجز لحكم الزمان وأمره الذي لا يرد ، وبعد رسم معالم لهذا التضاد بين الظاهر والباطن ( السن والقلب ) والضحك والوجع ، والرضا والعتب يتفجع على صاحبه تفجعاً صادقاً محسوساً في كل شطر من أشطار القصيدة ، وهو تفجع يلمس باستعمال أساليب شتى من النداء المهيض ، والتعبير الباكي ، وتصوير الافتقار إلى المنيت ، ونفاد الصبر ، والتفدية بالنفس ، والتحويل فسـ السؤال عن النفيد ، يقول :-

ألا أينما الركبُ والرَّدُّ واجِبُ	تَقُوا حَدَّثُونَا مَا تَقُولُ النَّوَادِبُ
رأى أَيَّ فِتْيَانِ النَّدَى قَصَدَ الرَّدَى	وَأَيُّهُمُ نَابَتْ جِهَاهُ النَّوَائِبُ ؟
فيا لآبي العباسِ كم رُدُّ رَاغِبُ	لِفَقْدِكَ مَلْهُوفاً وَكَمْ جُبَّ غَارِبُ

(١) انظر هذه القصيدة في ديوانه ص ٦٥ - ٧١ .

(٢) القصيدة رقم ٢ ص ٧٢ من ديوانه .



ويا قبره جُدُّكُنَّ قَبْرٍ بِجُودِهِ  
فإنك لو تَدْرِي بما فيك من عُلَا  
هو القلبُ لما حُمَّ يَوْمَ ابْنِ أُمَّه  
ففيك سماءٌ شَرَّةٌ وسَحَائِرُ  
عَلَوَتْ وِيَاتَتْ فِي ذُرَاكِ الكَوَاكِبُ  
وَعَى جَانِبٌ مِنْهُ وَأُسْقِمَ جَانِبُ

والقصيدة كلها على هذا النحو من الحزن واللوعة الصادقة ، وهي كلها كذلك على هذا النحو من الإسراع والجزالة والفصاحة والتصوير الجميل . وقد بلغ قوله التالي درجة عالية من الفنية إذ يشخص الموت في صورة رجل عات يتصدى له الشاعر محاولاً نحره ، غير أن المنازلة تنتهي بانهزام الشاعر :

تَرَشَّفْتُ أَيَّامِي وَعُنَّ كَوَالِيهِجٌ  
عَلَيْكَ وَغَالِبْتُ الرَّدَى وَعُوْغَالِيهِبُ  
وَدَافَعْتُ فِي صَدْرِ الزَّمَانِ وَنَحْرِهِ وَأَيُّ يَكْدِرُ لِي وَالزَّمَانُ مَحَارِبُ  
وَقَلَّتْ لَهُ : خَسَّ الْجَوَادُ لِتَوَمِيهِ  
وعا أنذا فإزدد فإنا عسائربُ

وعذه العرثية والعرثية التي تليها ، إضافة إلى مراثي الديك في زوجته التي قتلتها ، هي التي جعلت ابن رشيقي القيرواني يقول في موازنة دالة بين مراثي الديك ومراثي أبي تمام : " وأبو تمام من المعدودين في إجادة الرثاء " ، ومثله عبد السلام بن رغبان ديك الجن ، وهو أشهر في هذا من حبیب (١) .

وأما مراثيه في زوجته التي قتلتها بيديه ففيها زفرات حري يصعد عما من قلب مكلوم حباً وندماً في آن ، يقول في إحداها (٢) :

أَسَاكِنُ حُفْرَةٍ وَقَرَارٍ لِحُودِ  
أَجْبَنِي إِنْ قَدَّرْتَ عَلَى جَوَابِي  
أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ عَايَنْتَ وَجْهِي  
إِذْ نَ لَعَلَّمْتَ أَنِّي عَنْ قَرِيْبِ  
مُنَارِقِي خُلَّةٍ مِنْ بَعْدِ عَهْدِ  
بِحَقِّ الْوَدِّ كَيْفَ ظَلَّمْتَ بَعْدِي  
إِذَا اسْتَعْبَرْتُ فِي الظُّلْمَاءِ وَحُدِي  
سُتْحَفَرُ حُفْرَتِي وَيَشَقُّ لِحُودِي

ويقول في أخرى في صورة أرق وأجمل معبراً عن حزنه وحبه وندمه نسي آن (٣) :

- (١) العمدة ٢ : ١٤٩ .  
(٢) القصيدة ٩ ص ٩٤ - ٩٥ من ديوانه .  
(٣) القطعة ٨ ص ٩٢ - ٩٣ .

وَالْحَزَنُ يَسْفَحُ عَبْرَتِي فِي نَحْوِهِ  
بِالْحَيِّ حَلَّ مَكَانَهُ فِي قَبْرِهِ  
وَتَكَادُ تُخْرِجُ قَلْبَهُ مِنْ صَدْرِهِ

عَبْدِي بِهِ مَيْتًا كَأَحْسَنِ نَائِمٍ  
لَوْ كَانَ يَدْرِي الْمَيْتُ مَاذَا بَعْدَهُ  
عُصْصُ تَكَادُ تَفِيضُ مِنْهَا نَفْسُهُ

### ٢- الفخر :-

وفي ديوان ديك الجن قصيدتا فخره أشاد في إحداهما بقبيلة كلب<sup>(١)</sup> ، وأشاد فسي الأخرى بأصوله الفارسية<sup>(٢)</sup> . أما إشادته بكلب فلأنه كان يدين لها بالولاء ، ويبدو أنه يحكم إقامته في حمص التي كانت مقراً لكلب ، كان مضطراً إلى هذا الولاء ، وإلى هذا الفخر . فقد فضلنا على المصم وعلی سائر قبائل العرب ، وهذا على الرغم من ترفعه في القصيدة الأخرى على العرب فهو بينما يقول في الأولى :-

كَلْبٌ تَبِيلِي وَكَلْبٌ خَيْرٌ مِنْ وَلَسَدَتْ  
حَوَاءٌ مِنْ عَرَبٍ غَرَّ وَمِنْ عَجَبٍ

يقول في الثانية فإني لست بالعربي و :-

إِنِّي أَمْرٌ بَارِزٌ فِي ذُرُوتِي شَرَفٍ  
لِقَيْصَرٍ وَكُسْرَى مُحْتَدِي وَأَبْسِي

أما كيف يستوي عدان الأمران اللذان يبدوان متناقضين فأكبر الظن أنه كانت ثمة ظروف خاصة وملابسات معينة دفعت الشاعر في موقف إلى أن يفخر بكلب ، ودفعت في موقف آخر إلى الفخر بفارسيته .

لقد أشاد ديك الجن بأيادي كلب على الإسلام فذكر فضلها في معركة مؤتة ، وانحيازها في معركة صفين إلى صف علي ، وناصرتها في يوم الطف<sup>(٣)</sup> للحسين بن علي ، وبين مقدار تضحياتها في ذلك كله في صورة جميلة إذ يقول :-

(١) هي القصيدة ٢٩ ص ١٢٩ .

(٢) هي القصيدة ١٥ ص ١٥٦ (من ملحني الديوان) .

(٣) الطف: أرض من ضاحية الكوفة في طريق البرية فيها كان مقتل الحسين بن علي ، رضي الله عنهما في زمن معاوية بن أبي سفيان . انظر : معجم البلدان / الطف .

غداة مواتة والإشراك مكتبر لـ  
 ويوم صفين من بعد الحربية كم  
 وفي الفرات فداء السبوط قد تركت  
 غداة شمالت من التوى نعماتها

والذنين أورد لم يبيع فيحتلهم  
 دم أطل لنصر الدين إن سردهم  
 أشلاونا في الوحي لحما على وهم  
 وآذنت صعقات الحق بالنقم (١)

ولا تخرج أبيات القصيدة الباقية عن هذا الإطار من الإشادة بشجاعة كلب وتقواها ومناصرتها للحق . أما القصيدة الأخرى فكان الفخر فيها فردياً يقوم على الزهو بصفات الجراءة ورجاحة السراي والشجاعة والعفة . ومما تجدر ملاحظته أن أسلوب ديك الجن في فخره يشاكل أسلوبه في مراثيه في جمع بن علي الهاشمي وزوجته ، وفي ما صح لنا من مراثيه في آل البيت ، وهو يختلف عن أسلوبه في المعجون والنزول برثاء صاحبه ورد ، فنون الأولى تناسب أسلوب جزل رصين ، يعتمد الإشارة بقوة الجرس ، وانطكاك اللفظ ، في حين هو في الثانية رقيق عذب اللفظ ، تناسب موسيقاه انسياباً ناعماً في تطعم ذوات أوزان قصيرة في الغالب الأعظم .

ومن اللافت للنظر في شعر ديك الجن أن المديح فيه نزر وتليل الذنبا ، ولعل ذلك همسو الذن حذا بأبي الفرج إلى القول إنه - الديك - لم ينتج بشعره ولم يتعمد لأحد مادحاً . أما لماذا قل شعر المدح عنده ، فلهل ذلك راجع إلى مذمبه في عدم إذلال المرء نفسه بعرض حاله على أصحاب المال والنفوذ ، فهو القائل (٢) :

لا تفت للزمان في منزل الضيفهم ولا تستكين لرقصة حبال  
 وإذا خفت أن يراحتك العدُّم فعدْ بالمتقات العوالي (٣)  
 وأعين نفسك الكريمة للمسوِّت ، وقحس بها على الأموال  
 فلعمري للموت أزين للحنس من الضرار عسا للرجس  
 أي ما يدور في وجهك الحسرة إذا ما امتنتت به بالسؤال  
 لا أحب الفتى أراه إذا ما عضة الدمع جاثماً في الضلال  
 مستكيناً لذي الغنى خاشع الطرف ذليل الإدبار والإقبال

(١) شمالت نعماتنا: غصبت

(٢) من القصيدة ٢٥ ص ١٢٠ - ١٢٣ من ديوانه .

(٣) المتقات العوالي : الرماح التي أحسن تشديدها وإعدادها .

فهذه الأبيات تكشف عن رجل صاحب نفس عزيزة تأبى الذل ، وترفض الغنى بامتثال ما  
الوجه ، وتفضل الفقر والفاقة ، بل تفضل الموت على خشوع الطرف للأغنيا . وشاعر هذه نفسيته يصدق  
أن يقال عنه إنه لم ينتجع بشعره أحداً . ويبدو أن مذهب الديك هذا في عدم إذلال النفس فسي  
طلب الغنى من أصحاب المال والنفوذ يلتقي مع مذهبه في الإقبال على متع الحياة المتاحة ، لأنسه  
فيهما جميعاً يوء من بحتمية الموت ، إذ يبصر شبهة المرعب يدق أبواب الحياة في كل حين ، فليست  
إذ أن جمع المال ؟ ولم الحرص عليه ؟ يقول في قصيدة فيينا حس طرفة بن العبد بالموت والحياة (١) :-

لَأَعَادِيَنَّ الرَّاحَ وَعُمِّي زَلَالُ      وَلَا تُطْرَقَنَّ الْبَيْتَ فِيهِ غَمٌّ زَالُ  
وَلْيَشْفِيَنَّ قَلْبِي فَمَ وَجْنِي يَسِيدُ      وَكَلَامِي بَارِدٌ سَلَسَالُ  
يَا ذَا الْغِنَى وَالْبُخْلِ مَا لَكَ مِنْ غِنَايَ      وَكَذَاكَ يَا ذَا الْمَالِ مَا لَكَ مِنْ مَالُ  
أَطْلِقْ يَدَيْكَ فَإِنَّ بَيْنَ يَدَيْكَ مَا      يُرْدِيْنَمَا ، وَوَرَاءَ حَالِكَ حَسَالُ

ونظم الديك في الهجاء ، وخير ما يميز الهجاء عنده الأبيات التي هجأ فيها أحد أقربائه ،  
لأنه كان ينهيه عن المجون والخلاعة ، وقد سخر في هذه القصيدة من هذا القريب سخرية لاذعة ،  
فصوره في رسم "كاريكاتورى" صاحب رأس ضخم صلب تعجز المعاول والصخور التلدة عن تحطيمه ،  
كما تعجز البغال عن الصعود عليه ، بل إن حجارة المجانيق لو سقطت عليه لكدت عن تحطيمه ، أما  
شعره فإن قصه يدمي أكتف حذائق الحلاقين ، ويحطم في أيديهم أدوات القصر ، ولم يكن الديك الجسن  
بنذا الحد من السخرية من هذا الرجل الغريب الرأس والشعر وحسب ، بل جعل من الآيات الدالسة  
على عظمة الخالق إمساك السماء على الأرض وفيها أخلاق هذا الرجل القذرة (٢) :-

رَقُوعًا عَلَى رِجْلِهِ تَرَوْنَ عَجَبًا      بِالْجَهْلِ يَحْكِي طَرَائِفَ الْبُصْرَةِ (٣)  
سَبْحَانَ مَنْ يُمَسِّكُ السَّمَاءَ عَلَى الْأَرْضِ      وَفِيهَا أَخْلَاقُكَ الْقَذِرَةَ

- (١) من القصيدة ٣٠ ص ١٣٢ - ١٣٣ . وانظر أبيات طرفة التي في هذا المعنى :-  
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد  
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطول المرخي وثنيه في اليد  
الزوزني : شرح المعلقات السبع ، ضبطه محمد علي حمد الله ، المطبعة التعاونية ، دمشق ،  
١٩٦٣ ، ١٦٠ ، ١٦١ .  
(٢) من القصيدة ٣ ص ٧٨ - ٨٤ .  
(٣) البصره : ذوو الفراسة والنظر البعبيد .

وزيادة في النكاية في هذا الناصح اللائم جعل ديك الجن نصف القصيدة الأول في المجون والخلاعة تحدياً ، ولأن للشاعر مذعباً يغاير مذهبه ، وروية وموتفاً من الطرب يخالف موقفه ورويته ، إذ كيف هيأت له نفسه أن يحاول منعه من الاستمتاع بملذات الحياة :-

كَمْ طَرَبَاتٍ أَفْسَدَتْهُنَّ وَكَمْ صَفْوَةٌ عَيْشٍ غَادَرَتْهَا كُودِرُهُ

ونظم ديك الجن في الطرد ، فقد روى الشمشاطي أن لديك الجن أبياتاً يصف فيها كلاب الصيد ، ويبدو أن وصف الطرد عند ديك الجن كان لوناً من الترف الفني ، أو كأنه لون من الترف في الحياة ، ولذلك عني بوضف أشكال كلاب الصيد وألوانها ومهارتها في صيد الطير والوحش ، وحرص حرصاً شديداً على تشبيهاته وصوره ، يقول (١) :-

وُغْضًا يَنْتَظِنُ الْأَرْضَ نَظْمًا	(٢) تَشْرَفِيهِ حَبَابُ النَّفْسِ
لَهَا فِي كَلِّهِ مَفْرَكَةٌ ضَجَّاجٌ	(٣) وَدَاعِيَةٌ كِدَاعِيَةِ الْبَسُوسِ
وَسَرَّبَ حَبَابَاتٍ فَوْقَ جَلْسِ	(٤) أَشْبَهَهُ بِمَشِيخَةِ جُلُوسِ
تَرَامَا فِي بُرَامَا مُنْفِضَاتٍ	(٥) بِأَرْوُوسِيَا بِجَسِّ أَوْ حَسِيْسِ
فَأَمُّ الطَّيْرِ فِي شَرِّ عَرِّ	(٦) وَأُمُّ الْوَحْشِ فِي يَوْمِ عَبُوسِ
وَأَبِيخْرَمَا أَحْمَانٌ مِنَ الذَّنَابِ	وَالِي الْحَانَدَيْنِ كَالْقَصَبِ الْمَلِيْسِ
وَأَسْوَدَ لَهْدَمِ السَّيْرَيْنِ جَعُونِ	(٧) وَأَزْرَقَ مَنَسِرٍ أَقْنَى نَهْوسِ
وَأَصْفَرَقِيْمَةَ وَحَجَّاجِ عَيْسِنِ	(٨) فَتَحَسَّبُهُ تَكْحَلٌ مِنْ رُوسِ
إِذَا بُعِثَتْ سَمِعَتْ لَهَا زُهْمَاءُ	وَجَهْمُورَةَ كَجَهْمُورَةِ الْقُسُوسِ
كَأَنَّ جَاجِيًّا مِنْهَا وَعَامِيًّا	(٩) أَعَارَتْهَا النَّفْسُ يَدَا عَرُوسِ

- (١) الأثوار ٢: ٢٤٧ ، ولم ترد هذه القصيدة في الديوان .  
 (٢) الغضف : الكلاب المسترخية الآدان .  
 (٣) الضجاج : القسور والقهور .  
 (٤) الجلوس : الغليظ المرتفع والطويل من كل شيء .  
 (٥) المنفضات : المحركات في اضطراب ، والبزء : كل حلقة من سوار وترط واخلخال وما أشبهه .  
 (٦) العر : العيب والشرو والجرب .  
 (٧) أقنى : مرتفع وسط قصبه الأنف ضيق المنخرين . النهوس : الغضوض .  
 (٨) الحججاج : عظم الحاجب .  
 (٩) الجاجس : جمع جوجو وهو مجتمع رؤوس عظام الصدر .

ويلاحظ أن الشاعر أغرب في لفظه ، وسمة الغرابة في وصف  
الطرد صفة عامة عند معظم شعراء العربية ، وليست خصيصة من خصائص  
ديك الجن وحده .

٢ — عهد الملك بن عبد الرحيم الحارثي

هو أبو الوليد عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي الكلاعي<sup>(١)</sup>، لقبه — على ما يقول صاحب الزهرة — اللجلج<sup>(٢)</sup>، وينتسب إلى بني الحارث بن كعب<sup>(٣)</sup>، وهم بطن من مُذَجِج من العرب القحطانية، ومنهم بنو الدَّيَّان<sup>(٤)</sup> قبيلة عبد الملك التي سكنت بالفُلْجَة من أرض دمشق التي يطل عليها جبل عامل<sup>(٥)</sup>.

كان عبد الملك شاعراً شامياً من فحول الشعراء، عاش في صدر الدولة العباسية، ولا يعرف عنه اتصاله بأحد من أعيان أهل زمانه من خلفاء ووزراء وعمال، ويبدو أنه كان تصد بغداد في خلافة الرشيد، وأن الرشيد سجنه فيها لسبب غير معلوم، فقد ذكر أنه كتب<sup>(٦)</sup> "يعاتب أخاه وهو في حبس الرشيد :

فلو يك ما بي ، لا يكك بك ، لاغتدى  
واليت وراح اليربسي والتقرب

كما كتب إليه في قصيدة أخرى : —

فإني إذ أتيت يقيك مني  
— فلا تسبت به — علق نغيس<sup>(٧)</sup>

كما لا يعرف شيء عن بيئة الحارثي الخاصة التي ولد ونما فيها، وغاية ما تقدمه المصادر عنه قولها إنه كان له ولد شاعر اسمه الوليد<sup>(٨)</sup>، وأخ اسمه سعيد، وقد مات هذا الأخ في حياة الشاعر فرثاه بقصائد عديدة .

- (١) انظر في التعريف به: طبقات ابن المعتز: ٢٧٦، حماسة أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي، القاهرة ٢٥: ٢٤٤، الاصفهاني محمد بن داود: الزهرة، تحقيق إبراهيم السامرائي، ط ٢، مكتبة المنارة الزرقاء، الأردن ١٩٨٥، ٢: ٦٤٣، الهمداني أبو محمد الحسن، صفة جزيرة العرب، مطبعة بريل، ليدن ١٩٦٨، ١٣٠: ١٣٢.
- (٢) انظر: الزهرة ٢: ٦٤٣.
- (٣) صفة جزيرة العرب: ١٣٠.
- (٤) المصدر نفسه، وفي ابن خلدون ٤: ٤٨٧، "بنو الريان" وهو تصحيف.
- (٥) صفة جزيرة العرب: ١٣٠: ١٣٢.
- (٦) رسائل البلغاء: ٤٤٨.
- (٧) العلق: النغيس من كل شيء ما يتعلق به القلب.
- (٨) انظر: حماسة ابن الشجري ٢: ٦٥٠.

وقد وردت في ديوان البحترى عدة قطع شعرية هدجا بها البحترى شاعراً يدعى الحارثي (١)  
وكنيته أبو الحسن ، فمما قاله في إحداهما (٢) :-

أبا حَسَنِ أَنْتَ وَشَمُّكَ الْأَجْبَلُ      وَتَكُلُّ الْغَنَى وَانْتَقَالُ السُّدُولِ  
زَعَمْتَ بِأَنَّكَ لَسْتِ الدَّمَارُ      وَلَسْتَ الْعِتَارُ وَلَسْتَ الزَّلْزَلُ

وقال له في أخرى (٣) :-

يا حارثي وما العتابُ بجانبي      لك عن معاندة الصديق العاتيب (٤)  
ما إن ترألتُ تكيدُهُ من جانبٍ      أبداً ، وتسرقُ شِعْرَهُ من جانب

وقال في ثالثة ، ويبدو أنها قيلت قبل أن تفسد العلاقة بين الشاعرين فهو يماثبه فيها ولا يهجوهُ  
وقد ذكر فيها "الديان" قبيلة الشاعر الحارثي (٥) :-

أخا علة سار الإخاء فأوخَمَ عَمَّا      وَأَوْشَكَ بَاقِي الْوَدِّ أَنْ يَتَقَطَّعَا (٦)  
بدأت ويادي الظلم أظلم ، فانتَحَى      يَكُ الْقَوْلُ شَأْوَ رَدِّ مِنْكَ فَأَسْرَعَمَا  
أغارُ على ما بيننا أن ينالَ عَه      لسانُ عدوٍّ لم يجدْ فيكَ مَطْمَعَمَا  
وَأَنْتَ لِلدِّيَانِ أَنْ تَرْتَمِي بِهِ      غَضَابُ قَوَانِي الشَّعْرِ خَسَمًا وَأَرْبَعَمَا

ويستفاد من قطع البحترى الأخرى في هذا الحارثي ، غير نسبه وشاعريته وكنيته ، أنه عاصر من  
ال خلفاء الوائق والمتوكل ، وقد نعته البحترى في جل هذه القطع بأنه كان طالع نحس على كل من  
عرفهم من الوزراء ، ولذلك يمكن أن يقال ، إن تكيته له بأبي الحسن إنما كانت من باب السخرية  
والاستهزاء .

وأكبر الظن أن هذا الحارثي المذكور في شعر البحترى هو ابن الشاعر ، أما الحارثي عبس  
الملك فلا يعقل وهو المعاصر للرشيدي أن يكون معاصراً أيضاً للمتوكل ، فعبد الملك يسلك في عداد

- (١) انظر القطم: ٤٤٠ ، ٤٣٧ ، ٤٣٠ ، ٤٣٣ ، ٤١٣ ، ٤٦٦ ، ٤٢٢ في ديوان البحترى .
- (٢) القطم: ٦٦٣ .
- (٣) من القطم: ٤٠ .
- (٤) المعاندة : المعاتبة .
- (٥) القصيدة ٥١٣ .
- (٦) علة : هو علة بن جلد بن مالك ومن ولده بنو الحارث بن كعب الذين ينتسب إليهم الحارثي الشاعر . انظر : جمهرة ابن حزم : ٤١٢ - ٤١٣ .



شعرا، صدر الدولة العباسية ، بل يبدو أنه كان من مخزومي الدولتين الأموية والعباسية ، والدليل على ذلك أن البكري يقول في شرح الأمالي : هو شاعر شامي إسلامي (١) .

بينما يروي ابن المعتز أخباره عنه في الطبقات في سند من حلقتين إذ يقول (٢) : "حدثنا أبو مالك الأنصاري قال : حدثني أبو الأسود الشاعر قال : كان الحارثي ٠٠٠ في حين أن دأب ابن المعتز في الحديث عن الشعراء القريبين العهد منه أن يقول عنهم : "حدثني فلان قال "أويقـسول عن أحدهم : "وهو اليوم شاعر أهل زمانه " . وإذا كان ذلك كذلك فإن عبد الملك يكون قد عاش في زمن سبب زمن ابن المعتز الذي توفي سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٨م ، والذي أنجز كتابه الطبقات في حدود سنة ٢٨٠هـ / ٨٩٢م (٣) .

وقد أسبغ ابن المعتز على الحارثي صفات تدل كلها على تفوق هذا الشاعر، وإن كان ما تبقى من شعره قليل ، فهو يقول مثلاً (٤) : "كان الحارثي شاعراً مفلحاً مفوهاً مقتدرًا مطبوعاً ٠٠٠٠ ولمّا قال قصيدته المعروفة العجيبة انتقاد الشعراء ، وأذعنوا ، وهو أحد من نسخ شعره بما الذهب ، والقصيدة المعروفة هي التي مطلعها :— (٥)

عَا أَنذَا يَا ظَالِي سَاعِي  
مُحْتَضِرٌ بَرِّي إِلَى الدَاعِي

وقال في أعقاب ذلك : "ولمّري إنه لكلام مع فصاحته وقوته يقدر من يسمعه أنه سيأتي بعثله ، فإذا راحه وجده أبعد من الثريا ، وكذلك الشعر المتناعي الذي ليس قبله في الجودة غاية " . وتقال في موعى آخر (٦) : "ومن جيد شعره ، وإن كان كل شعره جيّداً " . وقال في أعقاب بيت راقه (٧) : "هذا البيت سجدة للشعراء ، ولولم يكن في كتابنا إلا شعر الحارثي لكان جليلاً " .

وعلى الرغم من هذا الشطط في أحكام ابن المعتز ، فإنه يظل فيما مؤشرات دالة على جودة شعر هذا الشاعر ، وعلى المقدار الكبير الذي فقد من شعره ، فغاية ما وقفنا عليه منه هو عينيته

- (١) انظر: سبط اللائسي ، ١ : ٥٩٥ .
- (٢) طبقات ابن المعتز : ٢٧٦ .
- (٣) انظر مقدمة التحقيق : ١٣ وما بعدها .
- (٤) طبقات ابن المعتز : ٢٧٦ .
- (٥) المصدر نفسه : ٢٧٧ .
- (٦) المصدر نفسه : ٢٨٠ .
- (٧) المصدر نفسه : ٢٨٠ .

المطولة التي عارض بها عينية متم بن نويرة المشهورة ، ثم بعض مقطعات أخرى في الرثاء والغزل والفخر ، وهذا فضلاً عن القصيدة التي منها البيت المشهور ———— : —

إذا المرء لم يُدْنَسْ من اللؤمِ عَرُضُهُ      فكلُّ رداءٍ يَرْتَدِيهِ جِي———

وهي قصيدة تعزى له في بعض المصادر ، وتعزى للسموأل بن عاديا اليهودي في بعضها الآخر ، مما سيتبين في دراسة هذه القصيدة ———— .

وقد تضافرت عوامل عديدة أدت إلى ضياع شعر الحارثي ، وأولها أن شعره كان مشهوراً شائعاً بين الناس حتى أيام ابن المعتز ، فاقترصر في كتابه الطبقات على تدوين بعض أبيات مسن قصائد الشاعر ، ووجهه في ذلك ٠٠٠ كما يقول (١) : " وإنما نثبت ٠٠٠ ما لم يكن موجوداً عند أكثر الناس ، وأما الموجود المشهور فلا نورد ما طال منه ، وإنما نقتصر من كل قصيدة على هذه الأبيات اليسيرة ، بل ربما اقتصرنا على ذكر القصيدة وبيت واحد منها فقط ٠٠٠ ، وإنما سمينا أهمها قصائد " . وثانيها أن غرابة شعر الحارثي أدت في فترة لاحقة إلى عدم إقبال الناس عليه ، فضاع ما كان محفوظاً بالمشافهة .

ويتسم شعر الحارثي كله ، ما كان منه في فخر أو غزل أو رثاء ، بميسم الغرابة في اللفظ ، والبداوة في الصورة ، ولعل ذلك راجع إلى شعوره بالاعتراب في الزمان ، فظل لذلك مشدوداً إلى البادين من شعراء العصرين الجاهلي والأموي ، غربياً عن عصر بني العباس الذي عاش فيه . وهذا ما يفسر عدم اقتران اسمه بأسماء أي من ولادة بني العباس أو خلفائهم (٢) .

ويتبين من القدر اليسير الذي وصل من شعر الحارثي أنه نظم في الرثاء والغزل والفخر . وله تفاريق أخرى في وصف الأطلال والفراب وشهر رمضان (٣) .

والقيم التي يعرضها فخر الحارثي قيم بدوية خالصة وهي النجدة وحماية ذمار القبيلة والثبات في الحرب ساعة اللقاء ، واليقظة الدائمة والقوة ، والقدرة على النعم والضر ( بحسب متطلبات الموقف ) ، يقول (٤) في ذلك في القصيدة التي أعجبت ابن المعتز فقال فيها إنها قصيدة معروفة

(١) طبقات ابن المعتز : ٢٧٨ .

(٢) انظر : الشعراء الشاميون : ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٣) انظر : الزمخشري : ربيع الأبرار ، تحقيق سليم النعيمي ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٨٢ .

٤ : ٤٤٨ ، أبو هلال العسكري : ديوان المعاني : ٢ : ٢٣٤ .

(٤) ابن المعتز : ٢٧٦ .

عجبية أذعن لها الشعراء وانقادوا :-

(١)	مُحْتَضِرٌ بَرِّيٌّ إِلَى الدَاعِي	ها أنذا يا طالبي ساعسي
	ويُحَدِّدُ الشَّاهِدُ إِيْقَاعِي	أُحْيِي حَيَّيَّ مَنْ غَابَ عَنْ مَذْجِي
(٢)	رُتِّي فِيهَا كُلُّ هَلْوَاعٍ	لا تَهْلِعُ فِي الحَرْبِ هَلْوَاعٌ إِذَا
	ضُرَّارِ أَقْسَامٍ وَنَفَّاعٍ	مُسْتَحْمِدِ المِيرَةِ ذِي عَمَّةِ
(٣)	هَيْجَ بِهِ هَيْجَ بِنُصَّاعٍ	لا تُؤَخِّذُ الغِرَّةَ مِنْهُ وَإِنْ

ويقول في أخرى تجرى مجرى سابقتهما في الإلحاح على الافتخار بقيم بدوية محببة من كرم وغفلة  
وشراف (٤) :-

	لِشَبَّعٍ وَالجِيرَانِ يَمْشُونَ جُوعِيَا	ولا يَسْتَخِصُّ القِدْرَ مِنْ دُونِ جَارِهِ
(٥)	وَأُخْرَى لِمَنْ عَادَى بِهَا السَّمَّ نَاقِمَا	له رَاحَةٌ فِيهَا الحَبَا لِمَنْ يَتَّقِيهِ
	وَنَزَّهَةٌ عَنْ أَنْ يُقَالَ فَيُسْمَعَا	أَجَلٌ عَنِ العُورِ المَوَاجِرِ سَمْعِهِ
	سَمَا طَالِبًا مِنْ تِلْكَ أَسْنَى وَأَرْفَعَا	إِذَا نَالَ مِنْ أَقْصَى ذُرَا المَجْدِ غَايَةَ

وأما القصيدة التي كثر الاختلاف فيها فهي قصيدة تتميز من حيث الشكل بالسهولة والسلاسة،  
فليس فيها جفاوة البداوة التي ألفت في شعر الحارثي ، فهي أدخل لذلك في شعر شعراء الحواضر  
منها في شعر شعراء البوادي ، وهي من حيث المضمون تعلي من قيم أهل البوادي كالكرم والقوة  
على قلة العدد ، والعزة ، والامتداد ٠٠٠٠٠ الخ ، يقول فيها :-

تُعَيِّرُنَا أَنَا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا	فَقُلْتُ لَهَا إِنْ الكَرَامَ قَلِيلٌ
وَمَا قَلٌّ مَنْ كَانَتْ بَقَايَاهُ يَثْلُنَا	شَبَابٌ تَسَامَى لِلْعُلَا وَكُهُولٌ
وَمَا ضَرْنَا أَنَا قَلِيلٌ وَجَارُنَا	عَزِيزٌ ، وَجَارُ الأَكْثَرِينَ ذَلِيلٌ

- (١) البز: السلاح ، وفي الأصل "بري" ولا معنى لها في هذا السياق .  
(٢) الهلج: الجزء هو هليع وهلوع وهيلواع ، الهاع: الصائح جزعا "رقيق" شد بالرياق وهو الوثاق .  
(٣) المنصاع: المنفلت الراجع سريعاً .  
(٤) ابن المعتز: ٢٧٩ - ٢٨٠ .  
(٥) الحبا: ما يحبوه الرجل صاحبه ويكرمه به .

لنا جَبَلٌ يَحْتَلُهُ مَنْ نُجِيحُهُ  
رسا أصلُهُ نَحْتُ الثَّرَى وَسَمَا بِيهِ  
مَنْعٌ يَرِدُ الطَّرْفَ وَهُوَ كَلْبِيٌّ  
إِلَى النَّجْمِ فَرَعٌ لَا يُنَالُ طَوِيلٌ  
وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِيسِهِ  
وَلَا طُلٌّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قَتِيلٌ

وقد اختلف القدماء في نسبة هذه القصيدة إلى قائلها ، فنسبها فريق إلى السموأل بن عادي ، ونسبها آخرون إلى عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي ، ونسبها فريق ثالث إلى غيرهما ، فكان هؤلاء وأولئك يقولون مثلاً (١) : "قال السموأل بن عادي" أو عبد الرحمن القينسي أو عبد الملك الحارثي المعروف بالجلجلاج . . . " أو يقولون (٢) : "قال عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي" ويقال إنها للسموأل بن عادي . . . وانفرد ابن طباطبا الملوحي بنسبة هذه القصيدة إلى عبد الملك الحارثي عندما أورد منها أربعة عشر بيتاً اتخذها - فيما اتخذ - مثلاً على الأشعار المحكمة المتعنتة المستوفاة المعاني ، الحسنة الرصف ، السلسلة الألفاظ ، دون استكراه في قوائمه - ولا تكلف في معانيها (٣) .

ومن وقف على هذا المشكل في نسبة هذه القصيدة إلى قائلها من المحدثين خليل مردم بك في كتابه "الشعراء الشاميون" ، فحاول أن يثبت أن هذه القصيدة لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي ، واعتمد في ذلك على دليلين هما : -

١- قول الشاعر في هذه القصيدة :  
وما مات منا سيّدٌ حتفَ أنفيسه  
ولا طُلٌّ منا حيثُ كان قتيلاً

فقال (٤) : "قال العزروقي : "وقوله : مات حتف أنفه . . . يقال : إن أول من تكلم به

- (١) الزهراء ٢ : ٦٤٣ ، وانظر : سبط اللاتي ١ : ٥٩٥ ، الحماسة البصرية ١ : ٤٥ ، العبيدي ، محمد بن عبد الرحمن بن عبد المجيد : التذكرة السعدية في الأشعار العربية ، تحقيق عبد الله الجبوري ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، تونس : ٣٦ .
- (٢) عز الدين الخزرجي : شرح المصنوع به على غير أهله ، شرح عبيد الله الكافي العبيدي ، مكتبة دار البيان ، بغداد ، ودار صعب ، بيروت : ٣٧ ، وانظر : الصولي : أخبار أبي تمام : ١٤٠ ، حماسة أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ١ : ٥٦٠ ، بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ترجمة عبد الحلیم النجار ، ط ٢ ، دار المعارف بمصر ، ١ : ١٢١ ، ١٢٢ .
- (٣) انظر : عيار الشعر ، تحقيق طه الحاجري ومحمد زغلول سلام ، المكتبة التجارية ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ٦٦ .
- (٤) خليل مردم بك : الشعراء الشاميون ، ٢٨٧ .

النبي - صلى الله عليه وسلم . . . فلا يمكن والحالة هذه أن يقال هذا فـ  
الجاهلية . . . . .

٢- قول الشاعر فيها : -

فإن بني الديان قُطِبَ لِقَوْمِهِم  
تدور رحاهم حولها وتجسول

نقال (\*) : "وبنو الديان أجداد عبد الملك الحارثي ."

غير أن أدنى نظري أسلوب هذه القصيدة مقارناً بأسلوب الحارثي في تصائده ومقطعاته التي درست والتي لم تدرس يبين عن فرق كبير بين الأسلوبين ، فأسلوب هذه القصيدة سهل قريب من أساليب أهل الحضرة ، وأسلوب الحارثي بدوي فيه جفاوة الأعراب وقساوتهم . ثم إن الحكم على عبارة " مات حتف أمته " بأنها من أقوال الرسول عليه السلام ، وأنه لم يسبق أن نطق بها أحد من أهل الجاهلية ، حكم لا يستند إلى دليل . وفي القصيدة ، فضلاً عن ذلك ، مؤشرات راجحة تدل على الصورة العامة للأمن المنتزع الذي كان شائعاً في العصر الجاهلي ، وأبين ما يوضح هذه الصورة من اضطراب حبل الأمن والاستقرار هو قوله : -

وما غرنا أنا قليل وجارنا  
عزيز ، وجار الأكرين ذليل

وعندي أن هذه القصيدة من نظم شاعر جاهلي ، ولو كانت من نظم الحارثي لأثبت ابن المعتز منها أبياتاً كدأبه في إثبات بعض أبيات من قصائد الحارثي الأخرى المشهورة .

(\*) خليل مردم بك : الشعراء الشاميون : ٢٨٢ .

٣ - محمد بن يزيد الحِصْنِي السُّلَمِي (١)

لا تقدم مصادر الدراسة الأدبية المعتمدة معلومات كافية عن حياة هذا الشاعر ، فليس فيها ذكر لمكان ولادته وتاريخها ، ولا ذكر لتفاصيل أخرى عن حياته وأسرته ومماته ، وغاية ما تورده عنه قولها إنه من ولد بشر بن مروان بن الحكم ، أو من ولد مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، ولذلك قيل فيه حيناً إنه محمد بن يزيد البشري الأموي ، وحيناً آخر إنه محمد بن يزيد المسلمي ، وشهرته بالمسلمي أشيع وأكثر دوراناً في كتب التراجم . وأما تلقيه بالحصني فهو نسبة إلى حصن كان مسلمة ابن عبد الملك بناء بالجزيرة بين رأس عين والرقبة ، وتوارثه أبناؤه وأحفاده من بعده (٢) ، وكتبته أبو الأصمغ كما ذكر ذلك المرزبانسي (٣) .

عاصر المسلمي من الخلفاء العباسيين المأمون والمعتمد والواثق والمتوكل ، واتصل بعدد من أعيان أعمل زمانه منهم عبد الله بن طاهر ، والحسن بن وعب (٤) ، وعيسى بن فرخان شاه (٥) ، وعثمان بن الهيثم الغنوي الذي كان المعتمد ولده ديار مضمر (٦) .

- (١) انظر في التعريف به : طبقات الشعراء المحدثين : ٢٩٩-٣٠١ ، الأغانى ١٢ : ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، معجم الشعراء : ٤٤٥ (بتصحيح كركنو) ، القاسمي التنوخي : الفرج بعد الشدة ، تحقيق عبود الشالجي ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ١٥١ ، ٣٢٩-٣٥٣ ، صورة تاريخ مدينة دمشق ١٦ : ١٣١ ، الوافي بالوفيات ٥ : ٢١٥ ، النجوم الزاهرة ٢ : ١٩٦ .
- (٢) انظر التعريف بهذا الحصن : معجم البلدان (حصن مسلمة) .
- (٣) معجم الشعراء : ٢٧٥ .
- (٤) الحسن بن وهب بن سعيد بن عمرو كان كاتباً شاعراً ، عاصر أبا تمام والبحتري ، استكتبه الخلفاء ، وكان قد تولى الخراج في بعض نواحي الشام والجزيرة ، مدحه أبو تمام والبحتري ، ولعامات في حدود سنة ٢٥٠هـ / ٨٦٥م رثاه البحتري . انظر : تهذيب ابن عساكر ٤ : ٢٥٥ .
- (٥) عيسى بن فرخان شاه كاتب من كتاب الدولة العباسية ، ولي في حياته ديوان الضياع فسي عهد المتوكل ، والخراج في عهد المستعين ، وولي مصرفي عهد المعتز . انظر في التعريف به : الطبري ٩ : ٢١٦ ، ٢٦٤ ، ٢٤٤ ، ٢٤٩ ، الفرج بعد الشدة ١ : ٢٩٩ .
- (٦) انظر : معجم الشعراء : ٢٥٧ . (ترجمة عثمان بن الهيثم الغنوي) .

ويبدو أن الشاعر لم يتمل بغير المتوكل من الخلفاء العباسيين ، فقد ذكر العزباني أن له فيه مرثي . أما صلته بعبد الله بن طاهر فقد ابتدأت بخصوصة افتعلها المسلمي عندما بلغه افتخار عبد الله بن طاهر بأجداده من الفرس ويقتل أبيه طاهر بن الحسين للأُميين<sup>(١)</sup> ، وكان ابن طاهر قد قال في افتخاره :-

وَأبي من لا كَفَّاءَ لهُ      مَن يُساميَ مَجْدَهُ ؟ قُولُوا  
طَعَنَ المَخْلُوعَ كُلَّكَ لهُ      وحواليه المغاويل<sup>(٢)</sup>

فتمدى له المسلمي بقصيدة هجاء فيها عبد الله بن طاهر وأجداده من الفرس ويبدو واضحاً أن تصدي المسلمي لعبد الله بن طاهر كان ضرباً من الانتصار للعنصر العربي مثلاً في الأُميين ، وانتقاصاً من التوجه الذي سار عليه المأمون في إعلاء من شأن الفرس على حساب العنصر العربي ، فقد روي عنه أنه قال عن سبب تعرضه لعبد الله بن طاهر<sup>(٣)</sup> ، « كنت لما بلانتي القصيدة امتعضت للعريسة » وأنفت أن يفخر عليها رجل من العجم ، لأنه قتل ملكاً من ملوكنا بسيف أخيه ، لا بسيفه ، فيفخر عليها هذا الفخر . . . فردت على قصيدته . . . . .

ولما سار عبد الله بن طاهر إلى مصر والياً عليها من قبل المأمون في سنة ٤٢١٠ / ٨٢٥ م ، مر في طريقه بحصن مسلمة ، والتقى فيه محمد بن يزيد الذي أكرم وفادة الأمير إليه ، واعتذر عن هجائه القديم له . فعفا عنه ابن طاهر ، وأسبغ عليه ، ورغب في صحبته إياه إلى مصر<sup>(٤)</sup> .

ويجدر الوقوف هنا عند قضية عفو ابن طاهر عن الحصني ، فبينما ردت معظم المصادر هذا العفو إلى سعة حلم ابن طاهر وتجاوزه عن سيئات المسيئين ، ورد في رواية أثبتنا القاضي التنوخي أن ابن طاهر قصد المسلمي وفي نيته أن يحصل منه على معلومات تتعلق بنصر بن شبث العقيلسي الخارج على المأمون بنواحي الجزيرة ، فأخبره الحصني بما حضره<sup>(٥)</sup> . ويبدو إذن أن عفو ابن طاهر عن المسلمي كان تقديراً منه لهذه الخدمة التي قدمها المسلمي لهُ .

- (١) كان طاهر بن الحسين من كبار الوزراء والقواد ، وهو الذي قاد جيش المأمون إلى بغداد ، ففتحها وقتل الأُميين في سنة ٤١٨ / ٨١٣ م ، انظر: وفيات الأعيان ٢ : ٥١٧ - ٥٢٣ .
- (٢) المخلوع هو الخليفة الأُميين ، المغاويل : كذا في الفرج بعد الشدة ١ : ٣٤٣ ، وفي طبقات ابن المعتز : المقاويل .
- (٣) الفرج بعد الشدة ١ : ٣٤٣ ، النجوم الزاهرة ٢ : ١٩٦ .
- (٤) انظر: الأغاني ١٢ : ١٠٥ - ١٠٦ .
- (٥) انظر: الفرج بعد الشدة ١ : ٣٤٨ .

وأما صلة المسلمي بالحسن بن وهب فقد جاءت من تولي الحسن للخراج في بعض نواحي الشام<sup>(١)</sup>، فمدحه المسلمي طمعاً في إسقاط الخراج عنه . في حين نشأت صلته بعيسى بن قرخسان شاه بعد مقدم المسلمي إلى سر من رأى وإقامته فيها دهرًا ، في رواية<sup>(٢)</sup> ، ومبادرة من عيسى نفسه في أخرى ، إذ يروي عنه عيسى أنه قال<sup>(٣)</sup> : " لما وليت ديار مضر ، لم يزل وجوهها يصفون لي محمد ابن يزيد الأموي الحصني بالفضل . . . فلما خرجت لتصفح كور عملي وأحوال الرعية والعمال بالنواحي ، وردت الكورة التي فيها حصن محمد بن يزيد في ناحية منها ، فخرج مستقبلاً لي ، وراغباً إليّ نسي النزول عليه . . . وقد أكرم المسلمي ضيفه إكراماً كانت مكافأته أن أسقط عنه جميع خراج تلك السنة<sup>(٤)</sup> .

وأما صلته بالخنوي فقد كانت صلة صداقة ، إذ كان محمد بن يزيد المسلمي صديقاً منادماً للمهيم الخنوي يوم كان هذا والياً على ديار مضر في زمن المعتصم<sup>(٥)</sup> .

ويستفاد من الأخبار اليسيرة التي وردت في المصادر عن المسلمي أنه ظل الشطر الأكبر من عمره في بلده حصن مسلمة ، وأنه لم يغادرها إلا مرتين كانت الأولى في صحبته لعبد الله بن طامر في خروجه إلى مصر للقضاء على حركة عبّيد الله بن السري الخراج في مصر في إبان خلافة المأمون ، ولكنه لم يلبث في مصر طويلاً ، إذ عندما رجع ابن طامر إلى الشام رجع الشاعر معه ، ولما قصد ابن طامر العراق ، انصرف عنه المسلمي إلى بلده<sup>(٦)</sup> ، في حين كانت الثانية في زمن المتوكل إذ قدم سر من رأى ، وأقام بها زمناً لم تحدده المصادر<sup>(٧)</sup> .

وقد نظم المسلمي الشعر في أغراض عديدة ، غير أن الكثير من أشعاره لم يصلنا من ذلك مدائح في عبد الله بن طامر ، ومراثيه في المتوكل ، فقد ذكر أنه بعد أن غنا عبد الله بن طامر

- 
- (١) انظر: معجم الشعراء : ٤٤٥ ، الوافي بالوفيات ٥ : ٢١٥ .
  - (٢) المصدران السابقان .
  - (٣) في الفرج بعد الشدة ١ : ٣٣٩ - ٣٤٠ " لما وليت ديار مصر " ولعل الصواب ديار مضر .
  - (٤) المصدر نفسه ١ : ٣٥٠ .
  - (٥) انظر: معجم الشعراء : ٢٥٧ .
  - (٦) انظر: الأغاني ١٢ : ١٠٥ - ١٠٦ .
  - (٧) انظر: معجم الشعراء : ٤٤٥ ، الوافي بالوفيات ٥ : ٢١٥ .



- ٢٩٤ -  
 عنه بسبب مناقضته إياه ، وهدجائه لأجداده من الفرس ، اختص به ، ونظم فيه مدائح كثيرة (١) ،  
 وأما مرثيته التي نظمها في المتوكل - على ما يقول المرزباني (٢) ، فلم تقع على شي منها ، وعلى الرغم  
 من هذا كله فقد توافر لنا مقدار صالح من شعنته في أغراض شعريّة  
 عدة ، ودراسة هذه الأشعار كافية للحكم على منزلته بين شعراء الشام في تلك الحقبة ، وأبرز الأغراض  
 التي نظم فيها المسلمي هي الهجاء ، والعتاب ، والمرثية ، ووصف النجوم .

#### ١ - الهجاء والعتاب :-

تعتبر قصيدة المسلمي في هجاء عبد الله بن طاهر وأجداده من حيث الشكل نقيضة مسن  
 النقائض التي غادت إليها الحياة في بلاد الشام بفعل الفتن الداخلية (٣) ، والصراع بين العرب  
 والفرس ، كما تعتبر من حيث المضمون نمطاً من أنماط الصراع السياسي بين حزب الأمين الذي حاول  
 أن يتألف الأنصار من العناصر العربية وحزب المأمون الذي عول على العناصر الفارسية في محاربة  
 أخيه الأمين . وقد قال صاحب الأغاني عن هذه القصيدة إنها قصيدة طويلة ، غير أنه لم يورد منها  
 إلا بضعة عشر بيتاً (٤) ، وهي في " الفرج بعد الشدة " وفي " العقد " واحد وخمسون  
 بيتاً (٥) .

أما قصيدة عبد الله بن طاهر التي ناقضها المسلمي فهي اثنتان وثلاثون بيتاً موزعة فسي  
 محورين ، أولهما مجموعة من الروايات الفكرية والحكم ، وثانيهما فخر بأجداده من الفرس ، وبخاصة

- 
- (١) انظر : طبقات ابن المعتز : ٣٠١ ، النجوم الزاهرة ٢ : ١٩٦ - ٢٠٠ .  
 (٢) انظر : معجم الشعراء : ٤٤٥ .  
 (٣) انظر أبياتا من نقيضة محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمي لقصيدة افتخر بها أبو  
 الأصمغ الحصني بأبيه المروانيين : معجم الشعراء : ٤١٩ ، ومعارضة الهيثم  
 الخنوي لقصيدة أخرى للحصني : معجم الشعراء : ٢٥٧ .  
 (٤) الأغاني ١٢ : ١٠٤ .  
 (٥) الفرج بعد الشدة ١ : ٣٤٤ - ٣٤٧ ، ابن عبد ربه : العقد ، تحقيق محمد سعيد  
 العريان ، دار الفكر ١٩٤٠ : ٢٦ ، ٥٨ - ٥٩ . (والبيتان اللذان قيل الأخير في الفرج  
 بعد الشدة تكرر للبيتين ٢٨ ، ٢٩ فيه نفسهما) .

من كانت له يد في الدعوة العباسية ، ثم فخر بأبيه ووضيعة في توطيد أركان حكم المأمون بالقضاء على الأميين (١) .

أما قصيدة المسلمي فإن جزءاً مما الأول غزل يقوم على بيان مدى إخلاصه في حبه ، لأن الوفاء مذهبه في الحياة ، تبع ذلك تصوير مشيد "يوم الوداع" الذي خصمه الشاعر للتدقيق في وصف محاسن صاحبته حين بكت حرقاً على صاحبها الذي تنارقه كرهاً . ويتحول الشاعر بعد ذلك في جزء القصيدة الثاني ، ويلا أدنى تمهيد إلى ابن أبي طاهر فيبخره بنسبه ، ويذري بأجداده مذكراً بمجوسيتهم ، وينقش على عبد الله قوله في أحد أجداده الذي كان أحد دعاة الدعوة العباسية : -

مُصَعَّبٌ جَدِّي نَقِيبٌ بِنَسِي      هاشمٍ ، والأمرُ مجهُـول

وقوله في الجند الخراسانيين الذين كانوا تحت إمرة أبيه طاهر : -

وَعَبُّوا لِه أَنفُسَهُمْ " فقال المسلمي : -

يا ابنَ بيتِ النارِ موقدَ هـ\_\_\_\_\_      ما لحاذيَه سرَويـ\_\_\_\_\_ (٢)

(١) وما جاء فيها قوله : (الفرح بعد الشدة ١ : ٣٤١-٣٤٢ ، العقد ٢ : ٥٧-٦٨) : -

مُدِينِ الْأَعْضَاءِ مَوْعِدِ مَوْعِدِ  
وَمَدِينِ الْبَيْضِ فِي تَوَعُّدِ  
وَإِخْوِ الْوَجْهِينِ حَيْثُ رَمَيْتِ  
مِنْ بَنَاتِ الرُّومِ لِي سَكَّيْنِ  
عَتِيبَتِي ، وَالْعَتِيبُ مِنْ سَكَّيْنِ  
أَقْصَرِي عَمَّا لَهْجَتِ بِيْتِهِ  
أَنَا مَنْ تُعْرِفِينَ نَسَبَتَهُ  
مُصَعَّبٌ جَدِّي نَقِيبٌ بِنَسِي  
وَحَسِينِ رَأْسِ دَعْوَتِهِمْ  
سَلَعُ بِهِمْ تُنْبِيكَ نَجْدَتِهِمْ  
وَأَبِي مِنْ لَا كُفَاءَ لِنَدْوِهِ  
سَلُ بِهِ وَالْخَيْلُ سَاعِمَتُهُ  
طَعَنَ الْمَخْلُوعَ كَلْكَلَهُ  
فَتَوَى وَالسُّتْرُوبُ مَضْجَعُهُ  
قَادَ جَيْشًا نَحْوَ قَاتَلِيهِ  
وَعَبُّوا لِنَسَبِهِ أَنْفُسَهُمْ

(٢) الحاذان : ما وقع عليه الذنب من أدبار الفخذين في الدابة ، والمراد الفخذان .

ثم سخر من طامر بن الحسين ، فبينما قال عبد الله في أبيه مفتخرًا : -

وأبي من لا كفاً له . من يسامي مجده ؟ قولوا  
سل به والخيل سارمة حوله جسر أباييل

قال المسلمي طاعناً في أبيه وفي أجداده الأولين : -

مَنْ حُسَيْنٍ مِنْ أَبوكَ وَمَسِينِ  
وَزُرَيْقٍ إِذْ تُخَلِّقُ لَه  
تلك دعوى لا نناقشها  
أُسْرَةٌ لَيْسَتْ مَبَارَكَةٌ  
ما جرى في عود أئلكم  
قد حث فيه أسافل  
مُضْعَبٌ غَالَتْهُمُ غُـ  
نَسَبٌ عَمِيرٌ مَجْهُـ  
وَأَبُـواتٌ مَرَادِيـ  
غَيْرُهَا الشُّمُّ الْبِهَالِيـ  
ما مجدي فعمودم دخل  
وأعاليه مجاميعه

ثم بينما انتخر عبد الله بأيادي أبيه على المأمون يقتل الأمين ، عد المسلمي هذا الفعل نقيصة ،  
ويشتر القاتل بالقتل ، إذ قال عبد الله في تلك الحادثة : -

طعن المخلوع كل كله  
فشوى والترب مضجعه  
وحواليه المغاوي  
غال عنه ملكه غـ

فقال المسلمي : -

قَاتِلُ الْمَخْلُوعِ مُقْتُلُ  
وَمَدِينُ الْقَتْلِ مُرْتَبِنُ  
ودم القاتل مطلق  
بدماء القوم مقتول

ثم قال بعد في إشارة فيها غمز بالمأمون الذي مكن الفرس من قتل أخيه بسيفه ، مسقطاً في الوقت  
نفسه عن طامر جدارته في فعل ما فعل : -

بأخي المخلوع طلست يدا  
وإنعماه السني سلفست  
لم يكن في باعها طـ  
فعلت تلك الأنعام  
جالست الخيل الأباييل  
وبراع غير ذي شفـ

وقد وزع الشاعر في ثنايا هذا الجزء مجموعة من الحكم ذات الارتباط الوثيق بما كان ينزع عنه من سهام حقه على عبد الله وأبيه وأجداده من الفرس الذين قوضوا حكم الأمويين من قبله ، والأميين من بعده ، ومن ذلك قوله في موضع : -

قد يَخُونُ الرَّمْحُ عَامِلُهُ  
وَيُنَالُ الوَثِيرَ طَالِبُهُ  
سَارًا أَوْ حَلًّا فَعَتَبْتَهُمْ  
وَسِنَانُ الرَّمْحِ مَضْقُـوْلُ  
بَعْدَمَا تَسْلُو المَآكِيْلُ  
بِالتي يُكْبِرُ لَهَا الفَيْلُ

وقوله في موضع آخر : -

إِنَّ لِلْإِصْمَادِ مُنْحَـدَرًا  
وَلِرَيْبِ الدَّهْرِ عَنِّي رَضِي  
فِيهِ لِلهَيَاوِي أَعْيَـوِيْلُ  
بِالرَّدي عَمَلٍ وَتَنِيْلُ

وإن هذا الإيمان باحتمالية التفسير إذ تملق على عاتق القدر مظهر استشعار باليأس ولكن خيطاً من نور الأمل - على ضعفه - يظل بارقاً باحتمال سقوط عبد الله بن طاهر وممن وراءه من الفرس .

وعلى وجه الإجمال فإن المسلمي في هذه النقيضة لم يثارق النسيج العام في بناء النقائض في الشمر العربي ، ولم يطورها إلى لون من التصوير ، بل غلبت عليها النزعة العقلية ، وخلت من النخر بالنفس وبالقبيلة ، وفيها تيار خفي يموه توتراً إلى خليفة عربي لا ينماع للفرس . وكان المسلمي قد أفصح عن هذا التيار في قصيدة أخرى ناقض فيها طاهر بن الحسين نفسه عندما انتخر هذا في قصيدة بقتله للأميين إذ قال (\*) : -

قَتَلْتُ أَمِيرَ المَوَّسِيينَ وَإِنَّمَا  
وَأَصْبَحْتُ فِي دَارِ مُقِيمًا كَمَا تَرَى  
وَقَدْ بَقِيْتُ فِي أُمَّ رَأْسِي فَتَكَـةً  
بَقِيْتُ عَنَاءً بَعْدَهُ لِلخَلَائِفِ  
كَأَنِّي فِيهَا مِنْ مُلُوكِ الطَوَائِفِ  
فَمَا لِرُشْدِي أَوْ لِرَأْيِي مُخَالِفِ

فسرد عليه المسلمي ساخرًا متهددًا : -

(\*) العتق د : ٥٧ .

وَمَنْ أَنْتَ أَوْ مَا أَنْتَ يَا فُتَّحَ قَرْقَرٍ  
 فنحن بأيدينا هرقنا دماءنا  
 ستعلم ما تجني عليك وما جننت  
 وقد بقيت في أم رأسك فتكفة  
 (١) إذا أنت منا لم تعلق بكانيف  
 (٢) كقول تهادي الموت عند التراحف  
 يداك فلا تفخر بقتل الخلايف  
 سنخرجها منه بأسمر راعيف

إن إحساس الشاعر بالجرم الذي ارتكبه المأمون كبير ، وإن الأداة المنفذة - طاهر - لتلك الجريمة ستلقى القتل ، بل إن الإحساس بالذنب تضخم لدى الشاعر حتى عد ما حدث للأمين مسوء ولياسة العرب جميعاً ، وعم ، لذلك ، مطالبون جميعاً أيضاً بأخذ القصاص من قاتله : " فنحن بأيدينا هرقنا دماءنا " ولذا " سنخرجها بأسمر راعيف " .

ولمحمد بن يزيد المسلمي قصيدة في عتاب عيسى بن فرخان شاء ، وهي تجري على منوال قصيدته في هجاء عبد الله بن طاهر في البعد عن الغرابة ، وفي خفة موسيقاها . وقد أقامها بذلك على التناظر المعجب بين موقفه من صديقه وموقف هذا الصديق السليبي منه ، يقول (٣) : -

أبا موسى سقى أرضاً  
 وزاد الله في قدر  
 لقد كنت أرجي بك  
 فقد أصبحت من أوك  
 أترض لي بأن أرضي  
 وقد أنييت ما أنييت  
 مواعيد كما أخبت  
 كدان مسبل القطر  
 ك ما أخلت من قدر  
 لما أخشى من الدهر  
 د أسبابي إلى الفجر  
 بتصيرك في أمري  
 ك في شكرك من عمري  
 سرب الميمم القدر

واختتم قصيدته بعتاب لاذع إذ بلغ اليأس فيه كل مبلغ من إمكان صلاح صاحبه بالعطف عليه : -

لعل الله أن يضن  
 فالتقاك بلا شكر  
 ع لي من حيث لا أدري  
 وتلقاني بلا عذر

- (١) الفقع من الكماة أردأ أنواعها ، وفي المثل " فقع قرقر " يضرب للدليل . والقرقر من الأرض المنخفضة اللينة . والكانيف : الحامسي .  
 (٢) الثول : جماعة النحل أو الدبر ولا واحد له من لفظه ، وقيل هو : الذكر من النحل .  
 (٣) العمدة ٢ : ١٥٩ .

ولا أرجوك في الحالين  
ن لا العسر ولا اليسر

وعلى الرغم من ندرة ما في القصيدتين من ألوان التصوير المثير فإن القصيدة الثانية بخاصة تعالج عملاً إنسانياً عاماً هو تنكر الأصدقاء لأصدقائهم بأسلوب سهل سائغ، يوصي، إلى شاعريته أصيلة .

## ٢- المراثي :-

كان قد ورد في الحديث عن الرثاء في الشعر الشامي أبيات من مرثية محمد بن يزيد الحنصلي في ابنه قطام . والقصيدة نمط فريد من الحزن الأبوي الصادق ، والتصوير الدقيق لفجيعة أبويين يموت لهما طفلهما الذي كانا يحلمان بأن يريا فيه امتداد عما في الحياة ، وفيها أيضاً استسلام عاجز عن مجاهدة الموت الذي يكدر صفو الحياة ، ويتخطف أمانى الناس وأحلامهم ، وقد انتظمت هذه الأفكار في خيط واحد من الوجد والهتم . وظل الشاعر حريصاً على اختيار الوزن الموسيقي الخفيف، كأن يرى فيه مواهته لنشيج نفس تفترت حزناً وأسى ، يقول (١) :-

وَجَدَّتْ أُمُّ قَطَّامٍ	مَنْ وَجَدَنِي بِقَطَّامٍ
فَنَسِيَ تَكْلِسِي تَخْمِشُ الْـ	وَجَّهَ بَعَثُولِي وَالتَّيْدَامِ (٢)
وَكَلَانَا مَوْجَمُ الْحُرِّ	قِيَّةٍ مِنْهُ نَهَاضُ الْعِظَامِ (٣)
كَلِمَا أُنْفِغْتُ سَجْجُولا	عَارِضْتُهُ بِسَجْجَا (٤)
لَوْضِي ، الْوَجْهَ غَطْرِي	فِ غَطَارِي فِي كَسْرَامِ (٥)
لِلذَّرِيِّ نَمِ الذَّرِيِّ مَسْنِ	أَنْ مِ رَوَانَ الْهُمَامِ
فَوْخٌ بِبَارِئِي صَيْوِي	لِلدَّلِيَّاتِ الْجِسَامِ
لَوْ تَوَافَى رِيشُوه	جَلَّ عَنْ الطَّيْرِ الْعِظَامِ
غَالِهَ صَرَفَ مِنَ الدَّهَمِ	رَغْوُولٌ لِلْأَنَامِ

- (١) مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٦ : ١٣١ .  
 (٢) التدمت المرأة التداما : ضربت صدرها ووجهها ، وفي الأصل : بقول ، ولا معنى لها  
 (٣) نهاض : منكسر .  
 (٤) السجل : الدلو العظيمة ، السجام من سجم الدمع والمطر : سال سيلانها .  
 (٥) الغطريف : السيد الكريم ، وفي الأصل : غطريف من .

فَنَقَلْنَاهُ بِأَيْدِيهِمْ \_\_\_\_\_  
مِثْلُ غَضَنِ الْبَانِ لَمْ يَكُنْ \_\_\_\_\_  
أَيُّ مَرْمُوسٍ رَمْنًا \_\_\_\_\_  
بَيْنَ أَطْبَاقِ الثَّرَى الْجَعْمِ \_\_\_\_\_  
يَا شَقِيقَ النَّفْسِ آذِنُ \_\_\_\_\_  
لَمْ تَكُنْ إِلَّا كَهْفِي \_\_\_\_\_ الظَّنُّ لَوْ أَوْ حُلْمِ الْمَنَامِ  
لَمْ تَعْتَمِدْنَا اللَّيَالِي \_\_\_\_\_ مِنْكَ إِلَّا عَشْرَ عَامِ  
لَا وَلَمْ تَرَوْا مَنَ السُّدْرِ إِلَى وَقْتِ الْفِطَامِ \_\_\_\_\_  
فَتَنَاقِي مَنْ يَنَاقِيهِ \_\_\_\_\_ كَنْ يَنْقُصُ وَصَرَ الْكَلَامِ  
لَوْ يُفَادِنُ الْمَوْتَ أَوْ كَمَا \_\_\_\_\_ نَ فُوقًا بِالسَّهَامِ  
لَقَدْ يَنْبِئُكَ بِالْأَلْفِ \_\_\_\_\_ مِنْ رِجَالٍ وَسَوَامِ (٣)  
وَلَقَاتَلْنَا الْمَنَائِمَا \_\_\_\_\_ عَنكَ بِالْجَيْشِ الْهَارِ  
غَيْرَ أَنْ الْمَوْتَ خَطَّ سَبَبِ \_\_\_\_\_ لَا يَسَامِيهِ مُسَامِ  
كُلُّ حَيٍّ فَلَسَهُ مَن \_\_\_\_\_ حَوْغِيهِ كَأَسْ جِمَامِ  
لَا اسْتَهَلَّتْ بِي بِيُولَادِ \_\_\_\_\_ ذَاتُ كَمَلٍ بِتَمَامِ  
بِغَضَلَامِ آخِرَ الدَّمْعِ \_\_\_\_\_ رَوَا غَيْرَ غُفَامِ  
بَدَلَتْ كَكَلٍ وَلَسُودِ \_\_\_\_\_ بَعْدَ عُقْرِ بَعْقَامِ  
وَعَلَى شَلْوٍ بِبِذَاكَ السَّ \_\_\_\_\_ قَبْرَ أَعْصَفِ السَّلَامِ  
كَلِمَا لَاحَ صَبَّاحِ \_\_\_\_\_ أَوْ دَجَا دَا جِي الظَّلَامِ  
وَإِذَا مَا لَا مَعَ الْبِشْرِ \_\_\_\_\_ قُبُورِ الْجَمَامِ  
جَلْبَتُهُ الرِّيحُ مِمَّنْ أَعْمَى \_\_\_\_\_ رَاقِي نَجْدٍ بِتَمَامِ  
يَقْلَسُ الْمَاءَ قَسْمًا \_\_\_\_\_ لَصَدَى نَسْمِ وَهَامِ (٤)

- (١) المَيَامِ : هَيَامِ الرَّمْلِ : مَا كَانَ تَرَابًا دَقَاقًا يَابَسًا .  
(٢) الرُّضَا : الْحَصَى الصَّغَارِي فِي مَجَارِي الْمَاءِ . السَّلَامُ : الْحَجَارَةُ .  
(٣) السَّوَامِ : الْمَاشِيَةُ جَمْعُ سَائِمَةٍ .  
(٤) قَلَسُ الْمَاءِ : قَاضٍ .

وقد أثبت القصيدة كاملة لسببين ، لأنها غير منشورة أولاً ، ولأنه يتوافر فيها مقدار صالح من مقومات نجاح الشعر ثانياً ، فهي تعرض صورة لأبوين يجلسان نائحين أمام جدث رضيعة ، ثم هي تعرض صورة للطفولة البريئة المسجاة التي كان أبوانا يحلمان بأن يكون لها شأن في قايصل الأيام ، ثم هي تصور انعطافاً حاداً في مسار الهواجس والروى بالارتداد إلى الواقع المحزن عندما تعرض لعجز الإنسان عن تحقيق أمنيه بعجزه عن رد غائلة الموت ، ثم هي أخيراً تصور لحظة من لحظات الضعف البشري الذي يجعل الإنسان أحياناً ضيق النظرة أنانياً ، فيتمنى أن يعم الشر الناس جميعاً ، لا كراعية للناس ، بل هروياً من معاناة فردية ، ولذلك تمنى الشاعر أن لو تصبح نساء الأرض جميعاً عواقباً .

وللمسلي قصيدة رثاء أخرى قائمة على الترميز ، إذ يتخذ لنفسه مثلاً من قمة حماة كانت آمنة مطمئنة على غصن مائس ، وكان لها النلم تكن تفارقه ، ثم قيص لها " رام بصفرا " نبيعة " فراححت بعده " بهم لو تضمن مثله حشا آدمي ما استطاع يريم " ، ولهذا التوافق بين حاله وحالها فقد راقه غناؤها أو بكاؤها الذي يذكره بأحباب فقد عم بالموت أو بالنأي عنهم ، يقول في هذه الاستجابة لننائهم (١) :

فطوراً أشيم البرق أين مصابُه	وطوراً إلى اءوال تلك أهيم (٢)
غناً يروع النمشين وتسارة	بكاً كما يبكي الحميم حميم
إذا ما استملت بالغنا تطلعت	وأصغى لها طبب بذاك عليهم
فمن دوني ذا يشاقق من كان ذا هوى	ويعزب عنه الحلم وهو حليم

وهذا النهج من الترميز المكشوف شائع مشهور في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي عندما يتخذ الشاعر من الطير أو الحيوان مشجياً يعلق عليه همومه في الحنين أو الرثاء .

- 
- (١) أبو العباس التيفاشي : سرور النفس بمدارك الحواس الخمس ، تحقيق إحسان عباس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨٠ : ١٦ - ١٧ ، الحماسة البصرية ٢ : ١٥٠ .
- (٢) شام البرق : نظر إليه يتحقق أين يكون مطره . مصابه : مكان انصباب مطره .



### ٣- وصف النجوم :-

من الموضوعات الشعرية التي شاعت في عصر دون عصر في الشعر العربي موضوع وصف النجوم . وكان محمد بن يزيد المسلمي من الشعراء المبرزين في هذا الموضوع كما يقول التيفاشي في "سرور النفس" (١) ، وقد أورد له في مؤلفه هذا قصيدتين وقطعة ، عدة أبيات القصيدة الأولى (٣٨) بيتاً ، وعدة القصيدة الثانية (٤٩) بيتاً ، والقطعة خمسة أبيات (٢) .

ويلاحظ في أوصاف المسلمي لحركات النجوم معرفته بأسمائها مفردات ومجموعات ، فهو يذكر مثلاً زحل ، والنسر ، وسعد الذابح ، وسعد بلع ، والعقرب ، والدلو ، والحوت ، والكبش . . . . . ويقترن بهذه المعرفة معرفة أخرى تتمثل بمواقيت ظهورها وأمكنةا ، يقول في ذلك مثلاً (٣) :-

فخرجت حين بدا سُفيلُ طالعمًا	يُسرى المصلى قائمًا يتنقل
والجدى كالفرس الحصان شد دته	بالسرج إلا أنه لا يصهل
والثور في جوف السماء محللق	خلت الثريا حائرًا متعلم
وامتد للجوزاء نظم قطارها	وتلاحقت نقطارها مستعمس

كما يلاحظ أن مادة تشبيهات الشاعر مستقاة من البيئة "فزحل لحتى النسرين بالخيل السدرع" (٤) ، والعقرب لها مصابيح في الدجى "تحكي مصابيح البيع" وهي - إذا جد بها السير - تطلع ، ثم هي تجري متابعه :-

تتابع الخيل جارت	منها مسير وجذع
------------------	----------------

وقد وقع في تشبيهاته على بعض الصور الحية المتحركة ، من ذلك قوله وهو يصور انبلاج الفجر :-

وانهزمت خيل الدجى	تركض من غير فزع
والضوء في عراضها	يخبط طورًا ويضع (٥)

(١) سرور النفس : ١٤٦ .

(٢) انظر المصدر نفسه ١٤٦ - ١٥٠ .

(٣) المصدر نفسه : ١٥٠ .

(٤) الخيل الدرع : التي اسود مقدمها وابيض مؤخرها أو العكس .

(٥) يخبط ويضع : يسرع في سيره .

وليس يعرف سر اعتمام هذا الشاعر بوصف النجوم ، إذ يلاحظ كأنه كان - بحكم إقامته فسي بلدة نائية عن الحواضر - يظل يراقب في ليليه حركات الأفلاك في السماء مراقبة دقيقة فأناحت له تلك المراقبة أن يأتي على أوصافها المنظورة . وقد راقته هذه الدقائق في الوصف الخليفة العامون الذي كان معنياً عموماً بالآخر بها حتى أنشأ لها مرصداً في سفح جبل قاسيون بدمشق ، فقال معلناً عن إعجابه بشعر المسلمي (١) : " هذا شعر رجل كأنه صعد الفلك فعلم ما فيه " . ويغلب على الظن أن اعتمام المسلمي بالنجوم كان نابعاً من هموم خاصة بيني أمية الذين زالت دولتهم ، وذمه سب عزمه ، فظل أحفادهم يحلمون بعزمه القديم الدائر الذي قد يعود . وبيان ذلك في شعر المسلمي هذا هو قوله في صدر القصيدة الثانية :-

يا ليلُ مالِكُ صُبْحُ	يرتاحُ فيسه العميدُ (٢)
طال انتظاري لبُليستِي	تنجابُ عنهم سُوود (٣)
فبات همِّي قرينِي	كأنتيبي مَرورود (٤)
أرى النجومَ فعمها	غواربُ وركُود

فمرض حال الشاعر على هذه الصورة من التثامة والضجر المقيم نابعاً بلا شك من معاناة كابوسية ، فلجأ إلى السماء يسترشد عما التملة والسلوان ، فهام بنجومها وصفاً مدقفاً ، حتى إذا ما أشفى على الغاية قال في بوح مباشر :-

ما للظلام أنجسَ سارُ	وما يكُرُّ جدِيدُ
ولا أرن ساطعَ الفجسَ	ر مشرقِيَّأ يعسود
لكن أنسابَ لعينيبي	إنسي إذأ السعيدُ
فلم يرعني وللصبرِ	رُستفب حميدُ (٥)
إلا وقفُ الزبانيبي	يلوح فيه العمود (٦)
كأنَّه قرشيبي	تفوعليه البنود

(١) سرور النفس : ١٤٦ .

(٢) العميد : المرض لا يستطيع الجلوس حتى يعمد من جوانبه بالوسائد .

(٣) البلق : جمع أبلق من الفحل ونحوه ، وهو ما كان فيه سواد وبياض .

(٤) مرود : مصاب بالحمى ، والورد اسم من أسماءها .

(٥) مستفب : غاقبينة .

(٦) غفر الزباني : ما ستر منها ، والزباني أحد نجمين في الميزان وهما المنزل السادس عشر من

منزل القمير .

فهذه الفجائية بنوال عاتبة الصبر تظهر بما لاح له من آمال ، قواها ظهور ما استتر من  
"غفر الزباني" ، وذلك بعد أن ادلهمت كل الآفاق في ناظره ، فتراءى ظهور هذا المستور لعيني  
الشاعر المأزوم بأوجاع الأميين وأحلامهم "كأنه قرشي تهفوع عليه البنود" . وإن هذا التفتن لصورة  
القرشي الذي تهفوع عليه البنود ، ختام هذا المخاض من الأرق الذي لازمه فجعله - وهو ابن  
البرية كما قال له ابن أبي طاهر<sup>(١)</sup> - دائم المراقبة للنجوم وحركاتها . وهو الشعور نفسه الذي  
حدا به إلى أن يقول لساحبه وهو يحارره في القصيدة الأخرى وعمما يترقبان بلهفة نافذة طلوع  
الفجر - فجر الأميين :-

ليس المذكَى سُنُّه      في الصِّبرِ كالنَّعْمِ الضَّعِيفِ<sup>(٢)</sup>

وإذا انضاف إلى ذلك استشعار المسلمي بأمويته وعرويته اللتين عبر عنهما في مرثيته في ابنه قطاسام  
وفي هجائه لعبد الله بن طاهر ، وفي مناقشته محمد بن عبد الملك بن صالح الناشمي أمكن الاطمئنان  
إلى أن هذا الحكم الأخير الذي ارتأيناه في سبب تبريزه بوصف النجوم فيه مقدار كبير من الصحة .

ويلاحظ أخيراً على شعر المسلمي في النجوم ما لوحظ من قبل على مجمل أشعاره  
الأخرى ، وهو تخيره للأوزان القصيرة في النظم ، كأن ذلك كان مذهبه في  
موسيقى الشعر .

(١) انظر: الفرج بعد الشدة ١: ٣٤٧ .  
(٢) النعم : غير المجرب . الضرع : الجبان . المذكى : المجرب .

## ٤ - الحسين بن علي التميمي الأنطاكي

الحسين بن علي أبو طالب النقاش شاعر من أهل أنطاكية ، عاش في زمن متقدم على عصر سيف الدولة . وكذلك قال ابن العديم في التعريف به <sup>(١)</sup> ووصفه بأنه شاعر محسن مجيد . وعلى الرغم من هذا التعريف الوجيز فقد أورد له ابن العديم والشمشاطي أشعاراً كثيرة . وقد عرف أن لسـه علاقة بثلاثة نفر هم : أبو القاسم علي بن الحسين بن جعفر العلوي ، وأبو الحسين الحراني المعروف بالكُمدي ، وأبو حفص عمر بن موسى الكاتب . والأولان رويَا عنه الشعر ، والثالث يبدو أنه كان صديقاً للشاعر ، فقد روى الشمشاطي أبياتاً للأنطاكي أرسلها إلى أبي حفص المذكور <sup>(٢)</sup> .

والراجح أن هذا الشاعر كان يسكن في أنطاكية ، فرقة شعره رقعة تمتد بين نهر الفرات ونهر الأرنؤد ، وهو نهر العاصي ، وأما عصره فهو أواخر القرن الثالث الهجري ، والدليل على ذلك أن ابن العديم قال عنه إنه متقدم على عصر سيف الدولة ، ومعلوم أن سيف الدولة عاش في النصف الأول من القرن الرابع الهجري ، ثم إن الثعالبي الذي ترجم في البيعة لشعراء القرن الرابع لم يذكر هذا الشاعر ، كما أن الشمشاطي - وهو من أعلام القرن الرابع - يروي عنه في " الأنوار " هكذا <sup>(٣)</sup> : أنشدنا أبو القاسم العلوي قال : وأنشدني الأنطاكي . . . . .

وكل ما وصلنا من شعر الأنطاكي إنما هو في الوصف ، وهو شعر رقيق اللفظ سلسله ، اعتمد فيه الأوزان القصيرة ، وأكثر فيه من الصور المنتزعة من بيئة ثرة الماء ، فوقع لذلك على كثير من المعاني الطريفة ، من ذلك قوله في أرجوزة يصف فيها رحي ، وكان مع جماعة يشربون على نهر الأرنؤد <sup>(٤)</sup> :

ومنزل رَقَّ به الهَـوَاُ  
وطاب للشرب به الشَّوَاُ

- (١) بغية الطلب ٨ ورقة ٢٥٩ .
- (٢) انظر: الأنوار ومحاسن الأشعار ٢: ٨ - ٩ - ١٠ - ١٦ - ١٧ - ١٨ - ٢٨٢ - ٢٨٣ ، بغية الطلب ٨ ورقة ٢٥٩ - ٢٦١ .
- (٣) انظر: الأنوار ٢: ١٢ .
- (٤) الأنوار ومحاسن الأشعار ٢: ١٦ .

بِنَيْبَةٍ مَا حَوْلَهَا بَيْنَانَا  
كَمَا أَقِيمُ فِي يَدِي إِنْ نَانَا  
تَرْكُضُ فِيهِ فَرَسٌ دَهْمَانَا  
تَكْفُفُهَا عَجَاجَةً بَيْضَانَا  
تَجْرِي وَإِنْ أُعْوِزَهَا الْفَضَانَا  
مِيدَانُهَا وَجَسْمُهَا سَوَانَا  
يَحْفِزُهَا جَارٌ لَهُ ضَوْضَانَا  
وَلَيْلَةٌ مُسْفِرَةٌ غَمْرَانَا  
رَحَاؤُهَا إِنْ دَرَجَتْ رَحَانَا  
تَبْرُدُ مِنْ نَسِيمِهَا الْأَحْشَانَا  
عُورَةٌ دَعَّرُكُهُ ظَلْمَانَا

وفي أرجوزة أخرى وصف الشبك المتخذ لصيد السمك (\*) ، وهو من الموضوعات الطريفة النادرة في الشعر العربي ، وأتى فيها على وصف السمك وتصوير البهجة بالظفر به رزقاً حلالاً : -

وشاحِبِ اللَّبْسَةِ وَالْأَعْضَانَا  
أَشْعَثَ نَائِي الْعَهْدِ بِالرَّجَانَا  
أَنْضَى بِهِ الْعُدْمُ إِلَى النَّضَانَا  
فَوَجَّهُهُ لِلضُّجِّ وَالْهَوَانَا  
أَغْبَرُ يَحْوِي الزُّرْقَ مِنْ غَبْرَانَا  
خَفِيفَةً ثَقِيلَةَ الْأَرْجَانَا  
كَأَنَّهَا هَلْهَلَّةُ السَّرْدَانَا  
كَفَنَهَا لِحْظَ بِنَاتِ الْمَانَا  
بَأَعْيُنٍ لَمْ تُؤْتِ مِنْ إِغْضَانَا  
كَثِيرَةً تُرْبِي عَلَى الْإِحْصَانَا

(\*) الأتوار ومحاسن الأشعار ٢ : ٢٨٢ .

فَأَقْبَلَتْ تَمْلَأُ عَيْنَ الرَّائِي  
بِكَلِّ صَافِيِ الْمَثْنِ وَالْأَحْشَاءِ  
أَبْيَضَ مِثْلِ الْفِضَّةِ الْبَيْضَاءِ  
أَوْ كَذِرَاعِ الْكَاعِبِ الْحَسْنَاءِ  
رُزْقًا رُزْقَانَهُ بِلَا عَنَّاءِ  
نَعْدُهُ مِنْ سَابِغِ النَّعْمَاءِ

وكرر الشاعر هذا المعنى في أرجوزة أخرى معلناً فيها عن ابتهاج كأي صياد يعود من صيده  
مستلغ اليدين ، يقول فيها (١) :-

وَجَدُولِي بَيْنَ حَدِّ يَتَقَنَّيْنِ  
مَطْرِدٍ مِثْلِ حُسَامِ الْقَيْئَانِ  
تَنْظُرِي فِي الْمَاءِ بِالْفَعْيَانِ  
رَاصِدَةٌ كُلَّ قَرِيْبِ الْحَيَّانِ  
تُبْرِزُهُ مَجْنَحَ الْجَنْبِيَّانِ  
كَمُدِّيَةِ مَضْغُولَةِ الْمُتَنِيَّانِ  
كَأَنَّمَا صَيَغَ مِنَ اللَّجْجِيَّانِ  
رُزْقًا هَنِيئًا يَمْلَأُ الْبَيْدِيَّانِ  
بِفَيْرِ كَدِّ وَبَغْيِ رَأْيِيَّانِ (٢)

ومن أشعاره النابعة من البيئة ذات الأمواه المنزيرة قوله في وصف الدولاب المستعمل لسري  
أشجار الفاكهة ، وقد وفق في تصويره وفي تفتيق معانيه (٣) :-

- 
- (١) الأنوار ومحاسن الأشعار ٢ : ٢٨٣ .  
(٢) الأيمن : التعيب .  
(٣) الأنوار ومحاسن الأشعار ٢ : ٨ .

يسري فيمنعه السرى أن يبغدا  
حتى حسبناه مشوقاً مكمدا  
وجه الثرى أكرم به مسترفدا  
أرج وبرد يشفيان من الصدى  
وفواكه تجنى وظل يرتدى

بشعر في السير إلا أنته  
وصل الحنين بعبارة منفوحة  
مسترفد ماء الفرات ورائد  
ينفي الصدى عن روضة نفاحاتها  
كملت محاسنها فنشر يرتضى

وقال في أخرى في الموضوع نفسه ، وقد راقته حركة الدولاب السريعة وإن كان يراوح موضعه (١) :-

ناء يحن إلى أوطانه طربا  
من العمام غدا فيه أبا حدبسا  
عن المحل ولا يئدى له تعبسا  
للبر حتى ارتدى النوار والعشبسا

كان دولابها إذ حن مغترب  
باك إذا عنى زعم الروض والكده  
مشرفي مسير ليس يبعده  
ما زال يطلب رقد البحر مجتهدا

ومن طريف تشبيهاته قوله في وصف السفن في الفرات (٢) :-

شم الهضاب لبسن ليلاً أرعدا  
مولى فشد وثاقها وتشددا  
بالماء تمنحه عناقاً سرمدا  
يوماً تحير دونها وتبلدا

وتواطنا في الماء تحسب أنمسا  
مثل الإماء السود خافي إباتمسا  
نصبت حيازيماً لها مشغوفسة  
يدع إذا الفکر حاول وصفسا

وقال في أخرى (٣) يصف سفينة بحريسة :-

فمن كل وجه لها حابيل  
على من أقام بها الساجيل  
إليه كما حنت الناكيل  
شباب وشيهم شاميل

وسوداً أبقيت قيتت  
توسطت البحر حتى نكأى  
وحننت إلى البر مشتاقسة  
فسكانها الدهر من نعيمسا

(١) الأندوار ومحاسن الأشعار ٢ : ٨ .  
(٢) المصدر نفسه ٢ : ١٥ .  
(٣) نفسه ٢ : ١٤ - ١٥ .

وقال في وصف قصر<sup>(١)</sup> ، ويظهر فيها إعجابه بسوق هذا القصر ، وقد جعله مقدماً على إيوان

كسرى في تلميح خفي إلى وصف البحثري له ، وفي إحساسه بفضل العرب على الفرس : -

والقصرُ يُبَسِّمُ في وجهِ الضحى فتسرى	وجهُ الضحى عندما أبدى له شحبا
بيتُ أعلاه بالجوزاءُ منطقتاً	ويغتدي برداً الغيسر محتجباً
تظامت نحوه الإيوان حين سما	ذلاً ، وكيف تضاهي فارس عرناً
إذا القصورُ إلى أربابها انتسبت	أضحى إلى القبة العلية منتسباً
فصله لا وصلتك الحادثسات ولا	زالت سعودك حتى تنفد الحقبنا
بزٍ ويحمرُّ وكبانٌ مدبججة	تري النفوس الأمانى بينها كنبنا
ومنزلي لا تزان الدهسر عقتوه	جديدة الرؤس جد الغيث أو لعبنا <sup>(٢)</sup>
حصابوه لولؤ نثر وتربتسه	مكٌ ذكيٌ فلولم تحمه انتهبنا
وكل ناحية منه زبرججدة	أجرى اللجين عليها جدولاً سربنا

وقال في وصف قصر لأحد الأمراء ، وقد راعه منه سموه ، وأبانة غرفه ومظاهر الطبيعية

الفتاة من حولها<sup>(٣)</sup> : -

باليمن قد رفع الأمير وشيهدا	ويجدة النعماء ما قد جدددا
قصر أناف على القصور يحلوه	ملك أناف على الملوك مؤيددا
قلنا وقد أعلاه جد صاعيد	في الجوز حتى ما يصادف مصعبدا
أبنية بيناها فضح البنسى	أم فرقد بسناه شان الفرقدا
غرف تالق في الظلام فلو سسرى	بضائها ساري الدجنة لاهتدى
عني الربيع بها فنشر حولها	حللاً تدبج وشيها أيدي الندى
وكانما تزجي السحاب فوقها	جيشاً يهز البرق فيه مطردا
وكانما نشر الهواء بجوهها	من كل ناحية رداً مجسددا

(١) الأنوار ومحاسن الأشعار ٢ : ٨٧ .  
(٢) العتوة : الموضع المتسع أمام الدار أو المحلة أو حولها جمع عتقاً .  
(٣) الأنوار ومحاسن الأشعار ٢ : ٨٨ .



ومن شعره في وصف الدواة والقلم ، وقد أقام القطعة كلها على التشبيهات المنتزعة من حياة  
الناس وعلاقاتهم (١) :-

يَسْطُو بِخَطَّارٍ كَأَنَّ خَاطِرِي	مَسَلَّطٌ فِي جِسْمِهِ فَهُوَ سَلِيطٌ (٢)
يَكْتُبُ فِي زُنْجِيَّةٍ كَأَنَّما كِيَانُهُ	مِنَ الْفِطَامِ مُنْخَرِطٌ
كَأَنَّما سَوَادُهَا وَحَلِيُّهَا	تَأْلِيفٌ ضِدِّيٌّ شَبَابٌ وَشَمَّاطٌ
كَأَنَّما يَقْطَعُهَا مَهْنَتُهُ	مُحْتَبَسٌ فِي غِغْدِهِ لَمْ يُنْفِضْ قَبْطٌ (٣)
كَأَنَّما يَسْكُنُهَا صُدُوعٌ عَلَيَّ	خَدَّ مَهَاءٍ بَقَعْتِ الْمَسْكُ لُطُّ

إن السمة الغالبة على شعر الأنطaki هي سمة العفوية في النظم وفي التصوير ، فكان شعره  
مثل قوله " يرد بغير كد وبغير أين " ، وكان كثيراً ما يكرر معاني القصيدة الواحدة وصورها في قصائد  
أخرى ، كأنه كان يعجز عن تفتيق أفكار وصور جديدة .

(١) بغية الطلب ٨ : ٢٥٩ .  
(٢) السلط: النصل لا نتوء في وسطه جمع سلاط ، والخطار عنى به رأس القلم .  
(٣) المقط: ما يقطع الكاتب عليه أطراف أقلامه .

٥ - محمد بن سلامة بن أبي زُرعة الدمشقي

هو محمد بن سلامة بن أبي زُرعة الكثاني الدمشقي ، وقيل بل اسمه المعلق ، غير أن الراجح أن اسمه محمد ، وعلى ذلك أجمع من ترجموه له (١) . ويبدو أن هذا الشاعر لم يكن معروفاً لدى جل من تحدثوا عنه بأكثر من المعلومات التي كان عمادهم الأول فيها على كتاب "الورقة" لابن الجراح (٢) ، ثم أخذ اللاحق منهم ينقل عن السابق نقلاً حرفياً في الأعم الأغلب دونما إضافة تذكر . وما تناقلته هذه المصادر قولها عنه : هو شاعر دمشقي محسن ، وهو والديك شاعرا الشام (٣) .

ويبدو أن هذا الشاعر كان من شعراء القرن الثالث الهجري ، فهو معاصر لديك الجمن وأبي تمام والبحتري ، فقد روى ابن عساكر عن ابن الجراح في كتاب "الورقة" أنه قال عنه (٤) : أنشدني أحمد بن أبي طاهر ومحمد بن أبي مسهر لأبي زُرعة . . . . . في أبي الجهم أحمد بن سيف . . . . . ، ولما كان أحمد بن أبي طاهر (٥) قد توفي سنة ٢٨٠هـ / ٨٩٢م فيكون هذا الشاعر من معاصريه .

ويستفاد من بعض شعر ابن أبي زُرعة أنه دخل العراق ، فله في "سر من رأى" هجاء قال فيه معلناً عن ضيق ذات يده وفقره فيها (٦) :

لَعَنَ اللَّهُ سُرَّ مَن رَأَى ب\_\_\_\_\_لَادًا      ورماعا بالشُّومِ وَالطَّاعُونَ  
بَعَثَ فِي الصَّيْفِ بَيْنَهُمْ قُبَّةَ الْخَيْشِ وَبَعَثَ الْكَانُونَ فِي كَانُونَ

- (١) انظر معجم الشعراء : ٤٢٨ ، سمط اللآلي : ١ : ٥١٧ ، مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٥ : ٤١٥ ، المحمدون من الشعراء : ٣٤٨ ، الوافي بالوفيات ٣ : ١١٦ .
- (٢) لم ترد له ترجمة في كتاب "الورقة" المطبوع .
- (٣) انظر مثلاً : معجم الشعراء : ٤٢٨ ، سمط اللآلي : ١ : ٥١٧ ، المحمدون من الشعراء : ٣٤٨ .
- (٤) مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٥ : ٤١٥ .
- (٥) انظر في التعريف بأحمد بن أبي طاهر صاحب "تاريخ بغداد" و "بلاغات النساء" ، معجم الأدباء ١ : ١٥٦ ، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٤ : ٢١١ .
- (٦) مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٥ : ٦٠٠ .

ويبدو من المقتطفات القليلة التي عثرنا عليها في مصادر الدراسة أن ابن أبي زرعة نظم في الهجاء، والوصف، والغزل، ولم يرد له شيء في المدح. ويبدو أن الشاعر لم يتصل بأي من أعيان أهل زمانه المشهورين من الخلفاء والولاة، ويبدو أن عدم اتصاله بهم كان سبباً من أسباب ندرة المعلومات عنه. وسأورد في دراستي هذه جل ما وقعت عليه من شعره لسببين: الأول لأن هذا الجمع يضع بين يدي دارجي الشعر الشامي في فترة تكاد تكون مجهولة أو كالمجهولة - مقداراً صالحاً من هذا الشعر الذي تناثر في مصادر ليس من اليسور الوصول إليها، وبخاصة أن بعضها ما زال مخطوطاً. الثاني لأن في شعر هذا الشاعر ما يروق ويعجب وبخاصة ما جاء منه في الوصف.

### ١- ما جاء في الهجاء :-

قال ابن أبي زرعة في رجل يدعى أبا الجهم أحمد بن سيف (١) :-

أيا سلم أخت بني راسب	أتلّي عتابي أوعتابي
فلست بصارف صرف الزمان	ولا غالب القدر الغالب
وإن يك صرف من الدهر جرب سناني	وأسرع في غارسي
فلم يُسني ذاك بذلي التلا	د للضيف والجار والصاحب
ولكن أبو الجهم إن جنته	لهيفاً حجت عن الحاجب
وإن جنته عائداً هارباً	إليه دفعت إلى الطالب
وإن جنته راغباً مادحاً	رجعت بجائزة الخائب
وليس بذي مؤعيد صادق	ويخل بالمؤعيد الكاذب
فيالك من منظر شاحب	هناك ومن خلق شاحب (٢)
ولست أرى راغباً في سواك	فتي ليس في المجد الراغب

وقد توزعت القصيدة في منحيين: فخر بالنفس على الرغم من معاندة الحظ، وهجاء للصفات الخلقية والنفسية في شخص أبي الجهم، وتجريده من كل محمده أو مزية يحسن أن تكون في الرجال

(١) مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٥ : ٤١٦، المحمدون من الشعراء : ٣٤٨.

(٢) الشاحب : الهنداء المكساز :

- ٢١٣ -

وأكبر الظن أن الشاعر كان معسراً ، فقصد أبا الجهم هذا لعله ينال منه شيئاً من العطاء ، ولكنه فيما يبدو عاد خائباً ، فصب عليه غضبه وهو غضب يكافئ مقدار ما كان قد أمل فيه .

ويبدو أن القطعة التالية قيلت في أبي الجهم أيضاً ، ففيها أيضاً مقابلة بين حاله وحال من يخاطب ، وهما بعد غير منسجمين ، يقول فيها مفصلاً عن ضيقه (١) به :-

وَأظنُّهَا سَتَعُودُ لَا تَسْتَأْذِنُ	إِنَّ القَوَانِي عَنكَ أَخْسَرُ إِذْنُهُمَا
مُسْتَنْفِرًا جَاشِي وَجَاشِكُ سَاكِنُ	وَإِحَالُهَا تَأْتِي وَتَأْنِفُ أَنْ تَسْرِي
كَمْ ضِحْكَةٍ فِيهَا عُبُوسٌ كَامِرٌ	لَا يُوَسِّنُكَ أَنْ تَرَانِي ضَاحِكًا

٢- الغزل :-

شعر ابن أبي زُرَّة العزلي شعر يقوم على وصف تباريح الهوى والوجد ، غير أن الصور فيه قليلة ، يقول في إحداها (٢) :-

يَا صَاحِ قَلْبِي غَيْرُ صَاحِ	لَجَّ الهَوَى بِي فِي الجِمَّاحِ
بِرَحِّ العِزِّاءِ وَلَيْسَ لِلشَّيْءِ	وَقِ المَبْرَحِ مِّنْ بَرَاحِ
بَدَنٌ يَكْفِيهِ الضَّنَّاسِي	فَالسُّرُوحُ مِنْهُ عَلَى رَوَاحِ
قَالَتْ مَرْحُوتٌ بِهَجْرِهِ	وَالقَتْلُ لَيْسَ مِنَ السُّمُوحِ

وقال في ثانيه (٣) :-

كَيْفَ يَخْفَى نُحُولٌ مِّنْ لَيْسَ يَخْفَى	هَلْ تَرَى لِي إِلا لِسَانًا وَطَرْفًا
إِنَّ عَيْنِي رَمَتْ فَوَادِي بِنَبَارِ	سَوْفَ أَطْفَأُ وَحَرَّهَا لَيْسَ يُطْفَأُ
كَيْفَ أَبْقَى وَالشَّوْقُ يَزِيدُ ضَعْفًا	كُلَّ يَوْمٍ وَالنَّفْسُ تَزِيدُ ضَعْفًا

- (١) معجم الشعراء : ٢٧٠ ، المحمدون من الشعراء : ٣٤٨ ، الواسي بالوفيات ٣ : ١١٦ .  
 (٢) صورة تاريخ مدينة دمشق ١٥ : ٤١٦ - ٤١٧ .  
 (٣) المصدر نفسه ١٥ : ٤١٧ .

( ) لَهْفًا عَلَيْكَ وَلَهْفًا  
مَنْ سَقَانِي كَأْسَ الْمَنِيَّةِ صُرْفًا

ليس لهفًا إذا هلكت ولكن  
فسق الله كأس كل سرور

وقال في الثالثة (١) :-

لا صدودٌ مقصولا إسماف  
ل تناها عما أريد العفاف  
مضنن مقامه الأعراف  
في مقامي بين الجنان وبين النزار أرجو طوراً وطوراً أخفاف

إن حظي ممن أحب كفاف  
كلما قلت قد أنابت إلى الوصف  
فكأنني بين الرضال وبين الصدد  
مضنن مقامه الأعراف

وقال في قطعة أخرى يصف فيها حسن امرأة تعشقها (٢) :-

تحت الظلام به فما نطقنا  
ملا العبير بسيرها الطرقنا

استكمت خلخالها ومشيت  
حتى إذا ريج الصبا نسست

وقال في أخرى يصف حاله بعد رحيل محبوبته ، وهي أبيات غزبية اللفظ حسنة الائتلاف والنسج ، مطعمة بمطابق طريف غير مجتلسب (٣) :-

فأورطنني في موبقات المهالك  
فمن بين موف بالعهود وتساك  
شموس تضي الأرض غير دواليك  
بهن لآل مثلها في الضاحك

نواب دهر برحت بي صروفه  
رحلن فهيجن الجوى داخل الحشا  
وقضبان بان فوفهن إذ امشيت  
تقلدن أبار اللاتي فأشرقست

٣- الوصف :-

قال محمد بن أبي زرة الدمشقي يصف سيفاً (٤) :-

ما يلقى من لشي فهو قاطع

مستبط صارماً كالنوت سلته

(١) صورة تاريخ مدينة دمشق ١٥ : ٤١٦ ، سطر اللآلي ١ : ٥١٧ .

(٢) زهر الآداب : ٣١٣ .

(٣) العميدى : الإبانة عن سرقات المتنبي ، تحقيق إبراهيم الدسوقي البساطي ، دار المعارف  
بمصر ١٩٦١ : ١٣٦ .

(٤) الأنوار ومحاسن الأشعار ١ : ٣٥ - ٣٦ .

(\*) وديف فيه من الديفان ناقصه  
سنان حاسره عندي ودارعه  
ورقاً نسج أجاد السرد صانع  
لم ينب عنه ولم تدم مجاشع

تري النايا القواضي في مضارعه  
إني إذا ما نبا سيف بمعترك  
ما كان يحصن منه خالداً بيدي  
لو الفرزدق يوم العليج صال به

## ٦ - شعر الحلبي

لم نَهتد إلى اسم هذا الشاعر ولا إلى كنيته ، وغاية ما وقفنا عليه من أمره قول ابن العديم عنه "غير مسمى ولا مكى" ، ذكر له أبو الحسن الشمشاطي أشعاراً كثيرة في كتاب الأنوار ، ولم يذكر اسمه ، ولا اسم أبيه<sup>(١)</sup> . ثم قال في موضع آخر: "رثى في بعض شعره أبا تمام" ، ويعتقد أن أورد أبياتاً من مرثيته فيه قال : "قلت : إن كثيراً من الناس يقولون : الحلبي الذي ذكره الشمشاطي وأورد له شعراً في كتاب الأنوار هو أبو بكر الصنوبري : وليس الأمر كذلك ، لأنه أورد له هذه الأبيات التي رثى بها الحلبي أبا تمام . . . . . والصنوبري لم يدرك أبا تمام . . . . . ولم يكن الصنوبري ولسد<sup>(٢)</sup> .

وجاء في معجم الشعراء ذكر لشاعر يدعى محمد بن عمران الحلبي وكنيته أبو العباس<sup>(٣)</sup> ، وكان معاصراً للبحثري ، وله فيه هجاء ، فهل محمد بن عمران الحلبي هو هذا الشاعر غير المسمى ولا المكى عند ابن العديم ؟ إن الإجابة عن هذا السؤال ظنية بحتة ، وقد حار فيها ابن العديم نفسه<sup>(٤)</sup> ، ولكن مما قد يعين على استبعاد أن يكون حلبي المرزباني غير حلبي الشمشاطي وابن العديم هو حُكْم المرزباني على شاعرية محمد بن عمران التي قال فيها : يقول شعراً ضعيفاً . ولذلك لم يورد شيئاً من شعره في مؤلفه . أما شعر الحلبي الذي أورد الشمشاطي فهو شعر حسن ، يفضل شعر شعراء كثيرين ممن ترجم لهم المرزباني في معجمه ، وأثبت لهم فيه مقداراً من أشعارهم .

ومعظم ما أورد الشمشاطي لهذا الشاعر في "الأنوار" وابن العديم في "البنية" جاء في الوصف ، من ذلك قوله في الحصان<sup>(٥)</sup> : -

- (١) بنية الطلب ٨ : ورقة ٢٦٢ - ٢٦٣ .
- (٢) المصدر نفسه .
- (٣) انظر ترجمته في معجم الشعراء : ٤٦١ ، وانظر بنية الطلب ٨ : ٢٦٣ .
- (٤) انظر : بنية الطلب ٨ : ٢٦٣ .
- (٥) الأنوار ١ : ٣٢٦ .

- ٣١٧ -

- (١) وَكَيْبٍ وَرْدٍ كَانَتْكَ أَلْقِيَهُ \_\_\_\_\_ تَعْلِيهِ ثَوْبًا مِنَ الْأَرْجُوانِ
- (٢) أَعُوجِي يَنَاسِبُ الْبَرْقَ لَا يَسْلُلُ هُوَ أَمْضَى فِي السَّبْقِ يَوْمَ الرَّهْمَانِ
- (٣) مُصَمَّتِ الظُّهْرَ أَجْوَفِ الشَّجَرِ مَنْهَا يَنْفُكُ ضَنْكُ النَّسُورِ رَحْبِ الْعِجَانِ
- (٤) لِأَجْرِ الْأَيْطَلِيِّنِ عِبْلِ الدَّرَاعِيْنَ تَقِيلُ الصَّلَا خَفِيفِ اللَّبَانِ
- (٥) وَرَقِيْقِ الخَدَّيْنِ ضَخْمِ المَعْدِيَّيْنِ شَدِيدِ المَتَيِّنِ رِخْوِ العِنَانِ  
وَكَأَنَّ العَيْنِيْنَ حَيْثُ يُدِيرُ اللَّحْظُ يَاقُوتَتَانِ تَأْتَلِقَانِ  
وَتَرَاهُ مِثْلَ الهَمْدِيِّ إِذَا أَتْبَلَ يَخْطُرُ فِي سَرْجِيهِ وَالْعِنَانِ  
فَعَلِيهِ يَغْرِي النَّفْسَى طَيْلَسَانَ اللَّيْلِ وَاللَّيْلُ مُسْبِلُ الطَّيْلَسَانِ  
وَبِهِ تَبْلُغُ المُنَى حَيْثُ لَا تَأْمُلُ مِنْ غَيْرِهِ بِلُغْوِ الْأَمَانِي

ويلاحظ أن الشاعر كان يُدير في ذهنه وهو يصوغ هذه القصيدة أبيات امرئ القيس المشهورة في حصانها (٦) \* وله في وصف السفن وتفريقها بين الأحاباب الذين يرتحلون عليها قوله :-

إِنَّمَا فَرَقَةٌ تَذِيْبُ القُلُوبَ \_\_\_\_\_ وَتُرِدُّ الشَّبَانَ لَا شَكَّ سَيِّبًا  
سَلَبَتْ قَلْبِي العَازِءُ فَقَسَدَ أَضْحَى وَأَمْسَى مِنَ العَازِءِ سَلِيبًا  
مَا تَرَى السَّفِينُ كَيْفَ تَعْلُو حَبَابَ المَاءِ مِثْلَ المَطِيِّ تَعْلُو الكَتِيبًا  
وَكَأَنَّ المِلاَحَ إِذْ حَتَّ أَوْلَاهُمْنَ حَادٍ غَدَا يَحُكُّ نَجِيبًا

وقال في أخرى في وصف السفن أيضًا (٧) :-

- (١) الورد من الخيل ما بين الكميت ( ما كان لونه بين الأسود والأحمر ) والأشقر .
- (٢) الأعوجي : ضرب من جياذ الخيل تنسب إلى أعوج وهو حصان لبني هلال .
- (٣) المصمت : الجامد ، الشجر : جوف الفم بين سقف الحنك واللسان وهو الذقن أيضا ، العجان : قيل هو الدبر أو ما بين القبل والدبر وهو بلغة أهل اليمن : العنشق .
- (٤) الأيطل : الخاصرة والجمع أياطل وأطال ، العبل : الممتلئ ، الضخم ، الصلا : جانب الذنب عن يمينه وشماله وقيل هو وسط الظهر . اللبان : الصدر .
- (٥) المعدان : الجنبان .
- (٦) انظر هذه الأبيات في معلقته بشرح الزوزني .
- (٧) الأنوار ومحاسن الأشعار ١ : ٣٨٨ .



ويا نغم العُروبِ إذا توالستُ  
وموقنا بصفيتها كأنَّنا  
طيورٌ واقعاتٌ طائِراتٌ  
بأجنحةٍ لها في الصَّحْوِ نَوُؤٌ  
وياسفن الفُراتِ بحيث تهوي  
تطارِدُ مقيلاتٍ مدبِّراتِ

(١) قَوَّلتُ بين طيبِ النغماتِ  
لدى صفِي نعامٍ واقعاتِ  
فيا لك منظرًا ذا منظرٍ  
يقصُرُ عنه نَوُؤُ العِزْمِ  
(٢) هوي الطيرِ بين الجهتينِ  
على عجلٍ تطاردُ عسكرينِ

وقال الحلبي في الطرد في أرجوزة (٤) :-

يا روضةً صاغَ لها  
خيَّطتُ عليها حُلَّيَّ  
كأنَّما غدراؤها  
للوحشِ في أرجائها  
واقفتُ كما توافني  
فناظِرٌ من سبَّحِ  
ومتيقٍ بميدري  
غاديتها ولم يقبم  
بأكلبٍ لو لم تطير  
في ساعةٍ لا تمسحُ  
فجئنَ والطلُّ على  
قد نحفتُ أوساطها

حليها الأشراطُ  
ما خاطها خيَّاطُ  
من حولها ريباطُ (٥)  
قبائلٌ أخذتُ  
لعيدِها الأنبياطُ  
أحكمتُ الخسراتُ (٦)  
كأنَّه خيَّاطُ (٧)  
أعلامه العُطاطُ (٨)  
أطرها النشَّاطُ  
مُزِنٌ بها انخطاطُ  
آذنها أقصراطُ  
فألمها أوساطُ

- (١) العروب : ضرب من السفين .  
(٢) المرزم : اسم لعدد من النجوم أشهرها العبور والغميصاء ، والنوى : النجم إذا عمل للفروب .  
(٣) الجهة : إحدى جانبي الوادي واما بمنزلة الشطين .  
(٤) الأنوار ومحاسن الأشعار ٢ : ١٤٠ - ١٤٢ .  
(٥) الرياط : جمع الرائطة وهي الملاة كلها نسج واحد وقطعة واحدة .  
(٦) السبَّح : خرز أسود ( دخيل معرب وأصله سبَّح ) .  
(٧) الميْدري : القرن ، الخياط : آلة الخياطة كالإبرة ونحوها .  
(٨) العُطاط : اختلاط ظلام آخر الليل بضياء أول النهار .

تَأَلَّفُ مِنْ ضِدِّينَ ضِدِّينَ رَانِيَاً  
لَهُ لَيْلٌ شَعْرٌ فِي صَبَاحٍ جَبِينِيَاً  
وَخَصْرٌ حَكَى عَرَضَ الْبَخِيلِ نَحَافَةً  
بِعَيْنٍ صَحِيحٍ فِي جُنُونٍ سَقِيَاً  
وَنِيرَانٌ خَذٌ فِي مِيَاهِ أَدِيَاً  
وَرَدُّ فُحْكِي فِي التُّبْلِ عَرْضُ كَرِيَاً

وله في الأخوان (١) مما أثبتته ابن العديم نقلا عن "الأنوار" للشمشاطي :-

وَفِي الْإِخْوَانِ لِلْإِخْوَانِ عِزٌّ  
وَمَثَلُكَ مَنْ أَطَاعَتْهُ الْمَعَالِيَاً  
مَتَى يَهْرُزُكَ ذُو شُرْفٍ تُصَادِفُ  
سُبُلِي فِي هَوَاكَ سَبِيلُ قَصْدِي  
فَتَقِ مَنِّي بِسُبُودٍ أَخِي وَدُودِي

وقال في رثاء أبي تمام (٢) :-

سَأَلْتُكُمْ أَنْ تُعَقِّبَا سَقَمِي سَقَمَاً  
دَعَانِي وَفَكَّرَا لَوْ بَشِثْتُ شُجُونَه  
فَمَا أَلَمَتْ أَبْيَا بِلِ حِجَا وَمَرْوَةٍ  
فِيَا لِحَبِيبٍ دَعْوَةٌ لَوْ تَفَرَّغَتْ  
تَشْتَتَ رَأْيِي كُنْتُ فِي عَيْنِيهِ قَلْدِي  
وَمَا كُنْتُ دُونَ النَّاسِ أَشْرَفَ مَنْصِبَاً  
وَأَنْ تَتْرَكَ قَلْبِي عَلَى دَمِيهِ يَنْفَلِي  
عَلَى رَدْمٍ يَا جَوْحَ هَمَكْتُ بِهِ الرَّدْمَاً  
وَعَلَّمَا أَرَى فِيهِ الْمَدْلَةَ وَالْيَتَمَاً  
بَسْمَعِ آجَالٍ إِذَا لَعَدَتْ صَمَاً  
وَفِي أَذْنِهِ وَقَرَأَ فِيهِ سَمَاً  
وَنَزَعَا وَلَكِنْ كُنْتُ أَشْرَفَهُمْ عِلْمَاً

(١) بغية الطلب ٨ : ٢٦٣ ، وهي ليست في نسخة الأنوار المطبوعه .  
(٢) المصدر نفسه ، وقال ابن العديم وتروى هذه الأبيات لديك الجن فسي  
أبي تمام .

## ملحوظة

### هل يمكن بناء مذهب شامي في الشعر ؟

يقول الثعالبي وهو يتحدث عن فضل شعراء الشام على شعراء سائر البلدان (١) : "لم يزل شعراء عرب الشام وما يقاربها أشعر من شعراء عرب العراق وما يجاورها في الجاهلية والإسلام . والكلام يطول في ذكر المتقدمين منهم ، فأما المحدثون فنحن وإليك منهم العتابي ومنصور النعمري والأشجع السلمي ، ومحمد بن زُرعة الدمشقي ، وربيعة الرقي . على أن في الطائيين اللذين انتهت إليهما الرئاسة في هذه الصناعة كفاية ، وهما عمسا ."

ثم قال الثعالبي (٢) : "والسبب في تبرز القوم قديماً وحديثاً على من سواهم في الشعر قريتهم من خطط العرب ولا سيما أهل الحجاز ، وبعدهم عن بلاد العجم ، وسلامة أسنتهم من الفساد العارض للأسنة أهل العراق لمجاورتهم للفرس والنبط ، ولمدخلتهم إياهم ، ثم أباان بعد ذلك عن مذهب الشاميين في الشعر بقوله (٣) : وطريقتهم المثلى هي طريقة البحري في الجزالة والحدوبة والنصاحة والسلاسة ."

وقبل الثعالبي قال أبو الفرج الأصبهاني في معرض حديثه عن ديك الجن الحمصي (٤) : "وهو شاعر مجيد ، يذهب مذهب أبي تمام والشاميين في شعره ،" وفسر أبو الفرج مذهب أبي تمام بقوله (٥) : "له مذهب في المطابق هو كالسابق إليه جميع الشعراء ، وإن كانوا قد فتحوه قبله ، وقالوا القليل منه ، فإن له فضل الإكثار فيه ، والسلوك في جميع طرقه ،" وأبو تمام "شاعر مطبوع ، لطيف الفطنة دقيق المعاني ، غواص على ما يستصعب منها ، ويعسر متناوله على غيره ،" وقال عن البحري وشعره (٦) :

- (١) بيتية الدهر ١ : ١٢ .
- (٢) المصدر نفسه .
- (٣) المصدر نفسه ١ : ١٣ .
- (٤) الأغاني ١٤ : ٥١ .
- (٥) الأغاني ١٦ : ٢٨٣ .
- (٦) الأغاني ٢١ : ٣٧ .

القرب أو البعد من طريقة البحترى . وأي اطلاع على شعر ديك الجن أو منصور النعري أو غيرهما يمكن أن يدل على مميزات لا تبرز كثيراً في شعر البحترى . ثم إن أبا تمام على كونه أستاذ البحترى فإن مجال التشابه بينه وبين تلميذه أضالُّ من مجال الاختلاف . وقد أبرز النقاد كالأمدى وغيره تباعد ما بين الطائيين في الطريقة الشعرية ، ولهذا يمكن أن يقال إن الطريقة الشامية - إذا رصدنا مميزات كل من أبي تمام والبحتري - تقع في دائرة هي أقرب إلى البحترى منها إلى أبي تمام . وعلى الرغم من أن هذا التحديد غير قادر على إظهار التمييز الحاسم في الطريقة الشامية ، فإنه يمنح الشعر الشامي صبغة عامة ، ويحفظ في الوقت نفسه لكل شاعر تميزه الخاص به . ومن أهم معالم تلك الصبغة العامة :-

- ١- المراوحة بين سلاسة اللفظ وجزالتته .
  - ٢- الابتعاد عن التكلف ، والميل إلى ما يبرز مسحة من الطبع .
  - ٣- تجنب وحشي الكلام .
  - ٤- الاقتصاد في استعمال البديع .
- ولاستجلاء هذه الخصائص في الشعر الشامي لا بد من استخلاص المعالم الفنية في شعر أعظم شعراء الشام في ذلك العصر .

أولاً : في شعر أبي تمام قبل رحيله إلى العراق :-

إن الصور الثقافية في قصائد أبي تمام الشامية هي صور مستمدة من ثقافته الدينية على الجملة ، من ذلك قوله مصوراً عكوفه على الطلل كأنه عكوف في مسجد (١) :

طَلُّ عَكْفُتْ عَلَيْهِ أَسْأَلُهُ إِلَى      أَنْ كَادَ يَصْبِحُ رُبْعُهُ لِي مَسْجِدًا

وقوله في كرم المأمون إنه فجّر متونَ الجلمد عيوناً (٢) :-

وَطَيَّتْ حُزُونَ الْأَرْضِ حَتَّى خَلَّتْهَا      فَجَرَّتْ عِيُونًا فِي مُتُونِ الْجَلْمَدِ

(١) ديوانه ٢ : ١٠١ .

(٢) ديوانه ٢ : ٥١ .

وقوله في إشارة إلى قوله تعالى "ولسليمان الريح" (الأنبياء: ٨١) ، وهو يمدح  
المؤمنون (١) :-

إلا تكن أرواحها لك سُخَّرَتْ      فالعزمُ طوعُ عَيدِكَ والإجْذامُ

وينو عبد الكريم الطائيون (٢) "قد هُذوا في كل مجدٍ إلى نهج الصراط المستقيم" ، ودارُ  
بؤسِهِ حسنُها التصابي فصارت (٣) "جناتِ النعيم" ، ومدوحُهُ من بني عبد الكريم "نظيرُ لقمان  
الحكيم" في أيام السلم ، "شيطانٌ رجيم" حين تغلي مراحل الحرب (٤) . والمؤمنون وذووه أهل  
مكارم سُجِّلَتْ مكارمهم في "اللوح المحفوظ" (٥) :-

كَبِيتَ لَهُ وَالْأَوْلِيَةَ وَرَأَيْتَهُ      فِي اللَّوْحِ حَتَّى جَعَلْتَ الْأَثْمَامَ

وجنودُ الروم إذ تساقطت عنهم ملابسهم كأنهم في إحرام (٦) ، والجِئَامُ مَفِطْرٌ فِي ذَلِكَ الْمَعْتَرَكِ بَيْنَ  
المسلمين والروم والكفأة صيام (٧) .

ولم يظهر في قصائد أبي تمام في هذه المرحلة شيء من أثر علم الكلام أو الفلسفة غير قوله  
في إشارة خاطفة إلى مذعب الحلولية وهو يعبر عن محبته الكبيرة للمؤمن والعباسيين (٨) :

حَتَّى لَقَدْ ظَنَّ النُّسُوءَ وَبَاطِلٌ      أَنْ قَدْ تَجَسَّدَ فِي رُوحِ السَّيِّدِ

نقد قال الخطيب التبريزي في شرح هذا البيت : "أي لفرط ميلي إلى آل الرسول - صلى الله عليه  
عليه وسلم - ظنُّ أعلى التناسخ أن روح السيد بن محمد الشاعر (٩) قد انتقلت إلى جسمي . . . . ."

(١) ديوانه ٣ : ١٥٣ - ١٥٤ . والإجذام : الإسراع في السير ، والأرواح جمع ربح .

(٢) ديوانه ٣ : ١٦٣ .

(٣) ديوانه ٣ : ١٦٠ .

(٤) ديوانه ٣ : ١٦٢ .

(٥) المصدر نفسه ٣ : ١٥٨ .

(٦) المصدر نفسه ٣ : ١٥٧ .

(٧) المصدر نفسه ٣ : ١٥٦ .

(٨) نفسه ٢ : ١٥٦ .

(٩) السيد الحميري شاعر بصري من غلاة الشيعة من مخضرمي الدولتين ، توفي في خلافة الرشيد .  
انظر ترجمته في : الأغاني ٧ : ٢١٩ - ٢٧٨ .

يَوْمَ أَفَاضَ جَوِّيَ أَغَاضَ تَعَزَّيًّا  
عَظُفُوا الْخُدُورَ عَلَى الْبُدُورِ وَوَكَّلُوا  
وَتَنُوا عَلَى وَشِي الْخُدُودِ صَيَانَةً  
خَاضَ الْهَوَى بِحَرِيٍّ حِجَاهُ الْمُرِيدِ (١)  
ظَلَمَ السُّتُورَ بِحُورٍ عَيْنٍ نَهِيدِ  
وَشِي الْبُرُودِ بِمُسْجَفٍ وَمَهْدِ (٢)

وليس أصدق من هذه الأبيات تشبيهاً على مذهب أبي تمام الشامي ، فاللفظ سهل عذب يعرض صورة رائعة مستلحة طريفة في وشي من الخدود والبرود وعطف الخدور على البدر وذوات العيون الساحرة . وقد وظف التجنيس في هذه الأبيات توظيفاً رائعاً أضفى على الصورة جمالاً وموسيقى داخلية حالمية .

ومن الطباقي أيضاً قوله في تلك القصائد : -

عَبَّ الْفَرَائِي بِدَمْعِهِ وَقَلْبِي بِهِ  
يَا يَوْمَ شَرَدَ يَوْمَ لَهْوِي لَهْوُهُ  
عَبَّأَ يَرُوحُ الْجِدُّ فِيهِ وَيَغْتَبِي  
بِصَبَابَتِي وَأَذَلَّ عِزَّ تَجَلُّبِي

جاء التلوين العقلي وبخاصة في أمداحه ، فمن ذلك قوله في أحمد بن عبد الكريم الطائسي : -

كَمْ أَنْجَمُوا قَمَرًا حَسَى بِفَوَالِيهِ  
مَنْ كَانَ أَحْمَدُ مَرْتَعًا أَوْ ذَمَّهُ  
قَمَرًا وَمَكْرَمَةً تَنَاغِي الْفَرْقَسِدَا  
فَاللَّهُ أَحْمَدُ ثُمَّ أَحْمَدُ أَحْمَسِدَا  
أَضْحَى عَدُوًّا لِلصِّدِّيقِ إِذَا غَسِدَا  
عَضَّبَ الْعَزِيمَةَ فِي الْمَكَارِمِ لَمْ يَدْعُ  
فِي يَوْمِهِ شَرْقًا يَطَالِبُهُ غَسِدَا

فهو أراد أن يحرص صفات المكارم كلها في مدوحه نصيره حريصاً أشد الحرص على أن يحصلها في يومه هذا قبل غده ، حريصاً على أن لا يعذل في سعيه لكسب الحمد بالفعل .

- (١) قال الصولي في شرحه : هذا اليوم أبا ن داؤ بقلي من الهوى فذهب الجوى بعزائي . وانظر الاختلاف في شرح هذا البيت : ديوان أبي تمام ٤٦ : ٢ والحاشية ٣ .
- (٢) المسجف : السبيل .
- (٣) أنجموا : أطلعوا . أي هم يلدون أولاداً كأنهم يطلعون بهم أقماراً ، وتناغي من مناغاة الصبي أي عورضه الفرقد ، والقمر الثاني أبو القمر الأول . (شرح الخطيب) ١٠٣ : ٢ - ١٠٤ .

ولا بد من الإقرار هنا أن قصيدته في المأمون تشكّلان طفرة فنية كبيرة بالقياس إلى قصائده في بني عبد الكريم الطائيين وفي أمّاجيه في عتبة ، وذلك يعني أن قصائده في هؤلاء الحميين جميعاً كانت من بواكير شعره ، وأن خصائص شعره الذي شاع وصار فيه علماً كانت خيوطها قد أخذت تتشكل وهو ما يزال في الشام ، فقد أخذ يميل إلى أعمال الفكر في صناعة الشعر، وأخذ يعنى بالتجنيس والمطابق عناية أكبر ، وأخذ يغرب في لفظه ، وصار بسبب من هذا كله يعسر فهمه فاضطرب الشراح في تفسير بعض أبياته . يقول في مقطع تتمثل فيه هذه المعالم في مدحته الأولى في المأمون :-

(١)	عَصَفَتْ بِهِ أَرْوَاحُ جُودِكَ فِي غَسَدٍ	فَإِذَا بَنَيْتَ بِجُودٍ يَوْمَكَ مُفْخَرًا
(٢)	فِيهَا بِشَأْوِ خِلَافِي لَمْ تُجْهَدْ	وَبَلَدَتْ مَجْهُودَ الْخِلَافِي أَخِيذًا
(٣)	وَحَطَمْتَ بِالْإِنْجَازِ ظَهْرَ الْمُؤَيَّدِ	فَلَوَيْتَ بِالْمُوعُودِ أَعْنَاقَ النَّسُورِي
(٤)	أَصْحَرْنَ بِي لِلْعَنْقَقِيرِ الْمُؤَيَّدِ	وَمَزْحَرَحَاتِي عَنْ ذُرَاكِ عَوَائِقُ
(٥)	فَعَنَّاوُهَا يَطْوِي الْمَرَاحِلُ فِي الْيَسَدِ	وَمَنْ يَخِيْمُ فِي الْمَلَقَاءِ عَنَاوُهَا

فالتعبير عن جود المأمون ووفائه لوعوده ، والتعبير عن العوائق التي تعترض سبيله هو إلى مدوحه المأمون ، جاء غير مألوف النسيج ولا معهود الصورة ، وقد غدت هذه المعاني بعيدة القراء عسييرة على الفهم بسبب من هذه العلاقات اللفظية الغريبة ، والوشائج المبتدعة . وقد نتج عن هذه العلاقات اللفظية الجديدة طرافة في التصوير عند أبي تمام في هذه المرحلة من نتاجه الشعري .

- (١) معنى البيت : إن ما جمعته اليوم من مفاخر تبذله رياح كرمك في اليوم التالي .
- (٢) معنى البيت : إنك بلدت من أخلاق الناس ما لا يبذلونه إلا بجهد ومشقة وأنت وادع لهم تتعب فيه . شرح الخطيب التبريزي ٢ : ٥٣ .
- (٣) "يريد أنك عطفت أعناق الناس إليك بما وعدتهم من الإحسان ، ثم عجلت الإنجاز وأزلت الموعد" . شرح الخطيب التبريزي ٢ : ٥٣ .
- (٤) أصحرن : دخلن في الصحراء ، والعنققير : الداهية ، والمؤيد من صفات الداهية والأمر العظيم ، ومعنى البيت : إن التي زحزحتني عن ذراك عوائق أوقلت بي دواعيها الشديدة .
- (٥) يخيم : يقيم ، والها من عناؤها مرادودة إلى العوائق ، وعناؤها أي كفايتها . . . أي أن التي زحزحتني عن ذراك عوائق قد أقام عناؤها في القلب فلا يتعدى إلى غيره من الأعضاء التي يسافر بها . شرح التبريزي . وانظر اضطراب الشراح في شرح هذين البيتين ، الديوان ٢ : ٥٧ - ٥٨ ، والحاشية ٣ في صفحة ٥٧ منه .

كما ظهر في هذه المرحلة استغلاله لألوان البديع في رند معانيه وأفكاره ، وفي رند صوره بالجديد المبتدع ، فالمأمون مشــــــــــــــــلاً :-

يَتَجَنَّبُ الْآثَامَ ثُمَّ يَخَافُهَا	فَكَأَنَّمَا حَسَنَاتُهُ آثَامٌ
يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْهُمَامُ ، وَعَدْلُهُ	مَلِكٌ عَلَيْهِ فِي الْقَضَاءِ هُمَامٌ
أَسْرَتْ لَكَ الْآفَاقُ عِزْمَةً هِمَّتُ	جِيلَتْ عَلَى أَنْ الْمَسِيرُ مَقَامٌ (١)
وَالْأَتَاكُنُ أَرْوَاحُهَا لَكَ سُخَّرَتْ	فَالْعِزْمُ طَوْعٌ يُدِينُكَ وَالْإِجْدَامُ (٢)

فقد عبر عن تقوى المأمون وشدة ورعه تعبيراً مقارناً من هواجس المتصوفين ، واستغنى عن المطابقتي استغلالاً عمق به فكرته ، كما فعل مثل ذلك في التعبير عن عمة المأمون التي تأنف من الإقامة ، وتطمح في السير الذي يحقق بلوغ الأمانــــــــــــــــسي .

ثانياً: في شعر البحتری قبل رحيله الى العراق :-

ترجح لدينا في موضع سابق من هذه الدراسة أن أول نباعة البحتری في الشعر لا أول نظمه له كان في قصيدته ذواتي الرقمين ٥٧١ ، ٥٠٢ في ديوانه ، ولذلك سنتخذهما مادة لدراسة خصائص شعره الشامي المذهــــــــــــــــب .

١- عنايته الكبيرة بتخير اللفظ ، وحرصه على حسن استواء النسخ وتلاعبه بحروفه تلاعباً يبدو فيه اقتداره على المناوئة بين حروف الذال والذال والراء في قصيدته العينية ( رقم ٥٠٢ ) ، فهو يقول :-

عَدَلُوا فَمَا عَدَلُوا بِقَلْبِي عَنْ هَوَى	وَدَعُوا فَمَا وَجَدُوا الشَّجِيَّ سَمِيحاً
يَا دَارُغَيْرِهَا الزَّمَانُ وَفَرَقَسَتْ	عَنْهَا الْحَوَادِثُ شَعْلَهَا الْمَجْمُوعاً

- (١) يقول : همتك جعلته في إسارك آفاق الأرض ومن فيها ، فأنت تسوسهم برأيك ، وهــــــــــــــــسي مجبولة على اعتبار المسير بمنزلة الإقامة ( شرح التبريــــــــــــــــزي ) ٣ : ١٥٣ .
- (٢) يقول : إن لم تكن كسليمان الذي سخرت له الرياح فقد جعل العزم والإسراع في السير مسخرين لك تبلغ بهما مــــــــــــــــأردت .



لا تَخْطِي دُمُعي إِلَيَّ فلم يَسْدَعْ  
تبدو فَيُؤدِّي ذُو الصَّبَابَةِ سِرَّهُ  
في مَقَلَّتِي جَوَى الْفِرَاقِ دَموعًا  
عَدًّا ، وَتَتَرِكُ الْجَلِيدَ جَزْوعًا

ويقول في الأخرى (رقم ٥٧١) مكرراً من الحروف الرقيقة أو المتماثلة ما يدل على صدوره عن طبيع : -

إِن السَّلْوُ - كما تقول - لراححة  
عِذا العَقِيْقُ وفيه مرأى مُوسِيْقُ  
أَشَقِيْقَةُ العَلَمِيْنَ هملٌ مِنْ نَظْمِ-رَةٍ  
وَسَمْتِ أَرْدِيَةِ السَّمَاءِ بِدِيْمَةٍ  
لورَاحِ قلبي للسَّلْوِ مُطِيقًا  
للعين ، لو كان العَقِيْقُ عَقِيْقًا (١)  
تَقَبَّلْ قَلْبًا لِلْغَلِيلِ شَقِيْقًا (٢)  
تُحِي رَجَاءً أَوْ تَرُدُّ عَشِيْقًا

٢- وقوعه على الطريف من المطابق الذي يرد مطبوعاً غير مجتلب ، والذي يضيف على التصيدة نوعاً من التناظر الفكري اللطيف ، وهذا واضح في القصيدتين جميعاً .

٣- اعتماده على حسن التقسيم الذي إذا انضاف إلى براعته في حسن تخير اللفظ ، وتكرار الحروف المتقاربة في مخارجها أو المتماثلة، يشحن شعره بموسيقى داخلية عذبة تتناغم فيها الألفاظ بالضمون ، ومن ذلك قوله : -

كذب العوازل؟ أنتِ أَقْتَسَلُ لِحَظَّةً  
ماذا عَلَيْكِ لو أَقْتَرَيْتِ بِمَوْعِرِ بِيَدِ  
وأغضُّ أطرأفاً وأعدبُ ريقًا  
يَشْفِي الجَوَى ، وَسَقَيْتِنَا تَرْنيقًا (٣)  
وقوله : -

مَلِكٌ لِمَا مَلَكَتْ يَدَاهُ مَفْرَقٌ  
مَتَّقِظُ الأَحْمَاءِ أَصْبَحَ لِلْعِيدِ  
جُمِعَتْ أَدَاةُ المَجْدِ فِيهِ جَمِيعًا  
حَتْفًا بِيَدِ ، وَلِلْعَفَاةِ رِيْعًا  
فِي المَكْرَمَاتِ ، وَلِلسَّمَاحِ مُطِيعًا  
سَمَحَ الخَلَائِقُ لِلْعَوَاذِلِ عَاصِيًا

- (١) العقيق موضع ، وفي بلاد العرب أعدة عديدة ذكرها الشعراء في أشعارهم ، ولذا يصعب تمييز المراد به هنا . انظر : ياقوت (معجم البلدان : عقيق) .
- (٢) شقيقة العلمين : العلم هو الجبل ، والعلمان من قرى ذمار باليمن . انظر : ياقوت (معجم البلدان : العلمان) .
- (٣) الترنيق : التصفية .

ضُحْمُ الدَسَائِعِ لِلْمَكَارِمِ حَافِظًا      يَنْدَى يَدَيْهِ ، وَلِلثَّلَادِ مُضِعًا (١)

إن الدليل على براءة البحري مائل في هذه الأبيات التي وظفت فيها الحروف المتشابهة والكلمات المتجانسة ، والتقابل غير المصطنع ، وقد اختلفت هذه المظاهر الأسلوبية جميعاً ائتلافاً أكسب القصيدة نغمات موسيقية عذبة .

٤- الإكثار من التصوير الرائق الذي لم يخالف فيه سنن التصوير لدى شعراء العرب ، ولم يخرج فيه إلى ما خرج إليه أبو تمام في "ظوره العراقي" ، فظل شعره قريباً من الألفاظ ، غير مستغلق المعاني ، وقد عني بتصوير الحركة الخارجية ، والخلجات النفسية كما عني بتلوين صورته . يقول في العينية :-

لما رميت الروم فيه بضم	تعطي الفوارس جريها العرُوعا
كنت السبيل إلى الردى إذ كنت في	قبض النفوس إلى الحمام شفيعا
في وقعة أبقى عليهم غيبا	رخم الفياضي والنسور وقوعا (٢)
هذا ، وأي معاندٍ ناهضته	لم تجر من أوداجه ينبوعا

فمدوحه رمى الروم بخيول متميزة جسوماً وسرعة ، ثم صار شفيعاً لدى الموت وإن كان السبب فيسه ، وأرض المعركة غصت بجث القتلى الذين صاروا طعاماً لكواسر الطير ، والذين تفجرت جسومهم ينابيع من السدم .

وقوله في تصوير ساخر من أبي عمرو الشاري عدو ومدوحه :-

جاذبته فضل الحياة فأقلتت	من كفه قمناً بذاك حقيقة (٣)
فرددت مدجته وقد كرع السردى	ليحف منها منهنلاً مطروقا
لبس الحديد خلاخلاً وأساوراً	فكغينه التسوير والتطوية

- 
- (١) الدسائِع مفردها الدسيعة وهي الجفنة الكبيرة كناية عن ضخامة عطاياها .  
(٢) الغب من كل شيء : عاقبته وأخره . والرخم نوع من النسور .  
(٣) الفضل : الثوب الذي يبتذل في الشغل أو للنوم . قمناً : خليقاً جديراً .

فعلى ما في هذا التصوير من طرافة في المعنى إلا أن إدراكه لا يعمي الناظر فيه بإمعان ، فهذا الشاري الذي كانت تتنازعه عوامل الفناء والبقاء قد رد المدوح إليه روحه بعد أن كاد يكسر كأس المنية ، ولكنه إذ أفلت من الموت ، عاد يلبس لباس النذل والأُسْر .

٥- ابتعاده عن الألفاظ الغربية ، وهذا أمر يلحج لدى أدنى نظر في القصيدتين جميعاً ، كما يلحظ اعتناؤه بحسن الموازنة بين اللفظ والمضمون ، ففي حين يرقى ويعذب في النسب نراه يجزل في المدح وفي تصوير المعيارك .

ولو أننا عدنا إلى مقاييس المرزوقي في عمود الشعر العربي <sup>(١)</sup> لأتينا تلك المقاييس ظاهرة على وجه الإجمال في هاتين القصيدتين ، وينضاف إلى ذلك ما في القصيدتين أيضاً من تجنيس ومطابق . وبذلك تتسجم هذه الخصائص في شعر البحترين مع خصائص مذهب أهل الشام في الشعر التي استخلصت من أقوال أبي الفرج الأصبهاني والشعالبي في صدر هذا الحديث .

### ثالثاً: في شعر منصور النميري :-

مع أن المعلومات عن مسار حياة منصور النميري في نواحي الجزيرة والعراق غير محدودة ، فإنه يمكن الترجيح بأن القصائد ذوات الأرقام : ٥١٧ ، ٥٢٠ ، ٥٢٣ ، ٥٢٦ ، ٥٣٠ ، ٥٣٩ ، ٥٥٦ في ديوانه هي قصائد نظمها الشاعر وهو في الجزيرة أو في نواحي الشام ، وذلك اعتماداً على الأجواء التي نظمت فيها تلك القصائد . وذلك فضلاً عما قيل في ترجمته من أنه كان منقطعاً للبرامكة في الرقة ، وأن زيارته إلى العراق كانت لماماً . وتلتقي أبرز الملامح الفنية في هذه القصائد مع السمات العامة للشعر الشامي التي سبق بيانها . فهو يراوح بين الجزالة والرصانة والسلاسة والعدوية ، فحيناً يقول بأسلوب جزل رصين متين التركيب في مدح الرشيد ، ووصف حصانه بعد قفوله إلى الرقة من غزاة غزاه <sup>(٢)</sup> :-

(١) انظر هذه المقاييس في شرح ديوان الحماسة ، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون ، ط١ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، (٩٠١)

(٢) القصيدة رقم ١٧ ص ٨٢ من " شعر منصور النميري " .

مُضِرٌّ عَلَى فَأْسِ اللَّجَامِ كَأَنَّه إِذَا مَا أَشْتَكَّتْ أَيْدِي الْجِيَادِ يَطِيرُ (١)  
فَظَلَّ عَلَى الصَّفْصَافِ يَوْمَ تَبَاشَّرَتْ رِضْبَاعٌ وَدُوبَانٌ بِهِ وَنَسْرٌ  
إِذَا الْغَيْثُ أَكْدَى وَأَشْتَعَرَتْ نَجْوْمُهُ فَعَيْثُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَطِيرٌ

ويقول في الرشيد في قصيدة أخرى مصوراً عناء رحلته إليه ، كعادة غيره من الشعراء العرب ، في تصوير المشاق التي تجشمها في طريقه إلى الممدوح (٢) :-

أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ خُضْنَا رِغَارَ الْمَوْتِ مِنْ بَلَدِ شَطِيرِ (٣)  
بِخُوصٍ كَالْأَهْلَةِ جَانِفَاتٍ تَمِيلُ عَلَى السُّرَى وَعَلَى الْهَجِيرِ (٤)

وحيثما آخر يقول في أسلوب سهل خالي من اللفظ الغريب والصور البعيدة المنال في رثاء يزيد بن يزيد الشيباني (٥) :-

مَتَى يُبْرِدُ الْحُزْنَ الَّذِي فِي فَوَادِيَا أبا خالدي من بعد أن لا تلاقيَا  
أبا خالدي ما كان أدعى مُصِيبةً أَصَابَتْ مَعْدَأَ يَوْمِ أَصْبَحْتَ ثَاوِيَا  
أَعْيَنِي جُودًا بِالْمَدْمُوعِ وَأَسْعِدَا بَعْبُرَةَ مُحْزُونٍ بَكَى لِبُكَائِيَا

ورُوظف النمري في بعض شعره المطابقي توظيفاً مسخراً لتوضيح الفكرة واستجلائها لا للتصنع والتعمية . وأوضح ما يبين ذلك في قصيدته التي نظمها في مدح جعفر بن يحيى البرمكي لتسويته النزاع بين القيسية واليمانية بعد احترابهم الطويل المرير ، يقول فيها (٦) :-

- 
- (١) أضْرَ الْفَرَسِ عَلَى فَأْسِ اللَّجَامِ أَي أَنْ عَلَيْهِ وَعَضَهُ بِشِدَّةٍ بَغْمَهُ كُلِّهِ .  
(٢) من القصيدة ٢٠ ص ٨٥ .  
(٣) الشطير: النائي البعيد .  
(٤) الخوص جمع أخوص وخصا ، والأخوص ما كانت إحدى عينيه أصفر من الأخرى .  
(٥) من القصيدة رقم ٥٦ .  
(٦) من القصيدة ٢٣ ص ٩٢ .

لقد أوقدت بالشام نيران فتنة  
 وإذا يَاجِسُ موجُ البَحْر من آلِ بَرْمَكِ  
 رماها أميرُ المؤمنين بجعفر  
 فقولوا لأهلِ الشام لا يسلبنكم  
 لقد نشأت بالشام منك غمامة  
 فطوبى لأهلِ الشام أم ويل أمها  
 فإن سألوا كانت غمامة نائيل  
 فهذا أو أن الشام تُخمد نارها  
 عليها خبت شهبانها وشرارها  
 وفيه تلاقى صدعها وأنجبارها  
 حجاجكم طويلات العنى وقصارها  
 يومئذ جدواها ويخشى دمارها  
 أتأعيا حياها أم أتأعيا بوارها  
 وغيب وإلا فالدماء تطارها

فجل القصيدة يقوم على هذا التناظر أو التضاد بين "الاتقاد - والإخماد" والجيشان - والخيو، والصدع - والانجبار، وجدوى الغمامة - ودمارها ٠٠٠٠ الخ، كأنه حرص على نجاتهم بعد أن بصرهم بسبيلين: أحدهما يقود إلى السلامة والهناء، والآخر يقود إلى الهلكة والدماء، وكان عماده في إيصال ما أراد هو المطابقتان.

ومن الملامح الفنية البارزة في شعر النمري هو حسن التأني للصورة الشعرية، ودقة اللمح، إلى الفكرة، مما يدل على صدور الشاعر في شعره عن طبع مضمحل، وديهة مديرة. يقول في وصف السيف (١):

يُكفِّيك من قلع السماء مننئد  
 صافي الحديد قد أضرَّ بجسميه  
 وتراه معنئماً إذا جردتسه  
 وكان وقعتته بجمجمة الفتى  
 فوق الدراع ودون بوع البائع (٢)  
 طولُ الدياس ووطن طير جائع (٣)  
 بدم الرجال على الأديم الفاقع  
 خدر المدامة أو نعاس الهاجع

وقد اتضح في الحديث عن شعر ديك الجن الحمصي مدى توافق مذعبه مع مذعب البحري، وبخاصة في اعتنايه بموسيقاه الداخلية، وفي صياغته وسهولة لفظه وعذوبته.

(١) من القصيدة ٢٦، ص ١٠٨.

(٢) البوع هو البائع.

(٣) الدياس: الصقل.

وإذا انضاف إلى كل ما سبق بيانه حديث أصحاب كتب التراجم عن علاقة التلميذ والأستاذية بين أبرز شعراء الشام في هذه الحقبة كتلميذ منصور النمري على العتابي ، وتلميذ أبي تمام على دينك الجن ، وتلميذ البحري على أبي تمام ، اتضح أن تلك الخصائص العامة المشتركة للشعر الشامي كانت وليدة تلك العلاقة ، وإن ظل بعد ذلك لكل شاعر منهم ملامحه وخصائصه خارج إطار هذه السمات العامة المشتركة .

ثبت المصادر والمراجع

أولا : الكتب :-

- الآمدي ، أبو القاسم الحسن بن بشر :-  
الموازنة بين شعرا أبي تمام والبحتري ، تحقيق أحمد صقر ، دار المعارف  
بمصر ، ١٩٦١ م .
- ابن الأثير ، علي بن محمد :-  
الكامل في التاريخ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٨ م .
- ابن الأثير ، نصر الله بن محمد :-  
المثل السائر ، تحقيق د . أحمد الحوفي ود . بدوي طبانة ، ط ١ ،  
مكتبة نهضة مصر ومطبعته .
- إحيان عباس :-  
هدد الحميد الكاتب وما تبقى من رسائله ، دار الشروق للنشر والتوزيع ،  
عمان ١٩٨٨ م .
- أحمد زكي صفوت :-  
جمهرة رسائل العرب ، ط ١ ، مطبعة البابي الحلبي ، ١٩٣٧ م .
- الإدريسي :-  
نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، نشر معهد اللغات الشرقية ،  
نابلي .
- الأزدي :-  
تاريخ الموصل ، تحقيق د . علي حبيبة ، نشر لجنة إحياء التراث  
الإسلامي ، القاهرة ، ١٩٦٧ م .

- أسامة بن منقذ : —  
المنازل والديار ، تحقيق د . مصطفى حجازي ، لجنة إحياء التراث ، القاهرة ، ١٩٦٨ م .
- الإصطخري : —  
مسالك العمالك ، نسخة مصورة عن مطبعة بريسل ، ليدن ، ١٩٦٧ م .
- الأصفهاني ، محمد بن داود : —  
الزهرة ، تحقيق د . إبراهيم السامرائي ، ط ٢ ، مكتبة المنار ، الزرقاء ، الأردن ، ١٩٨٥ م .
- الأضمرني : —  
الأضمرنيات ، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، ط ٥ ، بيروت ، لبنان ، ١٩٦٧ م .
- ابن أعثم الكوفي : —  
الفتوح ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٦ م .
- د. أمينة البيطسار : —  
الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ، دمشق ، ١٩٨٠ م .
- الأنطاكي ، داود : —  
تزيين الأسواق في أخبار العشاق ، منشورات حمد ومحيو ، بيروت ، ١٩٧٢ م .
- البحري : —  
ديوان البحري ، تحقيق حسن كامل الصرفي ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٢ م .
- حماسة البحري ، تعليق كمال مصطفى ، المطبعة الرحمانية ، مصر ، ١٩٢٩ م .



- البخاري :-  
التاريخ الكبير ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- بروكلمان :-  
تاريخ الأدب العربي ، ترجمة عبد الحليم النجار ، دار المعارف  
بمصر ، ١٩٦١ م .
- البستاني ، محمد بن حبان :-  
مشاهير علماء الأنصار ، تصحيح م . فلايشهر ، مطبعة لجنة  
التأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٥٩ م .
- البسيوي :-  
المعرفة والتاريخ ، تحقيق أكرم ضياء العمرى ، ط ٢ ، مؤسسة  
الرسالة ، ١٩٨١ م .
- البصري ، أبو الفرج :-  
الحماسة البصرية ، نشره د . مختار الدين أحمد ، طبعة مجلس  
دائرة المعارف العثمانية ، حيدرآباد الدكن ، الهند ، ١٩٦٤ م .
- البكري ، أبو عبيد :-  
معجم ما استعجم ، تحقيق مصطفى السقا ، مطبعة لجنة التأليف  
والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥١ م .
- سمط اللاكسي ، تحقيق عبد العزيز الميني الراجكوتي ، مطبعة  
لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٦ م .
- البلاذري :-  
فتوح البلدان ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع ،  
دار النشر للجامعيين ، بيروت ، ١٩٥٨ م .

- البلسوي ، أبو محمد المديني : -  
سيرة أحمد بن طولون ، حققها محمد كرد علي ، مطبعة الترقسي ،  
دمشق ، ١٩٢٩ م .
- ابن تغري بردي ، جمال الدين أبو المحاسن : -  
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب  
المصرية .
- التمحيري : -  
التاريخ المنسوب لديانيسوس ، ترجمة إسحاق يوسف متسي ، رسالة دكتوراة  
غير منشورة ، الجامعة الأمريكية ، بيروت ، ١٩٨٢ م .
- أبو تمام : -  
ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ، تحقيق د . محمد عبده عزام ، ط ٤ ،  
دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٦ م .
- الوحشيات ( الحماسة الصغرى ) ، تحقيق عبد العزيز المينسي ،  
دار المعارف ، مصر ، ١٩٨٢ م .
- حماسة أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ، تحقيق محمد محيي الدين  
عبد الحميد ، مطبعة حجازي ، القاهرة .
- التوخسي ، القاضي أبو علي المحسن : -  
الفرج بعد الشدة ، تحقيق عبود الشالجي ، دار صادر ، بيروت ،  
١٩٧٨ م .
- التيفاشي ، أبو العباس : -  
سرور النفس بمدارك الحواس الخمس ، تحقيق د . إحسان عباس ،  
المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٠ م .

- الثعالبي : —  
بثيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد،  
ط ٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٣م.
- ثمار القلوب في الضاف والمنسوب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم،  
دار المعارف، مصر، ١٩٨٥م.
- الجاحظ : —  
البيان والتهيئين، تحقيق عبد السلام هارون، ط ٢، مكتبة الخانجي،  
بصر والمثنى ببغداد، ١٩٦٠ - ١٩٦١م.
- ابن الجراح : —  
الورقة، تحقيق د. عبد الوهاب عزام وعبد الستار أحمد فراج،  
ط ٢، دار المعارف بمصر.
- ابن الجوزي : —  
غاية النهاية في طبقات القراء، شرح برجستراسر، ط ٢، دار الكتب  
العلمية، بيروت، ١٩٨٠م.
- النشر في القراءات العشر، تصحيح علي محمد الضباع، مطبعة  
مصطفى محمد.
- الجهشياري : —  
السوزا والكتاب، حققه مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ  
شلبسي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٢٨م.
- الجواليقي، أبو منصور : —  
المعرب من الكلام الأجنبي، تحقيق أحمد محمد شاكر، مطبعة دار  
الكتب المصرية، ١٣٦١هـ.

- ابن الجوزي :-  
صفة الصفوة ، تحقيق محمود فاخوري ، ومحمد رواس ، قلعة جبي ،  
ط ٢ ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٨٥ م .
- ابن أبي الحديد :-  
شرح نهج البلاغة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار  
إحياء الكتب العربية ، القاهرة .
- ابن حزم :-  
جمهرة أنساب العرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٣ م .
- الحصري :-  
زهر الآداب ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ط ١ ، دار إحياء  
الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٣ م .
- ابن حوقل :-  
صورة الأرض ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت .
- الخريسي :-  
ديوان الخريسي ، تحقيق علي جواد الطاهر ومحمد المعبيد ،  
دار الكتاب الجديد ، ١٩٧١ م .
- الخزرجي ، عز الدين :-  
شرح المضمون به على غير أهلته ، شرح عبيد الله الكافي العبيدي ، مكتبة  
دار البيان ، بغداد ، دار صعب ، بيروت .
- الخطيب البغدادي :-  
تاريخ بغداد ، مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٣١ م .

- ابن خلدون :-  
كتاب العبر ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، بيروت .
- ابن خلكان ، أبو العباس :-  
وفيات الأعيان وأنباؤهم ، الزمان ، تحقيق د . إحسان عباس ،  
دار الثقافة ، بيروت ، لبنان .
- خليل مردم بك :-  
الشعراء الشاميون ، تحقيق عدنان مردم بك ، دار صادر ،  
بيروت .
- دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة أحمد الشنتاوي ومحمد ثابت الغندي ، وعبد  
الحميد يونس ، وإبراهيم زكي خورشيد ، مصر ، ١٩٢٣ م .
- الداودي ، شمس الدين محمد بن علي :-  
طبقات المفسرين ، تحقيق د . علي محمد عمر ، مكتبة وهبة ،  
القاهرة ، ١٩٧٢ م .
- ابن الدانسي :-  
التيسير في القراءات السبع ، تصحيح أوتوبرتزل ، مطبعة الدولة ،  
إستانبول ، ١٩٣٠ م .
- ابن دريد ، أبو بكر محمد بن الحسن :-  
الاشتقاق ، ط ٢ ، تحقيق عبد السلام هارون ، منشورات مكتبة  
الثنائي ، بغداد ، ١٩٧٩ م .
- الدميري :-  
هياة الحيسوان الكبرى ، يليه عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقرظيني ،  
ط ٣ ، مصطفى البأبي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٥٦ م .

- ديك الجن الحمصي :-  
- ديوان ديك الجن الحمصي ، جمعه عبد المعين الملوحي ومحيي الدين  
الدرويش ، مطابع الفجر الحديثة ، حنص ، ١٩٦٠ م .
- ديوان ديك الجن ، جمعه د . أحمد مطلوب ود . عبد الله الجبوري ،  
دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٤ م .
- الذهبي ، شمس الدين الذهبي :-  
- سير أعلام النبلاء ، ( الأجزاء من ٨ - ١٦ ) حققها شعيب  
الأرنؤوط ، وكامل الخراط ، ومحمد نعيم العرقسوسي وآخرون ، ط ٢ ، مؤسسة  
الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٢ - ١٩٨٣ م .
- العبرني خبر من خبر ، تحقيق د . فؤاد سعد ، الكويت  
١٩٦١ م  
مِيزَان الاعتدال ، تحقيق علي محمد الجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٦٤ م
- الإمام الرازي :-  
- الجرح والتعديل ، ط ١ ، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ،  
حيدرآباد الدكن ، الهند .
- ابن رشيقي القيرواني :-  
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق محمد  
محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨١ م .
- ابن الرومي :-  
- ديوان ابن الرومي ، تحقيق د . حسين نصار ، المصرية العامة للكتاب ،  
القاهرة ، ١٩٨١ م .
- الزيبي :-  
- تاج العروس ، دار ليبيا للنشر والتوزيع ، بنغازي .

- أبو زرعة الدمشقي :-  
تاريخ أبي زرعة الدمشقي ، دراسة د . شكر الله بن نعمة الله القوجاني  
وتحقيقه ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، القاهرة .
- د. زكي المحاسني :-  
شعر الحرب في أدب العرب ، دار الفكر العربي ، القاهرة ،  
١٩٤٧ م .
- الزمخشري :-  
ربيع الأبرار ونصوص الأخبار ، تحقيق د . سليم النعيمي ، مطبعة  
العاني ، بغداد ، ١٩٨٢ م .
- ابن زنجلة :-  
هجرة القسرات ، تحقيق سعيد الأفغاني ، منشورات جامعة  
بنغازي ، ١٩٧٤ م .
- الزوزني :-  
شرح المعلقات السبع ، ضبطه محمد علي حمد الله ، المطبعة التعاونية ،  
دمشق ، ١٩٦٣ م .
- ابن سعد :-  
الطبقات الكبرى ، دار صادر ، بيروت .
- ابن سعيد الأندلسي :-  
المغرب في حلى المغرب ( الجزء الخاص بمصر ) ، تحقيق زكي محمـ  
حسن ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ، ١٩٥٣ م .
- ابن سلام الجمحي ، محمد بن سلام :-  
طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود محمد شاكر ، مطبعة  
المدني ، القاهرة ، ١٩٧٤ م .

السلمي :-

طبقات الصوفية ، تحقيق د . نور الدين شريعة ، دار الكتاب

النفيس ، حلب ، ١٩٨٦ م .

السمعاني ، أبو سعد :-

الأنساب ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدرآباد

الدكن ، الهند ، ١٩٨١ م .

د. سهيل زكار :-

أخبار القرامطة ، ( مستل من كتاب بغية الطلب لابن العديم ) ، ط ٢ ،

دار حسبان ، ١٩٨٢ م .

د. سيده كاشف :-

أحمد بن طولسون ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ، القاهرة .

السيوطي :-

طبقات الحفاظ ، تحقيق علي محمد عمر ، مطبعة الاستقلال ، القاهرة ، ١٩٧٣ م .

تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة

بمصر ، ١٩٥٢ م .

الإتقان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة

المشهد الحسيني ، القاهرة ، ١٩٦٧ م .

بغية الوعاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي

الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٤ م .

المزهر في علوم اللغة ، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي

ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة .

د. شاکر المصطفى :-

التاريخ العربي والمؤرخون ، ط ١ ، دار العلم للملايين ، بيروت ،

١٩٧٩ م .



- ابن شاكر الكلبى : -  
لغات الوفيات ، تحقيق د . احسان عباس ، دار صادر ، بيروت .
- ابن الشجرى : -  
الحماسة الشجرية ، تحقيق عبد المعين الملوحى وأسماء الحمصى ،  
منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٧٠ م .
- ابن الشحنة الحلبى : -  
الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب ، علق عليه يوسف الياس سركىسى ،  
المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٠٩ م .
- ابن شداد : -  
الافلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق د . سامى  
الدهان ، دمشق ، ١٩٥٦ م .
- الشمياطى : -  
الأنوار ونحاسن الأشعار ، تحقيق د . محمد يوسف ، وزارة الإعلام  
الكويتية ، ١٩٧٧ م .
- ابن شهرا شوب المازندرانى : -  
معالم شعراء الشيعة ، المطبعة الحيدرية ، النجف ، ١٩٦١ م .
- الشهرستانى : -  
الطل والنحل ، تحقيق محمد سيد كيلانى ، دار المعرفة ، بيروت ،  
١٩٨٤ م .
- دشوقى ضيف : -  
الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، ط٤ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٠ م .
- الشيرازى : -  
جبهة الإسلام ذات النثر والنظام ، طبع بالتصوير عن المخطوطة رقم  
٢٨٧ بمكتبة ليدن ، هولندا ، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية الإسلامية ، جامعة  
فرانكفورت ، ألمانيا الاتحادية .

- الصفدي ، صلاح الدين خليل بن ابيك : —  
— الوافي بالوفيات (الأجزاء ٣ - ٥) ، نشرت باعتنا ، هلموت ريتز ، وس .  
ديدرنغ ، ط ٢ ، دار النشر فرانز شتاينر ، فيسبادن ، ١٩٥٩ ، ١٩٧٠ م .
- تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ،  
مصر ، ١٩٥٩ م .
- نكت الهميان في نكت العميان ، وقف على طبعه أحمد زكي بك ، المطبعة  
الجمالية ، القاهرة ، ١٩١١ م .
- الصولي ، أبو بكر محمد بن يحيى : —  
— أخبار أبي تمام ، شرح د . خليل محمود عساكر ، ومحمد عبده عزام ، نظير  
الإسلام الهندي ، ط ١ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٧ م .
- أخبار البحري ، تحقيق د . صالح الأشر ، ط ٢ ، دار الفكر ،  
دمشق ، ١٩٦٤ م .
- (الجزء ١) أخبار الشعراء المحدثين ، نشره ج . هيورث دن ، ط ٢ ، دار المسيرة ،  
بيروت ، ١٩٧٩ م .
- (الجزء ٢) أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم ، نشره ج . هيورث دن ، مطبعة الصاوي ،  
مصر ، ١٩٣٦ م .
- الأوراق ، تحقيق ج . هيورث دن ، دار المسيرة ، بيروت ، ١٩٧٩ م .
- ابن طباطبا الملووي : —  
— عيار الشعراء ، تحقيق د . طه الحاجوي ، ود . محمد زغلـول  
سلام ، المكتبة التجارية ، القاهرة ، ١٩٥٦ م .
- الطبري ، محمد بن جرير : —  
— تفسير الطبري ، طبعة المطبعة الكبرى الأميرية ، بولاق ، ١٣٢٩ هـ .
- تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ،  
مصر ، ١٩٦٦ م .

- ابن طولون :-  
الشعر البسام في ذكر من ولي القضاء بالشام ، تحقيق د. صلاح الدين المنجد ، مطبوعات المجمع العلمي العربي ، دمشق ، ١٩٦٠ م .
- ابن طيفور :-  
كتاب بغداد ، نشر عزت العطار الحسيني ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٤٩ م .
- ابن عبد ربه :-  
العقد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، مصر ، ١٩٤٠ م .
- عبد الرحيم العباسي أبو الفتح :-  
معاهد التنصيص ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٤٧ م .
- عبد القادر البغدادي :-  
خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٨ م .
- د. عبد القادر الرباعي :-  
الصورة الفنية في شعر أبي تمام ، ط ١ ، جامعة اليرموك ، إربد ، ١٩٨٠ م .
- العبيدي ، محمد بن عبد الرحمن :-  
التذكرة السعدية في الأشعار العربية ، تحقيق د. عبد الله الجبوري ، دار العربية للكتاب ، ليبيا ، تونس .
- ابن العديم :-  
بغية الطلب ( الجزء الأول ) ، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية الإسلامية ، طبعة مصورة عن نسخة آيا صوفيا ، فرانكفورت .

- بغية الطلب (الأجزاء: ٢، ٤، ٨) مصورة الجامعة الأردنية .
- زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق د. سامي الدعان، دمشق، ١٩٥١م .
- ابن عساکر :-
- تاريخ مدينة دمشق (تراجم حرف العين المتلوة بالألف) ، تحقيق د. شكري فيصل ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق .
- (تراجم النساء) ، تحقيق سكينه الشهابي ، ط١ ، دمشق ، ١٩٨٢م .
- (الجزء الأول) ، تحقيق د. صلاح الدين المنجد ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق .
- (الجزء السابع) ، تحقيق د. عبد الغني الدقر ، ومطاع الطرابيشي ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق .
- (تراجم حرف العين عبد الله بن جابر - عبد الله بن زيد) ، تحقيق سكينه الشهابي ، ومطاع الطرابيشي ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٨١م .
- مصورة تاريخ مدينة دمشق (٢ - ١٨) ، دار البشير للنشر والتوزيع ، ١٩٨٩م .
- تهذيب تاريخ مدينة دمشق ، عمده عبد القادر بدران ، مطبعة روضة الشام ، ١٢٢٢ هـ .
- ابن العماد الحنبلي :-
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ط٢ ، دار المسيرة ، بيروت ، ١٩٧٩م .
- عمرضا كحالة :-
- معجم قبائل العسرب ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ، ١٩٤٩م .

- د. عمر موسى باشا : -  
الأدب في بلاد الشام والجزيرة في العصر الإسلامي وحتى نهاية العصر  
العباسي ، ط ١ ، طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق ، ١٩٨٦ م .
- عمر بن يوسف بن رسول : -  
طرفه الأصحاب في معرفة الأنساب ، حققه ك . و . سترستين ، مطبوعات  
المجمع العلمي العربي ، دمشق ، ١٩٤٩ م .
- العميد : -  
الإبانة عن سرقات المتنبي ، تحقيق د . إبراهيم الدسوقي البساطي ،  
دار المعارف بمصر ، ١٩٦١ م .
- فازليــــــــــــــــف : -  
العرب والسوروم ، ترجمة د . محمد عبد الهادي شعيرة ، دار الفكر  
العربي ، القاهرة .
- د. فتحي عثمان : -  
الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري ،  
دار الكاتب العربي ، القاهرة .
- أبو الفــــــــــــــــدا : -  
المختصر في تاريخ البشر ، دار المعرفة ، بيروت .
- أبو الفرج الأصفهاني : -  
الأغانيسي ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، مؤسسة جمال للطباعة  
والنشر ، بيروت .
- مقاتل الطالبين ، شرحه وحققه أحمد صقر ، دار إحياء الكتب  
العربية ، القاهرة ، ١٩٤٦ م .
- فيليب حــــــــــــــــتي : -  
تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة كمال اليازجي ، دار الثقافة ، بيروت .

- القاضي الجرجاني ، علي بن عبد العزيز: -  
الوساطة بين المتني وخصومه ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلي محمد  
البجاوي ، ط ٢ ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة .
- قدامة بن جعفر: -  
نقد الشعراء ، تحقيق كمال مصطفى ، ط ٢ ، منشورات مكتبة الخانجي  
بمصر ، ومكتبة المثنى ببغداد ، ١٩٦٣ م .
- الخراج وصناعة الكتابة ، شرحه وحققه د . محمد حسين الزبيدي ، دار  
الرشيد للنشر ، وزارة الإعلام العراقية ، بغداد ، ١٩٨١ م .
- القشيري ، أبو علي محمد بن سعيد: -  
تاريخ الرقة ، تحقيق طاهر النعلسي ، مكتبة صبحي المصري ، حماة .
- القفطي ، جمال الدين: -  
أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، تصحيح محمد أمين الخانجي ، مطبعة  
السعادة ، القاهرة ، ١٣٢٦ هـ .
- المحمدون من الشعراء ، تحقيق د . حسن معمري ، منشورات دار اليمامة  
للبحث والترجمة ، الرياض ، ١٩٧٠ م .
- القلقشندي: -  
قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، تحقيق إبراهيم الأبياري ،  
ط ٢ ، دار الكتب الإسلامية ، القاهرة ، بيروت ، ١٩٨٢ م .
- ابن كثير: -  
الهداية والنهاية ، مكتبة المعارف ، بيروت ، مكتبة النصير ،  
الرياض ، ١٩٦٦ م .
- تفسير القرآن العظيم ، دار المعرفة ، بيروت .

- الكندي ، محمد بن يوسف : -  
ولاية مصر ، تحقيق د . حسين نصار ، دار بيروت ، دار صادر ،  
بيروت ١٩٥٩ م .  
الولاية وكتاب القضاة ، هذبه رفن كست ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ،  
لسترنج : - ١٩٠٨  
بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة وتعليق بشير فرانسيس وكوركيس عواد ،  
ط ٢ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٥ م .  
ابن ماكولا : -  
الإكمال في رفع الارتباب عن المؤلف والمختلف من الأسماء والكنى والألقاب ،  
صححه عبد الرحمن بن يحيى العملي ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر  
آباد الدكن ، الهند ، ١٩٦٢ م .  
المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد : -  
الكامل في اللغة والأدب ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، والسيد شحاتة ،  
دار نهضة مصر للطبع والنشر .  
متر ، آدم : -  
الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة د . محمد عبد الهادي  
أبوريدة ، ط ٢ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٧ م .  
( مجهول ) : -  
محاسن المساعي في مناقب الإمام الأوزاعي ، نقحه وعلق عليه الأمير شكيب  
أرسلان ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، مصر .  
محمد كرد علي : -  
رسائل البلغاء ، ط ٢ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ،  
القاهرة ، ١٩٤٨ م .

- خطط الشام ، ط٢ ، بيروت ، ١٩٦٩ م .
- فوطه دمشق ، ط٢ ، مطبعة المجمع العلمي العربي ، دمشق ، ١٩٥٢ م .
- العرزاني : -
- معجم الشعراء ، تصحيح روف كرنكو ، ط٢ ، مكتبة القدسي ، بيروت ، ١٩٨٢ م .
- معجم الشعراء ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٠ م .
- الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار نهضة مصر ، ١٩٦٥ م .
- أخبار شعراء الشيعة ، تلخيص محسن الأمين العاملي ، تحقيق محمد عادي الأميني ، المطبعة الحيدرية ، النجف ، ١٩٦٨ م .
- المرزوق : -
- شرح ديوان الحماسة ، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون ، ط١ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥١ م .
- مروان بن أبي حفص : -
- شعر مروان بن أبي حفص ، جمعه وحققه د حسين عطوان ، دار المعارف بصر ، القاهرة ، ١٩٧٢ م .
- المسعودي : -
- التنبيه والإشراف ، مكتبة خياط ، بيروت ، ١٩٦٥ م .
- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط٢ ، مطبعة السعادة ، بصر ، ١٩٥٨ م .



- المسعودي ، علي نور الدين : -  
المختار من قطب السرور في أوصاف الأئمة والخمور ، تحقيق د . عبد الحفيظ منصور ، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله ، المطبعة الرسمية ، تونس ، ١٩٧٦ م .
- مسلم بن الوليد : -  
ديوان مسلم بن الوليد ، صريح الخواني ، تحقيق د . سامي الدهان ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٨ م .
- ابن المعتز : -  
طبقات الشعراء المحدثين ، تحقيق عبد الستار فراج ، ط ٣ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٦ م .
- المعري ، أبو العلاء أحمد بن الحسين التنوخي : -  
هيك الوليد ، تحقيق د . ناديا علي الدولة ، دمشق ، ١٩٧٨ م .
- رسالة الغفران ، تحقيق د . بنت الشاطئ ، ط ٤ ، دار المعارف بمصر .
- ابن معين ، أبو زكريا يحيى بن معين : -  
معرفة الرجال ، تحقيق د . محمد كامل القصار ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٨٥ م .
- المفضل الضبي : -  
المفضليات ، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ، ط ٣ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٤ م .
- المقدسي ، شمس الدين أبو عبد الله : -  
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، نسخة مصورة عن الطبعة الثانية ، بريل ، ١٩٠٦ ، مكتبة خياط ، بيروت .

- المقدسي ، مطهر بن طاهر — : —  
البدن والتاريخ ، نشر كلمان عوار ، باريس ١٩١٦ م .
- المقري : —  
نسخ الطيب ، تحقيق د . إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ،  
١٩٦٨ م .
- دملكة أبي — : —  
التربية والثقافة العربية الإسلامية في الشام والجزيرة خلال القرون الثلاثة  
الأولى للهجرة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٠ م .
- المنبجي ، أغا بيوس : —  
المنتخب من تاريخ المنبجي ، حققه د . عمر عبد السلام تدمري ، دار  
النصور ، طرابلس ، لبنان ، ١٩٦٦ م .
- منصور النمري : —  
شعر منصور النمري ، جمعه الطيب العشاش ، دار المعارف للطباعة ،  
دمشق ، ١٩٨١ م .
- ابن منظور : —  
لسان العرب .
- نجيب محمد البهيتي : —  
أبو تمام الطائي حياته وحياته شعوره ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ،  
المغرب ، ١٩٨٢ م .
- ابن النديم : —  
الفهرست ، نسخة مصورة عن طبعة دار المعارف بمصر .

- نصرت عبد الرحمن : —  
شعر المراع مع الروم في ضوء التاريخ ، مكتبة الأقصى ، ط ١ ، عمان ،  
١٩٧٧ م .
- أبو نعيم الأصبهاني : —  
حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- النعماني : —  
فضاة دمشق ، مطبوع مع الثغر البسام في ذكر من ولي قضا الشام ،  
تحقيق د . صلاح الدين المنجد ، مطبوعات المجمع العلمي العربي ، دمشق ، ١٩٥٦ م .
- أبو نواس : —  
ديوان أبي نواس ، تحقيق إيفالد فاغنز ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة  
والنشر ، مصر ١٩٥٨ م .
- أبو هلال العسكري : —  
ديوان المعاني ، مكتبة القدسي ، القاهرة ، ١٣٥٢ هـ .
- كتاب الصناعتين ، تحقيق علي محمد الجاوي ، ومحمد أبو الفضل  
إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٢ م .
- الهمداني ، أبو محمد الحسن : —  
صفة جزيرة العرب ، مطبعة بريل ، لندن ، ١٩٦٨ م .
- وكيع بن الجراح : —  
أخبار القضاة ، نسخة مصورة عن طبعة القاهرة ١٣٦٦-١٣٦٩ هـ .
- اليانعي : —  
مرآة الجنان وهجرة اليقظان ، ط ٢ ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ،  
بيروت ، ١٩٧٠ م .

- ياقوت الحموي :-  
- معجم الأديبنا ، نسخة مصورة عن نسخة عيسى البايي الحلبي ، دار  
إحياء التراث العربي ، بيروت .  
- معجم البلدان .  
- اليعقوبي :-  
• تاريخ اليعقوبي ، دار صادر ، بيروت .  
- ابن أبي يعلى :-  
• طبقات الحنابلة ، دار المعرفة ، بيروت .  
- ديوسف بكار :-  
• شعر ربيعة الرقي ، جمع وتحقيق ودراسة ، ط ٢ ، دار الأندلس ،  
بيروت ، ١٩٨٤ م .  
- أبو يوسف (القاضي) :-  
• الرد على سير الأوزاعي ، تصحيح أبي الوفاء الأفعاني ، لجنة إحياء  
المعارف النعمانية ، حيدرآباد الدكن ، الهند .  
- الخضر ، تحقيق د . إحسان عباس ، دار الشروق ، بيروت ،  
١٩٨٥ م .

ثانياً: المجلات :-

(١) د. إحسان عباس:

عهد الملك بن مروان ودوره في ثقافة عصره ، مجلة دراسات ، المجلد  
١٣ ، العدد الأول ، الجامعة الأردنية ، عمان ، ١٩٨٦ م .

(٢) خليل مردم بك :-

شعراء الشام في القرن الثالث الهجري ، مجلة المجمع العلمي العربي ،  
المجلد الخامس ، دمشق ، ١٩٢٥ م .

(٣) د. ناصر حلاوي :-

العتابي حياته وما تبقى من شعره ، مجلة الريسند ، السنة  
الثانية ، العدد الثالث ، جامعة البصرة ، ١٩٦٩ م .

(٤) لؤي شيخو :-

تحقيق تاريخ بيروت لمالغ بن يحيى ، مجلة المشـرق ،  
المجلد الأول ، ١٨٩٨ م .

- 1) Poetry and the Civil wars .
- 2) Poetry and the Muslim-Byzantine Wars .
- 3) Emotional ( Lyrical ) trends, i.e. Ghazal(Love-Poetry), Eulogy , Elegy etc .
- 4) The Study of six Syrian-Mesopotamian representative Poets .

In the Epilogue the question of the distinguishing traits of a ' Syrian Poetical School ' was attempted. In fact no independent qualities were discovered . In general the poetry of that period has almost the same traits of Arabic Poetry elsewhere. Yet it is not worthy that most of the poetry was the product of cities such as Damascus, Emesa, Antioch and Raqqa and not of the provincial areas. Further discoveries may clarify more aspects of that poetry; but this means to wait new hitherto unknown poetical and historical works .

٢٩٧٢٥٢